

# تتوقفي

صداقة أربعين سنة



تتكيب أرسلان



# شوقي

صداقة أربعين سنة

تأليف  
شكيب أرسلان



الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة

تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلي يسري.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢١٠٧ ٦

صدر هذا الكتاب عام ١٩٣٦

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٠

جميع الحقوق الخاصة بتصميم هذا الكتاب وصورة الغلاف مُرَحَّصَة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المَصْنَف-غير تجاري-منع الاشتقاق، الإصدار ٤.٠. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Copyright © 2020 Hindawi Foundation.

All rights related to design and cover artwork of this work are licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License. All other rights related to this work are in the public domain.

<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>

## المحتويات

٧	مقدمة
٩	زيارتي الأولى لمصر
١٣	أول ما قرأت لشوقي
١٧	اجتماعنا الأول في باريس
٢١	صداقة ومكاتبات
٢٥	معارضات
٣٣	صنعة الشعر وإبداع شوقي فيها
٣٥	انصراف شوقي إلى الشعر
٣٧	القول في مدح الأمراء والملوك
٤١	عَفَّة لسان شوقي وبُعدَه عن الهجاء
٤٥	شوقي في بداية أمره
٤٩	نموذج من رسائل شوقي
٥١	شوقي في سورية
٥٥	جَفْوَة لا سبب لها
٥٧	اجتماع بعد انقطاع
٥٩	حفلة السوق الخيريَّة
٦٣	سَفَر المؤلِّف إلى حرب طرابلس
٦٧	لقاء في باريز بعد الحرب العامة
٧٥	شوقي واليازجي
٩٧	عود إلى شوقي

شوقي

١٠٣	الوداع الأخير
١٠٩	رأي المؤلف في أشعر الشعراء
١١٥	قُبيل وفاة شوقي
١٢١	مَن الذي راضَ شوقي وحافظًا في الشعر
١٣١	أمثال من شعر شوقي

## مقدمة

ما حال حولان على انتقال شوقي — رحمه الله — إلى عالم الخلود حتى رأيت الناس كأنهم قد نسوا أمير الشعراء، ومن عادة الناس أنهم مهما كان الفأنت عظيم القدر تناسوه سريعاً، ونشدوا غيره على حدّ ما قال أحد الشعراء:

في الحال يَعتاضون منه بغيره      ويعودُ ربُّ الحزن غيرَ حزين  
الوردُ كان العندليبُ حليفه      لما انقضى غنى على النسرين

ولكنني أرى مثل شوقي جديراً كلما مضت عليه السنون بأن يزداد حياةً في النفوس، ويعظم قدرًا في الصدور؛ لأن الخلود إنما يكون لمثله وهل المتنبى اليوم أقل حياة بروحه ممّا كان في عصره وهو حيٌّ بجسمه؟ وهل صاحب الشوقيّات التي شرّقت وغرّبت وأحزنت وأطربت ورواها الحادي والعادي وامتلاّت بها الحواضر والبوادي يجوز أن ينساه ناطق بالضاد، أو يزهّد فيه ضارب من الأدب بسهم ولو في برك الغماد؟!

وقد كنتُ لما فُجِعَ الأدب العربي بطيِّ هذه الصحيفة البشرية العبقريّة التي يُقال لها: أحمد شوقي، وعَدْتُ بأن أنشر عنه وعن ذكرياتي معه كتاباً أسميّه «شوقي أو صداقة أربعين سنة» وحالت الأشغال والأسفار وما يتقاذفني من عوامل الأقدار دون إخراج هذا الكتاب الذي لا يزال يحكُّ في صدري، ولما مررت على فلسطين في هذا الصيف قافلاً من جزيرة العرب وتلاقيت مع صديقي سراج العرب وطرّاز الأدب الأستاذ إسعاف النشاشيبي، حفظه الله، وهو من عشّاق أدب شوقي والمولعين بحفظ آثاره وإحياء تذكّاره، استنّجرتني ما كان من وعدي من وضع هذه الرسالة الشوقيّة، ولما اعتذرتُ له بما أنا

## شوقي

فيه من مشاغل ومشائفة أجابني: إن الأليق بوفائك والأخلق بأخلاقك هو أن تُقدّم هذه الرسالة على غيرها من الرسائل، وأن تُبادر بإنجاز وعدِّ وعدته صريحًا في حقِّ صديقك وأخيك الذي نكُرُه عندك مُقدَّس وقَدْرُه لديك مُرَجَّب، فوجدتُ كلامه في محلِّه، وعولت على ألا أَماطل في هذا الدَّين الذي يجب إيفاءه لأهله.



## زيارتي الأولى لمصر

سنة ١٨٩٠ كانت أوّل قدمة لي إلى مصر وكنت بين العشرين والواحدة والعشرين من العمر فمكثت شَيْعَ شهرٍ في الإسكندرية، ثم جِئْتُ إلى مصر وكان أكثر اجتماعنا ذلك الوقت بأستاذنا الإمام الشيخ محمد عبده وبرهطه المعهودين؛ سعد أفندي زغلول وأخيه فتحي، والشيخ علي الليثي والشيخ عبد الكريم سلمان وإبراهيم أفندي اللقاني وحفني أفندي ناصف، والسيد أحمد محمود من الرحمانية، والسيد إبراهيم الوكيل من دمنهور، والشيخ علي يوسف لأوّل ظهور «المؤيد»، وأحمد زكي باشا الذي هو خاتمة مَنْ أتذكّره من رجال تلك الحلقة، رحمهم الله أجمع. وكانت اجتماعاتنا مُتواصلة وأسماونا مُتطاولة ومذاكراتنا للقصي والداني شاملة، ولكننا لم نكن نسمع في ذلك الوقت بشخص يُقال له «شوقي» ولا أَحَسَّسْنَا له رِكْزًا.

ولما برحت مصر كان المرحوم الخديوي توفيق في الإسكندرية، فقال لي أستاذنا الشيخ محمد عبده: إنه لا يكون خطأ، إذا ذهبْتَ إلى سراي رأس التين وودَعْتَ الجنب العالي الخديوي، ونظَّمْتَ له بعض الأبيات؛ لأن من عادة الشعراء أن يُتَجَفوا بشعرهم الملوك. وكان الأستاذ — رحمه الله — لا يُرَغِّبني في الشعر، وما عَهَدْتُهُ أوصاني بنظم شيء إلا مرتين لا غير؛ إحداهما عندما طبعت ديواني المُسمَى «الباكورة»، وهو مجموع ما نظَّمته من سنِّ الرابعة عشرة إلى السابعة عشرة من العمر، فلما اطَّلَع عليه في بيروت قال لي لأبعث منه بنسخة إلى المرحوم عبد الله باشا فكري، وكان من أعزَّ أصدقائه، وأن أبعث مع

## شوقي

النسخة بأبياتٍ تناسب المقام؛ فأرسلتُ نسخةً من الباكورة إلى عبد الله باشا ومعها أبيات لا أتذكرها جميعاً، وليست عندي الآن صورتها، وإنما أذكر منها ما يلي:

بَدَدْتُ النَّاسَ فِي نَظْمٍ وَنَثْرٍ      وَفُقْتُ الخَلْقَ مِنْ بَدْوٍ وَحَضْرٍ  
فكيف يقوم عندك نزر شعر      يُذِيب الرُّعْبَ مِنْهُ كُلَّ شَطْرٍ

ولما كان ديواني إذ ذاك خالياً تقريباً من الغزل والتشبيب أشرتُ إلى هذا المعنى بقولي:

جعلت القولَ في سيفٍ ورُمحٍ      وَعَفْتُ النَّظْمَ فِي قَدِّ وَخَصْرٍ  
فإني عاشقٌ غرر المعالي      ولي نفس فداؤك نفس حر  
إذا فُكِّرْتَ يوماً في كلامٍ      يكون بمدح «عبد الله فكري»

فالتقى عبد الله باشا — رحمه الله — «باكورتي» والأبيات التي تصحبها بأحسن قبول، وأجاب على الشعر بقصيدة من نظمته المنسجم المهلهل رقّةً وسلاسة؛ فهو يقول:

أنت تختال في جبرٍ وجبرٍ      على العشاق لا كبرٍ وكبرٍ  
مُنْعَمَةٌ الشَّبِيبَةُ لَمْ يَرُعْهَا      مشيبٌ في العذار أقام عذري  
لقد وافت على سحرٍ تُريني      بدائع نظمها نفثاتٍ سحر  
ألا حيا رُبِّي بيروت عني      ولبنان الحيا منهل قطر  
بدرٌ يملأ الأرجاء درًّا      ويمزج تُرْبَ أرضيها بتبر  
وحيًا مَنْ بها رُبِّي وحيًا      زمانًا مرًّا فيها غير مر

وأظن هذه القصيدة منشورة في ديوان عبد الله باشا، وهو يُشير إلى تجانفي عن العبث والتشبيب في أبيات أتذكرها:

وإن يلعبُ فما لعبٌ بعيبٍ      لعهد صبًا وشرخٍ شبابٍ عمر  
ولكن تأنف الهَمَمُ العوالي      على رغم الصبا سفسافٍ أمر  
تحرم قُربَ أمرٍ فيه إمر      وتوجب هجرَ كلِّ مقالٍ هُجر

## زيارتي الأولى لمصر

فأما المرة الثانية التي أشار فيها شيخنا بالشعر، فهي عندما ذهبت إلى الإسكندرية قاصداً السفر منها إلى الآستانة، فأوصاني أن أقدم إلى الخديوي توفيق أحياناً؛ فذهبت إلى رأس التين وقابلت المرحوم الخديوي توفيق ولم أنشده الأبيات، وإنما بعد الانصراف دفعتها إلى قلم المعية السنيّة، وما مضى يومان قبل أن أبحر إلى الآستانة حتى رأيت قصيدتي منشورة في جريدة الوقائع المصرية؛ أي جريدة الحكومة الرسمية، وقد كان الأستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان رئيساً لتحرير الوقائع، وكان له قلم سيّال ونثر أشبه بالقطر إذا انثال، فانتهز هذه الفرصة وأورد بمناسبة القصيدة مُقدّمة أوسع فيها هذا الناظم ثناءً وإطراءً، وليس عندي محفوظاً بكثرة ما تناثر من أوراق بين المشرق والمغرب عدد الوقائع الذي فيه هذه القصيدة وإنما أذكر منها ما يلي:

إذن أرقّ أسباب السماء بمصعد  
تُنزل شِعْرَى الأفق في شعر منشد  
من الشكر في سلك القريض المنصد  
ولا عزّ آبائي ولا طاب محتيدي  
أنال بها لُقيا العزيز مُحَمَّد  
ألذُّ كلام قيل بعد التشهد  
ومن لقيّ التوفيق للسير يحمدي  
على البعد نفس تلمس النجم باليد  
لعمرك تذكي الشوق في قلب جلمدي

أقول لنطقي اليوم إن كنت مسعدي  
وانظّم من القول النفيس فرائداً  
إذا أنا لم أوف المكارم حقها  
فلا شغفت لي بالمكارم مَهجة  
ولا بلغت بي رتبة من مكانة  
وأذكر علياه وذكّر محمدي  
عزيز حمدت الدهر عند لقائه  
ولا غرو أن حنّت لتقبيل كفه  
وشاقت له رب الرقائق طلعة

ومنها:

قلوب بني الأيام من كل مقصد  
عليهم لعمري قاعداً كل مرصد

لقد كفّ كفّ الدهر أصمت سهامه  
وردّ جماح الدهر بعد كُرُوره

ومنها:

تميس كحوظ البانة المتأود  
يجد غاية ما تُدن للوصل تُبعد

فدونكها يا غرّة الملك غادة  
ومن رام من إدراك كنهك غايّة

وأخرها:

وإني إذا أهدى العزيز مدائحي      أبوء بصِدْقِ القَوْلِ غير مُفند  
وإلا فما حاولت إدراك غاية      بشعري ولا نَظْمِ القصائد مقصدي

أي لم أنظم هذا الشعر إلا للقيام بفرض الشكر على انعطاف الجناب الخديوي نحوي ولست باغياً على ذلك مكافأة، وبعد أن عرفت شوقي في باريس وتذاكرنا الشعر والشعراء وجدته مُعجَباً بقصيدتي التوفيقية هذه، وقال لي: إنها تركت في ذلك الوقت رنيناً في وادي النيل.

## أول ما قرأت لشوقي

خرجت إذن من مصر في أواخر سنة ١٨٩٠ وأنا لا أسمع بشاعر اسمه شوقي في مصر، وكنت أوانئذ أرسل جريدة الأهرام، وكان صاحب الأهرام يكاتبني كثيراً ويبني كثيراً من الآراء على ملاحظاتي وإذا أرسلت إليه بمقالة جعل عنوانها «لأحد الأفاضل السياسيين»، فإذا راجع القارئ أهرام سنة ١٨٩٠ والتي بعدها وجد بقلم «أحد الأفاضل السياسيين» فصلاً سياسية كثيرة، وبينما كنت أطلع الأهرام في ذات يوم وقع نظري على أبيات لامية في مدح الخديوي توفيق فيما أذكر قال عنها الأهرام إنها من نظم «أحمد أفندي شوقي»، ولما كان هذا الناظم مجهولاً عندي لم أشأ أن أضيّع وقتي بقراءة تلك الأبيات فلم أعلم منها كثيراً ولا قليلاً، إلا أنه لم يطل الأمر حتى قرأت شعراً آخر لهذا الذي يُقال له أحمد أفندي شوقي، فجزيت هذه المرة أن أقرأه فلما قرأته لم أمجّه ووجدته من الشعراء الذين يُقال فيهم «من حقه أن تسمعه»؛ فقد قالوا كما لا يخفى:

الشعراء في الزمان أربعة      فشاعر يجري ولا يجزى معه  
وشاعر ينشد وسط المعمعة      وشاعر من حقه أن تسمعه  
وشاعر من حقه أن تصفّعه

ولم يطل الأمر أيضاً حتى قرأت لأحمد شوقي هذه القصيدة الآتية في مديح الجناب الخديوي:

إن الوشاة وإن لم أحصهم عددا      تعلّموا الكيد من عينيك والفندا  
لا أخلّف الله ظني في نواظرهم      ماذا رأيت بي ممّا يبعث الحسدا

هم أغضبوك فراح القدُّ مُنْثِنِيًّا  
 وصادفوا أذناً بيضاء لِيِنَّةً  
 لولا احتراسي من عينيك قلت ألا  
 الله في مهجة أَيْتَمَّتْ واحدها  
 وروح صبُّ أطال الحبُّ غرَّتْها  
 دع المواعيد إنِّي متُّ من ظمأً  
 بالله رد على العباس شاعره  
 مَنْ للعزیز يناجي روض نعمته  
 والجفن مُنْكَسِرًا والخذ مُتَّقِدا  
 فأسمعوها الذي لم يُسْمِعُوا أحدا  
 فانظر بعينيك هل أبقيت لي جَلدا  
 ظلماً وما اتَّخَذت غير الهوى وكدا  
 يخاف إن رجعت أن تُنْكَرَ الجسدا  
 وللمواعيد ماءً لا يبُلُّ صدى  
 بنظرة واتخذها في الزمان يدا  
 إن أسكت الدهرُ هذا الطائر الغردا

إلى آخر ما قال في ذلك اليوم. فتَلَوْتُ القصيدة من أولها إلى آخرها ومن شدّة ما طرِبْتُ لها أعدتُ قراءتها مرارًا، وعلمت أن هناك شاعرًا مطبوعًا وأيقنت أن في تلك المغارة أسدًا، وصِرْتُ كلِّما عثرتُ على شعر لأحمد شوقي أتهافت عليه تهافت الظمان على نَمير الماء؛ لأنني رأيت فيه الشاعريّة بجميع شروطها: النَّسْجُ الرقيق المتين، والأسلوب الرشيق الرصين، اللغة العربية الفصحى التي لا تُؤْتَى من جهة والمعنى المتناهي في الدقة اللابس من اللفظ أجمل حُلَّةً، والانسجام المُطَرَّد من الأول إلى الآخر في سكب واحد وسبك متوارد، فعند ذلك حكمت بأن هذا الشاعر سيكون من شعراء العصر وإن لم أصل في الحكم إلى أنه سيكون أمير شعراء العصر، وأذكر الآن أني كنت اطلّعت له على قصيدة قبل هذه في مدح الخديوي توفيق يهنّئه فيها بشهر الصيام لم تكن أقلّ رِقَّةً وانسجامًا من القصيدة الدالية المارّ نِكْرُها، وهي التي يقول فيها:

يا حُسْنَه بين الحسان  
 كالبدر تأخذه العيو  
 ملك الجوانح والفقوا  
 ومناي منه نظرة  
 فيها يزكّي حسنه  
 خلّوه يعدل أو يجو  
 حق الدلال لمن له  
 يا أصْغَرِي بأيّ آ  
 في شكله إن قيل بان  
 نُ وما لهنّ به يدان  
 د ففي يديه الخافقان  
 فعسى يشير الحاجبان  
 من لا له في الحسن ثان  
 رُ فإنّه ملك العنان  
 في كلّ جارحة مكان  
 لاء العزیز تكذبان

## أول ما قرأت لشوقي

ملك يده بالندی  
الناس تشتط الغنى  
ماضي الإشارة والبدید  
قالت له الآباء كنْ  
ولمَجِدِه من نفسه  
وكذا معالي الملك تالِدُ  
عوذت ملكك يا أبا الـ  
ملك بَعْدَلكِ آمِن  
مولاي حُبُّك مذهب  
الناس فيه أئمة  
يا خیرَ مَنْ شَهد الهلا  
بشراك بالشهر الذي  
تسعى الموالى فيه مز  
هذا هو السهل المنید  
قدرته ووزنته  
وبعثته لك مدحة  
آیات حمدٍ فیک تَرُ  
والله ما كذب الفؤا

لعفاته مبسوطتان  
وعلى مكارمه الضمان  
هه والعزيمة والجنان  
في المجد ما كنَّا فکان  
نَجْمُ تسامى عن مدان  
ها بطارفها يُزان  
عباس بالسبع المثنان  
والعَدْلُ عنوان الأمان  
مَنْ لا یَدین به یدان  
وأبو حنیفتها الزمان  
ل وخیرَ مَنْ سَمِعَ الأذان  
لك فيه عند الله شان  
لفة لعليک التهان  
ع فهل سمعت عن ابن هان  
ونظمته نَظْمَ الجُمان  
تجلو مناقبک الحسان  
جَمَّها عن القلب اللسان  
دُ ولا أشطُّ الترجمان

فعندما قرأت هذه القصيدة وجدتها من النوع المرقص الذي لا يقع نظر أديب عليه إلا اهتزَّ طربًا وراح نشوان، وكما قال هو عن نفسه كانت أبياته هذه من السهل المُنتَبِع؛ أشبه بشعر البهاء زهير لو اندمجت في ديوانه، ولم يقل أحد لقارئ الديوان إنها من نظم شوقي لكانت حقيقة بشعر البهاء زهير لا تَقِلُّ عنه شيئًا، ولو سمعها الحسن بن هانئ لارتضاها لنفسه ولم يتكبر عليها. أما ابن هانئ الأندلسي الذي قال فيه المعري إن شعره أشبه برحى تطحن قرونًا فإنه بعيد عن هذا الأسلوب بُعد الشرق عن الغرب.

ومذ ذاك الوقت صرنا نترقب قصائد شوقي رغبة الصائم هلال العيد، ونعلم أنه سيكون الشاعر الذي يجري ولا يجرى معه، نعم كنت إلى ذلك الحين أرجح عليه محمود سامي البارودي ولا أرى أحدًا يعلو علوه في المتأخرين، وقد يلز في قرن واحد مع أفصح المتقدمين.





## اجتماعنا الأول في باريس

وبقيت لا أعرف شوقي معرفة شخصية إلى سنة ١٨٩٢؛ إذ ذهبت من الآستانة إلى فرنسا قاصداً السياحة ومستشفىاً من مرضٍ طرأ عليّ، وكان أحمد شوقي يدرس علم الحقوق في مونبلييه وفي أثناء العطلة المدرسية جاء إلى باريس ومعه رفيق اسمه دلاور، فبينما نحن في الحي اللاتيني بحسب قولهم؛ إذ جمعنا الأقدار وما عدتُ أتذكّر كيفية اجتماعنا وتعارف بعضنا مع بعض، ولكن لم نجتمع حتى صرنا كأخوين، وغدونا نجتمع كلَّ يوم مرة بل مرتين، وأكثر تلاقينا كان في مقهى يُقال له مقهى داركور Dharcourt.

ومن غريب الاتفاقات أننا في سنة ١٩٢٦ تلاقينا أنا وشوقي — رحمه الله — في باريس، جاء فسلم عليّ في فندق ماجستيك؛ فذهبت أردد له السلام في فندقٍ كان نازلاً به في الحي اللاتيني، فسألت عنه فقليل إنه خرج إلى النزهة وإذا بهذا الأوتيل على مسافة مائة متر من مقهى داركور، وإذا بشوقي جالس هناك ومعه مُطربه محمد عبد الوهاب، فجلست إليهما وأخذت أتأمل في دوران الدهر وردّ العجز على الصّدر؛ فقد كنتُ أوّل مرة عرفت فيها شوقي أجلس وإياه في هذا المقهى نفسه، ومضى على ذلك ستة وثلاثون حولاً ولم نجتمع في باريس، فلما اجتمعنا إذ بنا من دون تعمّد في هذا المقهى أيضاً، فقلت لشوقي: أتدري كم سنة مضت على اجتماعنا في هذا المقهى؟ هذه ستّ وثلاثون سنة، وكان رحمه الله لا يرتاح إلى الأحاديث التي تذكّره بالشيخوخة، فقال لي: تمسّك بهذه التواريخ لا أدري لم؟ فضحكت وعرفت أنه ضاق صدره من هذه الذكرى، وأنا قصدت أن أتذكر نعمة بقائنا طول هذه المدّة ولقائنا من بعدها؛ هذا إذا كان طول العيش معدوداً من النعم.

وفي أثناء لقائنا الأول كنا نتذاكر حول أمور كثيرة، ولكن أهم حديثٍ كُنَّا نخوض فيه هو الشعر، وكان مع شوقي ديوان المتنبي وكان يحفظ منه ولا شك أنه انطبع عليه وسيأتيك في هذا الكتاب فصلٌ تعلّم منه أنني شبّهت شوقي بالمتنبي في دقة معانيه وكثرة أبياته الجارية مجرى الأمثال، وشبّهت البارودي بأبي تمام في علو نفسه وفحولة نظمه، وشبّهت حافظ إبراهيم بأبي عبادة البحري في طلاوته وانسجامه. هذا وبقيت أنا وشوقي نتساقى كئوس الصفا وتتبادل عواطف الإخاء مدة شهر من الزمن إلى أن حان إيابي إلى الشرق فودّعته وداع الأخ لأخيه وفارقتة فراق الصفيّ لمن يضافيه. وقد علمت منه أننا في عمر واحد؛ فقد كنت سنة ١٨٩٢ في الثالثة والعشرين من عمري وظهر لي فيما بعد من مُقدّمة ديوانه الجزء الأول أنه في سنة ١٨٩٨ كان شوقي في سن الثلاثين، والحال أنني في تلك السنة كنت في التاسعة والعشرين؛ وعليه يكون شوقي أكبر مني بسنة أو بعدة أشهر. وأنا الذي أشار عليه بأن يجمع قصائده ويجعل منها ديواناً يسير في الأقطار، فسألني: وأيّ اسم أعطيه؟ فقلت له: سمّه بالشوقيات؛ فنسبة هذا الشعر إليك هي عندي كافية. فلما جمع ديوانه أطلق عليه اسم «الشوقيات» كما أشرت عليه به، وقد ذكر — روح الله روجه — هذه القصة في ديوانه الطبعة الأولى سنة ١٨٩٨، فقال:

جمعتني باريز في أيام الصبا بالأمير شكيب أرسلان وأنا يومئذ في طلب العلم  
والأمير — حفظه الله — في التماس الشفاء، فانعقدت بيننا الألفة بلا كلفة،  
وكنت في أول عهدي بنظم القصائد الكُبرى، وكان الأمير يقرأ ما يردُّ عليه منها  
منشوراً في صحف مصر، فتمنّى أن تكون لي يوماً مجموعة، ثم تمنّى عليّ إذا  
ظهرت أن أسميها «الشوقيات»، ثم انقضت تلك المدّة فكأنها حلم في الكرى أو  
خلصة المختلس، أو هي كما قلت:

صحبتُ شكيباً برهَةً لم يُفْزُ بها	سوايَ على أن الصحاب كثير
حرصت عليها أَنَّهُ ثم أَنَّهُ	كما ضنَّ بالماس الكريم خبير
فلما تساقينا الوفاء وتمَّ لي	ودادٌ على كلِّ الوداد أمير
تفرَّقَ جسمي في البلاد وجسمُه	ولم يتفرَّقَ خاطرٌ وضمير

هذا أصل التسمية سبقت به إشارة لا تُخالف، ودفعت إليه طاعةً واجبة،  
وأنا بين هاتين هدفٌ للقال والقليل يُظنُّ بي نسبة الأثر الضئيل إلى الاسم القليل.

ثم قال:

كانت وفاة والدي من نحو ثلاث سنوات، فكان لي عجباً أن وجدت بين أوراقه شيئاً كثيراً من مُشَتَّت منظومي ومنتثوري ما نُشِرَ منهما وما لم يُنشر، قد كُتِبَ بعضه بالحبر والبعض الآخر بالرصاص، والكلُّ خط يد المرحوم، وقد لَفَّه في ورقة كُتِبَت عليها هذه العبارة: «هذا ما تيسر لي جمعه من أقوال ولدي أحمد وهو يطلب العلم في أوروبا؛ فكنْتُ كأني أراه، وأني أمره أن يجمعه ثم ينشره للناس؛ لأنه لا يجد بعدي مَنْ يعتني بشئونه، وربما لم يُوجَد بعده مَنْ يُعنى بالشعر والآداب.» فبينما أنا ذات يوم تَعَبُ بهذه الأوراق حيران لوصية الوالد كيف أجريها زارني صديقي مصطفى بك رفعت، فحدَّثته حديثي فسألني أن أُعيره الأوراق أياماً ثم يعيدها إليّ ففعلت، ثم لم يمض شهرٌ حتى بعث بها إليّ وإذا هي قد نُسِخَتْ بقلمٍ مليحٍ يؤيِّده ذوقٌ صحيح؛ بحيث لم يبقَ إلَّا أن تُدْفَعَ إلى المطابع، فأخذتها وبودِّي لو وقَّيتُ صديقي المشار إليه حقَّه من سُكْرِ الصنيع، وأنا أقول في نفسي: لئن صدق أبي في الأولى لقد ظلم في الثانية؛ فإن الخير لا يزال في الناس.

انتهى كلام شوقي، وأنا أزيد على ذلك أن والد شوقي — رحمهما الله — قد أفرط في التشاؤم؛ فإن نابغةً مثل ولده لا يمكن أن يُهمل وأن يعدم مَنْ يعتني بشئونه، وإن لم يكن للمرء مَنْ يحنو عليه حنوً والده فكم قام الأدب مقام الوالد، وقد قيل:

إن فاتنا نسبٌ يؤلَّف بيننا      أدب أقمناه مقامَ الوالد

وهذه الأبيات وتلك القصائد التي كان منها ما هو مكتوب بالحبر، وما هو مكتوب بالرصاص جاء وقتٌ نسخها فيه ناسخٌ بخطٍ مليح، ثم جاء وقتٌ آخرٌ يُقال فيه: إن هذه القصائد التي كُتِبَت بالحبر جديدة بأن تُكْتَبَ بماء التُّبر. وهكذا رجال الدهر تنمو أقدارهم بطول الدهر.



## صداقة ومكاتبات

وأعود إلى ما قاله شوقي من أنه تفرَّق جسمي وجسمه ولم يتفرَّق الضمير والخاطر؛ فقد صدق في هذه الأبيات وأحسن الشعر ما حكى الحال؛ فقد كرعنا من الوفاء بنمير، وتفارقنا ولم يتفارق خاطر وضمير، وبقينا أكتب له ويكتب لي وأبثُّ ما في نفسي ويبثني ما في نفسه وأداعبه ويداعبني وتتناجى على بُعد الديار، وتراءى بالقلوب لا بالأبصار، وكنت لا أجد أعزَّ عليَّ ولا أغلى لديَّ منه مع كثرة الأصحاب ووفرة الأثراب، وهذا ما ترجمه هو بقوله:

صحبْتُ شكيئاً صُحْبَةً لم يُفْزَ بها      سوايَ على أنَّ الصحابَ كثير

فقد كنت أحبه لعذوبة أخلاقه وحسن معاشرته وأجلُّه لعلوِّ فكره وبداعة شعره، وأجمع فيه بين الحبِّ والحُرمة، وما أسعد الإنسان إذا كان يحبُّ مَنْ يحترم ويحترم مَنْ يحب! وما أصدق قول المتنبي:

ضُرُوبُ الناسِ عَشاقُ ضُرُوبِنا      فأعذَرُهم أشفُهُم حبيبِنا

وإني أتذكَّر من جملة ما كان بيننا من النكات كتاباً بعث به إليَّ من فرنسا ضمَّنه عدَّة جُمَلٍ متتابعة؛ قلَّد في كلِّ واحدة منها أديباً من الأدباء المَعْدُودين حاكياً أسلوبه الخاص، وليس الكتاب — مع الأسف — محفوظاً عندي ولا غيره من تلك المكاتبات، ولكنني أتذكَّر بعُضه، فهو يقول: لم يتمَّ له ما أراد من إيصال النفيعة إلى أبناء الجلدة «بِكْرِية»، وقد مرق

## شوقي

من ذلك مروق السهم من الرَّمِيَّة «شكيبية»، ثم ذكر جملةً ثالثة ما عدتُ أتذكَّرها، وقال عنها «صبرية»، وجملةً رابعة لم أعد أتذكَّرها ولا أتذكر مَنْ حاكى بها؛ والحاصل أنه في الجملة الأولى يُشير إلى أسلوب السيد توفيق البكري الأديب المشهور، وفي الجملة الثانية إلى أسلوب هذا العاجز، وفي الجملة الثالثة التي نسيتها إلى إسماعيل صبري باشا، وهلمَّ جرًّا. وأرسلت إليه من بيروت صورتى الفتوغرافية، وكتبت تحتها:

لئن كنت أحمد شوقي إليَّ      فما زلت أحمد شوقي إليك  
رعى لك قلبي وداذا به      أضنُّ على الكلِّ إلا عليك

وكنت أبعث إليه من فرنسا بكثير من حلوات الشام، وأتلذذ على البعد بأن يتدوّقها ويتلذذ بها، وكنت كلما قرأت له قصيدة من تلك القصائد الرنّانة — لأن شعره بدأ يرنُّ من ذلك العهد — تمتلئ جوانحي بها مسرّة ونواظري قرة، وبقي ذلك ديدني معه إلى أن مات، لا أتلو له شعرًا إلا كان لي سبب سرور، وإلى هذا أشرت بقولي في القصيدة التي نظمتها له بمناسبة يوبيله سنة ١٩٢٧:

أقرأ قصائده فتملاً مهجتي      جدلاً يزيل شجونها وعناءها  
وأظلُّ مُغتبطاً بها فكأن لي      دون الأنام ثناءها وسناءها

ومن نعم الله عليّ أنه عافاني من داء الحسد الذي قد يُبتلى به الكثيرون لا سيّما من رجال الأدب الذين لا يزال الواحد منهم يتعقّب ويترقّب حتى يجد لأخيه غلطةً يبرّد غلته بتكرارها وتنبيه الأفكار إليها. وأنا لم أكن حاسداً لشوقي ولا كافياً إيّاه حسدي ونفاستي وغصّتي برفيع مقامه فحسب، بل كنت مُفتخرًا به فرحاً بنبوغه سعيدياً بعبقريته أجده من حسنات هذا الزمان الكبرى، ولا تُتاح لي الفرصة للإتيان بذكره أو للاستشهاد بشعره إلا توردتها، وقد كان يبدو لي من كُتبه إليّ أن ذلك يروقه لا سيّما عندما كان في أول ميدانه ولم يكن أحرز ما أحرزه فيما بعد من الشهرة الطائرة والزعامة القاهرة، وقد كان يُفضي بما يشعر به من افتتاني به إلى خليله وخليلي معاً شاعر القطرين وثالث القمريين خليل بك المطران، فكان الخليل يقول له: إن شكيب لا يحسدك ولا يحسد أحداً؛ ولذلك تراه دائماً مُفتخرًا بك.

ولما نشرت كتابي في تاريخ الأندلس تذييلاً على رواية «آخر بني سراج» للفيكونت شاتوبريان ختمت ذلك الكتاب بفصلٍ في حالة الشرق وما آل إليه، واستشهدت لشوقي بأبياتٍ ذَكَرْتُ بمناسبتها أنه شاعر العصر وهي:

وذا دلالٍ من بني الرُّومِ حولها	إذا ما تَبَدَّتْ إخوة سبعة مرد
عنيت بها حتى التقينا فهزَّما	فتَّى عربيٍّ ملء بردته مَجْد
فقال أطيّب بعد عُسرٍ وشدَّة	فقلتُ نعمِ مسكِ الأحاديثِ والنَّدِّ
عطلنا من النعمى وطوق غيرنا	تداولت الأيام وانتقل العقد
وما ضاعت الدنيا علينا وحُسْنها	ولكنَّ عن أغصانه رَحَل الورد





## معارضات

وكنت مع ذلك أعارضه في الأحايين؛ فإنه نَظَمَ مَرَّةً قصيدةً لدى زيارته الأولى للأستانة وحلولة ضيفاً كريماً على السلطان عبد الحميد، فإنه قال يومئذ:

فَرَعَ عَثْمَانَ دُمٌ فَذَكَ الدَّوَامُ  
لَكَ مِنْكَ التَّنَاءُ وَالْإِكْرَامُ  
أَنَّهَا الشَّمْسُ لَيْسَ فِيهَا كَلَامُ  
بِأَحَادِيثِهِ يَتِيَهُ الْأَنَامُ  
أَنْتَ فِيهِ خَلِيفَةٌ وَإِمَامُ  
سَوَامٌ مَجْدًا وَلَنْ يَرَى الْأَقْوَامُ  
وَمِئَاتُ تُعِيدُهَا أَعْوَامُ  
فِي ثَمَانٍ وَمِثْلُهُنَّ يُقَامُ  
دُونَهَا أَنْ تَنَالَهَا الْأَفْهَامُ  
سَاسُ ذُو الْمَقْلَةِ الَّتِي لَا تَنَامُ  
سَيِّ كَرِيمٌ وَفَعَلُهُ الْهَامُ  
يَا عَظِيمًا مَا جَارَهُ إِعْظَامُ  
وَيَمِينٌ بُسْطٌ وَأَمْرٌ جِسَامُ  
لِلْبَرَايَا وَعِصْمَةٌ وَسَلَامُ  
تُوجُّ الْبَائِسُونَ وَالْأَيْتَامُ  
بِشْرٌ وَالظُّلُّ وَالْجَنَى وَالْغَمَامُ

رَضِيَ الْمُسْلِمُونَ وَالْإِسْلَامُ  
كَيْفَ يُحْصَى عَلَى عِلَاكَ ثَنَاءُ  
هَلْ كَلَامُ الْعِبَادِ فِي الشَّمْسِ إِلَّا  
وَمَكَانُ الْإِمَامِ أَعْلَى وَلَكِنْ  
إِيهِ عَبْدُ الْحَمِيدِ جَلَّ زَمَانُ  
مَا رَأَتْ مِثْلَ ذَا الَّذِي تَبْتَنِي الْأَقْدَامُ  
دَوْلَةٌ شَادَ رَكْنَهَا أَلْفُ عَامُ  
وَأَسَاسُ مِنْ عَهْدِ عَثْمَانَ يُبْنَى  
حِكْمَةٌ حَالَ كُلِّ هَذَا التَّجَلِّي  
يَسْأَلُ النَّاسُ عِنْدَهَا النَّاسَ هَلْ فِي النَّدَى  
أَمْ مِنَ النَّاسِ بَعْدُ مَنْ قَوْلُهُ وَحْدُ  
صَدَقَ الْخَلْقُ أَنْتَ هَذَا وَهَذَا  
شَرَفٌ بَايْخٌ وَمُلْكٌ كَبِيرُ  
عُمَرُ أَنْتَ بَيِّدٌ أَنْكَ ظِلُّ  
مَا تَتَوَجَّعَتْ بِالْخِلَافَةِ حَتَّى  
وَسَرَى الْخِصْبُ وَالْبِهَاءُ وَوَأْفَى الـ

فيه حُسْنٍ وبالْعُفَاةِ غرام  
يوم حَيَّتْهُمْ به الأيام  
ياكِ في الذرّوة التي لا تُرام  
وبنو العصر والولادة الفخام  
ما لحال مع الزمان دوام  
مد ومَسْرَى ظلالها الآجام  
ه ولُبْنان والرُّبَى والخِيام  
أَنَّكَ السَّلْمِ وَسَطُهُ والوِثَام  
م أتممت تَهْذِيبَهُ الأَقلام  
وقعودٌ مع الهوى وقيام  
تَشْرُفُ الكَأْسُ عنده والمُدَام  
وأنت من حُمَاتِهِ الأَقْسام  
والولاء الذي يُريدُ المُقام  
في الثرى ملؤها حصى ورغام  
فَعَمَّاهَا في أن يزولَ الظلام  
لنرى الضَّيْمَ أنها لا تُضَام  
ولجوا البابَ إنه الإسلام  
يوم لا تُقَعِدُ السهامَ السهامُ  
والمعالي على النيام حرام  
قد تُسَيِّغُ المنيّة الأَحلام  
ثم يُضْحِي وناسُهُ الأَعْجام  
فَسَعَيْنَا وفي النفوس مرام  
سِ بالرُّكْنِ ذِي الجَلالِ اسْتِلام  
مثلما يَنْصُرُ الحُسَامَ الحُسَامُ  
بك يا حامي الجَمِي اسْتِغْصام  
وكفّاهَا أن يشهد العلام  
جَوْرُ دَهْرٍ أحراره ظلام

وتلقَى الهلال منك جَبِين  
فسلامٌ عليهم وعليه  
وبدا المُكُّ مُكُّ عثمَانَ من عَل  
يُهرع العصر والملوك إليه  
هكذا الدهر حالة ثم ضدٌ  
ولأنت الذي رعيته الأُسُ  
أمة التُّرك والعِراق وأهلُو  
عالمٌ لم يكن لِيُنْظَمَ لولا  
هذبته السُّيوفُ في الدهر واليو  
أيقولون سَكْرَةٌ لن تجلَى  
لَيَذوقنَ للمُهْلَهْلِ صَحْوًا  
وضَعَ الشَّرْقُ في يديك يديه  
بالولاءِ الذي تُريدُ الأيادي  
كيف تُهدى لما تشيد عيون  
مُقلٌ عانتِ الظلامَ طَوِيلًا  
قد تقوم النفوسُ في الضَّيْمِ حتّى  
أيها النافِرون عودوا إلينا  
غَرَضُ أَنْتُمْ وفي الدهرِ سَهْمٌ  
نِمتُمْ ثم تطلبون المعالي  
شُرُّ عَيْشِ الرجال ما كان حُلْمًا  
ويبيتُ الزمانُ أُنْدُلَسِيًّا  
عالي البابِ هزَّ بابك منّا  
وتجلّيتَ فاستلّمنا كما للنّ  
نستميح الإمامَ نصرًا لحلمي  
فلحلمي وآله والرعايا  
يشهد الله للنفوس بهذا  
وإلى السيّد الخليفة نَشْكُو

وَعَدُّوْهَا لَنَا وَوَعُوْدًا كِبَارًا  
فَمَلْنَا وَلَمْ يَكُ الدَّاءُ يَحْمِي  
يَمْنَعُ الْقَيْدُ أَنْ نَقُوْمَ فَهَلْ تَا  
فَارْفَعِ الصَّوْتِ إِنَّهَا هِيَ مِصْرُ  
وَارَعِ مِصْرًا وَلَمْ تَزَلْ خَيْرَ رَاعِ  
إِنْ جَهَدَ الْوَفَاءِ مَا أَنْتِ أَتِّ  
وَلْيُصُوْلُوا بِمَنْ لَهُ الدَّهْرُ عَبْدُ  
فَاللَّوَاءِ الَّذِي تَلَقَّوْا رَفِيْعُ  
مَنْ يُرِدْ حَقَّهُ فَلِلْحَقِّ أَنْصَا  
لَا تَرُوْقَنَّ نَوْمَةَ الْحَقِّ لِلْبَا  
إِنْ لِلْوَحْشِ وَالْعِظَامِ مُنَاهَا  
رَافِعِ الضَّادِ لِلْسُّهَا هَلْ قَبُوْلُ  
قَامَتِ الضَّادُ فِي فَمِي لِكَ حُبًّا  
إِنَّ فِي يَلْدِزِ الْهَدْيِ لَخِلَالًا  
قَدْ تَجَلَّتْ لِخَيْرِ بَدْرِ أَقْلَّتْ  
فَالزَّمِ التَّمَّ أَيُّهَا الْبَدْرُ دَوْمًا

هل رأيت القرى علاها الجهم  
أن تمل الأرواح والأجسام  
ج فبالنجاج للبلاد قيام  
وارفع الصوت إنها الأهرام  
فلها بالذي أرتك زمام  
فليقم في وفائك الخدام  
وله السعد تابع وعلام  
والأمور التي تولوا عظام  
ر كثير وفي الزمان كرام  
غي فليحق هزة وانتقام  
لمنايا أسبابهن العظام  
فيباهي النجوم هذا النظام  
فهي فيه تحية وابتسام  
أنا صب بطفها مستهام  
في كمال بدت له أعلام  
والزم البدر أي هذا التمام

وهذه القصيدة غير خالية من أبيات فيها غموض وأخرى فيها تعقيد، ولكنها على كل حال عامرة بشوارد الأبيات، وشوقية كسائر الشوقيات وفيها درر يتائم، وألفاظ كسجع الحمائم، ولما طالعتهما نظمت من البحر والقافية:

هل لسان أقواله الإلهام  
فتباري الألفاظ شأو المعاني  
الذي شرفت خلافته الأزر  
وغدت لهجة الثناء عليه  
قعدت نهضة البلاغة عنه  
قعس في الصفيح من أطلس العز  
إنما وصفه على فاتح الأف

أم بيان آياته الأحكام  
ويوفى حق الثناء الإمام  
ض فحف البرية الإكرام  
مثلما دام للصلاة إقام  
ودنت عن خياله الأوهام  
تهاوت من دونه الأفهام  
كار في الذروة التي لا ترام

كُلُّ طَرْفٍ لِلْفِكْرِ عَنْهُ كَلِيلٍ  
 قَصْرُ الْوَصْفِ دُونَ مَنْ يَفْضَحُ الْوَصْدَ  
 يَنْبِذُ الشَّعْرَ وَالشَّهْوَودَ الرِّيَاضِيَّةَ  
 إِنْ مَا سَالَ فِي ثَنَاهُ يِرَاعِ  
 وَفِعَالِ الضَّرْغَامِ أَوْقَعَ فِي النِّفْ  
 كَلَّ يَوْمَ لَهُ صَنَائِعُ تَتَرَى  
 تَكْفُلُ النَّاسَ مِثْلَمَا يَكْفُلُ الْغَبَّ  
 طَوَّقَ الْخَلْقَ جَوْدَهُ وَنَدَاهُ  
 وَجَدِيدٌ أَنْ تَنْطِقَ الطَّيْرُ وَالْوَحْدَ  
 نُسَخَتْ عِنْدَهُ الْمُلُوكُ وَأَمْسَى  
 مَا رَأَى مِثْلَهُ الزَّمَانُ عَظِيمًا  
 جَاءَ مِنْ ضَنْضَى الْخِلَافَةِ فَرْدًا  
 فَرَعَ عَثْمَانَ وَكَفَى الْمَجْدَ وَالْأَحْدَ  
 دَوْلَةَ حِجَّةِ الزَّمَانِ عَلَى الْخَلْدِ  
 لَيْسَ لِلشَّرْقِ غَيْرَهَا فَبَنُو الْمَشْرِ  
 قَدْ أَقَامَتْ سَرَادِقَ الْعِزِّ يَعْليدُ  
 فَوْقَهُ رَايَةَ الْهَلَالِ مُنِيرًا  
 يَنْضَوِي تَحْتَهَا النِّقَادُ مَعَ الْأَسْدِ  
 مَجْدَ عَثْمَانَ لَيْسَ غَيْرَكَ مَجْدِ  
 لَمْ تَزَلْ شَامِخًا بِأَنْفِ عَزِيزِ  
 لَا تَرَى دَوْلَةَ هَزَالًا وَضَعْفًا  
 وَعَلَى رَأْسِهَا خَلِيفَةُ عَصْرِ  
 لَمْ يَزَلْ قَائِمًا لَدَيْهِ بِأَبْوَا  
 حَيْثَمَا تَهْطَعُ الْمُلُوكُ وَتَعْنُو  
 مَوْقِفٌ تَخْشَعُ النَّوَاطِرُ فِيهِ  
 قَدْ حَبَاهُ عَثْمَانَ أَسَا مَتِينًا  
 شَابَ فَرَّقَ الزَّمَانَ وَهُوَ مَكِينِ

كُلُّ طَرْفٍ لِلْجَرِيِّ فِيهِ كِهَامِ  
 فِ وَعِنْدَ الْفِعَالِ يَخْفَى الْكَلَامِ  
 سَاتَ عَدَاً وَالْحِجَّةَ الْأَرْقَامِ  
 لَا كَمَا سَحَّ مِنْ يَدَيْهِ غَمَامِ  
 سِ مِنَ الْقَوْلِ إِنَّهُ الضَّرْغَامِ  
 فِي الْبِرَايَا لِبَاسَهِنَّ الدَّوَامِ  
 رَاءَ غَيْثٍ لَهُ عَلَيْهَا انْسِجَامِ  
 فَهِيَ فِي مَدْحِهِ لِعَمْرِي حَمَامِ  
 شِ فَيَتَلَوُ الصَّدَاحَ فِيهِ الْبُغَامِ  
 خَبْرًا مِنْ أَخْبَارِ كَانِ الْكِرَامِ  
 صَبِيئَةً عِنْدَهُ الرِّجَالُ الْعِظَامِ  
 هُوَ مِنْ مَعْشَرِ الْمُلُوكِ السِّنَامِ  
 سَابَ وَالْمَكْرَمَاتِ وَالْأَحْلَامِ  
 قَ بِهَا دُونَ مِزْيَةِ الْإِلْزَامِ  
 رَقَ طَرًّا بِدُونِهَا أَيَّتَامِ  
 هِ الْوَشِيحَ الرِّمَاحَ وَالْأَقْلَامِ  
 يَدْبِرُ الظُّلْمَ عِنْدَهَا وَالظَّلَامِ  
 دَ وَتَرَعَى الذُّنَابَ وَالْآرَامِ  
 كَلُّ مَدْحٍ مِنْ دُونَ مَدْحِكَ نَامِ  
 وَلَكُمْ أَعْطَسَ الْمُلُوكِ الرَّغَامِ  
 حَوْلَهَا الْمُسْلِمُونَ وَالْإِسْلَامِ  
 دِهْرَهُ تَابِعَ لَهُ وَغِلَامِ  
 بَ عَلَيْهِنَّ لِلْجِبَاهِ ازْدِحَامِ  
 تَحْتَ تِيْجَانِهَا الطَّلَى وَالْهَامِ  
 وَتُسَوَّى الرَّءُوسَ وَالْأَقْدَامِ  
 مُثَّلَ الْبَيْتِ عِنْدَهُ وَالْمَقَامِ  
 وَتَخَطَّتْ مِئَاتِهَا الْأَعْوَامِ

فلذا لا تنالُ منه السُّهام  
 أنت فيه عباسه بسَّام  
 واروِ مصرًا له إليك أوام  
 أمم الخافقين والأقوام  
 يحرم العشق دونها والهيام  
 نى كتاب وفي الشمال حُسام  
 توءمين العلوم والأعلام  
 ر جميعًا وفي يدك الذَّمَام  
 ح وتحيا الأملُ وهي رمام  
 فمع هذه الليالي احتشام  
 ومأوى رجالنا الأجسام  
 أزعجته خلالها الأحلام  
 س كما يبعث الخمار المُدام  
 ك روح تحيا به الأصنام  
 ويُرَى للبخار فيها ركام  
 فتعود النيران وهي سلام  
 حينما يوقد الصدور ضرام  
 أن يُهنئى بالعيد عنك الأنام  
 فهو ممًا قضى عليّ الذمام  
 رَضَ ورَدَ الحداثق القلام  
 ق بعزم لم يتننه الإحجام  
 جاء عفواً من القريض النظام  
 هو يوم خدَّامه الأيام  
 فلم يتَّجه عليه ملام  
 فاختلافاتها إلينا لِمَام  
 بمعاليك طابَ منه الخِتام

وغدا ألقا سهامَ الليالي  
 إليه عبد الحميد إن زمانًا  
 أوله نصرك العزيز وأيد  
 أشخصتْ نَحوك العيون حيارى  
 وتصبى القلوبَ منك خلال  
 أقبل العَصْرَ يَزْتَجِيك وفي اليُمُ  
 حببًا الدولة التي صار فيها  
 هو ذا الشرق في حماك لك الأم  
 هزّه هزةً تثوب بها الرو  
 أرهفِ الحدَّ للخطوب فما يند  
 لم تزل أرضنا مأسد بالله  
 إن للشرق هبةً بعد نَوْم  
 هبةً تبعث الحمية في النا  
 يسأل الغربُ عندها الشرق هل جا  
 ترسل الكهرباء فيها شعاعًا  
 وتشبُّ النيران في كلِّ أرض  
 إنما تثلج الصدور بسلم  
 يا إمام الهدى هنيئًا وأولى  
 إن أحاول على عُلاك ثناء  
 أو أعارض فتى القريض فما عا  
 ذا مجال رضيت فيه من السب  
 وإذا كان بدع وصفك سمطا  
 إنَّ يومًا به الجلوس تجلَّى  
 كفر الدهر فيه عن كلِّ ما جرَّ  
 جاء ختمًا لطارقات الليالي  
 ليس يلحى على أوليه عصر

ولم أجادب أخي شوقي الحبل إلا في هذه القصيدة، ولم أنس أن أشير فيها إلى المعارضة مُعترِفًا بأن الدرَّ لا يُعارض بالحصى، وذلك عند قولِي:

أو أعارضُ فتى القريض فما عا رَضَ وردَ الحدايق القلام

وقد وُجِدَ مع هذا مَنْ رَجَّحَ قصيدتي على قصيدته، ومنهم الشاعر الأديب داود بك عمون الذي صار فيما بعد الحرب رئيسًا لحكومة لبنان، وهو من أترابي في السنِّ، وقد تذاكرت وإياه في موضوع هذه المعارضة، فرأيته يستحسن قصيدتي على قصيدة شوقي، فقلت له وأين أنت من قوله:

ما كلام الأنام في الشمس إلا أنها الشمس ليس فيها كلام

فقال لي: وأنت جعلت بإزاء هذا البيت قولك:

وفعال الضَّرغام أَوْقَع في النفس سس من القول إنه الضَّرغام

وعلى كلِّ حال فلست أدعي سبَقَ شوقي في هذا الميدان، وأنا الذي أقول فيه في القصيدة التي قلتها في يوبيله:

وفُرتَ يا شوقي السباق على الورى برئاسيةٍ بات السباق وراءها  
تتقطَّع الأعناق عن إدراكها حتى الأماني لا تحوم إزاءها

ولكن مما لا مِرْيَةَ فيه أنني أنا منذ أيام الشباب قلَّمًا نظمت الشعر رغبةً فيه ونزوعًا منِّي إلى الاتصاف بالشاعرية بعكس النثر الذي كان أبدًا مرمى آمالي ومطمح خيالي. وسألني مرَّة إبراهيم بك المويلحي الكاتب المشهور عندما اجتمعنا في الأستانة سنة ١٨٩٠ فقال لي: أيُّهما أفضل عندك النظم أم النثر؟ فأجبتُه: لا مقياسة عندي بينهما، إنني أفتخر بأن أكون كاتبًا وأستحي من أن أكون شاعرًا. فاستحسن المويلحي هذا الجواب الذي لا شك أنني بالغت فيه، ولكنه كان يُعرب عن ذات صدري؛ لأنني طول حياتي لم أحاول أن أكون في الشعر سبَّاق غايات وطلَّاع أنجُد على حين أنني كنت أرى مُنتهى السعادة في

## معارضات

الدنيا في أن أكون من الكتّاب المعدودين، وقلّما نظمت الشعر انبعاثاً من نفسي وإطاعة لمجرد خاطري، فليس لي على هذا الوجه إلا قصائد معدودات، وكلُّ ما عدا ذلك من شعري إنما نظمته قياماً بواجب أو امتثالاً لرسم أو نزولاً عند رغبة؛ ولهذا تجد أكثر شعري مرثي للأصحاب أو للأعلام الذين لا مناص من رثائهم، وسيظهر ديواني قريباً إن شاء الله، فيقف القراء منه على تحقيق كلامي هذا.





## صنعة الشعر وإبداع شوقي فيها

ومن المعلوم أن صاحب الصنعة إنما يتقدّم فيها إذا كان راغباً لا مُتكلِّفاً ومُغرماً لا مُتبرِّماً، وكان مجتهداً أن يبذل فيها لأجل الإبداع ولأجل سبق غيره من الصنّاع، فأما شوقي فكان كلُّه شعراً قد وقفَ نفسه على هذه الصنعة؛ لا يهمله أن يُتقن غيرها وصارت له غراماً؛ فهو آناء ليله يفكر في الشعر، وأطراف نهاره يستنبط المعاني الغريبة، وكلّما عنَّ له معنًى قيّده، وكلّما انفتق في ذهنه مرّمي أحرّزه وهيئاً له قلباً رائعاً حتى إذا جاءت أوّل فرصة أوّده إياها.

ومن أهم ما يغفل عنه الناس، وهو من أحقّ الحقائق أن نفوس الأدباء لها أوقات صفو وأوقات كدر، وأنها في أوقات الصفاء قد تُبرم قوانين وتخلق معاني لا تتأتى لها في جميع الأحياء. وربّما لاح في فكر الأديب خاطرٌ في إحدى السويّعات لو استرسل فيه لأتى فيه بالعجائب، على حين أنه إذا نشده في وقت آخر وحاول أن يستأنف ما كان يلوح له في ساعة الصفاء لوجد زنده فيه صلداً، ورأى أنه يهيب بتلك الخواطر السابقة فلا تجيبه، ويطمع أن يقتنص تلك الشوارد التي كانت بين يديه، فإذا هي الآن لا تطيعه ومنها ما ذهب غير مُعاود، ومنها ما عصى غير مقرن؛ ولذلك كان يجب على الأديب شفاف الطبع أنه إذا عنَّ له في سويّعات الصفاء معنًى مُبتكر أو خاطر شريف ووجد هذا الموضوع مُنتالاً عليه أن يسرع إلى قيّده أوأبده، ويأخذ القلم فيحرّره، وإذا كان شعراً نظمه وإذا كان نثرًا دبجه حتى لا يفوته فيما بعد؛ فإن الأفكار من جملة حظوظ الدنيا تهبّ أحياناً وترتدّ أحياناً، فإذا هبت مرة وجب اغتنامها ولم يجز إهمالها على نيّة أن يُعاد إليها مرة أخرى، وإن الأفكار نظير الأقدار ليس في مقدور الكاتب أو الشاعر أن يُعيدها كلّ حين، وقد تفيض على الرءوس أشعة إذا ولت تعدّر استردادها. فاللبيب اللبيب هو الذي يقتنص

الشاردة لأول سنوحها ولا يدعها تذهب على أمل أنه يصطادها فيما بعد فإنها إذا شردت قد تفوت، والفلاة طويلة عريضة، فلا يُحيط بها الصائد ولا تُطوى له كيف يشاء.

وقد كان شوقي ممّن يُقيّد الشوارد ولا يدعها تفوت، وممّن يقف في المظان التي تختلف فيها الطرائد فكلمًا عنّ سانح رمى بسهمه، فلهذا عظم توفيقه في الصيد، وجاء بما لم يجيء به غيره، ولم يقل لنفسه في وقت من الأوقات: دعينا من هذا الآن؛ لأن لنا ما يشغلنا عنه وسنعود إليه في ساعة أخرى، بل كان المعنى المُبتكّر هدفًا له كيفما عنّ وأنى عرض، فلا يكاد يتراءى له شيء إلا وتّر قوسه وفوق سهمه.

وهكذا ينبغي أن يكون الشاعر إذا أراد أن يُجيد وأن يقول فيه الناس: من ذا قالها؟ ولا يجوز للشاعر أن يجعل السياسة أو الاقتصاد أو الصناعة أو الفقه أو شيئًا آخر من مناحي الحياة فوق الشعر، بل ينبغي أن يكون الشعر هو غرضه الأول، وأن تدور حياته من حوله، فجميع المشاغل تكون له فضلة ويكون الشعر هو العمدة؛ ولهذا قال خليل مطران: إن شوقي كان يفكر في الشعر قاعدًا وقائمًا وحاضرًا وباديًا وسائرًا وساريًا وفي المركبة وماشيًا إلى غير ذلك؛ فقد قام نحو الشعر بالواجب الذي لم أقم به أنا ولا غيري ممّن جعل الشعر فضلة عمله ولم يقله إلا عند الضرورة. قد أعطى شوقي نفسه للشعر، فأعطاه الشعر ما لم يُعط غيره في هذا العصر.

## انصراف شوقي إلى الشعر

هذا، وكان شوقي مُتصلاً بخدمة سموّ الخديو السابق، ومنذ بداية نبوغه لُقّبوه بشاعر الأمير، فصار ذلك اللقب باعثاً له على زيادة الاجتهاد وفرط الارتياح حتى تكون مكانته الشعرية متناسبة مع المقام العالي الذي يخدمه بشعره، وبعبارة أخرى من حيث قيل له شاعر الأمير آلى على نفسه أن يكون أمير الشعراء، فانصرف بكلّيته إلى الشعر حتى تعطيه الإجابة قيادها، ويعلم العزيزُ سيّده أنه إن كان هو سيّد الأمراء، فإن شاعره سيّد الشعراء، وأن هذا المقام الذي يشغله شوقي برسمه يشغله أيضاً بنظّمه. فإذا لزم أن يكون شاعرُ الأمير سبّاق الحلبة ومقدّم العصابة فإنه كذلك، وإن سليقته قبل وظيفته. وقد كان هذا الحرص منه على إفهام سيّده أنه الشاعر الذي لا يُشَقُّ له غبار، والذي اتفقت على تقديمه الأقطار، هو الذي يدعوه أن يكون أبعد من غيره نجعةً وأوسع فتوحات عقلية، فلا يقول الشيء الذي يقوله سائر الناس. فكان يقضي مُعظم أوقاته في تجويد نظمه وتسديد سَهْمه في تعمير صدره بالمعاني العالية، وشحذ خاطره بالمرامي الدقيقة والأغراض السنيّة حتى صار ذلك خُلُقاً له غير مُنفكّ عنه، وصار إذا قال كلمة سارت في الآفاق وتطاولت إلى قراءتها الأعناق وبذخ فيها على الشعراء بالاتفاق. وأظنُّ أن أصوب آراء شوقي هو أنه لم يُرد أن يكون شيئاً غير شاعرٍ كبير لا يُقال لسيّده إنه يوجد في غير المعية السنيّة من هو أشعر منه. فكان طبع شوقي ظرفاً لا يسع مع الشعر حاجة أخرى.

ولم يخلط شوقي الشعر بالسياسة ولا التجارة ولا الفقه ولا الإدارة ولا الزراعة ولا عمل من الأعمال الأخرى التي يتعاطاها الناس وكثيراً ما قرنوا بعضها ببعض فأخذ العمل الواحد من قوّة العمل الآخر. وقلّما زاوّل الإنسان عمليّن إلاّ غلب أحدهما عليه أو قصر في الاثنين، وقد علم شوقي بثقوب فكره أنّه إن حاول أن يكون سياسياً عظيماً أو إدارياً

## شوقي

ماهرًا أو زراعيًا مُتقِنًا أو اقتصاديًّا مُدقِّقًا سلبت عنايته بمهنته هذه من مَلَكَته الشعريَّة بمقدار انصرافه عنها إلى غيرها، فقصر عن إدراك الأمد الأقصى الذي لم يزل مَطْمَح نظره في الشعر، وقعد عن الرتبة الأدبيَّة اللائقة بمن يُقال له شاعر الأمير وأمير الشعراء. وكما أن لقب شاعر الأمير وأمير الشعراء كان يَزِيد شوقي نفاذًا في صنعته وصقالًا لقريحته، كان يكسوه أيضًا أمام الناس بهاءً يستمدُّه من منصبه، ويلمع عليه بسبب حظوته عند الجناب العالي، فكان كلُّ من لَقِبِه وأدبِه عونًا للآخر.

## القول في مدح الأمراء والملوك

وقد عاب بعضهم على شوقي قضاءه عمره في مدح الأمير ومدح السلطان والإشادة بذكر نوي السلطة، وربما عابونا نحن أيضاً لمثل ذلك وغمزوا بالكثيرين الذين وقفوا أشعارهم على مدح الأمراء والملوك وزعموا أن في ذلك دليلاً على طلب الزُّلفى أو التماس الجائزة.

والجواب على ذلك يحسن بنا أن نوضِّحه إيضاح مَنْ لا يُبقي عليه ظُلمة الإبهام وهو: جرت عادة الملوك والأمراء سواء في الشرق أو في الغرب من قديم الزمان أن يَنْتَدِبُوا لأنفسهم رهطاً من الفصحاء من شاعر مُفْلِق وكاتب مُبَرِّز وخطيب مُفَوِّه ونديم مطرب، وأمثال هذا الضرب من نوي المواهب العقلية الوافرة والحظوظ الأدبية الراجحة؛ يشيدون بذكرهم في المحافل بالقصائد الشوارد أو بالخطب الأوايد أو بالمناشير الصادرة كعقود الفرائد ممَّا يزيد في وقار الملك وسنام العرش وحرمة الرعية للراعي، ويُلقى على الأفعال أقوالاً تزيد في بهائها وتضاعف من بقائها؛ إذ لا يوجد مثل الشعر والنثر تقييداً للمآثر وتخليداً للمفاخر؛ فالشاعر الذي يتصل بملك من الملوك أو أمير من الأمراء سواء في شرق أو غرب لم يكن يجد من الغضاضة في شيء التغني في مدح سيده، حتى لو لم يكن أهلاً لكل ذلك الإطراء؛ لأن مثل هذه الطبقة من الشعراء والأدباء يذهبون إلى أن الكلام إنما هو للمقام لا للمقيم، وأن المقام إنما هو رمز الأمة وعنوان الملة، ثم قد شاءت الأقدار في أخريات الزمان أن يدخل الضعف على الدول الإسلامية بأجمعها وأن تغلظ شوكة الأجانب الغربيين بين أيديها ومن خلفها وأن تُحيط بكثير منها وتأخذ على أيدي ملوك الإسلام، فلا تبقى لهم سوى الرسوم والألقاب ويتغلغل نفوذ الأجانب في هذه الحكومات المغلوبة على أمرها فتصير الأمة التي في مثل هذا الموقع وقد أخذ الأجانب بخناقها تتطلع إلى أميرها الأصلي وتُعزِّز من مقامه وتضاعف من إجلاله؛ بناء على أنه هو رمز استقلالها الوحيد، فالمبالغة في إجلال هذا الرمز إنما هي المبالغة في حفظ الاستقلال نفسه.

فعندما يهتف شوقي وَمَنْ في نَمَطه بتلك القصائد الرئانة؛ إِمَّا في مدح عزيز مصر أو في مدح الخليفة الأعظم، فإنما هو في الحقيقة يُشيد باستقلال مصر في وجه الأجنب الطامعين المُستأثرين بالأمر، وعندما يرسل كلماته الخالدة في مديح السلطان الخليفة فإنما يُقدِّس مقام الخلافة العزيز على المسلمين، الناظم لشملمهم، القائم في وجه عدوهم. فليس في هذا المذهب ما يدلُّ على سلوك طريق التزلف كما يظنُّ مَنْ لا يُدقِّق في أسرار الأمور، ولكنها الصارخة القوميَّة والنزعة الإسلاميَّة، والنَّضْح عن حَوْض الخلافة، والدَّوْد عن بنيان السُّلْطنة، وهذا أشبه شيء بالدعاء الذي يُقال في الجوامع نهار الجمعة استِنزَالاً من عند الله لِنَصْر سلاطين الزمان الحافظين لكيان الأُمَّة في الداخل والخارج، وليس هذا الدعاء خاصاً بأشخاصهم وإنما هو للمقام الذي يتبوءونه، لا يزال الخطيب يدعو لهم حتى إذا زال الواحد منهم عن كرسيه دعا لخلفه. ولا يُقال في مثل هذه الحالة إن خطباء الجوامع مُتزلِّفون، وإنهم لذلك ليسوا على شيء من حريَّة الفكر. فالكلام هنا راجع كُلُّه للدولة مقصود به مجد الأمة وليست هنا الأشخاص هي القصد من الرسوم، وأيضاً فإن هؤلاء الملوك والأمراء يبرُّون شعراءهم ويغمروَنهم بالنعم الجسام ويحسنون إليهم بأنواع الإحسان والنفوس مطبوعة على حبِّ مَنْ أحسن إليها، وقد قال المتنبي:

... .. وَمَنْ وَجَدَ الإِحْسَانَ قَيْدًا تَقِيْدًا

فلا عَجَبَ أن يكون أحمد شوقي قد قال في الخديوي السابق القصائد التي سارت في البلاد وترنم بها الحاضر والباد، وقال مثلها وأحسن منها في السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين الذي بمديحه تطيب نفوسهم وتهتُّر أعطافهم. ويزيد هذا البرهان ظهوراً أنه لم تكن تقع حرب تظهر فيها قوة الدولة ويتلألأ مجد الملة إلاَّ وجدت شوقي قد جاء يجرُّ جَحْفَل فصاحته ويرفع لواء بلاغته، كما نظم في حرب الدولة مع اليونان تلك القصيدة الباقية التي بدَّ فيها شعراء العالمين وسأوى فيها شعر المُتقدِّمين، وسنذكر فيما بعد ما يأخذ بالألباب منها.

ولقد درَّت دُرر شوقي في مديح الخديوي السابق بخيرات وشت بروده وكفَّته مؤونة العيش الأبله، فما من شعر اخضرَّ له رعيٍّ وأورق له غصن كشعر شوقي، وهذه هي عائلته تتقلَّب والله الحمد في النعماء التي أثَّلتها شعره.

وأما أنا فقد كان أكثر فراري من الشعر حَشِيَّةً أن يُظَنَّ بي مُزاوَلته تَكْسُبًا لا تَأْدُبًا؛  
وذلك لكثرة الشعراء الذين سلكوا تلك الشُّعَاب فَكُنْتُ إذا مدحت السلطان فإنما أمدحه  
لأجل أُمَّتي التي هو سلطان عليها، وكنت أنشر قصيدتي في الجرائد ولا أقدِّمها إلى الحضرة  
السلطانية، وفي إحدى المرات عندما كنتُ في ريعان الصبا نظمت قصيدة واستسختها بخطِّ  
أنيق وموهَّتها بالذهب وقصدت تقديمها للمابين الهمايوني كما كان يُقال، ثم عدلتُ عن  
ذلك واكتفيت بنشرها في الجرائد، وقد سبق أني لما أشار إليَّ الأستاذ الإمام بأن أنظم شيئًا  
للخديوي محمد توفيق — رحم الله الاثنين — نظمت تلك القصيدة الدالية التي تقدَّمت في  
رسالتي هذه ولم أغفل أن أختمها بهذين البيتين:

وإنِّي إذا أهدي العزيز مدائحي      أبوء بصدق القول غير مُفَنِّد  
وإلا فما حاولت إدراك غاية      بشعري ولا نظم القصائد مَقْصِدي

وهذا حرصًا منِّي على ألا يفهم الخديوي رغبةً منِّي في المكافأة، وفي هذا منِّي نظر إلى  
قول أحد شعراء الأندلس، وكان من أبناء البيوتات:

وما أنا بالباغي على الشعر رَشْوَة      أبى ذاك لي جدُّ كريمٍ ووالدُ  
وأنِّي من قومٍ قديمًا وحادثًا      تُباع عليهم بالألوف القصائد





## عِفَّةُ لِسَانِ شَوْقِي وَبُعْدُهُ عَنِ الْهَجَاءِ

وَلْنَعُدُّ إِلَى أَوْصَافِ شَوْقِي الشَّعْرِيَّةِ، فنقول: إنه وإن كان أسرف في المديح وفي مديح أمير بلاده خَاصَّةً، فلم يلوَّثْ شَعْرَهُ بِالْهَجَاءِ، ولم أسمع له قصيدةً يهجو بها أحدًا، قد عَصَمَهُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنْ مِنْ أَقْبَحِ مَا قَبَّحَ سَمْعَةَ الشَّعْرَاءِ وَجَعَلَ الْخُلُقَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ بِشَيْءٍ مِنَ الرَّيْبَةِ، أَنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ رَنَعُوا فِي لِحُومِ النَّاسِ وَسَيَّرُوا الْمَثَالَبَ الَّتِي قَدْ تَكُونُ بِلَا أَصْلِ، أَوْ يَكُونُ لَهَا أَصْلٌ ضَعِيفٌ وَلَكِنَّ النَّاسَ حَفِظُوهَا وَتَدَارَسُوهَا لِبِدَاعَةِ قَوْلِهَا خَلْفًا عَنْ سَلَفٍ، حَتَّى انْتَهَى الْأَمْرُ بِأَنْ صَدَّقُوا فِحْوَاهَا وَصَارَتْ فِي نَظَرِهِمْ وَقَائِعَ تَارِيخِيَّةٍ. فلو كان شوقي شَتَامًا مُقَدِّعًا مَعَ مَا أُوتِيَ مِنَ الْإِجَادَةِ لَكَانَ تَلَمَّ أَعْرَاضًا وَخَلَّدَ مَقَابِحَ وَأَوْرَثَ أَحْقَادًا وَقَيَّدَ فِضَائِحَ، وَكَانَ هَجَا نَفْسِهِ بِهَجْوِهِ لِغَيْرِهِ، وَمَا أَصْدَقَ هَذِهِ الْجُمْلَةَ: الْإِنَاءُ يَنْضَحُ بِمَا فِيهِ. فَعِفَّةُ لِسَانِ شَوْقِي وَتَنَكُّبُهُ طَرِيقًا طَالَمَا سَلَكَهَا شَعْرَاءُ كِبَارٍ وَصَغَارٍ وَمُتَوَسِّطُونَ هَذَا دَلِيلٌ عَلَى زَكَاءِ طَبْعِهِ وَفَرْطِ حَيَاتِهِ وَأَيْضًا رَجَاحَةِ عَقْلِهِ وَأَصَالَةِ رَأْيِهِ، فَكَمْ أَحْدَثَ الشَّعْرُ مِنْ فِتْنَةٍ وَأَرَاقٍ مِنْ دَمٍ وَأَحْرَجَ مِنْ جَمَاعَةٍ وَحَرَمَ الْعَالَمَ مِنْ نِعْمَةٍ، وَأَيَّةُ نِعْمَةٍ كَانَتْ أَعْظَمَ مِنْ شَعْرِ الْمُتَنَبِّيِ الَّذِي كَانَتْ حَيَاتِهِ كُلُّهَا أَقْوَالًا عَبَقْرِيَّةً آخِذًا بَعْضُهَا بِرِقَابِ بَعْضٍ، وَلَكِنَّهُ بَرِغَمَ جَمِيعِ حِكْمِهِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَأَرَائِهِ الْفَلَسَافِيَّةِ لَمْ يَتَنَبَّهُ إِلَى مَا فِي الْهَجْوِ مِنَ الْاسْتِهْدَافِ لِلْمَقْتِ وَالتَّعَرُّضِ لِلْهَلَكَةِ، فَقَالَ مِنَ الْأَقْوَالِ الصَّغَارِ مَا يَخَالِفُ تِلْكَ الْحِكْمَ الَّتِي تَفَرَّدَ بِهَا وَأَسْفَّ

في الهَجْوِ إسْفَافًا يَحَارُّ العِقل لصدوره من مثله، وانتهى بأن ذهب فريسة إقذاعه، وكلُّ يعلم أن قصيدته المسخوطة التي أولها:

ما أنصف القوم ضبه وأمه الطرطبَّه

قد كانت سبب قتله على يد فاتك الأسدي خال ضبَّة الذي انتقم لشرف أخته وحرَم الناس مواهب تلك النفس العظيمة في إِبَّانِ إجادتها وأَوْجِ مجادتها، ونكتفي بهذا المثال عن الأمثلة الكثيرة التي كانت مآسي في تاريخ العرب، وجراحات اللسان ليس لها ألتَام، فمن محاسن شوقي التي يجب أن تُذكَر وتؤثَّر أنه لم يستمطر عارضَ خاطره في تقييد شنعاء أو تخليد صلحاء، وما أجدره بقول نصيب الشاعر: ما قلت بيتاً قطُّ تستحي الفتاة الحية من إنشاده في ستر أبيها. كان شوقي عفاً طاهرَ اللفظ صافي النفس تنعكس على مرآه نفسه النقيَّة المحاسن دون القبائح، وكان لا يسلم من الحسد والمنافسة ومثله مَنْ يحسد ويغص بمكانه، ولكنه كان يمر باللغو كريماً وبالحدس عظيماً وكأنه يرى نفسه فوق أن يُزاحم ويجد شوطه أبعد من أن يُسابق فيعف عن قُدرة ويتواضع عن أنفة، وقد صدق حيث قال:

فلا حكمتي دعوى ولا منطقي هوى	ولا مبدئي لؤم ولا قلمي وغد
جعلتُ مديحي آية الودِّ في الورى	فجاب به الدنيا وما انتقل الودُّ
قوافٍ لربِّ الشعر لا النظم طائل	إذا هي سارت في البلاد ولا النقد
يهذبها العلم الذي العلمُ بعضه	وهذا البيان الوحي والفتنة الوقد
أوانسُ أحياناً شوارد تارة	لها لعب أنا وأنا لها جدُّ

وما قال هذه الأبيات إلا على أثر قالة بلغته، وهذه كانت غاية ما ثار ثائره، ويجوز أن يكون وقع له غيرها، ولكنني لم أطلع على ذلك بمكاني من برِّ الشام والمصريون أدرى بهذا مني، وأنت ترى أن في تعريفه هذا بمن ينافسه أو يحاول الغص منه ما لا يجد فيه قائل مقالاً.

وقد كان يتجنب أيضاً المساجلات والمناقشات في شعره؛ فلا يهاجم ولا يُهاجم، وربما نيل منه في غيابه ولكنه كان يقابل بالسكوت، ولعلَّ سكوته هو لما تقدّم من ثقته

بنفسه وشعوره بأنه الصخرة التي ينحطُّ عنها السيل، وربما لو ذهب في المناقضات مذهب الغابرين لكان أتى ببدائع أبقاها عزوفه عن هذا الأمر ملفوفة في غلافها مكونة في أصدافها، فقد قرأنا فعلمنا أن الشعراء المُفْلِقِينَ إنما يَحْلُقُونَ في سماء الفصاحة عندما يناقض بعضهم بعضاً، انظر على سبيل التمثيل قول رَمَّاح بن ميادة يمدح قيساً ويفتخر بها ويهجو تميمًا وأسدًا:

وإن غضبت يربوعها وربابها  
ولست أبالي أن يطنَّ ذبابها  
على الشمس لم يطلع عليكم حجابها  
يداك وفات الرّجل منك ركابها  
مَعَاذَ الإله أن أكون أهَابُها  
لمفتخرُ أشياء يُعَيِّي جوابها

وأحقر محقور تميم أخوكمُ  
ألا ما أبالي أن تخندف خندف  
ولو أن قيساً قيس عيلان أقسمت  
إذا غَضِبْتَ قيسٌ عليك تقاصرت  
وإن غَضِبْتَ من ذا قريش فقلْ لها  
وإنني لقوَال الجواب وإنني

فأجابه عبد الرحمن بن جهيم الأسيدي:

رَبَا وَهُوَ وَسَطُ الشَّوْلِ تدمي كعابها  
يَهْجُ لك حربًا قُصْبها وأَعْتِيَابها  
مسامعَ قيسٍ وهي خُضَع رِقَابها  
على قومه حربًا عَظِيمًا عذابها  
قتيبة أن لم تحم قيسًا غضابها  
لأنواء غنم أغرقتها شعابها  
لكان لنا إشراقها واحتجابها  
بقدرته إصعادها وأنصِيبابها  
لبئس شباب المرء كان شبابها  
أبوه أم المُرِّي تَبَّ تبابها  
لئام فلا يُرَضَى لِحُرِّ سبابها  
بشنعاء يُعَيِّي القائلين جوابها

لقد كَذَبَ العَبْدُ ابن ميادة الذي  
أرْمَاحُ إن تَغَضَّبَ صنديد خندف  
ولو أَعْضَبْتَ قيسٌ قريشًا لجدعت  
لقد جرَّ رَمَّاحُ بن واقصة الخصي  
وقد علم المملوح بالشؤم رأسه  
ولو أن قيساً قيس عيلان أصحرت  
ولو أن قَرْنَ الشمس كان لَمَعِشِرِ  
ولكنها لله يملك أمرها  
لعمري لئن شابت حليلة نهبل  
ولم تدرِ حمراء العجان أنهبلُ  
ووالله لولا أن قيساً أذَلَّةُ  
لألحقتها بالزنج ثم رميتها

لا جرم أن في هذا الشعر، سواء من المهاجم أو المدافع من جزالة اللفظ وبلاغة التأثير وعلو النفس وقوة الطبع، ما يندر أن يكون في شعر شاعر، وقد كان يلذُّ للقارئ ويحلولى في ذوق السامع ويُستعاد مرارًا لولا ما في جواب الشاعر الأُسدي من المقاذر، ولو أنهم كانوا اقتصروا على المفاخرة والمعاتبة لكان بهم أَحَجَى، ولهم أَنْجَى، وبالأقئدة أعلق، وبزكاء شمائلهم أنطق، وعلى كلِّ حال لم يُعَلِّمَ ماذا كان يكون من شوقي لو فاخره مفاخر أو كائره مُكائِر؛ فإنه لم يسلك هذه الطريقة ولا اختار هذا المركب ولو أنه كان اختاره أو دُفِعَ إليه لوجد مَنْ يجاذبه الحَبْلُ وَمَنْ يقف في وجهه وقوف الكفِّ للكفِّ فلا حافظ إبراهيم ولا خليل المطران ولا الكاظمي ولا الرصافي ولا من في درجتهم، كان يعجز عن أن يقابل شوقي السجل بالسجل، ولكن إما لرغبة منه عن الشحناء وإما لترفع منه عن مباراة النظراء، رَبَّأً بنفسه عن القال والقيل، وتَبَاعَدَ بها عن كلِّ نزاع من هذا القبيل، وأصبح الفذُّ الذي لا يُسَاجَلُ والجواد الذي لا يُجَارَى، حتى إني قلت فيه عند وفاته من جملة رثائي له:

ولقد رويتُ الشعر عن آحاده	وألفت للسباق في حَلِبَاتِهِ
وقضيتُ فيه صَبُوتِي وصبابتي	وقطفتُ منه خير نَوَارَاتِهِ
وأثرتُ في الميدان بُزْلَ فحوله	وأطرت في الأفاق شُهْبَ بُزَاتِهِ
فرايتُ شوقي لم يدع في عصره	قِرْنًا يهزُّ قناته لِقناته

## شوقي في بداية أمره

ولما نشر شوقي الجزء الأول من ديوانه؛ وذلك في سنة ١٩٠٠ بعث إليّ بعددٍ لا أتذكّر مقداره من النسخ فنشرتها في بيروت ولبنان وسورية، وأعلنت عن ذلك الديوان في الجرائد السورية، وقلّتُ في الإعلان: إذا كان الشعراء أربعة فإن الشاعر الذي يجري ولا يجرى معه في هذه الأيام، والذي أحى بشعره عهد أبي نواس وأبي تمام، إنما هو أحمد شوقي بك شاعر مصر وصنّاجة العصر ... إلى أسطرٍ لم تبقَ في بالي. وكان شوقي قد اشتهر وسار شعره في برّ الشام، ولكن هذا الديوان زاد في لمعانه وجمعتُ أثمانَ النسخ وبعثتُ بها إلى شوقي، ولما كان الكثيرون لم يدفعوا أثمانَ النسخ التي خصصناهم بها، كما هي عادة الشرقيين في استهزاء المطبوعات مجاناً، فقد أرسلت من جيبِي بثمان ما لم أقبض بدله إلى شوقي، ولم أخبره بأن ذلك هو منّي؛ لئلا يرُدّه إليّ.

وكان شوقي إلى ذلك العهد ضعيف الحال، لم يحصل على الثروة التي جمعها فيما بعد، والتي كان السبب فيها شعره بدون نزاع. ولما بعث إليّ بذلك العدد من نسخ ديوانه أهداني نسخة خاصة بي بجلدٍ مُذهّب لا تزال في حوزتي، وقد كتب عليها في الصفحة الأولى: «إلى أميرِي وأخي شكيب أرسلان. «شوقي»» والتاريخ ٢٧ مارس ١٩٠٠، أما النسخة التي طُبعت في السنين الأخيرة فهي تشتمل على قصائد مُتنبّة في الطبعة الأولى، وعلى قصائد جديدة، ولكن مقدمة شوقي في الطبعة الأولى محذوفة من الطبعة الثانية، وهي المقدمة التي ترجم فيها نفسه، فقال شوقي كما ترجم نفسه:

الآن أدخل في الحديث مع فريق طلبوا منّي أن أجعل صورتي في هذه المجموعة، وآخرين رغبوا إليّ في كلمة تُقال عنها وعن صاحبها وألا يقولها سواي. معذرتي

إلى الفريق الأول أن مَنْ يعرض صورته على الناس كَمَنْ يعرض وجهه عليهم، وأعوذ بالله وبالمحبين أن أكون ذلك الرجل. على أن صورتني ما عشت بينهم ينظرون إليها، فإذا متُّ فليأخذوها من أهلي إذا جدَّ بهم الحرص عليها. وللآخرين أقول: إنني لا أزال في أول النشأة وإن حياتي لم تحفل بعد بالعجائب، ولم تمتلئ من الفوائد ولا المصائب حتى أحدث الناس بأخبارها، لكني لا أثق بيومي الآتي وأخاف بعدي رجوم الظنِّ وضلَّات الأحاديث، فلي العذر أن أجيب طلبهم على أن يكون الحديث بيني وبينهم كما يكون بين الأحباب. سمعت أبي — رحمه الله — يردُّ أصلنا إلى الأكراد فالعرب، ويقول إن والده قديم هذه الديار يافعاً يحمل وصاةً من أحمد باشا الجزائر إلى والي مصر محمد علي باشا، وكان جدِّي، وأنا حاملٌ اسمه ولقبه، يُحسن كتابة العربيَّة والتركيَّة خطأ وإنشاء، فأدخله الوالي في معيته ثم تداولت الأيام وتعاقب الولاة الفخام وهو يتقلدُّ المراتب العالية ويتقلَّب في المناصب السامية إلى أن أقامه سعيد باشا أميناً للجمارك المصريَّة، فكانت وفاته في هذا العمل عن ثروة راضية بددها أبي في سكرة الشباب، ثم عاش بعمله غير نادم ولا محروم، وعشت في ظله وأنا واحدهُ أسمع بما كان من سعة رزقه ولا أراني في ضيق حتى أندب تلك السعة، فكأنه رأى لي كما رأى لنفسه من قبلُ ألا أقتات من فضلات الموتى.

إلى أن يقول:

أما ولادتي فكانت بمصر القاهرة وأنا اليوم أحمو إلى الثلاثين. حدَّثني سيِّد ندماء هذا العصر المرحوم الشيخ علي الليثي قال: لقيتُ أباك وأنت حملٌ لم يُوضَع بعدُ، فقصَّ عليَّ حلماً رآه في نومه، فقلتُ له وأنا أمازحه: ليؤلِّدَنَّ لك ولدٌ يخرق — كما تقول العامة — حَرْقًا في الإسلام. ثم اتفق أني عدتُ الشيخَ في مرض الموت، وكانت في يده نسخةٌ من جريدة الأهرام، فابتدر خطابي يقول: هذا تأويل رؤيا أبيك يا شوقي، فوالله ما قالها قبلُ في الإسلام أحدٌ. قلتُ: وما تلك يا مولاي؟ قال: قصيدتك في وصف «البال» التي تقول في مطلعها:

حَفَّ كَأَسْهَا الْحَبِّبُ      فَهِيَ فِضَّةٌ ذَهَبُ

وها هي في يدي أقرؤها. فاستعدت بالله، وقلت له: الحمد لله الذي جعل هذه هي «الخرق» ولم يضرَّ بالإسلام فتيلًا. اهـ.

أخذتني جدتي لأمي من المهدي، وهي التي أرثيها في هذه المجموعة، وكانت مُنعمَةً مُوسرةً، فكفَلتني لوالدي، وكانت تحنو عليَّ فوق حنوّهما، وترى لي مخايل في البرِّ مرجوة، حدّثتني أنها دخلت بي على الخديوي إسماعيل وأنا في الثالثة من عمري، وكان بصري لا ينزل عن السماء من اختلال أعصابه؛ فطلب الخديوي بَدْرَةً من الذهب ثم نثرها على البساط عند قدميه، فوقعتُ على الذهب أشغل بجمعه واللعب به، فقال لجدتي: اصنعي معه مثل هذا، فإنه لا يلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض. قالت: هذا دواء لا يخرج إلا من صيدليتك يا مولاي. قال: جيئي به إليّ متى شئت، إنِّي آخر مَنْ يَنُثرُ الذهب في مصر. اهـ. ولا يزال هذا الارتجاج العصبي في الإبصار يعاودني وكان المرحوم الشيخ علي الليثي كَلَّمَا التقت عينُه بعيني ينشد هذا المصراع للمتنبّي: «محاجر مسك رُكبت فوق زُبُق.» انتهى. إلى آخر ما ذكره من صفحات حياته إلى السنة التي طُبِعَ فيها الجزء الأول من شوقيّاته، فتعرض له إبراهيم بك المويلحي الكاتب المشهور ونشر مقالةً في المؤيد ليست محفوظة عندي، وإنما الذي أتذكّره أن المويلحي هَزَأَ بشوقي فيما ذكره عن ارتجاج عينيه، وفي قول الشيخ علي الليثي له: «محاجر مسك رُكبت فوق زُبُق.» وخطأه في ترجمته لنفسه زاعماً أن مثل هذا غير مألوف عند المؤلِّفين، وأنه لم يعهد أن مؤلِّفاً تَرجم نفسه في مقدمة كتابه، وغير ذلك من المزاعم المُستغربِ صُدورها من أديب كبير مثل إبراهيم بك المويلحي؛ فلم أستطع على ذلك صبراً، ورددتُ على المويلحي بمقالة في جريدة المؤيد هي أيضاً غير محفوظة عندي، وقد بعثت إلى مصر أبحث عنها في مجموعة المؤيد بخزانة الكتب الملوكية، فأجابوني بأنهم بحثوا عنها فلم يعثروا عليها؛ ولذلك لا أقدر أن أروي منها طائلاً يُذكر لأن النثر لا يُحفظ كما يُحفظ الشعر. وقد وقع لي أن فقدت بعض قصائدي فأملئُها كلّها عن ظهر قلبي، وأمليتُ من قصائد أخرى مفقودة أبياتاً غير قليلة، ولكن لو فقدتُ مقالةً من المقالات أو فصلاً من الفصول لَمَا تسنّى لي أن أروي من ذلك سطرين مُتتابعين؛ فلهذا أكتفي بأن أقول إنني رددت على المويلحي مُتعبجاً من مكابرتة فيما هو محسوس لا خلاف فيه؛ فإن كثيراً من فحول المؤلِّفين قد ترجموا أنفسهم في كتبهم ولسان الدين بن الخطيب أعظم كُتّاب الأندلس ومن أعظم كُتّاب العرب، قد ترجم نفسه في كتابه «الإحاطة في أخبار غرناطة»، وكذلك الإمام السيوطي شيخ المؤلِّفين لا في

العرب وحدهم بل في العالم كله،<sup>١</sup> وهو الذي صنّف أربعمائة وستين كتابًا قد ترجم نفسه أيضًا في «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة».

وعَدَدْتُ ذلك اليوم علماء آخرين ترجموا أنفسهم، فلم يجاوب المويلحي على ردي وقطع عن الكلام لعدم اتساع المجال للمُحاكّة، فكتب شوقي إليّ على أثر هذه المناقشة كتابًا يقول لي فيه: «دفعت اليازجي عني بيدِ هَدَمَت كَيَانِه وألغت بيانه، وتحامل عليّ المويلحي فرددت عني الردّ الذي قطع حُجَّتِه، فبعد أن كانوا يرمونه بالحسد والتحامل جعلوا يرمونه بالجهل والتطاؤل، فسبحان مَنْ جعلك جَلَدًا لأعدائي وروبرتسًا لِحُسّادي ... إلخ.» يريد روبرتس القائد الإنجليزي الذي دوّخ الترانسفال، وكان العهد بحرب الترانسفال قريبًا.

---

<sup>١</sup> قال سيديو — مؤلف كتاب مدينة العرب بالإفريقية: إن السيوطي ألف من الكتب ما لم يقرأ كثيرٌ من الأوروبيين في حياتهم بعدّه.



## نموذج من رسائل شوقي

وأكثر كُتِبَ شوقي مفقوداً من عندي بكثرة أسفاري وضياع كثير من أوراقه، ثم هناك سبب آخر لصعوبة العثور على الأوراق التي أنشدها فلا أجدها، وهو أن ما عندي من الأوراق والطرُوس المكتوبة يملأ صناديق عديدة، بل الظروف التي تشتمل على تلك الأوراق تُحصي عندي بالمئات لا بالعشرات، وهذا كلُّه عدا المطبوع الذي منه صناديق أخرى مُفعمّة لَزاً، فإذا أردتُ أن أبحث عن مكتوب لَزِمَ لذلك أيام وليالٍ وتعطيل أشغال، وبديهي أنّي لا أملك من الوقت ما أتفرغ فيه للبحث عن أوراق غائصة في تلك اللجج الخضر، ولا شكّ في أن مكاتيب شوقي هي بين هذه الأوراق ولكن لا تصل اليدُ إليها، وقد عثرتُ اتّفاقاً على كتابٍ منه في تاريخ ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٠٧ يقول لي فيه ما يأتي:

### أميري الحبيب الكريم

سلام الله العلي العظيم على ذلك الجناب الكريم وبعده، فإن أخي بيومي بك الذي يتقدّم إليك برسالتني هذه هو رجل كلُّه أدب وإن لم يكن من رجال الأدب، وقد عزم على أن يقيم ببيروت أياماً معدودة، وأبى إلا أن أدله على علمها ومنازها والأثر الفخم الجليل من آثارها وهو أنت، وها قد دلّته وإليك أرسلته، وأنا أغبطه بهذه الوفادة، وأحسده على تلك السعادة.

المخلص

شوقي



## شوقي في سورية

وجاء شوقي مرّة إلى سورية لا أتذكّر أيّة سنة، فوصل إلى عالية وكنت مصطافاً في صوفر فبعثوا إليّ يقولون: إن شوقي في عالية وإنه يريد مشاهدتك، وصادف أنني كنت ذلك اليوم ملتأناً فبعثت إليه بأن ينتظرنني وأني أكون في الغد عنده. وثاني يوم بكّرت إليه وذكرت له سبب تأخري، فقال لي على سبيل المداعبة: رجوت أن تكون كاذباً ولا تكون مريضاً. فقلت له: المرض أحبُّ إليّ من الكذب، ثم دعوته إلى صوفر فمكثت عندي يومين لا غير، وكان العهد قد طال عليّ بلقائه، وكان اشتد بي الشوق إليه فوجدتُ عليه في قصر مدة إقامته عندي، ولكنه كان أشبه بالطير يريد أن يبقى حرّاً طليقاً، وكان شوقي قبل ذلك في الأستانة فحصلت معارفة بينه وبين المرحوم عمّي الأمير مصطفى أرسلان رئيس العائلة الأرسلانية في وقته، وكان ذهب يضطافُ في تلك العاصمة فأحبّ العمُّ شوقي كثيراً، وكانا يتجالسان ساعاتٍ طويلاً وكلُّ منهما حريص على عشرة الآخر، وكلُّما طالت مدة اجتماعهما طابت لهما.

ولما كان شوقي في عالية سأله أحد أعيان لبنان قائلاً: بلغنا أنك لقيت الأمير في الأستانة. فأجابه شوقي: ذا أمير؟ ذا ملك. قالها وهو ملآن إعجاباً بالأمير مصطفى، فكان وداده لعمّي إلى هذه الدرجة ممّا يزيدني تعلقاً به.

### (١) زيارتي لمصر في أيام الحرب الطرابلسية

ولما هاجمت إيطاليا طرابلس الغرب سنة ١٩١١ كتبت الجهات في أعمال الرحلة إلى تلك البلاد نجدةً لأهلها وفي تسريب الإمدادات الماليّة إليهم، وأبرقت إلى الأستانة ببرقياتٍ في ذلك المعنى، جاءني عليها الجواب من محمود شوكت باشا ناظر الحربيّة ببرقيّة طافحة

بالشكر على ما كنتُ أبعده من الهمة في أمر المدافعة عن الوطن، وكان لي يد في استجاشة المصريين لإمداد إخوانهم الطرابلسيين، سواء فيما كنتُ أكتبه من المقالات المؤثرة في جريدة المؤيد أو بما كنتُ أكتبه في رسائلي الخاصة إلى بعض أصحابي بمصر، وأخيراً كتبوا لي، ومن جملتهم الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد، يقترحون عليّ قدومي إلى مصر لأجل العمل معاً في إيجاد طرابلس. وصادف هذا الاقتراح هوياً في فؤادي؛ إذ كنتُ أحدث نفسي من أوّل يوم هُوجمت فيه طرابلس بأن أذهب إلى هناك عن طريق مصر. وخلاصة الأمر أنني جئتُ إلى مصر في خبرٍ ليس هنا موضع تفصيله، وإنما أتيتُ به لمناسبة اجتماعي هذه النوبة بشوقي وكيف كان ذلك.

## (٢) استطراد

جئتُ إلى مصر فعين لي الجناب الخديوي ثالث يوم وصولي موعداً للملاقاة، وجلست في حضرته أكثر من ساعة نتذاكر في تلك الحوادث المهمة والخطوب المذلهمة، ولقيت من سموه كلّ حفاوة وانعطاف، وما مضت أيام حتى أدب الخديوي مآدباً لكامل باشا وفريد باشا الصّدرين السابقين في الدولة، فدعاني إليها، وكان ممن دُعي أيضاً شفيق باشا المؤيد من أعيان الشام، وبصري بك من أعيان الأرناؤوط والشيخ علي يوسف صاحب المؤيد. وعاد الخديوي فاستدعاني مرّة ثالثة، وأرادني على الإقامة بمصر وصرف النظر عن الذهاب إلى برقة. أرادني على ذلك بكلّ ريدة، فلم أقتنع وقلت له: إني ما جئتُ من لبنان إلا قاصداً الجهاد في طرابلس. فلما يئس من إقناعي بالبقاء في مصر وودّعه لأجل السفر، أراد تكرّماً منه أن يساعدي مساعدة مالية فاعتذرت له بأنه لا يلزمني شيء من ذلك، وأنه موجود في جيبني ما يسدُّ حاجتي في هذه الرحلة، فألح في قبول المساعدة إلحاحاً شديداً لم أقدر على صرفه عنه إلا بقولي: إني إذا أنفقت ما لديّ ومسّت بي الحاجة إلى شيء فلا أتأخر عن أن أستمّد عاطفة سموكم. وكان هذا الحديث أمام أحمد بك العريس ومحمد بك عثمان.

## (٣) في طريقي إلى بنغازي وعودتي

وودّعت الجناب الخديوي وذهبت إلى الإسكندرية، ومنها ركبنا السكة الحديدية إلى مريوط، ومن آخر محطة لها ركبنا الخيل أنا ومنّ معي من أتباعي الذين حضروا معي

من جبل لبنان. وكانت جمعية الهلال الأحمر المصري قد عهدت إليّ بقيادة قافلة ستمائة جمل موقرة أرزاقاً للمجاهدين في برقة، وخصصت منها لي ولجماعتي الذين معي محمول ثلاثين جملًا موقرة من كلِّ شيء من مأكول وملبوس. فعندما وصلت إلى طبرق لقيت في ذلك الموقع أدهم باشا الحلبي، وتركت في طبرق جانبًا من الأرزاق للمجاهدين، ولما وصلت إلى معسكر عين منصور المشرف على درنة؛ حيث كان القائد العام أنور بك، سلّمت البعثات المصرية من الهلال الأحمر ما خصّصت به من نقود وأرزاق وحوائح، ولما وصلت إلى معسكر بنغازي الذي كان أميره عزيز بك علي المصري سلّمت الباقي للبعثات المصرية التي هناك، وكان منها الدكتور حافظ عفيفي.

أما محمول الثلاثين جملًا الذي خصّصه الهلال الأحمر ولجنة الإعانة بي أتصرّف به كيف شئتُ فقد وزّعته على مشايخ الزوايا السنوسية مثل سيدي العلمي الغماري شيخ زاوية البراعصة، وسيدي محمد الغزالي شيخ زاوية ترت، وسيدي الدردني شيخ زاوية شحات وغيرهم، وأهديت جميع ما بقي إلى أنور باشا ولم أستأثر لنفسي بشيء. وكذلك كانت لجنة الإعانة خصّصت لي مائتي جنيه لنفقتي الخاصة فوزّعتها إعاناتٍ وهدايا لأجل تطبيب خواطر المجاهدين، وبقيت أنفق على نفسي من صُلب مالي الذي كان معي مذ برحت منزلي في جبل لبنان.

ولما رجعت إلى مصر بعد قضاء سبعة أشهر في موطن الجهاد كان قد نَفد كلُّ ما معي من النقود، فلم أراجع الجناب الخديوي حسبما وعدته بل أرسلت إلى أهلي بأن يبعثوا لي ما يقوم بأودي؛ لأنني كنت ذاهبًا إلى الأستانة لمذاكرة الدولة في قضية طرابلس، وكيف يجب ألا تقطع إمدادها لها بالطرق الممكنة حتى بعد عقد الصلح مع إيطاليا.

#### (٤) استطراد آخر

ليس هذا من موضوع شوقي في شيء، ولكنه جاء استطرادًا بسببٍ يعذرني الناس فيه، وهو أن كثيرًا من الحساد لا يزالون يتشدّقون بأني بقيت في سويسرة عدة سنوات أقبض ثلاثين جنيهاً في الشهر من الخديوي السابق، ويجعلون هذه القضية مَطْعَنًا يحاولون به شفاء إحنة صدورهم. والحال أن الخديوي السابق نفسه يعترف بأنه هو الذي أرادني على قبول هذا المرتب الذي كان يراه ضئيلًا بالنسبة إلى نفقاتي في القضية العربية الإسلامية عامّة، وأنتني أنا مع ذلك اعتذرت له بادئ ذي بدء عن قبول هذا الراتب، وما وطّنت النفس على قبوله إلا بما شاهدت من إلحاحه ومن إلحاح صديقي سليمان بك كنعان اللبناني

الذي كان يسفر بيني وبين سموّ الخديوي السابق، وبيّين لي أنه ليس من الطمع في شيء أن يرضى مثلي بمكانه من قضايا عامّة معلومة عند كلّ أحد، وفي هذه الغربة المتمطيّة بصُلْبها بقبول مساعدة أمير كبير ذي ثروة طائلة جلس على كرسيّ إمارة مصر ٢٣ سنة. وكذلك لا ينسى الخديوي السابق أنني لما ودّعته في سراي القبة قاصداً موطن الجهاد في برقة اعتذرت عن قبول أيّ رَفْدٍ منه رغم ما راودنيهِ على القبول، ومع معرفتي أنه لا يعيب مجاهداً ذاهباً يقاتل عن قُطرٍ مُنَّصل بمصر أن يقبل مساعدة من عزيز مصر.

وليس هذا الحديث بذي صلة مع ما نحن بسبيله لولا ما لا يزال الحُسَّاد يثرثرون به في هذا الموضوع بُكْرَةً وأصيلًا، وما يزالون يُذيعونه لدى مَنْ لا يعرفني في بلادي من أنني لا أملك شيئاً ولا أقدر أن أعيش أنا وعائلي من وارداتي الخاصّة. وهذا هو أيضًا بهتان صريح مخالف للمحسوس يعلمه جميع أهل وطني، فلست أدّعي كوني من ذوي الثروة المعدودة، ولكن ليس بصحيح أنني لا أقدر أن أعيش أنا وعائلي من ريع عقاراتي وأملاكي. إنه مُستهجَنٌ جدًّا الخوض في أحاديث كهذه، ولكن تحامل الحُسَّاد وتتبعهم العورات يحملان المرء أحياناً على تعقُّب أكاذيبهم ولو على كُرِّهِ منه، وأعود إلى شوقي فأقول ...

## جَفْوَةٌ لَا سَبَبَ لَهَا

مضت عدة أسابيع على مقامي بمصر قبل أن ذهبت إلى برقة ولم أشاهد شوقي، وقد كنّا أخوين ونحن على البعد، وكنْتُ «جَلَدًا لأعداء شوقي»، وكنْتُ أسترخص كلَّ غالٍ — ومن جملة هذا الغالي صداقة مثل اليازجي — في سبيل مرضاته، فما عدا ممّا بدا؟

الجواب أني لا أعرف سبب تلك الجفوة، ولا مُوجِب تلك النَّبْوة إلى هذه الساعة، أغصَّ شوقي بمكاني من الجناب الخديوي وكثرة ما رأى من احتفال سيِّده بي؟ أم جاء مَنْ ألقى في أذنه أنّي سأزاحمه في محلّه من القُرْب للجناب العالي؟ أم هو رجل له بدوات وغفلات بينما هو حفيٌّ بخلّانه وفيّ مع إخوانه إذا هو مُعرض عنهم متهاون بحقوق المودة التي بينه وبينهم؟ أم هو شاعر لا يتقيّد بشيء ولا يريد أن يكون خاضعًا لتكاليف الحياة حتى مع أعزِّ أصحابه؟ أم هناك عُذر آخر لا أعرفه ولا يهمني أن أعرفه؟

كنتُ نازلًا ضيفًا على صديقي المرحوم أحمد بك العريس من أعيان بيروت ومن مأموري المعية الخديوية، وكان منزله في العباسية، فلما وصلت إلى القاهرة جاء إلى الأوتيل الذي نزلت به، وأبى أن يتركني فيه ليلةً واحدة وسار بي إلى منزله وأبقيت الرفاق الذين كانوا معي في أحد الفنادق. وكنْتُ أختلف كلَّ يوم إلى إدارة المؤيد فأكتب مقالة افتتاحية، وهكذا كان دأبي مدة الأربعين يومًا التي سبقت سفري إلى برقة. وقال لي أحمد بك العريس ذات يوم: إنني قابلت شوقي وقلْتُ له: أفلا تدري أن أخانا الأمير هو هنا؟ قال: نعم. قال العريس: فهل اجتمعتَ به؟ قال شوقي: كلاً لم أشاهده حتى الآن، ومُرادي أن أقوم له بحفلة تكريم في منزلي، ولما كان ناظر المعارف غائبًا هذه الأيام فقد أرجأت هذه الحفلة إلى ما بعد رجوعه. فقال له العريس: الرجل لا ينتظر منك حفلة تكريم، وليس

## شوقي

ما بينكما من الإخاء ممَّا يُوجب هذه المواسم، ولكن الأشبه بك والأليق بوفائك أن تذهب  
وتسلّم عليه. فقال له شوقي: سأفعل. إلا أنه مضت عدة أيام ولم يأت لزيارتي.  
فأخذت القلم في أحد الأيام وكتبت إلى شوقي:

أحنُّ إلى شوقي وأهوى لقاءه	وأصبو ولكن ما إليه وصول
ويخبرني قلبي بأن فؤاده	كما كان لكن يعتريه ذُهل
ووالله ما يَممت مصر وفوقها	يدانيه عندي صاحب و خليل
فشوقي إلى شوقي بقدر محبّتي	وعندي حساب للعتاب طويل!

فما أجاب شوقي على هذا الخطاب لا بشعر ولا بنثر ولا بفعل، ولكنه بقي يقول  
لأحمد العريس إنه يريد أن يعمل لي حفلة تكريم، وفي أحد الأيام زارني الأخ خليل بك  
المطران؛ وهو من العقل وكرم الأخلاق ورعي الذمام بالمقام الذي يندر بين الإخوان، وكان  
يزيدني حباً له ما كان بيني وبين عمّه حبيب باشا المطران من عيون أعيان سورية وبينني  
وبين أولاده ولا سيّما ندره بك المطران من ذمام قديم وودّ متين، وكنت أعلم ما بين خليل  
وشوقي من المودّة فكاشفته بما في نفسي من أمر شوقي، وقلت له: إنه لا شيء يمكنه أن  
يكدر صفو ما بيني وبين شوقي من المودّة، ولكنّي أصبحت أستحي من الناس أن يعلموا  
بأنّي هنا من شهر وأن شوقي لم يتكرّم بزيارتي والقادم يُزار. فقال لي خليل: لا يكُن في  
نفسك شيء من هذه النّبوة، فشوقي له من هذا القبيل الشيء الكثير، ولكننا نحن لا ينبغي  
أن نحمل ذهوله هذا على محمل الهجران.



## اجتماع بعد انقطاع

وذهب الخليل وجاءني ثاني يوم، وقال لي لنذهب إلى أوتيل كونتنتال، فسرنا إلى هناك فإذا بشوقي ينتظرنا، فجلسنا نحن الثلاثة ساعتين من الزمن، وفي ذلك المساء كان تمثيل رواية صلاح الدين الأيوبي؛ لأجل ضمّ ريعها إلى الإعانات الخاصّة بجرحي طرابلس الغرب، وكانت أُقيمت سوقٌ خيريّةٌ للغرض نفسه وأقبل الناس يشترّون منها. وكان الشيخ علي يوسف سألني: أتريد في هذه الليلة أن تُنشد شيئاً من الشعر، فإنه يُحتمل أن تتقدّم الرواية قصائدٌ تُتلى على الجمهور؟ فقلت للشيخ علي: لا أرى نفسي هاتفةً هذه الأيام بالشعر. وذلك أنّي كنت في كلّ صبيحة أكتب في المؤيد مقالة افتتاحية خمسة أو ستة أعمدة أكتبها قطعة وراء قطعة، ومرّتب الحروف يصفّوها بينما أنا لم أنته منها. فرجحت في هذه المدة كفة النثر وأشالت كفة الشعر، وصرت أخشى أني إذا حاولت الشعر لا أبلغ منه درجة الإجابة، فلما اجتمعنا، الخليل وشوقي وكاتب هذه السطور، قال لنا الخليل: دعاني أن أتلو عليكما القصيدة التي هيأتها لهذه الليلة، فقرأ لنا قصيدة رائية مطلعها:

كم بطلٍ مات ولم يسمر      تحت هلال الرحمة الأحمر

وأتى عليها كلّها وهي كسائر شعر الخليل، دقة معنّى ورقة شعور وجزالة لفظ وعلو طبقة، وما كان لقبُ الخليل بشاعر القطرين تجوّزاً ولا تسامحاً. وأبديت له ملاحظة على بيتٍ من تلك القصيدة فأسرع بتغييره. فأما أنا وشوقي فكنا لم ننظم شيئاً لتلك الحفلة، وسألنا الخليل عمّا إذا كنا سنقول شيئاً، فقال كلّ منا: ما هيأت شيئاً. إلا أننا بعد أن انصرفنا وجئنا إلى مركز الهلال الأحمر وجدت المكان خالياً وقلتُ لأستفيدن من هذا السكون وأنظم بضعة أبيات بالأقل، فلما بدأت بالنظم انبعث بي الشعر وانتالت عليّ

## شوقي

الأبيات كأنها تَنَحَّر من صَبَب، فما مضت ساعة إلا وهي في يدي قصيدة تامّة. وأصاب شوقي ما أصابني كما حدّثني فيما بعد؛ وهو أنه انتبذ موضع مناجاة بعث به الشعر فنظّم قصيدةً كما نظمت أنا بدون أن تكون سبقت له نيّة، ولما جننا ملهى الأوبرا جننا نحن الثلاثة وكلُّ منا قصيدته في جيبه، وكان الخليل قد علم منّا أننا لم نهَيِّ شيئاً، فما راعه إلا وأنا أنشد قصيدتي وأحد الشعراء ينشد من بعدي قصيدة شوقي.

## حفلة السوق الخيرية

التي أُقيمت لمعاونة مجاهدي طرابلس وقصائد شوقي والمطران والمؤلف.  
أما قصيدة المطران فليست تحت يدي لأثبتها في هذا الكتاب، وأما شوقي فقال ما

يلي:

واكتب ثواب المُحسِنين وسطرَّ  
واطلب مَزِيدًا في الرخاء لموسر  
يفتح على أُمم الهلال وينصر  
واقعد بهم في ذلك المُستمطر  
لله في ملأ كريم خَيْر  
والله زانك بالقبول الأَنور  
من كلُّ أبلج في الأكارم أزهَر  
فكأنَّها قَطع الغمام المُمطر  
بيع الحصى في السوق ببئع الجواهر  
أين المساوم في الثواب المُشترى؟  
ومن المهابة بين ألف مُعسكر  
لا يسمحون بها وبين الكُوثر  
لا يَطعنون القِرْن ما لم يُنذر  
أخذ المعاقل بالقنا المُتشجر  
لا يسألون عن السعير المُمطر

جبريل هلُّ في السماء وكبّر  
سل للفقير على تَكْرُمه الغنى  
واذعُ الذي جعل الهلال شعاره  
وتولَّ في الهيجاء جند مُحمَّد  
يا مَهْرَجَان البر أنت تحيَّة  
هم زَيْنوك بكلُّ أزهَر في الدجى  
حَسُنْتَ وجوهك في العيون وأشرقت  
كثرت عليك أكفهم في صوبها  
لو يعلمون «السوق» ما حسناتها  
جبريل يعرُض والملائكُ باعة  
ومجاهدين هناك عند مُعسكر  
مُوفين للأوطان بين حياضها  
عربٌ على دين الأبوَّة في الوغى  
ألفوا مصاحبة السيوف وعودوا  
يمشون من تحت القذائف نحوها

جَرَحِي نُجِلُّهُم كَجَرَحِي خَيْبِر  
دُمُ أَهْلِ بَدْرِ فِيهِ أَوْ دُمُ حَيْدَر  
وَجِرَاحِهِ فِي قَلْبِ كُلِّ غَضِنْفِر  
ضُمِدَتْ بِأَعْرَافِ الْجِيَادِ الضُّمَّر  
كَالْوَفْدِ مَسَّحٍ بِالْحَطِيمِ الْأَطْهَر  
تَبْيِضُ أَثْنَاءَ «الهِلالِ الْأَحْمَرِ»

فِي أُعْيُنِ الْبَارِي وَفَوْقَ يَمِينِهِ  
مِنْ كُلِّ مَيْمُونِ الضَّمَادِ كَأَنَّمَا  
جَدَلَانِ هَيِّنَةٌ عَلَيْهِ جِرَاحِهِ  
ضُمِدَتْ بِأَهْدَابِ الْجُفُونِ وَطَالَمَا  
عُودَاهُ يَتَمَسَّحُونَ بِرُدْنِهِ  
وَتَكَادُ مِنْ نُورِ الْإِلَهِ حِيَالِهِ

\* \* \*

لِسَمَا عَزَّكَ فِي الْبَرِيَةِ مَكْبِر  
وَفَتَاكَمَا الْفِرْعُ الْكَرِيمُ الْعَنْصَر  
لَا زَالَ بَيْتَكُمْ جَمَالَ الْأَعْصَر  
شَغَلَ السَّمِيعَ وَنُورَ عَيْنِ الْمَبْصَر  
وَتَفَجَّرَتْ يُمْنَاكَ خَمْسَةَ أَبْحُر  
مَا مَاتَ مِنْ أُمَّ الْخَلِيفَةِ جَعْفَر  
فِي بَرْدَتِكَ أَعَادَ فِيَّ الْبِحْتَرِي  
لَا يَحْسُنُ الْإِحْسَانَ مَا لَمْ يُشْكِر  
فَعَلِمْتُ أَنَّ الْفَضْلَ كُلَّ الْمَظْهَر  
غَيْرَ الثَّنَاءِ لِنَفْسِهَا لَمْ تَذْخِر  
بَيْنَ السَّهَاءِ شَرْفًا وَبَيْنَ الْمُشْتَرِي  
فَنَهَضْنَ فِيهِ يَقْلُنَ عَائِشَةَ أَوْمَرِي  
وَكَأَنَّكَ الزَّهْرَاءُ فَوْقَ الْمِنْبَرِ

يَا بِنْتَ «إِلْهَامِي» دَعَاءَ مَعْظَم  
تَوْفِيقِ مِصْرٍ وَأَنْتِ أَوْلُ فِي النَّدَى  
أَنْتُمْ جَمَالَ الشَّرْقِ زَيْنَ مَلُوكِهِ  
لَكُمْ النَّدَى آثَارُهُ وَحَدِيثُهُ  
النَّيْلُ فَجَّرَ مَشْرَعَيْنِ وَعَيْلِمًا  
أَحْيَيْتُ فِي فَضْلِ الْمَلُوكِ وَعَزَّهُمْ  
إِنَّ الَّذِي قَدْ رَدَّهَا وَأَعَادَهَا  
فَنَظَّمْتُ مَا نَثَرْتُ يَمِينُكَ شَاكِرًا  
إِنِّي رَأَيْتُ عَلَى الرِّجَالِ مَظَاهِرًا  
وَعَلِمْتُ أَنَّ مِنَ النِّسَاءِ نَخِيرَةَ  
لَمَّا تَوَلَّيْتَ الْهِلَالَ رَفَعْتَهُ  
وَلَكَّمْ دَعَوْتَ نِسَاءَ مِصْرٍ لِمَالِحٍ  
فَكَأَنَّهِنَّ عَقَائِلَ مِنْ هَاشِمٍ

وأما قصيدتي فهي هذه:

مِنَ الْغَرْبِ يَرْوِي فِيهِ غُلَّةَ هَائِم  
سَمَانَ الْمَعَالِي فِي لِطَافِ النِّسَائِم  
فَلَا حَتَّ لَهُمْ مِنْهَا بَرُوقُ الصَّوَارِمِ  
فَتَنْشِئُ سَحْبَ الدَّمْعِ مِنْ طَرَفِ شَائِمِ  
كَثُوسًا تَسَاقُوهَا بِمَلَأِ الْحَلَاقِمِ

سَلَا هَلْ لَدَيْهِمْ مِنْ حَدِيثِ لِقَائِمِ  
وَهَلْ وَرَدْتَهُمْ عَنِ كَرِيمِ مَقَامِهِ  
وَهَلْ نَظَرُوا مِنْ نَحْوِ بَرْقَةِ مَوْهِنًا  
تَأَلَّقَ فِي لَيْلِي ظِلَامٌ وَقَسَطَلِ  
مَوَاطِنَ إِخْوَانٍ تَمَلُّوا مِنَ الرَّدَى

لدى كلِّ قومٍ كان أولى المكارم  
فجاء دبيب اللص في ليلٍ قاتم  
وهل يخدع الإنسان لين الأرقام  
من الغرب أكفء اللبوث الضراغم  
بروق المواصي في رُعود الغمام  
أرومة قحطان ونبعة هاشم  
وهزوا من الأملاك جذع المراحم  
لدى الصارم البتار صدق التراجم  
ولا العهد مثل الآن أحلام حالم  
عيون الدواهي منه عن جفن نائم  
تباع حفافيها غوالي الجمامج  
تنالون فيها باقيات المغانم  
وضمداً لمجروح وقوتاً لصائم  
لمن حار في ليلٍ من الشك داهم  
جداها كلج العيلم المتلاطم  
لها نسب نحو البحور الخضارم  
بأن يأملوا قرب انفراج المآزم  
يفتُّ بأعضادٍ لها ومعاصم  
بحمر المنايا من سواد الغمام  
فلما تعالى الخطب عذت لصارمي  
نكافح عنها عاديات الأعاجم  
مؤاساتهم فرضاً على كلِّ آدمي

دفاعاً عن الأوطان إنَّ دفاعها  
تهيبهم فيها العدو مهاجماً  
ولين في إقباله من إهابه  
فثاروا وما كانت أرانب رومة  
ونعم سقاة الموت هم كلما بدت  
وحسبك منهم كل قوم نمتهمو  
وكم وقفوا يستنصفون عدوهم  
فلما رأوا عجز الدليل تطلّبوا  
فلم يك مثل السيف كالليوم قاضياً  
وما طال نوم السيف إلا تنبّهت  
أخلاي سوق للمنايا مقامة  
فهل لكمو في سوق برّ ورحمة  
غيثاً لمظلوم ونصراً لصارخ  
كفى بالهلال الأحمر اليوم هادياً  
وأكرم بأم المحسنين التي طمى  
سليلة «إلهامي» فمن كلِّ جانب  
وأجدر بقوم أمطرتهم هباتها  
وحاشا بلائاً أنتمو عن يمينها  
لقد حوصروا برّاً وبحراً وأمطروا  
وقد طالما أرهفت حدّ يراعتي  
أجل إننا من أمة عربية  
ولو أنصف الأقوام في حقهم رأوا

قال شوقي لأحد أصحابه بعد الانصراف إنه كان في أثناء إنشاد المنشد لقصيدته لا يفكر إلا بي. وقلت أنا لأحد أصحابي: إنني كنت متمثلاً شوقي من أول إنشادي إلى آخره.



## سَفَرُ الْمُؤَلَّفِ إِلَى حَرْبِ طَرَابَلُسَ

وذهبت بعدها إلى برقة وبقيت في الجهاد زهاء ثمانية أشهر ورجعت في رمضان، فعَيِّدت في الإسكندرية وأنا ضيف على الجناب الخديوي في سراي رأس التين.

### (١) مشاهدته لشوقي بعد رجوعه منها وذلك في سراي رأس التين

وشاهدت شوقي نهار العيد عندما اكتظت السراي بوفود المهنتين، وبعدها لم أشاهد شوقي إلا في الآستانة لأول نشوب الحرب الكبرى.

فسنة إعلان الحرب الكبرى كان الخديوي السابق في الآستانة، كما لا يخفى، فأطلق عليه الرصاص شاباً مصرياً من الوطنيين المثووسين فجرحه عدة جراحات، وذلك أمام الباب العالي، والحرس الأتراك الذين كانوا بجانب مركبة الخديوي أنحوا على ذلك الشاب المصري بالسيوف فقرطبوه وقتلوه في الحال. وهي قصة ليس موضعها هنا ولكننا أشرنا إليها لمناسبتها مع اجتماعي بشوقي في الآستانة؛ فإنه بعد هذه الحادثة قدم إلى الآستانة عدداً كبيراً من المصريين ليعودوا الجناب الخديوي ويظهروا للدولة اهتمامهم به، وكان من هؤلاء أحمد شوقي شاعره وربيب نعمته.

### (٢) التقاء الأخوين في استانبول في أول الحرب العامة

فبينما أنا مرة في باخرة تسير في البوسفور؛ إذ صادفت أخي شوقي فسُررت بهذه المصادفة، وقال لي إنه كان يريد أن يقابلني لأجل مسألة ذات بالٍ. قلت له: وما المسألة؟ فقال لي: أنت تدري هذا الحادث الفظيع الذي وقع مع الخديوي، وتدري أيضاً أنه ساء تأثيره في مصر، وإن الذين لا يحبون الخديوي هم أنفسهم امتعضوا من هذا الحادث،

وسواء كانت الدولة لا تعلم أسرار هذه الواقعة أو كانت على علم بها فإن الواجب عليها أن تتلافى هذا الأمر جمعاً للكلمة الأمة وتَفَادِيًا من الفرقة بين الآستانة ومصر. فقلت له: كل هذا عندي مُسَلَّم، فماذا تريد أن أصنع لك؟

### (٣) اقتراح شوقي على المؤلّف عيادة السلطان للخديو

قال لي: إن الخديو لا يزال في فراشه يعاني آلام جراحه، وإنه يليق بمولانا السلطان أن يجبر خاطره الكسير بعيادته له في قصره بالشبوقي، وليس في هذا ما يحطُّ من قدر السلطان، بل فيه ما يستنطق كلّ الأقواه بالثناء عليه والدعاء له، وما الخديوي إلا أمير من أمرائه، بل هو أكبر أمرائه؛ فزيادة تشریف السلطان للخديو تعود على السلطان نفسه. وأبدى شوقي وأعاد في هذا الأمر، وقال لي: كلُّ مَنْ حادثهم في هذا الموضوع أجابوني أنه ليس لهذه المسألة غيرك، فإن لم تُقدِّر عليها أنت فلن يقدر عليها أحد. فأجبتة بكلِّ إيجاز: بعد يومين تعالَ إليَّ فأخبرك بما عملت وأنا معك في هذه الفكرة.

وفي اليوم التالي ذهب إلى طلعت؛ وكان ناظرًا للدخالية فأخبرته بالخبر وقلت له: إنني مؤيد لهذه الفكرة التي عرضها شوقي، ولا أرى حلاً لهذه المسألة أحسن من هذا. فقال لي طلعت في أول جوابه: أنجز هذا الشيخ الكبير — يعني السلطان — إلى محلِّ بعيدٍ مثل الشبوقي (لأنه في آخر البوسفور)؟

وقبل أن أجيبه على هذه الجملة قطع عليَّ الكلام، وقال لي: حسن أنت صديق للأمير سعيد حليم الصدر الأعظم، فانهب وأعرض عليه هذا الاقتراح، فإنني لا أقدر أن أبتَّ في مسألة عائدة للعائلة الخديوية بدون علمه، ولا يجيء هذا منِّي، وإنما أنت تقدر أن تُقنعه، فإذا اقتنع فأنا موافق كل الموافقة. كُنْ من هذا على ثقة. فذهبت إلى الأمير سعيد حليم في منزله في بني كوى على شاطئ البوسفور فوجدت عنده إبراهيم بك صاحب زاده ناظر العدلية وإسماعيل مشتاق بك رئيس كتاب مجلس الأعيان وأشخاصاً آخرين، وكلهم جلوس أمام قصره على رصيف البحر، وكانوا ينتظرون الخبر من الدردنيل عن وصول الدارعتين غوبن وبرسلاو الألمانيَّتين اللتين طاردهما الأسطول الإنجليزي والأسطول الإفرنسي ببوارج عديدة فاضطرتا أن تقصدا مياه تركيا وعبرتا الدردنيل، فلم يقدر أسطول الحلفاء على العبور وراءهما، ولكن فرنسة وإنجلترا احتججتا على تركيا بإيوائها البارجتين الألمانيَّتين؛ ولذلك اتفق الأتراك مع الألمان على أن يُجيبوا دول الحلفاء بأن تركيا اشترت الدارعتين بدلاً من الدردنوت رشادية التي كانت تركيا أوصت عليها في معامل إنجلترا



وأنفقت عليها ملايين من الجنيهات، وعندما حان أوانُ تَسْلِيمِهَا للدولة ضببها الإنجليز قائلين إنهم على باب حرب فقد يحتاجون إليها. فدخلت غوبن وبرسلاو إلى مياه البوسفور ولَبِسَ بحريتهما الطرابيش الحُمْرَ علامةً على أنهم دخلوا في خدمة الدولة العثمانية، وما كان ذلك إلا بالتواطؤ بين تركيا وألمانيا قطعاً لحجّة الحلفاء.

فساعة ذهابي لمواجهة الصدر الأعظم كانت الساعة التي كانوا ينتظرون فيها وصول غوبن وبرسلاو إلى جناق قلعة، فجلست أنتظر انصراف القوم من حَضْرَةِ الصدر فطال جلوسهم وتبرّمت بطول مُكْتَنُهم؛ لأنه كان عندي ذلك الكلام المهمّ الذي أريد أن أُفْضِي به إلى الصّدْر وهو قضية عيادة السلطان للخديوي. فلما غابت الشمس قلت للأمير سعيد حليم همساً في أذنه: إن لي كلاماً خاصاً معك. فقام من فورهِ وتنحّى جانباً وسألني عما عندي، فحكيت له الحكاية وأبدت له ضرورة إجابة هذا الرجاء؛ لأن فيه جبراً لخطر المصريين وسدّاً لباب الشقاق وإصماتاً للقال والقال وتطبيياً لنفس الخديوي الذي جرح أمام الباب العالي وكاد يموت لولا لطف الباربي به وتأخّر أجله. فقال لي: ولماذا تُدخِلُ المصريين في هذا الموضوع؟ قلت له: لأن الرجل هو خديويهم ولا شكّ في أنهم لا يرضون بالاستخفاف بأمره حتى الذين منهم يكرهونه لا يهون عليهم ما حصل له لأسباب مُتعدّدة. فقال لي رحمه الله: إنك أنت تعرف هذا الرجل معرفة جيّدة؛ فقولك هذا هو خلاف ضميرك. وبيننا كنّا نتكلم كنّا نمشي غير مُتباعدين عن الجماعة الذين كانوا جالسين، فلما رأوا حديثنا قد طال انسلوا نجياً ونحن دخلنا حينئذٍ إلى القصر. فكلمة الأمير سعيد حليم لي: كلامك هذا خلاف ضميرك ردّت عليها بشدّة، قائلاً له: هذه مسألة غير شخصية، وأنا الآن لا أقترح هذا الاقتراح لأجل شخص الخديوي، بل لأجل مقامه ولأجل أنه أمير مصر من قَبْلِ السلطان الأعظم، ومن العجب أنك تعاكس هذا الاقتراح وأنت تعلم ما أعلم أنا من ضرورته حَوْصاً لهذا الشقّ الذي وقع، وبالتالي فالخديوي هو ابن عمّك، وكلُّ شرف يناله هو أنت قَسِيمه فيه سواء كان لك عدوّاً أو صديقاً.

وكان كلامي بشدّة وجِدّة وحضره علي باشا جلال بعد أن دخلنا إلى القصر، واشمأزَّ الصدر الأعظم من هذا الاقتراح ومن إصراري عليه، وبقي يجادل بقوله إن المؤيد جريده الخديوي تزعم أننا نحن أرسلنا نقتل الخديوي، فإن أرسلنا إليه السلطان يعوده فلا عجب أن يقولوا إنه لما لم يمّت عادوا الآن يحاولون استرضاءه. فقلت له وقد يئست منه: والله لا أعلم لماذا أغيظك وأغيظ نفسي في أمرٍ كان الأخلق بك أنت أن تقترحه. ونهضت مُنصرِفاً وتركته واجماً وظننت بعد أن فصلت من عنده أنّي لن أتصافي بعدها معه.

ولكن ما مضى أيام حتى صادفته في بيت خليل بك رئيس مجلس النواب أو المبعوثين كما يقولون؛ فأراد خليل بك أن يقدمني للأمير سعيد الصدر الأعظم بصفته رئيساً للمجلس وبصفتي أنا من أعضائه، فضحك الأمير وقال له: أنا أعرفه قبلك بكثير، وهذا هو أرسلان اسمٌ على مُسمّى، يشير إلى معنى هذا الاسم بالتركية والفارسية وهو الأسد؛ فإن هذه اللفظة هي من جملة ألفاظ دخلت بين العرب من القديم وسمّوا بها أعلاماً، ولو لم يكن سعيد حلیم صاحب أخلاق لما كان رضي عني بعد ذلك الجدل العنيف، ولكنه كان عالي الهمة صحيح المبدأ حافظ الذمام، وكان يعلم نبالة مقصدي في ذلك الاقتراح ولم يكن سيء الظن بي، فتحمل مني ذلك الكلام الذي كله تأنيب ولم يتغيّر فكره من جهتي، وبقيت بيننا الصداقة مثل ذي قبل لم يشبها شائبة.

ثم نعود إلى اقتراح شوقي، فإنه جاءني بعد يومين يستطلع نتيجة المسعى، فأخبرته بأنني قابلت طلعت واقتنع بكلامي وأسعف في المسألة، ولكنه أرسلني إلى الصدر الأعظم وربط المسألة به، وهذا حتى هذه الساعة يبدي شيئاً من الصعوبة. ولم أزد على هذه الجملة، ولا أخبرت شوقي بما حصل بيني وبين الصدر من الجدل والحدة حتى لا أزيد الفتنة بينه وبين الخديوي، ونحن كنا نسعى في رأب الصدع لا في توسيعه، وكنت في جوابي لشوقي أسفاً كاسفاً؛ إذ كنت أوّمل تحقيق أمله وأملي فخاب أملنا نحن الاثنين. وكان الوقت رمضان فدعوت ثاني يوم المرحوم عبد الحميد بك عمار من أعيان المصريين للإفطار معي في «بك أوغلي»، ورويت له القصة مُحْتَجِناً منها ما وقع من معارضة الصدر الشديدة، ومُكْتَفِياً بالقول إن هذه المسألة لا تزال قيد المذاكرة. فذهب عبد الحميد بك عمار إلى الخديوي وأخبره بالقصة، ولم أعلم كيف كان وقعها عنده.

ودخلنا بعد ذلك في الحرب العامة وانقطع كل اتصال عادي بين الدولة وبين مصر، وأصبحت لا أعلم عن أصحابي بمصر كثيراً ولا قليلاً إلى أن مضى على هذا عام أو عامان، فعلمنا أن الإنكليز دفعوا إلى مالطة جمّاً غفيراً وأزعجوا آخرين إلى أوروبا، وكان فيمن أزعج عن بلاده إلى أوروبا أحمد شوقي فانتجع إسبانية وناح على الأندلس، ولكنه خفض هناك في عيشة راضية وبيئة هادية، ولم يعد إلى وطنه إلا بعد أن انطفأت نار الحرب.

## لقاء في باريز بعد الحرب العامة

ولم يُسعِدني القَدَر بعد ذلك بلقاء أخي شوقي إلى سنة ١٩٢٦، وذلك في باريز، حيث كان شوقي جاء يقيظ في أوروبا، وكنت أنا مع زميلي إحسان بك الجابري نتذاكر مع الحكومة الإفرنسية بدعوة منها في القضية السورية، وكنا نازلين في أوتل «ماجستيك»، فما أنا ذات يوم إلا وشوقي قد طلع عليّ بدون ميعاد ولا سابق علم لي بوجوده في باريز، فدخل على قلبي من السرور برويته ما يدخل على الأخ الذي غاب عنه أخوه منذ بضع عشرة سنة ومن لا تسمح له دواعي السياسة أن يراه كلما أراد؛ لأنه من قبل ذلك الحين كانت صدرت الأوامر بمنعني من دخول مصر، وفشل كلُّ سعي في حلِّ هذه العقدة، فكيف يمكنني بعد هذا أن أشاهد شوقي إلا بقَدَر لا يخطر في الفكر وفي بلاد الغربية، وقد كان لا يُؤذَن لي بدخول باريز — والآن لا يُؤذَن لي فيه — إلا بدعوة خاصّة من حكومة فرنسة:

هيهات هيهات قد أمست مجاورَةً      أهل العقيق وأمسينا على سرف  
حي يمانون والبطحاء منزلنا      هذا لعمرك شملٌ غيرٌ مؤتلف

فذهبت أردُّ الزيارة لشوقي في الفندق الذي كان فيه في الحي اللاتيني فلم أجده، وبينما أنا صادر إذا بمقهى جالس فيه شوقي مع محمد أفندي عبد الوهاب وآخرين حسبما تقدّم الكلام على هذه النكتة؛ لأن هذا المقهى هو المُسمّى بقهوة داركور، وكنا نجلس فيها منذ ستّ وثلاثين سنة ونحن شبّان فعُدنا نجلس فيها ونحن شيوخ.

## (١) في مقهى الجامع

وأخذنا مذ ذاك نجتمع في مقهى الجامع؛ حيث كان يوجد رجل أديب باهر الذكاء واسع الرواية فصيح اللهجة اسمه السيد طاهر الصَّبَّاح، مكيُّ الأصل تونسيُّ الدار، كان وجوده في ذلك المقهى باعث نشوة وسبب سَلْوَة لكلِّ مَنْ ينتاب المحل، وكان يروي كثيراً من شعر شوقي وغيره من الشعراء المُفْلِقِينَ، كما أنه كان يقرأ أكثر مقالاتي ويتتبعها، فكان إذا جئتُ أنا وشوقي ومحمد عبد الوهاب وَمَنْ معنا من الأصحاب وجلسنا للمنادمة وسماع الأبحان الشجيَّة على نقرات العود يأخذ السيد طاهر الصباغ الطربُ ولا يسعه المكان من الفرح، وكان يتحير كيف يصنع ليوفر أسباب راحتنا وسرورنا، ولكنه في آخر الأمر عَتَبَ على أخي شوقي لكونه وعده بنسخة من ديوانه وذهب من باريز ولم يُنجز وعده هذا، فلما كاشفني بهذه الموجدة أخبرته عن غرائب شوقي في الذهول، وقلت له: لو عرفت أمره في هذا الشأن لعذرته.

وقد توفِّي الصَّبَّاحُ إلى رحمة ربِّه قبل وفاة شوقي بقليل، رحمهما الله تعالى.

## (٢) شوقي النائر

ولم يكن شوقي شاعراً فذاً فحسب، بل كان نائراً بليغاً مترسلاً ضليعاً متين العبارة سلسها، يقلُّ في الكتَّاب والمترسلين مَنْ يصوغ صياغته إلا أن شعره قتل نثره؛ فبينما هو في الشعر الفذ الذي يجري ولا يُجرى معه إذا هو في النثر أحدُ جماعة يجري معه الناس مثنى وثلاث ورباع، ولا شك أن كَفَّةَ نَظْمه رجحت بكفة نثره رجحاناً بيناً حمل الناس على الظنِّ بضعف منته في صنعة الكتابة، وليس الأمر كذلك، بل كان له نثر رائق وترسل مؤنق وفصول شائقة كانت تخلد في عالم الأدب لو لم تفتك بها قصائده.

## (٣) كلمة المنفلوطي في شوقي والمؤلف

وقد كان السيد المنفلوطي — رحمه الله — يوم ترجم شعراء العصر وكتَّابه المعدودين، حكم لشوقي بالسبق في ميدان الشعر وجعل لكلِّ واحد من هؤلاء تعريفاً كان آية في الإيجاز، ولما وصل إلى كاتب هذه السطور قال: لو لم يكن أكتب كاتبٍ لكان أشعر شاعرٍ، ولكنهما كفتان كلما رجحت الواحدة أشالت الأخرى. ويظهر أنه راجع نفسه فيما بعد أو أن بعض الناس اعترضوا عليه في قوله عن هذا العاجز: لو لم يكن أكتب كاتبٍ لكان

أشعرَ شاعرٍ، فعاد إلى نفس العبارة وأنزلها إلى قوله: لو لم يكن كاتبًا فريدًا لكان شاعرًا مجيدًا، فهما كفتان كلما رجحت الواحدة أشالت الأخرى.  
ولست أقصد بهذا النقل شيئًا من الاعتراض عليه، ولا أنا ممن يسوقه الغرور إلى أن يظنَّ في نفسه أنه أشعر شاعر أو أكتب كاتب، ولا أنه كاتب فريد وشاعر مجيد، وما حفلت في حياتي بشيء من هذه الألقاب، ولا احلولى في صدري ما ينحلني الناس إياه منها؛ كأمر البيان، وما أشبه ذلك، والجواد عينه فراره، والشاعر لقبه شعره، والكاتب سَمته بيانه، والإنسان جليته عمله، ولكنني ذكرت عبارة المنفلوطي في عرض الكلام عن كفتي النظم والنثر اللتين إن غلبت إحداهما على الأخرى سحقتها في أعين الناس كما جرى لشوقي.

#### (٤) مثال من نثر شوقي

ومن أحسن ما رأيت لشوقي في باب النثر مقدمته لشوقياته، الطبعة الأولى، ولا أعلم لماذا حذفوا له تلك المقدمة في الطبعة الثانية، وهو قد برع فيها على الكتاب فضلًا عما برع في ديوانه على الشعراء، ولعل الذي علا فيه ذلك اليوم ذلك العلو هو كونه عالج موضوعًا كان أدرى به من غيره، وهو موضوع الشعر الذي كانت مُهَجته مصوغة منه ومحبوكة به، فجاء كلامه في هذا المقام بدعًا لا ينظر وفَرَى فَرِيًّا يُخَلد ولا يُقَلد، انظر إلى قوله:

وكان أبو العلاء يصوغ الحقائق في شعره ويوعي تجارب الحياة في منظومه، ويشرح حالات النفس، ويكاد ينال سريرتها، ومَن تأمل قوله من قصيدة:

فلا هَطَلتْ عليَّ ولا بأرضي      سحائبُ ليس تنتظم البلادا

وقابلُ بين هذا البيت وبين قول أبي فراس:

مُعَلَّتِي بالوَصْلِ والموت دُونَه      إذا مُتْ ظمَانًا فلا نَزَل القَطْرُ

ثم انظر إلى الأول كيف شرع سُنَّة الإيثار وبالغ في إظهار رِقَّة النفس للنفس وانعطاف الجنس نحو الجنس، وإلى الثاني كيف وضع مبدأ الأثرة وغالى بالنفس ورأى لها الاختصاص بالمنفعة في هذه الدنيا تعيش فيها جافية ثم تخرج منها غير آسية، علم أن شعراء العرب حكماء لم تعزب عنهم الحقائق

الكبرى، ولم يَفْتَهُم تقرير المبادئ الاجتماعية العالية، وأنهم أقدر الأمم على تقريبها من الأذهان وإظهارها في أجلى وأجمل صور البيان. وكان أبو العتاهية ينشئ الشعر عبرة وموعظة وحكمة بالغة موقظة، وكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب — رضي الله عنه — يُرجع إليه كذلك في الوعظ والإرشاد، والتحذير من الرذائل، والإغراء بالفضائل ...

إلى أن يقول:

اشتغل بالشعر فريقٌ من فحول الشعر جنّوا وظلموا قرائحهم النادرة وحرّموا الأقسام من بعدهم؛ فمنهم من خرج من فضاء الفكر والخيال ودخل في مضيق اللفظ والصناعة، وبعضهم آثر ظلمات الكلفة والتعقيد على نور الإبانة والسهولة، ووقف آخرون بالقريض عند القول المأثور «القديم على قَدَمه»، فوصفوا النوق على غير ما عهدها العرب عليه، وأتوا المنازل من غير أبوابها ودخلوا البيداء على سراب. وانغمس فريق في بحار التشابيه حتى تشابهت عليهم اللجج، ثم خرجوا منها بالبلبل، وزعمت عصابة أن أحسن الشعر ما كان بوادٍ والحقيقة بوادٍ، فكلما كان بعيدًا عن الواقع مُنحرفًا عن المحسوس مُجانِبًا للمحتمل كان أدنى في اعتقادهم إلى الخيال وأجمع للجلال والجمال، حتى نشأ عن ذلك الإغراق الثقيل على النفس والغلوّ البغيض إلى العقول السليمة.

على أن الكل قد مارسوا الشعر فنًا على حدة، واتخذوه حرفة وتعاطوه تجارة إذا شاء الملوك ربحت، وإذا شاءوا خسرت. ثم لم يكفهم ذلك حتى هجوا الشعر وذمّوه بكلّ لسان فزعموه مجلبة الشقاء، وقالوا إنه محسوب على الشعراء يفيض من أرزاقهم وينحت من قلوبهم ويعرّضهم لإراقة ماء الوجوه. ولقد والله زعموا صدقًا وقالوا حقًا، وإن هذا لجزء فئّة يتوقّعون أرزاقهم من ملوك كرامٍ يخلقهم الله لرواج حرفتهم، فإذا لم يُخلَقوا كَسَدَتِ الحِرْفة وأخطأت الأرزاق، على أنه يُستثنى من هؤلاء قليلٌ لا يُذكر في جنب الفائدة الضائعة بضياح الشعر مديحًا في الملوك والأمراء، وثناءً على الرؤساء والكبراء، وإلا فمن دواوينهم ما يخلق أن يكون المثال المُحتذى في شعر الأمم كابن الأحنف مرسل الشعر كتبًا في الهوى ورسائل، ومُتخذة رسلاً في الغرام ووسائل، وكابن خفاجة شاعر الطبيعة ومجنون ليلها وواصف بدائعها وحلاها، وكالبهاء زهير سيد

من ضحك في القول وبكى، وأفصح من عتب على الأحبّة واشتكى، وحسبك أنه لو اجتمع ألف شاعر يعزّزهم ألف ناثر على أن يحلّوا شعر البها أو يأتوا بنثر في سهولته لانصرفوا عنه وهو كما هو.

ولا أرى بدأ من استثناء المتنبي مع علمي أنه المدّاح الهجّاء؛ لأن معجزه لا يزال يرفع الشعر ويعلّيه ويغري الناس به فيجده ويحييه، وحسبك أن المشتغلين بالقريض عموماً والمطبوعين منهم خصوصاً لا يتطلّعون إلّا إلى غباره ولا يجدون الهدى إلّا على مناره، ويتمنّى أحدهم لو أُتيح له ممدوح كمدوحه ليمدحه مثل مديحه أو لو وقع له كافور مثل كافوره ليهجوه مثل هجائه، فمثل أبي الطيب في تشبّه الشعراء به وسعيهم لبلوغ شأوه في المدح أو الهجو كمثّل قائد مشهور الأيام معروف بالحزم والإقدام، قد أُشربته قلوب الجند ومُلبت نفوسهم ثقةً منه، فلو كذب بهم في مهاوي الهلاك وهم يعلمون لما جبنوا ولا أحمّوا، هذا مع اعترافهم بأن المتنبي صاحب اللواء، والسماء التي ما طاولتها في البيان سماء، ولو سلم من الغرور وسلم الناس من لسانه لأجلته إجلال الأنبياء.

والحاصل أن إنزال الشعر منزلة حِرْفة تقوم بالمدح ولا تقوم بغيره تجرّئة يجلُّ عنها ويتبرأ الشعراء منها. إلّا أن هناك ملكاً كبيراً ما خلّقوا إلّا ليتغنّوا بمُدحه ويتفنّنوا بوصفه زاهيين فيه كلّ مذهب، أخذين منه بكلّ نصيب، وهذا الملك هو الكون؛ فالشاعر من وقف بين الثريّ والثريّ يقلّب إحدى عينيه في الذرّ ويجعل أخرى في الذرى، يأسر الطير ويطلقه ويكلم الجماد ويُنطقه ويقف على النبات وقفة الطلّ، ويمرُّ بالعراء مرور الوبل، فهناك ينفسح له مجال التخيل ويتسع له مكان القول، ويستفيد من جهته علماً لا تحويه الكتب ولا توعيه صدور العلماء، ومن جهة أخرى يجد من الشعر مسلّياً في الهم ومنجياً من الغمّ، وشاغلاً إذا أملّ الفراغ ومؤنّساً إذا تملّكت الوحشة، ومن جهة ثالثة لا يلبث أن يفتح الله عليه، فإذا خاطر أسرع، والقول أسهل والقلم أجرى، والمادة أغزر، بحيث لا تضي السنون حتى تتداول الأيدي مؤلفاته. وإذا مات أكبر الناس من بعده خلفاته، أولم يكن من الغبن على الشعر والأمة العربية أن يحيا المتنبي مثلاً حياته العالية التي بلغ فيها إلى أقصى الشباب ثم يموت

عن نحو مائتي صفحة من الشعر تسعة أعشارها لمُدوحيه والشعر الباقي هو الحكمة والوصف للناس؟

هنا يسأل سائل: وما بالك تنهى عن خُلُق وتأتي مثله؟ فأجيب أني قرعت أبواب الشعر وأنا لا أعلم من حقيقته ما أعلمه اليوم، ولا أجد أمامي غير دواوين للموتى لا مظهر للشعر فيها، وقصائد للأحياء يحذون فيها حذو القدماء. والقوم في مصر لا يعرفون من الشعر إلا ما كان مدحًا في مقام عالٍ، ولا يرون غير شاعر الخديوي صاحب المقام الأسمى في البلاد. فما زلت أتمنى هذه المنزلة وأسمو إليها على دَرَج الإخلاص في حبِّ صناعتي وإتقانها بقدر الإمكان وصونها عن الابتذال، حتى وُقِّت بفضل الله إليها. ثم طلبت العلم في أوروبا فوجدت فيها نور السبيل من أوّل يوم، وعلمت أنّي مسئول عن تلك الهبة التي يُؤتيها الله ولا يُؤتيها سواه، وأنّي لا أوَدّي شُكرها حتى أشاطر الناس خيراتها التي لا تُحَدُّ ولا تنفَد، وإذ كنت أعتقد أن الأوهام إذا تمكّنت من أمة كانت لباغي إبادتها كالأفعوان لا يُطاق لقاؤه ويُؤخَذ من خلف بأطراف لبنان، جعلت أبعث بقصائد المديح من أوروبا مملوءة من جديد المعاني وحديث الأساليب بقدر الإمكان إلى أن رفعت إلى الخديوي السابق قصيدتي التي أقول في مطلعها:

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرهنّ الثناء

والتي غزلها في أول هذا الديوان، وكانت المدائح الخديوية تُنشر يومئذٍ في الجريدة الرسمية وكان يُحرّر هذه أستاذي الشيخ عبد الكريم سلمان، فدفعت القصيدة إليه وطلبت منه أن يسقط الغزل وينشر المدح، فودّ الشيخ لو أسقط المديح ونشر الغزل، ثم كانت النتيجة أن القصيدة برمتها لم تُنشر، فلما بلغني الخبر لم يزدني علمًا بأن احتراسي من المفاجأة بالشعر الجديد دفعة واحدة إنما كان في محله، وأن الزلل معي إذا أنا استعجلت.

اجتزأنا بهذا القسم من مقدمة «الشوقيات»؛ لأن فيه ما يدلّ على غيره، وهو ولا شكّ قد أجاد هنا ما لم يُجدّ في مكانٍ آخر من نثره؛ لأنه الموضوع الذي هو أملى به وأقوم عليه،



## لقاء في باريز بعد الحرب العامة

وكلما كان الإنسان علّامة بأمرٍ كان كلامه فيه أوضح وأبين، وعنه أسلس وأحسن، وقد حاول شوقي أن ينثر وينثر من نثره حتى لا يُقال إن الشعر قَعَدَ به عن النثر قعودًا لا يرضاه لنفسه، فلم يبالي الناس نثره ولا تلقوه بالاحتفال اللائق بمثل شوقي، لا لأنه كان ركيكًا بحدّ ذاته، بل لأنه كان غثًا في جانبِ سَمَنِ شعره.



## شوقي واليازجي

ولما اطّلع العلامة الشيخ إبراهيم اليازجي على رسالة شوقي المسماة بـ «عذراء الهند» كتب عنها فصلاً في مجلته «البيان» أتذكر منه أن قال ما معناه: «كيف يرضى إنسانٌ بعد أن يكون في الشعر هو الأول أن يكون في النثر هو الأخير.» ولقد بالغ اليازجي في الغصّ من نثر شوقي وحدانا ذلك وقتئذٍ برغم صداقتنا الشخصية مع اليازجي ومدائح اليازجي الكثيرة الأثيرة للعائلة الأرسلانية من قديم الزمان أن نهبّ للدفاع عن شوقي؛ إذ من أظلم الظلم أن يُقال إن شوقي كان المُجلى في النظم والسُّكيت<sup>1</sup> في النثر، بل كان شوقي من الكتّاب البلغاء المبرزين لولا أن شعره سبق نثره بكثير؛ لأنه ما أراد إلا أن يكون الشاعر المُقدّم كما تقدّم.

وأنحى اليازجي في مجلته «البيان» على شوقي بنقد شديد في روايته «عذراء الهند» تجاوز فيه الحدّ وجرّ عن القصد، وتعقّب في ألفاظٍ وجملٍ زعم أنها ممّا لا تُجيزه قواعد العربية؛ وكأنه أراد أن يسقط منزلة شوقي بين الأدباء؛ لأن الأديب لا يصحّ أن يُسمّى أديباً إلا إذا استكمل أدواته من اللغة والنحو والصرف والبيان، وإلا فإنه يبقى متأخراً في صفوف المتأدّبين مهما سمت معانيه وزهت تصوّراته وأثر كلامه ونفذت طعناته؛ وذلك أن الناس أجمعوا على أن الفصاحة واللمح لا يجتمعان، وأن من نقص حظّه من النحو نقص حظّه من الأدب، وليس هذا مُنحصراً في العرب بل هو عند الإفرنج أيضاً؛ فليس

<sup>1</sup> بضم ففتح مشدد، وقد يُخفّف وهو آخر الحلبة، ويُقال له أيضاً «الفَسْكل».

عندهم لمنقوص النحو مكانة أدبية تُذكر. وقال «أناطول فرانس»، وهو من أعظم أدباء أوروبا: «لا يقول الكاتب قولاً سديداً إلا بنحوٍ مَتِينٍ ولغةٍ صحيحةٍ». وقال بوالو: «أعلى الكُتَّابِ كعباً إذا حُرِمَ الرسوخ في اللغة فليس بكاتب». فمهما نبغ شوقي وفاق أقرانه في سعة التخيل ولطف التأثر، فإنه كان يكون منقوص البهاء لو أنس الناس فيه ضعفاً من جهة العربية.

هذا في الحقيقة لا نزاع فيه لو كان شوقي ممن يصدق عليه مثل هذا الوصف، ولكن شوقي كان شاعراً كامل الأدوات وكان رِيَّاناً من العربية الفصحى، وكانت لغته متساوية مع فكرته، فإذا سألت عليه شعاب الفكر جاء بكل لفظ فحل ومعنى بكر، وحاط كلامه من قرنه إلى قدمه بنحوٍ راسخ ولغة تَبَعْدُ عنها الركافة فراسخ. فأما أن يجد اليازجي مُتعلِّقاً لانتقادٍ ومُتسلِّقاً لانتقاص، فإننا لو عرضنا كلام القوم بأسره على علماء النحو وحَفَظَةَ اللغة لَمَا عَزَّ عليهم أن يجدوا في كل قول مقالاً، ولَمَا بَعُدَ أن يجدوا في كل جملة مأخذاً؛ لا سيما إذا كان النحوي أو اللغوي يتقصّد إظهار طولهِ وإثباتِ إحاطته.

## (١) علم اليازجي وتعلُّته

وقد كان اليازجي في عصرنا من أبصر جهابذة اللغة وأفرس فرسان الإنشاء، ولم يكن يُؤْتَى من جهة كهذه، وكان من أمتن من عرفنا تركيباً وأجودهم سَبْغاً، ولكنه كان مولعاً بالتعنُّت مُتَهافتاً على التنقُّص، ضيق العطن لا يتردد في تحجير الواسع مهما اتسع، وكان إذا لم يطَّلِع على مسألة من المسائل نفاها عن العربية، وإن لم يجد في المعاجم المعروفة بين أيدينا لفظاً من الألفاظ أسجل بأنه ليس بعربي، ولم ينتبه إلى أن اللغة بحرٌ لا ساحل له، وأن تحجير الواسع في العربية ضَرَب من العَبَث، وأنه ما انتقدت عبارة إلا رَدَّ عنها بتخريج، وأنه ليطول بنا أن نصف غلوه في هذا المذهب ونُحْصِي الكلمات التي كان يمنعها بحجَّة أنها لم ترد في المعاجم، ولكننا من قبيل التمثيل نذكر أنه كان يمنع لفظة «احتمى» إلا بمعنى الحِمِيَّة عن الطعام، فأما احتمى مطاوع حمى فكان يراها خطأً في اللغة، ولو اطَّلِع على قول عون بن أيوب الأنصاري الخزرجي:

حَمَتْ كُلَّ وَاِدٍ مِنْ تَهَامَةٍ وَاحْتَمَتْ      بِصَمِّ الْقَنَا وَالْمُرْهَفَاتِ الْبَوَاتِرِ

لعلم أنه هو الذي أخطأ بتخطئته للوارد من كلام العرب، وكان يمنع أن يُقال «نوال» بمعنى «نَيْل»، ولا يرضى لها تخريجًا، ولو قرأ، وأظنه من شعر الحماسة:

أرى الناس يرجون الربيع وإنما ربيعي الذي أرجو نوال وصالك

لعلم أنه لم يكن على صواب فيما ذهب إليه.

وعابني مرة في مجلته باستعمالي «النواقيس» بمعنى الأجراس؛ وذلك لأنه قرأ في كتب اللغة أن الناقوس إنما هو الخشبة التي يضرب عليها القسيس يدعو بها النصارى للصلاة، فتمسك بهذه الخشبة تمسك أعمى في قرنة، كما يُقال، ولم يشأ أن يُجيز الناقوس للجرس الذي من نحاس وخطأ كل من استعمل ذلك حتى من الكتاب الأولين، واضطررنا أن نرد عليه وأن نفهمه أنه إذا كان يتمسك بكل تحديد نقله علماء اللغة ولا يقبل فيه توسعًا، فإنه ينتهي الأمر بأن يقاتل نفسه بسلاحه، فإنه هو يستعمل البيت بمعنى هذا البناء المبني من الحجر أو من الطين، والحال أن العرب عرفت البيت أنه من الوبر، وأنه هو يستعمل الشبّك للنافذة التي يكون فيها شبّك من حديد، والحال أن كتب اللغة تعرّف الشبّك بأنه ما شبك من القصب. فإذا كان التمسك بتعريفات المعاجم اللغوية حتمًا لا مناص منه فاستعمال الشبّك إذا كان من حديد واستعمال البيت إذا كان من حجر أو لبن يكون إذن غلطًا! والحقيقة أن هذه الألفاظ ربما كانت في الجاهلية موضوعة لتلك المعاني على الصورة التي كانت فيها أيام البداوة، فلما دخل العرب في طور الحضارة والترف استعملوا تلك الألفاظ لما ناسب درجة مدنيّتهم. فالبيت الذي كان من شعر صار من حجر، وربما من حجر منحوت وبقي يُسمّى بيتًا؛ لأنهم جعلوه بمعنى المأوى ولأن أصله من المبيت، فسواء بات الإنسان في مأوى من الشعر أو من الحجر فيصح أن يُقال لمأواه هذا «بيت». وكذلك الشبّك الذي كان من قصب أيام لم يكن الحديد مبدولاً بقي يُقال له الشبّك بعد أن سحر الله الحديد للناطقين بالضاد ولأنوا منه القضبان، وكذلك الناقوس كان خشبة في أيام الجاهلية فصار في أيام المدنية نحاسًا وبقي يُقال له «ناقوس» ونطق به الفصحاء. وقلنا لليازجي: إنك تعيب كتاب هذا الزمان في فصلٍ تنشره تبعًا تحت عنوان «لغة الجرائد»، ومن قال لك إن الجريدة يُعنى بها هذه الورقة المكتوبة التي تصدر في أوقات معلومة ويقروها الناس؛ فالجريدة بهذا المعنى إنما هي من مواضع المؤلّدين. وإذا بحثت عن تحديد الجريدة في كتب اللغة لم تجد سوى «سعفة النخل اليابسة» أو «الخيل لا رجّالة فيها»، فهل أنت تريد أن تقول «لغة سعفات النخل اليابسة»

أو «لغة الخيل لا رَجَالَة فيها»؟ وتَعَقَّبناه ذلك اليوم في ألفاظ كثيرة وقد ضاع هذا الفصل من بين أوراقنا.

نعم، لو كنا نجاري الشيخ إبراهيم اليازجي فيما كان يحجر فيه من واسع اللغة لما كان في لغات العالم أَضْيَق من العربية، ولكن تَحْجِيره هذا إنما كان في انتقاداته لغيره، فإذا رجعنا إلى مجلته «الطبيب» التي كان يُنَشِئُها في بيروت مع الدكتورين بشارة زلزل وخليل سعادة أو إلى مجلته «البيان» التي كان يصدرها في مصر، وطالعنا ما فيها من فصول شائقة لا سيما في المواضيع الطبيعية والفلكية والكيمائية وما أشبه ذلك، فإننا نجد اليازجي وسَّع على نفسه ما حَجَرَ على غيره، واستعمل الألفاظ العربية للمعاني العصرية بأقل ما بينها من ملابسة، وسيأتيك في اعتراضاته على شوقي ما يجزيك في معرفة مذهبه في الانتقاد على غيره.

## (٢) ردُّ المؤلف على اليازجي في الدفاع عن شوقي

ليس تحت يدي الآن العدد الذي فيه انتقاد اليازجي لرواية «عذراء الهند»، ولو كان تحت يدي لأثبتُّ هذا الانتقاد برُمَّته وقابلته بردِّي أنا عن شوقي. على أن القارئ قد يعلم من الردِّ أساس الاعتراض؛ فجوابي فيه الأخذ والردُّ معه، ولهذا ننشره نقلاً عن جريدة الأهرام «عددتها ٦٠٣٢» المؤرَّخ في يوم الثلاثاء ٢٥ يناير سنة ١٨٩٨ وفق ٣ رمضان سنة ١٣١٥، أي إن هذا الردُّ مضى عليه أكثر من سبع وثلاثين سنة:

### لعل للعذراء عذراً

أجلُّ العلماء عن أن يُقال ليس لهم صداقة، وإنما يُقال: إن ليس لهم صداقة على العلم، ولا مشايعة على الحكمة، ولا تسامُح في الحقائق، وإنهم لا يرعون في الحقِّ خليلاً، ولا يرضون من أمانة العلم بدلاً قليلاً، ولا سيما في هذا العصر الذي إذا انتسب إلى خاصِّية تغلَّب عليه كانت الانتقاد، أو اتصف بمزية تفضُّل سائر المزايا فهي التحقيق.

ولذلك لا ينبغي أن يُحمَل انتقاد «البيان» رواية «عذراء الهند» للشاعر المُفلق أحمد بك شوقي إلاَّ مَحْمَل البحث الأدبي الصرف، وألاَّ يُحَسَب إلاَّ من قبيل تَوْفِيَةِ النقد حقَّه والقيام بواجب الخدمة العلمية، ونعم الغرض هذا وحبِّدًا القصد. وبناء على قاعدة البيان وتشبُّهها به، والتشبُّه بمثله فَلَاح، أَتَطَفَّل بإبداء بعض خواطر خطرت لي بين هذه المآخذ

التي أخذها البيان على عذراء الهند، بقدر ما طال الفكر ووسع اللحظ، مائلاً في بعضها إلى تصويب رأي البيان، وفي البعض الآخر إلى تأييد نص الرواية وتاركاً الحكم في ترجيح الآراء إلى أهل الفضل وأرباب الدراية، فإن كنت أصبت المرمى في بعض ما رأيت فقد تُصاب الرمايا ولو لم تشتد السواعد، وإن كنت واقِعاً في الوهم وظهر الحق في جانب سواي، فليس بثقيل الإقرار لمثل شوقي بك، وليس بمغلوب من غلبه الشيخ!

أما اعتراض البيان على الإهداء في مقام تقديم الرواية إلى الجناب الخديوي فهو من التعمية بحيث لم أفهم وجهه جلياً، وإنما استدلت على أن المقصود عدم مناسبة إتفاف الجناب العالي برواية موضوعة فيما هي موضوعة فيه، وقد يعتذر ناسج الرواية بأن ليس ثمة ما يمنع تقديم كتاب يتصل بتاريخ مصر القديم إلى عزيز مصر الآن، فلكل من المعترض والمعتز عليه وجهة.

وأما أخذه على «الكاتب وما كتبت غراس نعمائك وبنى ظلك ومائك» بأنه لا يصح إلا من تلميذ لأستاذه، ولا يصح من مريبوب لولي نعمته، وأنه لا يمكن أن يكون ما كتبه من غراس الأمير وأي علاقة بين النعماء والإنشاء؟

فقد استغربته جداً من البيان على سعة اطلاع المعتز وطول باعه ورسوخه في آداب العرب، وكونه قد طالع ولا شك من هذا المعنى شيئاً كثيراً. وإن مثله لا يخفى عليه أن الكتاب والشعراء طالما تكلموا في معنى أن إنعام الممدوح هو مصدر فصاحة المادح، وأن درّ القول مُستنبط من بحر الجود.

وقالوا أيضاً: إن اللهم تفتح لها، وأظن أننا نستغني في مقام كهذا عن التعزيز بالشواهد المُستفيضة في النظم والنثر خصوصاً لمن كان يحفظ ديوان المتنبي، وقد شرحه وهو غير خال من هذه المعاني، فكيف لا يجوز — لعمري — لشاعر الخديوي أن يقول لمولاه وولي نعمته: إنني أنا وما أكتب غراس نعمائك، وأي غرابة فيه؟ بل أي غبار عليه؟ وأما قوله: «وبنى ظلك ومائك..» فلا أنكر أنها بالشعر أليق منها بالنثر، لكنها قد تتمشى مع العبارة الأولى ولا لزوم لخرطها فيما لا يجوز والذهاب لأجل توجيه الاعتراض إلى بعيد من قبيل أن الظل لا يكون سبباً للجنى، وأن الغراس في الظل لا يثمر وأنت تعلم أنه لا غراس بلا ظل وأن الظل غير مانع من الجنى.

وليس من الضروري في سجة كهذه استيفاء جميع العناصر التي تخرج الثمر، وذكر الحرارة والرطوبة والكربون والهيدروجين، فضلاً عن كون الظل هنا مأخوذاً بالمعنى المجازي والعبارة كلها مجازية، والمجاز هو أصل وضع البيان.

وأين نذهب مع ظلّ الله وظلّ الأمن وظلّ العدل وظلال مجردة كثيرة ممتدة في الكلام العربي ليس لما تُضاف إليه أدنى حَجْم؟

وأما غموض قوله: «فإنّما وُفِّقَ ليرفع إليك عملاً فقد أسند أفعالك في الفضل إلى أسمائك»، فلا أجادل فيه فإن غموضه واضح، لكنني أقول: إن شوقي بك غالبٌ عليه الشعر فيحسب نفسه وهو في النثر أنه في النظم، بل هو يحكي المتنبي أحياناً في عدم وضوح معانيه لأول وهلة فلا يفهم القارئ بعض جُمَلِه إلا بعد التأمل بل التعمُّل.

وأما اعتراض «البيان» على «أحب إخوته الكثيرين إلى الأمم» بأنه من التراكيب التي منعها أهل العربية حسبما نصّ على ذلك الحريري في درّة الغواص، وأن ردّ الخفاجي عليه لا يسلم من الردّ، فأقول فيه: إن الردّ على الخفاجي لا يسلم من الردّ أيضاً، وهو قد أورد في مقام الدفاع عن جواز هذا التركيب ما يستحق النظر وإنه وإن لم يكن هنا مقام استيفاء تعليلات كهذه فلا بأس بإيراد بعضها كقولهم: إن أفعال التفضيل قد يُخلع عنه ما امتاز عن الصفات ويتجرّد للمعنى الوصفي.

وكقولهم: إنه قد يكون للدلالة على زيادة مُطلّقة لا مُقيّدة نحو قولهم: يوسف أحسن إخوته، وكما قالوا إن أفضل إخوته بمعنى أفضل الإخوة على حدّ قوله تعالى: ﴿يَتْلُوَنَّهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾؛ أي حق التلاوة، وأنشدوا قول عبد الرحمن العتبي:

يا خير إخوانه وأعطفهم عليهم راضياً وغباناً

وناهيك أن نحوياً كابن خالويه أجاز هذه العبارة، ولا نظن أديباً مثل شوقي بك، قد رأينا ما رأينا له من الآثار الدالة على سعة اطلاعه في العربية يُقدّم على هذا الاستعمال إلاّ وهو يرى رأي الذين أجازوه، ويستحيل أن يكون مثله لم يمرّ بهذه الاعتراضات وردّها. وأخذ البيان على قوله: «وأمتنهم أعلّاقاً في القلوب.» وذلك بأن الأعلّاق جمع علق بالكسر؛ وهو الشيء النفيس، وأن حقّها أن تكون علائق، وقد استغربنا وإيم الله صدور ذلك عن لغوي ثقة مثل الشيخ، والأعلّاق تأتي جمعاً لغير العلق بالكسر فتأتي جمعاً للعلق بالتحريك.

والعلق يأتي بمعنى البكرة وأداتها.

وبمعنى الحبل المعلق بالبكرة.

وبمعنى الرشاء مُطلّقا، وأنشد له في لسان العرب: عيونها خزر لصوت الأعلّاق.



وأظن أن في هذه الألفاظ كلّها من معنى العلاقة والتعليق ما يسوّغ لشوقي أن يقرّنها بالمتانة في معنى ارتباط القلوب.

وأما كون «أجذبهم بأزمة الرأي العام» من المواضع الإفرنجية درجت عليها الجرائد في هذه الأيام، وليس كلُّ ما تأتي به يجوز اتباعه، فلنشرح هذه الجملة: أما «جذب الزمام» بنفسه فلا يجادلنا البيان بأنه عربي مبين.

فلم يبقَ إلاّ عبارة «الرأي العام» وهي مترجمة عن لغات الإفرنج لشيوخ هذه العبارة عندهم وعدم وجود ما يسدُّ مسدّها عندنا بالتمام، ولننظر ماذا يوجد فيها من المخلّ بالفصاحة: أما الرأي فهو الرأي لا ريب فيه.

وأما اتصافه بالعام فهو كاتصاف البلاء مثلاً بالعام، فيقال: بلاء عام وبلاء شامل. ويُقال: أمرٌ عمم، ويفسّره أهل اللغة بأنه تامٌّ عام.

ويقول شاعر الجاهلية:

يا ليت شعري عنك والأمر عمم ما فعل اليوم أويس بالغنم

فإن كان يُقال: أمرٌ عمم، فلماذا لا يُقال: رأي عام وأي إثم فيها؟

وقولك بمعناها «أهواء النفوس» لا يؤدّي حقيقة المقصود من قولهم «الرأي العام». ومن العجب أن يعترض على مثلها البيان، وهو الذي يكتب في «اللغة والعصر» ويدعو إلى وجوب الوضع قضاءً لحاجة العصر ووفاءً بالمعاني الحديثة التي لم تكن عند العرب. على مخالفة رأيه هذا لما عليه جمهور أهل اللغة من أن اللغة سماعيّة لا قياسية، فكيف يعترض بعدها على «الرأي العام»؟ وليس فيها خروج عن المألوف ولا وضع جديد ولا صوغ ولا نحت.

وأنت لو طالعت الكتب العربية، خصوصاً كتب العلم والحكمة، لم تجدها خالية من استعمالات كثيرة تساقطت — والله أعلم — إلى العرب من لغة اليونان والفرس أيام ترجمة كتبهم لعهد العباسيين؛ فالعربي القديم لم يسلم من هذه المواضع فما ظنك بالعربي الحديث وقد أغارت عليه المعاني الأعجميّة من كلّ جهة حتى اختلط الحابل بالنابل.

حتى إن «البيان» نفسه على نقاء لغته لا يسلم منها حين يقول في العدد الأخير الذي صدر فيه الانتقاد «رُزئ العالم الأدبي»، فهي عبارة عصرية محضة مترجمة بالحرف عن الإفرنجية، وليست من أساليب امرئ القيس ولا الأعشى، ولا من تراكيب الإمام علي ولا المخضرمين، بل ليست من المولّد، وإنما هي من أوضاع الجرائد السيّارة.

ومثلها استعمال «البيان» مثلاً «تنازع البقاء» عصرية محضة، وتعاير كثيرة ليس هنا محلُّ سرِّدها.

أما قول شوقي بك: «مدين لنصحها الثمين»، فليس بمعذور فيه عذره في «الرأي العام» التي جرت مجرى الأعلام.

غير أنني عجبت جداً من أخي شوقي كيف لامني على مثلها أيام اجتماعنا بباريز،<sup>٢</sup> ثم عاد هو إلى استعمالها حال كوني أنا تركتها بالمرّة إكراماً للعربية ولخاطره، فماذا طراً عليه حتى صار يأتي الآن ما كان ينهى عنه؟

وأما «باحوا بسرّ المأمورية»، فلا يمكن لي أن أعدّ المأمورية ممّا لا يصح استعماله، والنسبة إلى الأسماء من صفة وموصوف إذا لحقتها التاء تفيد المصدرية فيقال: عجبت من حجرية هذا؛ أي من صلابته.

وقالوا كثيراً: الفاعلية والمفعولية والشاعرية وهلمّ جراً.

وأما استعمال شوقي بك البرهة بمعنى هنيهة فهو استرسال إلى اصطلاح العامة أو عدم تحقيق.

ومثله الصدفة بمعنى المصادفة؛ فقد غلب استعمال الناس لها وهم لا يعلمون أنها عامية، وأما استعمال «العائلة» بمعنى الأسرة فهو وارد، وتخطئة البيان له مع قوله: كأنها تصحيح قول العامة «عيلة» وكتاهما لا تأتي بهذا المعنى، إنما يُقال عيال الرجل وعيِّله بالتشديد، فهذا فيه نظر وهو من الحريري في درّة الغواص، وقد تعقّبوه بما أظهر خطأه، ورؤي من الحديث «أتخافين العيّلة وأنا وليُّهم». وفسروه بالعيال، والأرجح أن يكون أُطلق على أسرة الرجل العيّلة التي هي الفقر لكونهم سبب الفقر كما قيل: قلّة العيال أحد اليسارين.

هذا ويجوز أن تكون عائلة بمعنى مَعولة وليست هذه بأول مرة ورد فيها فاعل بمعنى مفعول؛ فقد قالوا: ساحل بمعنى مسحول، سحله ماء البحر وهلمّ جراً.

وأما «الهوادس» فالحق فيها مع البيان إلّا أن تكون غلطة طبع.

نصل إلى قول شوقي بك في التاريخ المصري: «إن الحقيقة معه لا يستقر بها خبر، فهي عين تارة وأثر، تموت بحجر وتحيا بحجر.»

<sup>٢</sup> كان ورد في مقالة لي جملة: «أنا مديون بهذا العمل له» أو نحوها، وكناً في باريز يوم اجتمعنا سنة ١٨٩٢ فقال لي شوقي: هذا أسلوب إفرنجي ينبغي تركه.

أقول: هذه عبارة شبيهة بالشعر لكنها من أبلغ ما قرأت في الكلام العربي وأتأسف أن يكون البيان تعمّد مثلها في الانتقاد.

ومعناها ظاهر؛ إذ لا يخفى أن التاريخ المصري القديم مبنيٌّ على الآثار الحجرية والكتابات الهيروغليفية، وأن معظم مَعوَل المؤرّخين لأعصر الفراعنة هو على هذه الحجاره لفقدهم القرطاس فيه، فبينما يتقرّر عند المؤرّخين شيء يظنونه الحقيقة الأخيرة بما يطلعون على كتابة في حجر أو نقش على عمود؛ إذ انكشف لديهم حجر آخر كان مدفوناً جاء فيه ما لا ينطبق على الأول أو ما فيه زيادة عليه، فتغيّرت تلك الحقيقة وانقلب ذلك التاريخ.

ولهذا كان ينكشف منه كلُّ يوم شيء جديد، وصحَّ أن يُقال: إن حجراً من هذه الحجاره يُحيي لقديم مصر تاريخاً وإن حجراً يُميت، ولا أرى هذه الجملة في شيء من الطلاسم والرُقى كما قال البيان، وأعتقد أنها لا تُشكّل على أحد، فأما إن كان أعاظ البيان حذفه إحدى التّأرّتين من قوله: «فهي عين تارة وأثر»، فالخطب يسيرٌ ولا بأس به لأجل الإيجاز ورشاقة الجملة مع قيام الدليل على التارة المحذوفة.

وأما اعتراض «ما عساي ناولتك مما فات التفاتي قدره»، فأوافق البيان فيه من جهة التعمية على أن قوله: عساي ناولتك يتضمّن معنىً لعلي ناولتك، فقد حكى الأزهري عن الليث أن عسى تجري مَجْرى لعلّ.

وأما قوله: «مرتين لا متتاليتين ولا متعاقبتين»، فهو غامض أيضاً.

وأما «تتلاشى متوارية وتتوارى متلاشية»، فهو جائز.

وأما عبارة «حوار الماء والتيار»، فلم أعلم ماذا سبقها وما هو المراد منها، ولكنها على كلِّ حال مُبهمّة، وأما جملة «كان الفصل نبلاً خفيفاً ثقيلًا خفيفًا بليلاً» إلى آخر ما ذكر، فهي بالشعر أليقُّ منها بالنثر.

وأما «فرغت الزجاجات ولم يفرغ من الشراب»، فالمعنى فيه ظاهر وهو أنه لا يفرغ من طلب الشرب. أما قوله: «تركة شيئاً ليس بالحي»، فلا أعلم ماذا تقدّمه وماذا تأخّر عنه؛ لأنني لم أظفر بالرواية مجموعة، وما هو منتور منها في الجريدة لم يُحفظ عندي، وإنما أقول: إنه إن كان ما بعد «ليس بالحي» قوله: ولا الميت، فهو مقبول وإلاً فلا.

وأما «أجهد أذنيه»، فإن كانت بغير معنىً أتعبَ سمعيه فلا تأتي.

غير أن قوله: «أخذ النوم يطمئن بمقاعده من الأجنان» فضلاً عن كونه ليس محلاً للاعتراض، فهو كلام شعري بديع.

وأما «ارتجال النظر» فهو غريب، ومثله ارتجال النور ولا مُسَوِّغ لذلك، فإن كان بعض فحول البلاغة من كَتَّاب الإفرنج وشعرائهم مثل بوسويه وهوجو مثلًا قيل عنهم إنهم كانوا يرتجلون الألفاظ لمعانيهم ويسخرون اللغة لمقصودهم، وكان الناس لا يُكبرون عليهم هذا الأمر بما بهرهم من فصاحتهم وبلاغتهم فلم يكونوا يأتون ما أتى من هذا القبيل عند وجود المناسبة بين اللفظ والمعنى، وأي مناسبة هنا؟  
أما «الفكاك» الذي أخذ على استعماله البيان في قوله: «مانع للفكاك» فيُقصد به الحركة والانطلاق من قولهم: كل شيء أطلقته فقد فككته، ويؤيد ذلك تأكيده بقوله: «مفقد للحراك.»

وأما «الشراك» فلا يأتي بمعنى حبال الصائد، وإنما هي الشرك حسبما قرّر البيان. وأما «غير قادر المشيب»، فلم أفهمه جيدًا.  
وأما قوله: «ثم تواكل الثلاثة بالباب فلم يزالوا به حتى كسروه»، فأظن أن المقصود توكل بدون ألف، وأن الألف زائدة من غلط الطبع، وأن أديبًا راسخًا مثل شوقي بك لا يخفى عليه مثل هذا. وغلط الطبع يقع كثيرًا حتى في نفس البيان مع كثرة مراجعات الشيخ في تصحيح المسودات، ألا ترى أنه ورد فيه هذه المرة «بحيث كان كلُّ منها ضاربًا ومضروبًا» بدل كل منهما.

ثم انتقد البيان بعض أبيات الرواية من جهة الوزن واستغرب وقوع الناظم في مثله مع ما هو معروف به من طول الباع في صناعة الشعر، ولا بد من تصويب قول البيان في انتقاده هذا من الوجه العروضي إلا أنه لا ينكر أن مثل ذلك وقع أيضًا للشعراء حتى الفحول منهم، وأنه ممّا لا يقدر في شاعريّة شوقي بك لأن الشعر غير الوزن، وكلُّ منّا يحفظ «وقل أنا وزان وما أنا شاعر» على أن الظاهر من شوقي بك أنه قليل الاحتفال بهذه الصور الظاهرة، بل نراه قد يتحدّى الإفرنج في شعره، فلا يبالي مثلًا بأمر القوافي التي يكرّرها كثيرًا بالمعنى الواحد كما لاحظته في همزيته الشهيرة، ولا يعبأ بتجوّزات أخرى أعرفها له، وأخشى أن يتمادى به احتقار القيود الشعرية إلى أن ينظم أخيرًا بدون قافية نظير شعراء الإنكليز.

وإني لأعذره عند النظم حينما يكون خاليًا به شيطان الشعر مُستغرقًا في التأمل، غائصًا في أبحر التخيل من عدم إسفافه إلى تفعيل المنسرح والسريع وتقطيع كل بيت بل كل شطر مما ينظم.

ولكني أنصحه باجتناّب هذه الأبحر التي في ركوبها خطر الوقوع وإزباد علماء في العروض مثل الشيخ، والله يعلم أنني ما نظمت عليها شيئًا أرويه ولي نُدحة في الطويل

والكامل وأشباههما عن هذه الأوزان العرجاء، وغنى بركوب تلك الأبحر الواسعة عن هذه الخُلج العوجاء.

هذا ما عنَّ لي إيراده من محاكمة هذين الفاضلين؛ لا أقصد به تهضم جانب أحدٍ منهما ولا الاستطالة على أحد؛ فإنني أول من أقرَّ بعجزه، ولي من مودَّة كلِّ منهما ما يكفل لي تصحيح دعواي هذه.

وبالجملة فلا أبرئُ البيان من التشديد في مؤاخذه شوقي بك والتحجير في الواسع، كما لا أبرئُ شاعرنا الشهير من النزوع إلى أبعد مذاهب الشعر أحياناً في كتاباته، ومن تسلُّط التأمل على مُخيلته إلى حدِّ الذهول الذي يجعله أن يقع في فرطاتٍ منشوِّها السهو، وأن يقول مثلاً في بائئة الحرب:

تنام خطوب الملك إن ظلَّ ساهراً وإن هو نام استيقظت تتألب

إن كيف يظلُّ ساهراً والسهر إنما يكون في الليل ولا حاجة هنا للمجاز؛ إذ يمكننا أن نقول: بات ساهراً، فلا جرم أن مثل هذا سهو صريح أدَّى إليه ذلك الذهول.<sup>٣</sup> ومع هذا فلا يُحزننَّ أخي شوقي انتقاد البيان ولا غيره؛ فليس في انتقاده ما يكفرُّ باهر حسناته ويخفض من مقامه المنفرد في الشعر. وليقلَّ القائل ما شاء، فلن يزال أحمد شوقي بلبل مصر وصنَّاجة العصر (شكيب).

### (٣) أثر المقال في نفس اليازجي

فلما اطلع الشيخ إبراهيم اليازجي على هذا الردِّ قامت قيامته؛ لأنه كان بلغ به الأمر من الاعتقاد في نفسه معرفة اللغة إلى حدِّ أنه كان لا يطيق لأحد من أبناء عصره عليه اعتراضاً أيّاً كان، وكان لا يتردد في تجهيل أيِّ عالم في اللغة حتى من المتقدِّمين الذين هم أئمة في هذا الأمر، وكثيراً ما كان يهزأ بهؤلاء الأئمة، وذكر له الشيخ سعيد الشرتوني كتاباً لأحد

<sup>٣</sup> كان شوقي بعد أن تفارقنا في باريس يكاتبني ويردُّ على كلِّ كتبي إلى أن انقطع أخيراً عن الإجابة من دون سبب، فانقطعت أنا أيضاً عن مكاتبته، وما زلت مُنقطِعاً إلى أن جاءني منه ألوكة، يقول لي فيها: ما قصَّرت في جوابك لسبب، وإنما هو الذهول الذي لا تسلم منه نفسي. فأنا أعرض له هنا بالذهول الذي اغتدَّر به.

الأدباء المُتقدِّمين ولم يكن هذا المؤلف مشهورًا، فقال له الشيخ إبراهيم: إن الكبار ما جاءت عنهم أخبار، فكيف هذا؟ وكان يلتفتُ حول الشيخ ناشئًا ومتأدِّبون يوافقونه على جميع آرائه ولا يجرون على مجادلته في كثير ولا قليل، بل يتلقَّون كلَّ ما يذهب إليه بالتسليم المُطلق، فانتهى الأمر إلى أنه اعتقد في نفسه العصمة تقريبا. وعلى كلِّ حال ظنَّ أنه أعلمُ باللغة من أصحابها، وأسبق فيها من فرسانها، واعترض مرة على لفظة «ضوءاء» التي وردت في مُعلِّقة الحارث بن حلِّزة اليشكري، فقال إنها جاءت فيها مؤنثة، وإن حقَّها أن تكون مُذكَرة، أي إن أحد أصحاب المعلقات السبع أصبح يُخطئ في اللغة، وإن الشيخ إبراهيم اليازجي من أبناء عصرنا يصحَّح له خطأه! وينسى أن النحو والصرف واللغة كلُّ هذا مبنئٌ على كلام العرب وليس كلام العرب مبنئاً عليه.

ولا يُنكر أن اليازجي كان من علماء اللغة المعدودين ومن كبار الكتَّاب وأمتنهم تركيباً وأحسنهم نسق عبارة كما قلنا، ولكن كان بين ظنِّه في نفسه والحقيقة ما بين المشرق والمغرب؛ فإنه كان يُخطئ في اللغة كما يخطئ غيره وإن كان خطؤه أقل من خطأ غيره، فلما رأى شاباً مثلي في السابعة والعشرين من العمر وقتئذٍ يجروُ على مراجعته في قوله وعلى إظهار خطئه تارة وتعتنُّه أخرى؛ داخله من الامتعاض ما حاد به عن رُشده، فنشر في مجلته «البيان» ردًّا شديد اللهجة فيه من بوارد الحِدَّة وألفاظ الوقعة ما لم يكن يليق بشيخ من أهل العلم مثله فضلاً عن عدم مناسبة تلك المطاعن التي خاض فيها للبحث اللغوي المحض الذي كُنَّا بسبيله؛ فقد خرج عن الموضوع وتعرَّض لأمورٍ هي أشبه بالمهاترة منها بالمناظرة. وتكلَّم عنَّا بجمال نفث فيها كلَّ ما كان يحكُّ في صدره من مثل أننا «لم ندس عتبه التحقيق في علم من العلوم»، وأن قُصارى أمرنا أن نعمد إلى مقالة إفرنجية ونترجم عنها فتأتي مقالتنا «عربيَّة الحروف كربيَّة الألفاظ»، وأنه هو يعلم أن علماء اللغة لا يُقيمون لاعتراضاتنا هذه وزناً، وأنه هو ليس في شيء من الغالب والمغلوب، إلى غير ذلك من آثار العظمة والعنجهية. فلم يظنَّ أحدٌ أن الشيخ يُستطار إلى هذا الحدِّ من نقْدٍ كُتِبَ بأنزِهِ ما يكون من الألفاظ وأحوط ما يكون من الأساليب لحفظ مقامه، وقد قسَّم رده إلى قسمين؛ أحدهما كان بتوقيعه، ومن جملة ما زعم فيه أننا سعينا لدى الحكومة العثمانية في بيروت بمنع مجلته عن دخول سورية خيفة انتشار ما فيها من الردِّ علينا، وقد يجوز أن يكون جاء اليازجي من بعض المُفسدين خبرٌ كهذا، ولكنه كان بهتاً لا أصل له. ومن الردِّ ما جعله باسم أحد مُريديه، واسمه بدران فيما أتذكر، وقد

حاول أن يتستّر وراء توقيع مُريده هذا خَجَلًا من أن يوقّع هو على مطاعن شخصيّة ليس بينها وبين الموضوع الذي كُنّا فيه أدنى صلة.

وقد عاب الناس عمله هذا حتى أقربهم إليه وأغْيَرهم عليه، وحسبك أن بشاره باشا تقلا صاحب الأهرام، وهو واليازجي من بلدة واحدة (كفر شيمه في لبنان) ومن طائفة واحدة هي الروم الكاثوليك، قد كتب إليّ أو انبذ أن الناس أنكروا إنكارًا شديدًا على الشيخ إبراهيم خروجه عن الموضوع ونزوله إلى ميدان المهاترة ونشره مقالة من قلمه بإمضاء غيره.

وصادت بعد ذلك أمين أفندي أفرام البستاني اللبناني؛ وهو من فحول الكُتّاب فعرض البحث عن هذه المناقشة بيننا وبين الشيخ إبراهيم، فقال لي: قد توفقت في الشيخ. فتعنتُ اليازجي في انتقاد شوقي لم يجن له أدنى فائدة، بل جنّى عليه، وعجّب الناس من أن تغرب عنه مسائل لا يُجادل فيها أحدٌ، وعجبوا أكثر من ذلك لبلوغ الحدّة منه مبلغًا خرج به عن الحدود.

#### (٤) ردُّ للمؤلف على اليازجي

والآن أعود فأنقل جوابي لليازجي على ردّه هذا:

#### كلُّ ينفق ممّا عنده

قد تردّدنا في جواب «البيان» على ما أتى به في جزئه الأخير ممّا لا خلاف في كونه ليس بجواب على خطابنا، وكنّا نحب الإمساك عن كلّ كلمة في الردّ عليه تاركين الحكم في هذه القضية لأرباب العلم وأهل الذوق السليم؛ ليفتحوا بيننا وبينه بالحقّ مُعتقدين أن الحقّ ليس بضائع عندهم، ولكننا رأينا السكوت مطلقًا عن جميع ما أورده قد يُوهم بعض من لا تحقيق عنده أنّ قوله كان الفصل وأن الرجل قد ألزم وأفحم وأنه إنّما يغرف من يمْ.

فاخترنا نشر هذه السطور تعزيرًا لبعض ما حاول دفعه ودفعًا لما اعترض به علينا جديدًا، فأما سائر ما أتى به ممّا هو خارج عن موضوع المناظرة فلو شئتنا لكان للأقلام مجالٌ طويل في ردّه إليه وعكسه عليه، ولكن ذلك ليس من شأننا فنقول: أما «الكاتب وما كتب غراس نعمائك..» فقد أصبحنا في غنى عن تأييدها بما نتركه لمحفوظ القراء من

هذا المعنى الذي لم يسع صاحب الردّ هذه المرّة إلاّ التسليم بوروده، عاد يقول: «لعلنا رأيناه مرة». وما رأيناه إلاّ مرارًا، بل لقد سمعنا فيه المثل، وناهيك بما أصبح مضرّبًا للأمثال يكون مطروقًا.

فأما قوله: كان يجب عليك أن تميّز بين المادح وقصص المؤرخ، ويا ليت شعري هل كانت تلك الرواية خطبة أو قصيدة عدّد فيها المؤلف المناقب الخديوية، حتى يُقال إن نعمة المدوح كانت على الكاتب عبارة المدح والشكر.

فجوابه، أنّ قول صاحب الرواية «الكاتب وما كتب» هكذا على إطلاقه لا يفيد «بما كتب» هذه الرواية وحدها.

وقد «كتب» غيرها كثيرًا وأسأل من المداد جمًّا مستمدًّا من كتابته بنعمة مولاه الخديوي التي هو غنّي درّها وغارق في أبحر آلاء هو ناظم درّها.

وهو الذي ملأ الآفاق بالمدائح الخديوية وسير أوابد الشعر في هذا البيت الكريم، وحسبك أنّ صفته الملازمة له أنه شاعر الخديوي وقد امتلأ حوض العزيز من نظمه.

ولا نعلم بعد هذا من أين جاء الشيخ هذا الشرط الذي قاله، وهو أنه يجب أن يكون كلّ ما يكتبه الكاتب خطبة أو قصيدة يعدّد فيها مناقب سيّد له منعم عليه حتى يجوز له التحدّث بنعمة ذلك السيد، فإذا خرج من ذلك العرض مرّق من فضل مولاه عليه وانقطعت مادة إمداده له فصار محظورًا عليه التحدّث بنعمته بين الناس وانقطع ما «بين النعماء والإنشاء» كما هو مقتضى كلامه.

وأما «جنى ظلّك وماؤك» فبعد أن قلنا له إن الظلّ هنا مجازي لم يبق محلّ لإظهار معارفنا في علم النبات والتشاغل بالظلّ والجنى وما يتعلق بهما.

فأما قوله: إنّنا أضفنا الظلّ إلى الغراس لا للمهدى إليه فمن يرجع إلى عبارتنا الأولى علم مقصودنا وقاس درجة هذه الدعوى من الصحة، كما أن قوله: أنّنا جعلنا الحرارة عنصرًا، فحسبنا لتفنيده إعادة عبارتنا بالحرف، وهي هذه: «ليس من الضروري في سجة كهذه استيفاء جميع العناصر التي تخرج الثمر وذكّر الحرارة والرطوبة والكربون والهيدروجين». نعرضها على جميع علماء العربية، هل يُستفاد منها أن الحرارة مجعولة فيها عنصرًا من العناصر؟ وهل يقول ذلك أحد؟ إلاّ إذا شاء تحريف الكلّم عن مواضعه.

وأما تركيب «زيد أفضل إخوته» فالله يعلم أنّنا لم نكن ممن يستعمل هذا التركيب وإنما قصدنا بالدفاع عنه أن مسألة خلافية كهذه، قد حصل فيها من الأخذ والردّ ما لا



يمكن أن يكون غاب عن أديب راسخ مثل صاحب عذراء الهند، وأن شوقي بك لم يعدل إلى مثل هذا التركيب إلا وهو يرى رأي الذين أجازوه ولم يحجروا فيه، وذلك مثل ابن خالويه وهو يحفظ منه قول العتبي، وقول صاحب البيان: أن ليس هذا مقصود ابن خالويه لا يسلم به بلا دليل. والخفاجي قد نقل ذلك عنه وهو ممن يعلم ما ينقل ويفهم ماذا يقول. ولما كان اعتراض البيان على هذه العبارة مأخوذاً كغيره عن درة الغواص وهي بين الأيدي، وكان الخفاجي قد تعقبه هناك فمن شاء مقابلة الأخذ بالرد فعلية بمراجعة ذلك في محله ولا حاجة بنا إلى إضاعة الوقت في نقله ومنه يُعلم أدلة الفريقين.

وأما «الأعلاق» فلا ينس البيان أنه منعها في البداية قولاً واحداً بمعنى العلاقات، فقال ما نصه: «يريد بالأعلاق العلاقات وهي لا تأتي بهذا المعنى إنما الأعلاق جمع علق بالكسر وهو الشيء النفيس». فمقتضى كلامه الذي لا يحتمل أدنى مغالطة أن الأعلاق هي النفائس منحصرة في هذا المعنى بدليل قوله: «إنما» فقلنا له: بل الأعلاق تأتي بغير معنى النفائس فتأتي جمعاً للعلق محركة وهذا يأتي بمعنى البكرة والحبل المعلق بالبكرة، وبمعنى الرشاء مُطَلَّقا، وأنشدناه هذا الشطر من اللسان:

#### عيونها خزر لصوت الأعلاق

دليلاً على عدم انحصار الأعلاق في معنى النفائس كما ذهب إليه، فظاهر أن صوت الأعلاق في هذا الشطر لم يقصد به صوت الأشياء النفيسة.

ثم قلنا في هذه الأدوات وهي البكرة والحبل من معنى التعليق والعلاقة ما يسد ارتباطها بالقلوب؛ وذلك لأن المجاز يقع لأول ملابس، وهنا الملابس شديدة، فكان من الشيخ أنه طوى كشحاً على كلامنا هذا ومال إلى التهكم بتأويل الأعلاق بالحبال والبكرات وأخذ يترحم على عشاق العرب الذين لم يسبقونا إلى هذا المعنى بزعمه، ولا ذكره في أغزاهم الرقيقة، وقال: «وإذن لكان لهم ما يصطادون به المحبوب قسراً إذا سمع صرير تلك البكرة فخرزت عيناه دهشاً». إلى آخر ما ذكر.

ومقتضاه أنه يلزم تفسير اللفظ بمعناه الحقيقي ونفى المجاز من اللغة العربية حال كون المجاز هو فصاحتها وبيانها، وعليه فصار يلزم من الآن فصاعداً إذا أردنا تفسير ﴿فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسِ الْجُوعِ﴾ أن نتخيل للجوع ثياباً وتتصور تلك الثياب في الأفواه وقد أنحت عليها الألسنة تلوكها.

وإذا قيل: حمي الوطيس، امتنع أن نفهم منه سوى مجرد حمي التنور، وإذا قيل: جناح الذل، تبادر إلى الذهن جناح ذو قوادم وخواف فيه من الريش طائل وشكير، وإذا قيل عن رجل: إنه بحر العلم، وجب أن تلتطم بين جوانحه الأمواج وتمر فوق رأسه السفن، وإذا قال البيان في نفس عبارته التي تهكّمنا بها «يصطادون المحبوب»، بمعنى يجتذبونه تعين أن يكون المحبوب غزلاً قد صيد بشرك نصب له، أو سهم شكّ فؤاده فأخذ وسلخ وشوي على النار كما يفعل بالصيد! وإلا فالمحبوب لا يُصاد في الحقيقة، وهكذا نمضي في تفسير العربي كلّ على هذا النمط، وناهيك ما يتسع لدينا حينئذٍ من مجال الهزوء لا بأعلاق القلوب فقط بل بأكثر معاني هذه اللغة الشريفة، مع أن الكلام كما لا يخفى، على واسع علم المُعترض، منه حقيقة ومجاز، والحقيقة هي اللفظ الدال على ما وضع له في الأصل، والمجاز هو ما أُريد به غير المعنى الموضوع في الأصل وهو من جاز: أي انتقل كأنما يريدون به الانتقال من مقصد إلى آخر.

فإذا قيل: زيد أسد، حال كون زيد إنساناً والأسد حيوان كأنه قد فصل المجاز من الإنسانية إلى الأسدية لوصلة بينهما هي الشجاعة.

أو قيل: زيد بحر، فالوصلة هي الكرم وهذا هو أهم أبواب البيان، بل قال بعضهم: إنه علم البيان بأجمعه.

ومن العجب أن المسمى بالبيان اليوم يُوجب تفسير كلّ لفظ بمعناه الأصلي مُتخيراً صرير البكر وذعر المحبوب من ذلك الصرير المنكر ممّا لا محلّ له؛ إذ الملايسة بين الحبال والقلوب في معنى الارتباط تُدرَك بأدنى تأمل.

وأما ترحمه على عشاق العرب الذين لم يسبقونا إلى هذا المعنى، فرحم الله من لم يتركوا معنى إلا وقد سبقونا إليه.

وهل لنا من عاشقٍ أرقّ غزلاً وأفصح لهجة من مجنون ليلى فهو الذي يقول:

فشب بنو ليلى وشب بنو ابنها      وأعلاق ليلى في فؤادي كما هيا

ومجنون ليلى هذا حجة وقد استشهدوا بكلامه في كتب النحو، وقال الشريف الرضي: وهو الذي يجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه.

ومن حدّر لا أسأل الركب عنكم      وأعلاق وجدي باقيات كما هيا

وأظن أننا أتينا من هذه النصوص بما فيه مقنع ولم يبق جدال في كون «أمتهم أعلّاقاً في القلوب» جائزة سائغة وأن الأعلّاق تأتي بمعنى العلائق أيضاً، إلا إذا كان المُعترِضُ أعلم بِلغة مضر من مجنون ليلي والشريف الموسوي وحينئذٍ لا كلام لنا! نصل إلى «الرأي العام» وقد أوردنا رأينا فيها ولا نزال نقول: إن قول الشيخ «أهواء النفوس» لا يؤدي حقيقةً معناها وإنه حيث كان لا يوجد فيها شيء يخالف القواعد، فلا بأس بالتسامح فيها وتهويناً للأمر قسناها على الأمر العام، وقلنا: قالوا أمر عمم وفَسَّروه بأنه عام.

فأجابنا بأننا خلطنا بين العمم والعام فإن نكن خلطنا فقد خلط لسان العرب، والأصح أن ابن منظور كان يعلم ماذا يقول وهو الذي فسّر أمر عمم بقوله: أي عامٌّ تامٌّ، فلم نعلم ما وجه الخلط بينهما؟

ثم إنه هذه المرة لم يتعرّض «للعائلة» وخصّص نفيه بالعيلة، وردّ قول الخفاجي بجوازها بحجّة أن كلّ مستند الخفاجي هو الحديث «أتخافين العيّلة وأنا وليهم». فقال: إن الذي فسّره بالعيال هو ابن الأثير وحده، وإن قول ابن الأثير لا يُسَلَّمُ به حتى نعلم قرائن هذا الحديث. فقد كان صاحب البيان في غنى عن تخطئة مثل ابن الأثير في علم الحديث والرجل من أكابر المُحدِّثين وكتابه «النهاية في غريب الحديث» أشهر من أن يُذكر، وهب أن صاحب البيان قد طالع في حواشي الكتب بعض الأحاديث فهو علم لا بدّ فيه من الأسانيد ولا يصحُّ تلقّيه بلا رواية، فتعرّض المُعترِض لجرح قول ابن الأثير في هذا المعنى واقع بغير محلّه كما لا يخفى.

على أن الخفاجي لم يقتصر في تأييد تلك اللفظة على إيراد هذا الحديث وحده، بل قال: لعلهم أخذوها من قوله: عاله عيّلة إذا قام برزقه، أو لعلها أُطلّقت على أسرة لكونهم سبب العيّلة؛ أي الفقر؛ أي من باب تسمية الشيء بما يتول إليه، وفي توجيهه هذا ما لا يخفى من الوجاهة ولا يؤاخذني قارئ بأنني استعملت «العيلة» في كلامي بمعنى الأسرة؛ لأنها من الألفاظ التي وقع فيها المرء والتي أغناني الله عنها بأفصح منها.

فإن قيل: فلماذا تحرّيت الدفاع عن استعمالها مع أنها مما لا ترضاه لنفسك؟ أجبت: على المنتقد الذي ينصّب نفسه «لإرشاد الخاصة» إذا شاء الانتقاد أن يُرينا ورى زنديه، ولا يعمد إلى ما قد نسج عليه العناكب من المآخذ التي صارت إلى صغار الطلبة فضلاً عن خاصّة الكُتّاب، فيأظهار الطول فيما لا مزية فيه يحدو المرء إلى المقابلة

بالمثل خصوصًا في علم العربية الذي لا عبث فيه أكثر من التحجير في الواسع، والقطع بعدم جواز هذا وعدم ورود ذلك ظنًا بأن اللغة قد انتهت عند الذي طالعناه.

وأما قول شوقي بك في التاريخ المصري: «إن الحقيقة معه لا يستقر بها خبر، فهي عين تارة وأثر، تموت بحجر وتحيا بحجر.» فقد كان قول البيان فيه هكذا بالحرف: «انظر ماذا أراد بقوله تموت بحجر وماذا يفهم بالحجر هنا؟ وهل هذا إلا ضرب من الرقى وشكل من أشكال الحروف؟»

فلما أوضحنا لك أن العبارة ليست ضربًا من الرقى ولا شكلاً مما ذُكر ضَرَبَ عن الجملة صَفْحًا وجاء يجادلنا في توجيه المعنى من جهة التاريخ المصري محاولاً أن يوقعنا في التناقض حال كون كلامنا هناك نيرًا.

وملخصه أن حقائق التاريخ المصري غير ثابتة لاختلاف ما ينكشف كل يوم من الآثار الحجرية التي قد يُناقض منها تالٍ سابقًا، ثم يأتي ما يؤيد الذي كان قد نقض فهي لذلك بين موت وحياء مما لا يحتاج فهمه إلى إمعان.

هذا وقد بقيت هناك اعتراضات منها ما سكت البيان عنه علامة التسليم به مثل ما أوردناه على «المأمورية» وقوله: «أخذ النوم يطمئن بمقاعده من الأجدان.» ومنها ما لم يجاوبنا عليه بغير التهكم والازدراء، وهو سبيلٌ سهل لمن أراد سلوكه لكنه ليس سبيل المناظرة، ولا يغني صاحبه من الحجّة شيئًا.

إلا أنه أخذ علينا قولنا: «يمكن لي» في محل «يمكنني» بحجة أن هذا الفعل لا يتعدى باللام.

وفي الجواب لا نقول له: إن اللام تأتي لمجرد التوكيد ولتقوية المعنى دون العامل، كما قالوا: «ملكًا أجار لمسلم ومُعاهد.» وربما نستغني عن أن نقول له إن اللام تأتي للاختصاص كما في قولهم: «شكرت له» في مكان «شكرته» وكما قرأت في أحد التواريخ الكبيرة «بايعوا له» والأصل «بايعوه».

ولو شئنا لقلنا له إنه لما كانت الأفعال التي تعلّقها بمفعولها ما بين الوضوح والخفاء قد تتعدى باللام كما نصّ على ذلك الفخر الرازي وكان يمكن اعتبار فعل «أمكن» من هذا القبيل فلا حرج في مجيئه متعدّيًا باللام.

ولكننا نقول: إن «يمكن لي» بمعنى «يتيسر لي» وذلك من باب تضمين الفعل معنى فعل مرادف له، فإن الأفعال قد يتضمّن بعضها معنى بعض، ألا ترى أنه لما قال الكوفيون بتضمين الحروف بعضها معنى بعض أنكروا عليهم البصريون ذلك، وقالوا إن التضمين

للأفعال لا للحروف وأولوا شربت بماء البحر بمعنى رَوَيْتُ، «فأمكن لي» متضمّنة معنى تيسّر لي أو تهيأ لي، كما أن لفظة «ممكنة» في قول عنتره:

... .. والشاة مُمَكِنَةٌ لمن هو مُرْتَمِي

هي بمعنى متيسّرة، وبعد هذا كلّهُ فهَبْ أن الأوّلَى أن يُقال «يمكنني» فما على الشيخ إلا أن يقيسها ببعض تجاوزاته، كقوله مثلاً: «زحف عليه» بدل «زحف إليه»، وكقوله: «ينيف عن كذا» محل «ينيف على كذا»، وكقوله: «كما أشار» والواجب «كما أشار إليه» وهلمَّ جرّاً.

ولكن نحب أن نخبرنا الشيخ ما معنى «الصحافة» في قوله في تلك الجملة التي اعترض بها على ما يمكن لي «غلمان الصحافة»؟ فقد لاح لنا أنه يقصد بها الكتابة في الصحف أو صناعة تحرير الجرائد كما مشى على ذلك بعض المعاصرين.

ومَنْ كان يرد في كلامه مثل «الصحافة» بهذا المعنى، ومثل: «العالم الأدبي» فأبي حقّ له في تخطئة «الرأي العام» وأدعاء تخليص الكلام من المواضيع الجديدة.

ثم همز بنا لأجل همزة «أشکل» الواردة في الأهرام بالضمّ من غلط مرتّب الحروف ونسي أننا لسنا نظيره في المطبعة، وأن بيننا وبينه أبحراً فلا يتيسّر لنا تصحيح المسودات بذاتنا كما يتهيأ له ردُّ المرتّب ما شاء من المرّات. والظاهر أن الشيخ لا يسلمّ بغلط الطبع إلا إذا وقع في كلامه.

وأما تهديده إيّانا بالإسراع في إيراد أغلاط «آخر بني سراج» فلا مانع من أن نكون وقعنا في الغلط في ابن سراج وفي غير ابن سراج؛ لأنه ليس أحد بمعصوم من الخطأ، ولكن سبحان الذي أوقعنا ولم يستثن غيرنا، وإن شاء أسرعنا إليه من قوله بمثل ما أوعد به من قولنا.

على أننا لا نفرّ من وجه الحقّ، ونحن نُقرُّ بكلّ ما يرد علينا منه، وكان الأولى بمن يضع نفسه في منازل أهل التحقيق أن يعترف بالخطأ، وقد أورد له النص والشاهد وأن يحتدي مثال السعد التفتازاني حينما ناظر السيّد وأقرّ له وهو أحدث منه سنّاً، فإنه ما على الجواد ألا يكبُّ ولا هفوة العالم مُسَقِطة له من رتبة فضله خصوصاً إذا عرف خطأه وتذكّر قول القائل:

أيذهب يومٌ واحد أن أسأته بصالح أيّامي وحسن بلائيا

بقي علينا شيء ليس من باب المناظرة في اللغة، ولكنه من باب الحقيقة؛ وهو أن صاحب البيان اتَّهمنا بالسعي في منع الجزء الأخير منه توهم أن فيه ردًّا علينا، ففضلاً عن كوننا علمنا من مصر في نفس البريد الذي ورد فيه ذلك الجزء أن ليس فيه شيء علينا وأصبحنا في أمن من ذلك الخطر يعلم الله وأولياء الأمور أننا براء من هذه التهمة. هذا وأما الشخصيات فلا شغل لنا بها، والله المستؤل أن يبصرنا ذنوبنا، ورحم الله من أهدى إلينا عيوبنا. اهـ.

### (٥) المؤلف يرثي اليازجي

وكانت هذه المناقشة سبباً لانقطاع ما بيننا من ودِّ قديم موروث، ومات اليازجي — عفا الله عنه — وليست بيني وبينه صلة، وإنما رثيته عند وفاته رعيًّا لذمام أبيه الشيخ نصيف اليازجي؛ شاعر سورية في وقته الذي لو اجتمع ما قاله في الأرسلايين من الشعر لكان ديواناً مستقلاً، وتذكُّراً لما كان بيني وبينه من ودِّ سابق، وانحناءً أمام حادث الموت الذي تذهب عنده الأحقاد، وقد قلت في رثائه:

قصار كلِّ فتى مستكمل الخطر  
وأن يقابل صرف الدهر كيف جرى  
وأن يرى غيره مع عينه شرعاً  
فما أرى ناعياً حياً بمفرده  
أن ينحني لقضاء الله والقدر  
بالخلق في عبرات العين والعبر  
فليس بينهما فرق سوى الصور  
إلا نعى لو عقلنا سائر البشر

إلى أن أقول:

كفى بريب المنايا وإعظاً وجزى  
تخالف الناس في الأهواء حين حيوا  
وقد يلج ببعض كيد شانئه  
وقد يحاول في أعدائه ظفراً  
كم وترت قوس ضغن كفّ ذي ترة  
والدمع يغسل ما بالقلب من وضر  
لو أنصف اليازجي دمعاً لكان له  
رشداً لمن كان من دنيا على غرر  
وجمع الموت منهم كلُّ مُنتثر  
ولو درى لصفاً صفواً بلا كدر  
وأنه بين ناب الموت والظفر  
فأذهب الموت عزم الوتر والوتر  
كما يزول غبار الأرض بالمطر  
كعلمه بحر دمع غير مُنحصر

أو لو درت نار إبراهيم مصرعه  
أودى الردى حينما أودى بمهجته  
بذي الضياء تكاد العمى تبصره  
من بعد ما خمدت ريح البيان غدت  
عبارة لا ترى في رصفها قلقاً  
لا تلتقي موضعاً فيها له بدل  
بكت له اللغة الفصحى وحق له  
يا راحلاً شكت الأقلام غرْبته  
نهجت في بلغاء الأرض واردة  
إليك حقك لا ظلم ولا سرف  
وإن يؤاخذك نقاد ببادرة  
وقد يُعاب الذي في البدر من كلف  
إليك مني تحيات برقتها  
فاذهب عليك سلام الله من رجل

لأصبحت من جوى لفاحة الشرر  
بأكتب الوقت من بدو ومن حصر  
وذي البيان الذي يشفى من الحصر  
له به دولة وضاحة الغرر  
كالعدل لم يشك من طول ولا قصر  
كأنما جاءت المعنى على قدر  
بكاء كل كلام جاء من مضر  
وليس بعدك منها غير منكسر  
بالحق لولاك لم تُسفر ولم تُنر  
لا يُنكر الشمس إلا فاقد البصر  
فليس يُرجم إلا مُثمر الشجر  
وليس يُسلب معنى الحُسن في القمر  
كسحر لفظك أو كالنفخ في السحر  
ماضي الحشاشة لكن خالد الأثر

فهذا ما كان بيني وبين الشيخ اليازجي من الوحشة بعد الولاء، ومن القطيعة بعد  
الاتصال؛ بسبب شوقي.





## عود إلى شوقي

وبعد أن قفل شوقي إلى مصر وَرَدَ عنه كلامٌ في جريدة الشورى للكاتب الوطني المجاهد السيد محمد علي الطاهر، وذلك بمناسبة اجتماعنا في المقهى العربي في باريس. ف جاء شوقي وزار الأستاذ حافظ بك عوض صاحب جريدة كوكب الشرق، وألقى إليه كلامًا جاء بعده في كوكب الشرق عدده المؤرخ ١٣ جمادى الأولى سنة ١٣٤٥ وفق ١٨ نوفمبر سنة ١٩٢٦ المقال الذي يلي:

### أحمد شوقي بك بين الأمير والأستاذ

زارنا بالأمس سعادة أمير الشعراء شوقي بك، فانتهزنا هذه الفرصة لنرى رأيه فيما وَرَدَ عنه في «كوكب» أمس مَنقُولًا عن جريدة الشورى الغراء، وما كدنا نتمُّ السؤال حتى تبسّم ضاحكًا، ثم قال: أنا شاكر لهم أن يضعوني بين بحاثتَيْن، سعادة الأمير شكيب وسعادة الأستاذ زكي باشا، على أنني لا يفوتني أن أتقبَّل مُداعبات الأمير على العين والرأس، فأقلُّ حقَّ الصداقة علينا أن نفتح صدورنا لدعابة الصديق القديم، وأنا سعيد للفرصة التي مهَّدتُموها لي لأشكر الأمير، فهو أول من دعاني لزيارة المطعم التونسي وقهوته مع حضرات أعضاء الوفد السوري المحترمين بباريس.

كان يومنا هناك أبهج من أن يُنسى بفضل ما بذله أصحاب المطعم من همّة جديرة بالثناء خصوصًا الأديب الفاضل طاهر أفندي الصبَّاغ، وهو راوية من رواتي كان يُنشد شعري الحاضرين.

وإذا كان الشيء بالشيء يُذكر، فقد علمت وأنا هناك من أعيان التونسيين أنه على أثر إشاعة كانت قد شاعت عن عزمي على زيارة تونس في الصيف

الماضي، استعد إخواننا التونسيون للقائي استعدادًا أعدّه فوق قَدْرِي، حتى بلغ من أحد سراتهم الأدباء أن هيأ لي منزلًا فخماً أثَّته كلُّه بأثاث جديد. وأنا لا يسعني إلا أن أُحِبِّي هذه الروح الشرقية الكريمة، وأتمنى توثيق عُراها بين أمم الشرق على الدوام. وأخصُّ بشكري الأمّة التونسيّة مثال النهضة والرقي في شمال أفريقيا.

فبعد ذلك نشرت في «كوكب الشرق» في العدد المؤرخ في ٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٤٥ وفق ٩ ديسمبر سنة ١٩٢٦ مقالة هي هذه:

### مداعبة بين شوقي والمؤلف من دعاية إلى أخرى

حيث إن أمير الشعراء قد فتح صدره لدعاية صديقه القديم هذا، فلنترك الآن الأستاذ العلامة أحمد زكي باشا ولنعد إلى أميرنا أحمد شوقي بك نجاذبه بقيّة الحبل.

يقول شوقي بك إنِّي أنا الذي بدأ بدعوته إلى المطعم التونسي وقهوته مع أعضاء الوفد السوري المحترمين ويشكر هذا الداعي. وأنا أتباهى بهذه الدعوة وأشكرُ لمجيبها حُسن التلبية فقد كنت أول مَنْ دعا وكان هو أول مَنْ لَبَّى. وكان يوماً مُشرقاً سروراً وأنساً وكما قال أبهج من أن يُنسى لا بل كان كيوم دارة جلجل. ويعلم الله أن ملاقة أخي شوقي بُغية تُقصد ومَنْهَل يُورد، وإنِّي لأحج إليها من بلد إلى بلد، فكيف وهي على طرف الثمام! وإنِّي لأحُنُّ إلى لقاء هذا الأخ الحميم ولو في رمضان بعد العصر، فكيف على كسكس وشكشوكة وما شاكلها من الطعام!

ولست بأقلُّ شكراً منه للأديب الفاضل السيد طاهر الصبَّاغ الذي رأينا من حفاوته ونحافة ذوقه وسرعة لحظه وشدة حُفْظه، ما يُعد نادراً في بابهِ. ويقول الأخ الأكبر — وشوقي بحسب تاريخ ولادته أكبر منِّي بسنة — إن طاهر أفندي، الموماً إليه، راوية من رواة شعره، وإنه كان يُنشد شعره الحاضرین، وأقول كلُّنا رواة لشعر شوقي نُنشدُه الحاضرین ونزهو به على الغابرين، ونقول: كم ترك الأولون للأخريين! ولعمري إن الدهر من رواة شعر شوقي، أفَيكون الصبَّاغ أصعب من الدهر؟!

قال أبو الطيب:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً

وَمَنْ يَا تَرَى يَصْحُحُ أَنْ يَخْلُفَ الْمُتَنَبِّيَ الْيَوْمَ؟ أَوْلَاهَا أَحْمَدُ وَأَخْرَاهَا أَحْمَدُ!  
أفلم يسألني سائل منذ عشرين سنة — تراني لا أزال مُتَمَسِّكًا بالتواريخ —  
عن رأيي في أشعر شعراء العصر فأجبتة — وجوابي منشور في مجلة سركيس  
وقد تَكَرَّرَ نَشْرُهُ فِي الْمُوَيْدِ — بأن المفلقين منهم كثيرون، وذكرت الكاظمي  
والرصافي والمطران وغيرهم، ولكنني قلت إن البارودي وشوقي وحافظ إبراهيم  
هم الثلاثة السابقون في الحلبة، وما زلت أقول إنهم ثالث الشعر الأقدس،  
وذلك كما كان أبو تمام والمتنبي وأبو عبادة البحرني في الماضي لآت الشعرِ  
وعزاه ومَنَاتِه، وهكذا لقبهم صاحب المثل السائر، وشبَّهت البارودي بحبيب؛  
لما بينهما من التناسُب في علوِّ النفس وجزالة اللفظ وتدْفُوع القول، حتى كأنه  
العارض المُنْصَبُّ وشبَّهت أحمد شوقي بأحمد بن الحسين الكندي؛ لما بينهما  
من التناسُب في دَقَّة المعاني وكثرة الحكم والجري مَجْرَى الأمثال، ورأيت في  
حافظ كثيراً مما في البحرني من حُسْن الصنعة وعذوبة الألفاظ وطلاوة النسخ  
وملكة الانسجام.

فلا عجب أن رَوَى الدهرُ لشوقي كما روى للمتنبّي، وكم من أبيات لشوقي  
يستشهد بها الكُتَّاب بل العوام وهم لا يعلمون أصلها. ومن وجوه شبه أحمد  
شوقي بالمتنبّي أن أبا الطيب استشهد الناسُ بشعره في عصره، ودارت أمثاله  
وأبياته اليتائم على عذبات الألسن وروعوس الأقلام شرقاً وغرباً وهو بعدُ في  
الحياة، وأن شوقي له شعر كثير لا يأخذه الإحصاء يستشهد به الخاصُّ والعامُّ،  
ويدور على الألسن والأقلام، وهو يعدُّ في الحياة لا بل في الشباب إن جاز لنا أن  
نقول هذا.

إلا أني سمعت السيد طاهر الصبَّاغ يروي لحافظ مثلما يروي لشوقي  
وربما أكثر فلا ينبغي أن أُغْفَلَ ذلك؛ لأن التحريَّ واجبٌ في الرواية حتى عن  
الرواية.

ولكن قد بالغ شوقي في الاعتماد على ذاكرة صاحبنا طاهر الصبَّاغ وفي  
الاعتقاد بإحاطته بشعره إلى أن ذهل عن إهدائه إيَّاه ديوانه «الشوقيات» بعد

أن وعده به وقال له: إني كتبت اسمك على النسخة. وهو عَقْدُ عجل شوقي فسخه لذهابه أن بين صدغِي الصبَاغ من ديوانه نسخة.

وذهب شوقي إلى «فيشي» وقد ظنَّ الصبَاغ أنه «فايش» في وعده بالكتاب، وبقيت أنا وحدي عرضة للعتاب كأنني أنا وشوقي مُتَكَافِلَان مُتَضَامِنَان ليسمح لنا «الوحيد» بالتكافل والتضامن، فقد صارتا من الاستعمالات الضرورية ولو لم يرد في كتب اللغة تضامن فلان وفلان، ولا ورد من الكفالة إلا قولهم فلان مُكَافِل لفلان؛ «بمعنى معاهد» ولا غَرُو فبين الأدباء رحم وذمام، ولا سيما إذا كانوا إخواناً من قديم الزمان. فصرت أسمع غمزة بعد غمزة وكثرت الحروف التي فيها همزة، وخشيت أن يتذكَّر صاحبنا الآية الكريمة في الشعراء وهي التي فيها ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ إلى آخر ما وصفهم تعالى به ممَّا ينتهي بالألف والنون.

وإن شوقي سيدهم وحامل لوائهم يوم القيامة، فكنت أُوَكِّد للأديب الصبَاغ، وهو عربيُّ قَحْ مولده الحجاز، أن لا بد لذلك الوعد من الإنجاز وأنَّ عليه أن ينتظر وصول شوقي بك إلى مصر، فالأمور بخواتيمها، والقصائد بقوافيها، والنسخة الموعود بها آتية لا ريب فيها.

كنَّا في العود الذي وعدنا به ولم نسمعه، فصرنا في النسخة التي انتظرها الصبَاغ ولم يرها، ولا شكَّ عندي أن العود تعطلَّ كما قال الأخ، وأن النسخة أُهْدِيَتْ إلى أناس كانوا مُسْتَعَجِلِينَ إلا أنني لست بتاركٍ حَقِّي في هذا العود إن شاء الله في كرامة بن هانئ نفسها، فقد كان أمير الشعراء وَعَدَ بليلة طرب من أجلي بأثناء زهابي إلى حرب طرابلس الغرب «١٥ عامًا» والبدوي أخذ ثأره بعد أربعين سنة، وقال إنه بكر، أما السيد طاهر الصبَاغ فإنه بدوي أكثر منِّي، فإن لم يعجل إليه بالنسخة فلا تُغْنِي بعد ذلك المكتبة بأسرها.

أما ما رواه بعضهم من وجود الشُّرْب والرُّقُص في ذلك المقهى العربي بباريس فلا نصيب له من الصحة، بل مشرب الزائرین قهوة البن وهي التي قال فيها عبد الغني النابلسي — رضي الله عنه:

قهوة البنُّ حلال      ما نهى الناهون عنها  
كيف تُدعى بحرام      وأنا أشرب منها

عود إلى شوقي

والشاي بأنواعه لا سيَّما الأخضر وهو ما أدخله إلى المغرب السادة السنوسية — رضي الله عنهم وكفى بهم قدوة. وليس هناك سكر ولا رقص ولا في المقهى مكان للرقص، وإنما قد تُنشد أحياناً بعض الأبيات المُرَقَّعة للقلوب وبعض الأزجال المقبولة، وليس في ذلك نكير، ولعمري إن مقهى بدون قهوة ولا شاي أشبه بقلب بلا وجد أو «بغراموفون» في نجد.

شكيب أرسلان

لوزان في ٣٠ نوفمبر ١٩٢٦



## الوداع الأخير

ومذ ذلك الوقت لم يتيسر لي الاجتماع بأخي شوقي؛ لأنني كما لا يخفى لا أقدر أن أدخل مصر، ولأن شوقي لم يأت في هذه السنين الأخيرة إلى سويسرة، وبقيت أرحاه ويرعاني عن بعد وأصحابه فؤادي كيفما جال وابتهج بنفثاته مهما قال، إلى أن أتاح الدهر لي أن أنظره النظرة الأخيرة التي لم أنظره بعدها وا حسرتاه، وهي أنني في مُنصرفي من الحج سنة ١٣٤٧ مررتُ على السويس؛ حيث بعد لأني سمحت لي الحكومة المصرية بالإقامة بضعة أيام أشاهد فيها سيدتي الوالدة التي كان أولاد عمي الأمير أمين مصطفى أرسلان وشقيقته أتوا بها إلى السويس لمشاهدتي، فأقمت في تلك البلدة أربعة أيام أقبل فيها عليّ الإخوان من مصر: الأستاذ الأكبر السيد رشيد رضا والمرحوم أحمد زكي باشا وحافظ بك عوض وعبد الله بك البشري ونسيم أفندي صبيحة وأسعد أفندي داغر والحاج أديب أفندي خير والسيد محمد علي الطاهر صاحب الشورى وأحمد حلمي باشا مدير البنك العربي في فلسطين، وغيرهم من إخواني وخلّاني، وأقبل أيضًا أحمد بك شوقي وسُررت بلقاء الجميع سرورَ مَنْ بقي عشرات من السنين في بلاد الغرب محرومًا لقاء إخوانه الذين كان يذوب شوقًا إلى لقاءهم، لا سيما أخي شوقي الذي بيني وبينه من الإخاء والذمام ما لا يكاد يوجد بين اثنين، وممّا أتذكّره أنني قلت له يومئذٍ: لا أقدر أن أدعوك إلى سورية؛ لأنني لا أقدر أن أطأها بقدمي ولا إلى فلسطين ولا إلى مصر التي لا أدخلها إلا بعد اللتيا والتي، فأنا أدعوك إلى سويسرة؛ حيث يمكنك أن تقضي الصيف ونشاهدك مليًا.

فقضى عندي سحابة يومه ثم ركب سيارته عائدًا إلى مصر وودّعته في السويس الوداع الذي كنت أرجو بعده اللقاء فكان هو الوداع الأخير، وذلك أن لقاءنا هذا كان في سنة ١٣٤٧ وأن شوقي — رحمه الله — لقي ربّه في ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٥١ فيكون بين وداعي

الأخير له ووفاته نحو من أربع سنوات، قد كنت أمنيّ النفس في أثنائها باللقيان لأنه ما دام الإنسان حيّاً ولو على بعد لم ينقطع الأمل من مشاهدته، فأما إذا فات فهي الحسرة الكبرى.

وما صباة مشتاق على أمل إلى اللقاء كمشتاق بلا أمل

### (١) قصيدة المؤلف في مهرجان شوقي

وكانت مصر قد قرّرت الاحتفال بعيد الخمسين سنة من حياة شوقي الأدبية، وهو ما اصطلح عليه الناس من تسميته يوبيلًا Jubilee تقليدًا للإفرنج الذين يحتفلون بمرور الخمسين عامًا على حياة سياسية أو أدبية أو عسكرية أو إكليزيكية للوزير أو الكاتب أو القائد أو الأسقف منهم. فالشرفيون أصبحوا يقلدونهم في هذا الأمر كما قلّدهم في كلّ شيء، ولا شكّ في أنه إن كانت هذه بدعة فإنها بدعة حسنة، وقد صادف ورود الخبر بتأليف لجنة يوبيل شوقي كوني على أوفاز إلى أميركا لحضور المؤتمر العربي الذي قررت الجالية السوريّة عقده في «دتروت مشيغن» وأرسل حزب سورية الجديدة فدعاني إليه، فسرت من سويسرة إلى إنجلترا وركبت الباخرة من «سوث همتن» وذلك في آخر سنة ١٩٢٦ وفكرت في أنه لا مناص لي من إرسال قصيدة تتلى في عرس شوقي الأدبي، فنظمت وأنا في الباخرة بين أوروبا وأميركا القصيدة التالية، وعند وصولي إلى نيويورك أسرع بإرسالها إلى مصر حتى تدرك مهرجان شوقي، فكان الأمر كذلك وتلاها في الحفل الأستاذ خليل بك المطران المعروف بشاعر القطرين، وهي هذه:

### إلى الأخ القديم أحمد شوقي بك

نادِ القريحة ما استطعت نداءها	إن الحقوق لتقتضيك أداءها
مهما ينلّ منها الجمود فإن من	إعجاز أحمد ما يفجر ماءها
مهما تراكمت الغيوم بأفقتها	فاليوم عندك ما يعيد جلاءها
لا تعتذر عنها بكرّ نوائب	سدت عليها نهجها وسواءها
فأهم ما همّت السحاب إذا مرت	هوج العواصف نرّها وسخاءها
والحك يستوري الزناد وإنما	تربي الصوارم بالصقال مضاءها
والرمح يكسب بالثقاف متانة	والخيل يُظهر عدوها خيلاءها



حاشا القرائح أن تضنَّ بودقها  
 الشاعر الفذُّ الذي كلماته  
 أنستْ فصاحتُه أوائل وائل  
 في كلِّ كائنة يزفُّ قصيدة  
 غدت المعاني كلُّها ملكًا له  
 وكسا اللسان اليعربي مطارفًا  
 ستخلد الأوطان من تكريمه  
 لو أنصفت لغة الأعراب قَدْرَه  
 من كلِّ موضوع أصاب شواكلًا  
 يبكي «شكسبير» على أمثالها  
 ولو أنَّ آلهة الفصاحة عندهم  
 صنَّاجة الشرق الذي نَبْرته  
 في كلِّ حرف من حروف يراعه  
 ما حلَّ بالإسلام بأس ملمة  
 يبدي فظاعتها ويوسع هولها  
 كانت قصائده لبعث بلاده  
 وأرى الليالي لا تعزِّز أُمَّة  
 كم أثبت التاريخ في صفحاته  
 ضلَّتْ لعمرى في الحياة قبيلة  
 والعُرب لا تبدأ بجمع جموعها  
 أكرم بأحمد شاعرًا وافى لنا  
 أتلو قصائده فتملاً مهجتي  
 وأظلُّ مفتخرًا بها فكأن لي  
 نَحَلت له نفسي مودَّة وإمق  
 تعزو إلى لُحْمِ متانةِ أصلِها  
 ما دام شوقي كافلاً أنواءها  
 ضَمِنَ النبوغُ على الزمان بقاءها  
 وغدت هوازن مع ثقيف فداءها  
 تؤتي جميع الكائنات بهاءها  
 فأصاب منها كلُّ بِكْرٍ شاءها  
 هيهات ينتظر الزمان فناءها  
 ذكرى تطبق أرضها وسماءها  
 صلت عليه صباحها ومساءها  
 بلغت بمقتلها الصدور شفاءها  
 ويبيت «غوته» حاسداً علياءها  
 أدركنَّ شوقي خفت غلواءها  
 تجلو المشارق عندها غمَّاءها  
 وتَرُّ يثير سرورها وبكاءها  
 إلا ورجَّع شِعْرَه أصداءها  
 وصفًا ويذكر داءها ودواءها  
 صورًا أراد من البلى إحياءها  
 إن لم يكن سؤاسها شعراءها  
 أممًا غدا إنشادها إنشائها  
 لم تصطحب أفعالها أسماءها  
 إلا سمعت نشيدها وجداءها  
 في روح أحمد حاملاً سيماءها  
 فرحًا يُزيل همومها وعناءها  
 دون الأنام ثناءها وسناءها  
 وقَى عهدا عهودها إنماءها  
 وتمزُّ من ماء السماء صفاءها<sup>١</sup>

<sup>١</sup> إشارة إلى نسبة قائل هذا الشعر إلى المناذرة بني ماء السماء للخميين ملوك الحيرة.

لا ترتجي منها التمام ثلثة  
 ناشدت شعري أن يفي بمودتي  
 قد صار عهدي بالقريض كأنه  
 أدمع فلا يأتي الذي أرضى به  
 والشعر ما رسم الضمائر ناثلاً  
 والشعر ما ترك المعاني مثلاً  
 وهناك نفس مرة ما تأتلي  
 إن لم تجدني في العجاجة أولاً  
 وفزت يا شوقي السباق على الورى  
 تتقطّع الأعناق عن غاياتها  
 تالله أعطيت الرياسة حقها  
 وبذدت أهل العبقريّة كلهم  
 لما رأيتك قد نزحت قليبها  
 فاسعد بعرش إمارة الشعر التي  
 وتهنّ وابق لأمّة عربيّة

كلا ولا توهي الهنات بناءها  
 وأراه يعجز أن يجيء كفاءها  
 بمن تقاضتها الرياح عفاءها  
 والشعر أن تجد النفوس رضاءها  
 منها الكنائن نافجاً أحناءها  
 فتكاد تلمس بالأكف هباءها  
 ثملي علي من العلى أهواءها  
 نكرت علي ثلاثها وثناءها  
 برياسة بات السباق وراءها  
 حتى الأماني لا تحوم حذاءها  
 وعقدت حبوتها ونلت حباءها  
 وبززت جنة عبقر أشياءها  
 أقيت عني دلوها ورشاءها  
 ألقنت إليك لواءها وولاءها  
 لا زلت قرّة عينها وضياءها

## (٢) أبيات للمؤلف أيضاً

ولما توفّي الأستاذ فقيد الإسلام الشيخ عبد العزيز جاويش رثاه شوقي — رحم الله  
 الرائي والمزّي — بقصيدة من قصائده التي كانت تشرق وتغرب ويعجب بها كلُّ عربي  
 ومُستعرب، فإذا بأحد الأدباء ينتقد تلك المرثية انتقاد متعنّ، وإذا بأديب آخر ينافح  
 عن شوقي. فأملّي عليّ هذا الجدل في تلك القصيدة القطعة الآتية المنشورة في عدد  
 ٢٨ ذي الحجة سنة ٤٨ من جريدة الشورى وهي:

### بَيِّنَات كَانَتْ ضَالَّةً فَوُجِدَتْ

كنت في أثناء سفري إلى الحجاز أقرأ على ظهر الباخرة مجلات وجرائد، فبينما  
 أنا أقرأ إذ مر بي انتقاد لأحد الأدباء يخطئ به «شوقي» في أبيات من رثائه لفقيد  
 الإسلام المرحوم الشيخ جاويش، ثم اطلعت على ردِّ لأحد الفضلاء الناخعين  
 يدافع به عن شوقي ويبين صحّة قوله. فأما القصيدة فهي كسائر شعر شوقي

الذي لا يدري أيُّه أحسن، بل كلما قرأ الإنسان منه شيئاً ظنَّه هو سيِّد شعره، فإذا انتقل إلى غيره ظنَّ هذا هو السيد، وهكذا إلى أن ينتهي من شعره وهو لا يعلم أوَّلُه خَيْرٌ أم آخره. ولا جدال في أن مرثية أمير الشعراء للأستاذ جاويش نور الله ضريحه كانت من عيون قصائده، ولما انتهيت منها كتبت على حاشية مكتوب ما يأتي بقلم رصاص على البديهة:

تفوق شوقي بأشعاره	جميعاً فكلُّ يَتِيم فريد
وما دُمتَ تجتاز أرجاءها	تعود بكلِّ طريف جديد
توالي الهتافَ لدى كلِّ بيت	ألا إن ذلك بيت القصيد
إذا هو أبكى فزاد المعاد	وإن هو غنى فأنس الوجود
ولكن قصائد شوقي اللواتي	لهنَّ سجلُّ بلوح الخلود
فداء «لمرثية» قالها	«بعبد العزيز» العزيز الشهيد
أعمار الرثاء جلال الفقيد	فأصبح هذا لهذا نديد
وقد كان من قبل هذا مبينا	بشأو مُحال عليه المَزِيد
تكاد لإحراز أقوال شوقي	تكون المنايا أمانى الفقيد

وأندكرُ أنني حرَّرت كلماتٍ أيضاً أبين فيها محاسن تلك المرثية، ثم بعد أن وصلت إلى الحجاز غاصت هذه الأبيات وهاتيك الكلمات في لُجج أوراقى الزاخرة؛ فلم تقدر يدي أن تصل إليها وظننتها ذهباً أصلاً، وبينما أنا أفرز أوراقى في هذه الأيام إذ عثرت على الأبيات المرقومة بقلم رصاص، وتردَّدت ساعةً في نشرها قائلاً لنفسي إن النظم والنثر بعد مضيِّ مناسبتة أشبه باللحم البائت أو الخبر الغابِّ الذي تذهب طراوته، ولكن فكرة النشر بعد تساؤل النفسين قد غلبت بحجة أن كلاماً يتعلَّق بشوقي لا يزال غضاً طرياً وأن مناسبة شوقي لا تخلُق ديباجتها أبداً.

أما الكلمات التي حرَّرتها في محاسن تلك المرثية التي كلُّ من المرثي (نصر الله وجهه) والرائي (أطال الله عمره) كانا من أعزِّ الناس عليَّ وأحبهم إليَّ من بين جميع البشر فبقيت ضالَّةً لما تظفر يدي بها.

وأتذكر أنني أشرت إلى نكات بيّت فيها لا سيما ذلك البيت الذي وَصَفَ الموت والنقل والدفن منذ وَجِدَ الخَلْقَ وشطره الثاني:

... .. قِيَامُ بَتْلِكِ الصَّحَارِيِّ قُعُودِ

وأما البيت الذي فيه وصف أجساد الموتى، وشطره الثاني:

... .. وَكَمْ مِنْ قُرُوحٍ وَكَمْ مِنْ صَدِيدِ

فلم أحبه على ما فيه من صحة، وقد ذكرت عنه أنه يليق بأن يُتلى على مائدة رهبان في دير، فإن من عادة هؤلاء إذا جلسوا إلى طعام أن يجعلوا أحدهم يقرأ عليهم من الزُّهدياتِ والمُحزّناتِ وذكرى الموت وأمامه جمجمة.

وممّا لا يجوز أن أغفله من تاريخ علاقتي مع شوقي أنه في سنة ١٣٢٨ سألتني سليم أفندي سركييس عن رأيي في شعراء العصر لينشر هذا الرأي في مجلته، فلم أجد بداً من إجابته بمقال نشره في مجلة سركييس، ثم أعاد نشره بعد ذلك بسنوات في جريدة المؤيد، وقد كان سبب إعادة هذا الفصل في المؤيد أنه بينما كنتُ في مصر قاصداً الجهاد في طرابلس الغرب ألقى عليّ أحد الأدباء في المؤيد سؤالاً يستنطقني فيه عما أراه من طبقات الشعراء المعاصرين، فاستعفيت تلك النوبة من الجواب حتى لا أقع في مشكل المُفاضلة بينهم وأنا على سفر إلى برقة وعندي من الهموم بمسألة طرابلس ما يشغلني عن الشعراء والحُكْم أيهم أشعر. نعم أجبت السائل بكليّمة في المؤيد قلت له فيها: لماذا هذا السؤال؟ أفزامر الحي لا يطرب؟

وكان مرادي بذلك من طرف خفي أنه ما دام شوقي في مصر، فلماذا يسألون عن أشعر الشعراء.

إلا أن سركييس قام ونشر في المؤيد جملةً أشار فيها إلى مقالتي الأولى التي كان قد أثبتّها في مجلته وأعاد نشرها في المؤيد، وهي هذه ...

## رأي المؤلف في أشعر الشعراء

كلام عن المتنبي ووجه الشبه بينه وبين شوقي

### حضرة صاحب مجلة سركيس

سألتموني رأيي في الشعراء؛ فأشعر الشعراء عندي هو محمود سامي ثم شوقي ثم حافظ، وهؤلاء الثلاثة في هذا العصر هم السابقون في حلبة الشعر الفائقون في إجادته، بل هم أشبه بالثلاثة الماضين أبي تمام الشعر ومتنبيّ وأبي عبادته، بل هم اليوم لات الشعر وعزّاه ومَنَاتُهُ، والذين رجحت لهم على غيرهم بيناته، وأحب أن أشبه البارودي بأبي تَمَام في علوّ نفسه وقوّة مَلَكته ومتانة أسلوبه، وأن أشبه شوقيًا بالمتنبي في دِقّة معانيه وسموِّ جِكمه وكثرة جوامع كَلِمه، كما أن حافظًا يُشبهه البحترى في سلاسة لفظه وحُسْن سَبْكه وتأثيره في النفس، وهو وإن لم يعلّ علوّ شوقي في بعض أبياته، فإن عامّة شعره أطلّ من عامّة شعر شوقي، وغاية ما يُقال فيهما أن جيّد شوقي أحسن من جيّده وأن هذا أعلى وذاك أطلّ.

وأما كون أسلوب شوقي ركيكًا فهو غير صحيح، وهذا القول في حقّ شوقي هو أشبه بالقول الآخر في حقّ حافظ بأنه صانع ماهر وأن حيلته أكثر من شعره، وعندي ألف شاهد لولا خوف الإطالة لأوردتها على متانة أسلوب شوقي وتسنّمه غارب العربية، كما أن لي بقدرها على قدرة حافظ الحقيقية وأنه شاعر مطبوع الفصاحة فيه سجيّة لا تلهوق، وأن مثل حافظ في الشعراء قليل. نعم

إن شعر شوقي ليس طبقة واحدة حتى لا يخاله القارئ نسجاً واحداً، وهو يذهب مذاهب غريبة أحياناً وربما أتى في كلامه بالتعقيد، وهذا من وجوه الشبه بينه وبين المتنبي الذي كان كأنه يعمد إلى الإغراب في بعض المواضع فيأتي بالغث كما يأتي بالسمين.

وإنما استحق أبو الطيب هذه الشهرة مع هذه الهنأت؛ لأنه كان متى أراد بذر الأولين والآخرين، وأنه متى علا لم يزاغمه أحد بمنكب، وأن الذي يحفظ من كلامه لا يحفظ من كلام شاعر سواه حتى صار شاعر العامة فضلاً عن الخاصة. وهذا ما أراه في شوقي اليوم فإن عيون شعره لا يقدر على مثلها حافظ ولا غيره، وقد يخلق في سماء الخيال أحياناً حتى يفوق البارودي نفسه، وهو عندي حامل اللواء وأبو الجميع.

ولا يمكننا أن نسلّم بركاكة أسلوب شوقي إلا على مذهب من يرى المذاهب الجديدة في الشعر ولا يريد الشعر إلا كاظماً، ومذهب من يرى في موافقة ذوق العصر مفارقة المناهج العربية، وهذا الرأي ليس بجديد بل هو قبل صاحب المنار. وقد كان بعضهم يعيب على المتنبي نفسه الحيد عن جادة العرب في شعرهم وفي مقدمة ابن خلدون أن المتنبي والمعري لم ينسجا على أساليب العرب، ولكن لا يمكننا أن نقول إن هذا هو الرأي كله، وأنه جف القلم بعد هذا القول، بل لكل رأي ولكل وجهة.

وأحسن ما قيل في شوقي إنه في الشعر كأبي مسلم في القواد أقام دولة وأقعد دولة، فإنه نسج على منوال جديد وانتهج خطة حديثة تلائم روح الوقت الحاضر لكن مع الوفاء بحق اللغة والأمانة مع العربية، ولولا متانة لغة شوقي لما عدّ شاعراً أصلاً؛ لأن نقاوة اللغة هي الشرط الأول للشاعر والكاتب، والمعاني وحدها لا تكفي، ولا ينهض بركاكة اللفظ علو المعنى، وهذا أمر اتفق عليه العرب والعجم.

ومما أعجبني جداً في نعت شوقي أن شعره لوح الصبي في مكتبه وسبحة الناسك في صومعته وكأس الشارب ودمعة الباكي ... إلخ، فكل هذا القول في شعره حق؛ لأنك تجد شعره بستاناً فيه من كل الرياحين أو على رأي أهل العصر معرضاً فيه من كل البضائع.

ومما يطيب سماعه عن شوقي وهو يتعلّق بالأخلاق لكنه من رشح إناء الفضل قول القائل: إنه صَفَتْ نَفْسُهُ فلم يستشعر في نفسه عيباً يحتاج إلى سَتره بتنقُّص غيره، وعلت هَمَّتَه فوقف بين حُسَّاده وقفة رابط الجأش يناضلهم بسكوته وإغضائه. ولعمري إنها عبارة شعرية لو نظمت لكانت من أحسن الشعر، وأحسن ما فيها مطابقتها الواقع، فلا ينكر أحد هذه الحال على شوقي وأنه لا يقابل حُسَّاده والطاعنين عليه إلا بالسكوت، وهو أحياناً أقتل من الكلام. على أنه في الواقع غير ساكت فإذا لم يجاب مُنْتَقَدَه رأساً جاوبه من جهة ثانية بقصائده إلى الجمهور، فترى بإزاء كلِّ «همزة من تلك الهمزات وحرف من هاتيك الحروف» كلَّ قصيدة يُقام لها ويقعد وكلَّ بيتٍ أذن الله أن يُرْفَع ويشيد.

أما القول بأن محمود سامي هو مُقلِّد، شأنه معارضة الأولين، وهيئات أن يلحق واحداً منهم فهو شبيه بالقولين الأولين في الظلم، وإنما اختار المعارضة في بعض المظان ليعلم الناس شأوه مع مَنْ تقدّمه. وليست المعارضة بشأن جديد بل كانت عند الماضين وقد استحسناها ولم يحسبوا تقليداً ولا عدوها نسخة محررة ولا صورة مطبقة، وإنما كان ينظم الواحد قصيدة ترنُّ في الآفاق فيعارضه شاعر آخر برنّانة أخرى من البحر والقافية كما يجاري الفارس فارساً في مضمار. وهذه قصيدة أبي نواس الرائية في الخصيب عارضها ذلك الأندلسي قبل محمود سامي، وكلُّ منهما أجاد، ولم يقل أحد إن الأندلسي مُقلِّد لا مزية له وإنه إنما صوّر صورة كانت أمامه، فمحمود سامي قد عارض وفاق مَنْ تقدّمه وقال في غير معارضة، فأتى بالشعر الفحل الذي يعيب على الأوائل فضلاً عن الأواخر. وكلُّ ذي مُسْكة يقدر أن يميّز بين التقليد والتوليد، ولا يجب أن يُؤخَذ من كلامي هذا في تفضيل الثالوث الشعري الاستخفاف بقدر الباقين، فإن الذين فضّلوا حبيباً والمنتبي والبحتري لم يحصروا الشعر فيهم، ولا ازدروا سائر الشعراء، ولكن لسان حالهم يقول:

محاسن أصناف المغنين جمّة وما قصبات السَّبِق إلا لمعبد

ولا بدّ في الميادين من مجلٍّ ومصلٍّ وتالٍ ومرتاحٍ إلى السكّيت، وإنني أرى الكاظمي وصبري وناصف والمطران وسائر من ورد ذكْرهم من الشعراء أشبه

بالناشئ والنامي والزاهي والمعري وأمثالهم، فليست شاعريّة أبي تمام والمتنبّي والبحرّي بنافية براعة هؤلاء بل لهؤلاء مواطن لا يلحقهم فيها أولئك. بقي شيء استحسنته من كلام فاتح الباب، وهو أن الشهرة لا تصحُّ أن تكون بحال من الأحوال ميزاناً للفضل ولن يجري الفضل والذكر في ميدان واحد؛ لأن في الناس مَنْ يغتصب الشهرة ويلصقها بنفسه، بينما الآخر قد قنع من الأدب بلذة نفسه فلا يترنّم بقصائده في النوادي، ولا يبتاع من الصحف الألقاب، ولا يستخدم الكتاب لإطرائه، ولا يتمّم نقصه بالغصّ من مقام غيره. وهذه كلّها جُمْل منحوتة من معدن الحقيقة وفلذات منقطعة من كبد الصواب، فإن الشهرة مزلقة ولا يصحُّ اتخاذها معياراً، وقد يقبع في كسور الخمول مَنْ لو اطلعت على حقيقته لأجلته وأحلتته أعلى مقام،<sup>١</sup> ولا أريد من ذلك الطعن في حبّ الشهرة وتضعيف هذا المشرب، وهو مبعث الهمم ومثار كوامن الفضائل ومظهر درر القرائح من أصداف الأدمغة، ولكن أريد أن تكون درجة الشهرة هي درجة الفضل فكم في الزوايا من خبايا، كذلك لم أعزّز رأيي في الشعراء بالشواهد من أقوالهم، ولعلي أرجع إلى البحث وأختار من دواوينهم على مهل، فقد وجدت الشواهد التي أوردها غيري غير وافية وقد أهمل ما هو أحسن منها، وإنما استحسنت ما أطيل من شواهد شعر الكاظمي؛ لأنه كان غنى صوتاً واحداً في وادي النيل فلم نتحقّق فضله على طوله، فإذا به بعد هذه الأصوات كلّها مُغنٌّ على أصول. والله تعالى ذو الفضل العظيم ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾<sup>٢</sup>.

قد كان كلامي هذا في شوقي منذ خمس وعشرين سنة، وفي هذه المدّة كان قد انطوى البارودي فأصبح شوقي نسيجٌ وحده لا يجد الناس عنه عوصاً ولا يبتغون به بدلاً، وأصبح أثر في النفوس من كلّ شاعر سواه، ولم ينحصر المجد في نفسه بل تناول وطنه

<sup>١</sup> ومن هؤلاء أخي نسيب — رحمه الله — الذي كان من فحول الشعراء، ولا يكاد يعرفه إلا الذين أُتيح لهم أن يعرفوه اتّفاقاً؛ وذلك لفراره من الشهرة، وقريباً سيصدر ديوانه فيعلم الناس علو منزلته في الشعر وتدور أمثال ملكته في العربية، ولعله لو عاش إلى اليوم ما طبع ديوانه.

<sup>٢</sup> وقُرئ «في الخلق» بالحاء المهملة.



مصر فصارت تزهو به على غيرها، ولمَّا كان لها المكان الأوَّل في الشرق وكان خليقًا بها أن تكون ذات المركز الأوَّل في كلِّ فنٍّ جاء شوقي فحقَّق لها مكانها الأوَّل في الشعر برغم أن كلاً من الشام والعراق واليمن والسودان وتونس الخضراء والمغرب فيها الشعراء المُفلقون الذين لا يُشقُّ لهم عُبار، وقد صدق شيخ الأدباء في هذا العصر مصطفى صادق الرافعي في قوله: إن اسم «شوقي» «كان في الأدب كالشمس من المشرق متى طلعت في موضع فقد طلعت في كلِّ موضع، ومتى ذُكر في بلد من بلاد العالم العربي اتَّسع معنى اسمه فدلاً على مصر كلُّها، كأنما قيل النيل أو الهرم أو القاهرة.»

وقال الرافعي في مكان آخر: «انفلت شوقي من تاريخ الأدب لمصر وحدها كانفلات المطرة من سحابها السائر في الجوّ، فأصبحت مصر به سيِّدة العالم العربي في الشعر، وهي لم تُذكر قديماً في الأدب إلا بالنكتة والرِّقَّة وصناعات بديعية مُلفَّقة، ولم يستفرض لها ذكر بنايعة ولا عبقرى وكانت المُستجديَّة من تاريخ الحواضر في العالم.»

ولستُ مُتَّفِقاَ كلَّ الاتفاق في هذا القطع مع أبي السامي؛ فالبلد الذي نغ فيه مثل ابن الفارض والبيهاء زهير وظافر الحداد والأبوصيري صاحب البردة الشريفة في القديم ومحمود سامي البارودي ومحمود صفوت وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وأحمد محرم وإسماعيل صبري وغيرهم في الحديث لا يُقال إنه منقوص الحظُّ من الشعر، وإن كان لا ينبغ في مصر أمثال بشار وأبي العتاهية وأبي نواس وأبي تمام والبحترى والمتنبي والمعري ممَّن أنجبتهم الشام والعراق، على أن الرافعي مصطفى صادق، صادق في قوله: إن جميع شعراء مصر في القديم والحديث «لم يستطيعوا أن يضعوا تاج الشعر على مَفْرِق مصر ووضعه شوقي وحده.» وما أحسن قوله كذلك: «ولم يترك شاعرٌ في مصر قديماً وحديثاً ما ترك شوقي، وقد اجتمع له ما لم يجتمع لسواه، وذلك من الأدلَّة على أنه هو المختار لبلاده فساوى الممتازين من شعراء دهره وارتفع عليهم بأمر كثيرة هي رِزْق تاريخه من القوة المُدبَّرة التي لا حيلة لأحد أن يأخذ منها ما لا تعطيه أو يزيد ما تنقص أو ينقص ما تزيد. وقد حاولوا إسقاط شوقي مراراً فأراهم غبارهم<sup>٢</sup> ومضى مُتقدِّماً ورجع مَن رجع

<sup>٢</sup> قال المتنبي:

إذا رام أن يلهو بلحية أحمق أراه غباري ثم قال له الحق

منهم ليغسل عينيه ويرى بهما أن شوقي من النفس المصريّة بمنزلة المجد المكتوب لها في التاريخ بحربٍ ونَصْرٍ وما هو بمنزلة شاعرٍ وشعره.» إلى أن قال: «ثم تولّاه الخديوي عباس باشا وجعله شاعره، وتركه يقول:

شاعر العزيز وما بالقليل ذا اللقب

وإذا أنت فسّرت لقب شاعر الأمير هذا بالأمر نفسه في ذلك العهد خرج لك من التفسير شاعر مرهف معانٍ بأسباب كثيرة، ليكون أداة سياسية في الشعب المصري تعمل لإحياء التاريخ في النفس المصرية وتبصيرها بعظمتها وإقحامها في معارك زمنها وتهيتها للمدافعة.» وأحسن من قوله هذا قوله الآخر: «إن السياسة التي ارتاض بها شوقي ولابسها من أول عهده واتجه شعره في مذاهبها من الوطنية المصريّة إلى النزعة الفرعونية إلى الجامعة الإسلامية، كانت سببَ نبوغه ومادة مجده الشعري، وكانت هي بعينها مادة نقائصه فقد أبلّته بحبِّ نفسه وحبِّ الثناء عليها وتسخير الناس في ذلك بما وسعته قوته إلى غيرة أشد من غيرة الحسنة تقشّعُ كلُّ شعرة منها إذا جاءها الحسن بثانية، وهي غيرة وإن كانت مذمومة في صلته بالأدباء الذين لذوه بالجمر، ونحن منهم، غير أنها ممدوحة في موضعها من طبيعته هو؛ إذ جعلته كالجواد العتيق الكريم ينافس حتى ظله، فعارض المتقدّمين بشعره كأنهم معه، ونافس المعاصرين ليجعلهم كأنهم ليسوا معه، ونافس ذاته أيضًا ليجعل شوقي أشعر من شوقي.»

شكيب أرسلان

## قُبيل وفاة شوقي

هذا ولما اجتمعْتُ بشوقي في السويس آتياً من القاهرة إليها لزيارتي، وكانت وا أسفاه الملاقاة الأخيرة بيننا لحظت عليه آثار الضعف بادية، وكأنما كان أكبر من سنِّه بعشر سنوات على الأقل، وعجبت من أن تنال الشيخوخة منه هذا النيل وبين الإخوان الذين كانوا قد اجتمعوا هناك مَنْ هُمْ أعلى سنًّا بكثير، ولم يتقوَّس لهم ظهر، ولم يتغصَّن لهم جبين، ولم يأخذ منهم الدهر ما أخذ من شوقي، فشعرت في نفسي بالخوف على صحَّته ورأيته قد سبق سنِّه بمسافة طويلة. فبعد أن تفارقنا كنت لا أزال أترقَّب أخبار صحته وأتمنَّى لو يأتي إلى سويسرة فأشاهده، وما زلت أتحسَّر على تلك الفرقة وأنشد قول العباس بن الأحنف:

سبحان ربِّ العلا ما كان أغفلني      عما رَمَتني به الأيام والزمن  
مَنْ لم يذُقْ فُرقة الأحباب ثم يرى      آثارهم بعدهم لم يذُرِ ما الحزن

### (١) خبر وفاته

وبينما أنا في أحد أيام أكتوبر سنة ١٩٣٢ ميلادية أقرأ جريدة الطان، إذ وقعت عيني على خبر وفاة كبير الشعراء في مصر، ووقع في اسم «شوقي» خطأ فهلعت لهذا الخبر واضطربت أعصابي، وقلت لا يكون هذا الفقيه غير شوقي، وثاني يوم تحقَّقنا الخبر وكان يومًا له هَوْلُه، ولما جاءت جريدة «الجهاد» علمت منها أن أمير الشعراء فصل من هذه الدنيا إلى رحمة ربِّه في منتصف الساعة الرابعة من صباح الجمعة ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٥١ وفق ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢، وقد أُنْبئْتُ الأستاذ البليغ توفيق دياب بعبارات

متناسبة مع علو مقامه في الأدب، لكنني استنشقت منها رائحة مؤاخذه بعضهم للفقيد في السياسة، فإنه يقول: «إن الذي سيهمُّ الوارثين لآثار شوقي من عشاق الأدب في الأمم العربية هو نفاسة ما ترك من كنوز عبقريته وذخائر أدبه فهذه هي الباقية، أما ما عداها ممَّا كان لشوقي أو عليه في أيام العمر الفانية فقد انقضى أمره بانقضاء الأجل، فليقلِّ مَنْ يشاء في دنيويات شوقي ما يشاء، ولكن للأدب دولة عالية العروش سينادي منادي الخلود من فوق منارتها العليا: لقد مات أمير الشعراء غير منازع. لقد مات شوقي. فليبيكهِ المصريون وليبيكهِ العرب في كلِّ بلد عربي أو يقطنه عربي وبيكهِ المسلمون في أنحاء المعمور؛ فقد كان شوقي شاعر العربية وشاعر الإسلام، وكان أثمن دُرَّة في تاج الأدب.»

وكان حافظ رحمه الله قد قضى نَحْبَهُ قبل ذلك بأشهر ورثاه شوقي رثاءً مُوجِع القلب وكأنما كان ينعى نفسه، ولم يكن حافظ في حياته شديد الخلطة بشوقي، بل ربما غلبت المنافسة على العلاقات بينهما، إلا أن حافظاً بايع شوقي في يوم عيده، وإذا كان حافظ إبراهيم وهو طريد شوقي في الشعر والمزاح له بالأنكب، ومن الناس مَنْ يفضِّله على شوقي، قد بايع لخصمه فلا مشاحة أنها قد تقطَّعت عن منافسة شوقي أنفاس النظراء وأنه قد انتهت إليه رئاسة الشعراء.

## (٢) قصيدة المؤلف في رثاء شوقي

ولما تحققت خبر شوقي رثيته بالقصيدة التالية:

واليوم يعجزهم بندب مماته  
كُفُو ليرثيَه بمثل لغاته  
فرسانهم في الظل من راياته  
قد قصرُوا في الخبِّ عن غاياته  
في الشرق أجمع منذ فتق لهاته  
لانشق ذاك الوحي عن آياته  
نفحاته والدهر بعض رواته  
غنَّى بها رَقَصَتْ على نَبْرَاتِهِ  
فيقودها قود الغلام لشاته

قد أعجز الشعراء طول حياته  
هيهات يُوجَد في البرية منهم  
كان الأمير لجيشهم مستنة  
ما عاب أهل العبقريَّة أنهم  
هذا أمير الشعر غير مُدافع  
لو كان وحيُّ بعد وحيِّ «محمَّد»  
السحر في نَفَثَاتِهِ والزهر في  
رَقَّتْ لنغمته القلوب فكيفما  
تغدو المعاني وهي شمسُ مقادة

أغراضه رَقَّت نظير سحاته  
 إلا أصاب صميمها بحصاته  
 يُلْقِي عليها الشمس من نظراته  
 حُلًّا خَلَّتْ من غير طرز دواته  
 غيرَ الطبيعة وهي في مرآته  
 وهنا يضيء بذاته وصفاته  
 تتقاصر الأقدام عن عتباته  
 قسماته والصبح في نسّماته  
 وألفت للسباق في حلباته  
 وقطفت منه خير نواراته  
 وأطرت في الأفاق شهب بزاته  
 قَرْنَا يَهزُّ قناته لقناته  
 والفدُّ في أمثاله وعظاته  
 لغة الغرام نظير شوقيّاته؟  
 أو في النسب كظبيّه ومهاته  
 أنسك بالتحبير وشي نباته  
 كاساته حبًّا إلى كاساته  
 أعطافُ مُستَمِعِيه مع باناته  
 خِلْت العِدَى سالت على شَفَراته  
 ومحا عبادة لَاتِه وَمَنَاتِه  
 ماذا يُفِيد النُّخْت من أثلاته  
 رغم القلَى يَرُؤُون من أبياته  
 أشعار شوقي الندُّ في سمّراته  
 حقّ التمثل من جميع جهاته  
 تُغْنِي عن التاريخ في صفحاته  
 كلا ولم يغمطه من حسناته  
 لا فرق بين صحابه وعِداته

وإذا أراد الصخرة الصمّاء من  
 ما رام شارِدُ حِكْمَةٍ في نظمه  
 جَلَى الإله له الأمور كأنما  
 فكسا الطبيعة من نسيج بيانه  
 فترى الطبيعة قبل نظرته لها  
 والحسن يُشْرِق في العيون بذاته  
 من كلِّ بيت في رفيع عماده  
 كالدرّ في لمعاته والبدر في  
 ولقد رويت الشعر عن آحاده  
 وقضيت فيه صبوتي وصبابتي  
 وأثرت في البيداء بُزَل فحواله  
 فرأيت شوقي لم يدع في عصره  
 الفرد في أمداحه ونُواحِه  
 وإذا تعرض للغرام فهل درت  
 ما في الهيام كوجده وحنينه  
 وإذا تحدّث بالربيع وروضه  
 أو بات يبعث بالشراب أضاف من  
 أو خاض في ذكرى العذيب تشابهت  
 أو سلّ في وصفِ الوقائع صارمًا  
 قد بدَّ آلهة القريض بأشْرهم  
 نَحَت القوافي السائراتِ أوبدًا  
 ولكم مررت بحاسدين لفضله  
 لا نَدَّ يعدله وكم من مجلس  
 يتمثّل العصر الحديث بشعره  
 ولربّ بيتٍ يستقلُّ بجملة  
 لم يفتتن من عصره بمساوئ  
 قد لازم الإنصاف في أحكامه

منذ الحادثة كان في سرواته  
واللّيث في وثباته وثباته  
إلا وكان بها لسان شكاته  
ويُقيل طول الوقت من عَنراته  
قولاً يُزِيلُ أُجَاجَها بِفُراته  
غرراً تشقُّ الفجر عن ليلاته  
سرّى عن الإسلام ثقل سُبَاته  
هي صُورُ إِسرافيلَ في زعقاته  
قد حطَّ هذا الشرق عن سهواته  
فلذا يرى الأخلاق رأس وصاته  
من يوم نشأته ليوم وفاته  
شأن الأبّيّ يزود عن تركاته  
منه ويحفزه لأخذ تراته  
وأجاد وصف الغرّب في آفاته  
يمشي النجاء بها لأجل نجاته  
في الواد قد حلّوا مكان رعاته  
والجائشين بنجده ووطاته  
والأكليين لتّمّره بنوّاته  
تجد الحياة الحقّ في كلماته  
من قبل أن نزل القضا بسكاته  
ترعى جياذ الفكر في تلعاته؟  
أبدًا ويرثي الشرق ربّ حماته  
يلقي على الشطّين من زَفَراته  
ندبٌ عليك يذيب في رنّاته  
من كلِّ مُضطّجع على جمراته  
لوكان يُحيي الميّت عزم فداته  
والآن تجري السخن من عبراته  
هذا الإخاء نمزُّ من قهواته

وإذا سألتَ عن الجهاد فإنه  
كالسيف في أوضائه ومضائه  
ما حلَّ بالإسلام حَيْف مصيبة  
يحمي حقائقه ويوضح سُبَله  
يلقي على غمرات كلِّ ملَمّة  
ويظلُّ يرسلها قصائد شرّداً  
كانت قصائده هي الصوت الذي  
بعثتُ به رُوح الحياة كأنها  
قد كان أدرى الناس بالداء الذي  
داء هو الأخلاق في اضمحلالها  
وقى عن الشرق القديم نضاله  
قد نادَ عنه بقلبه وبلبّه  
ماضٍ يحذّره استلاب تراثه  
أعلى منار الشرق في أوصافه  
أوحى إلى الشرقيّ بالطرق التي  
أملى مكافحة الذئاب عوادياً  
الجائسين ببرّه وبيحره  
والغاصبين لزّعه ولضّرعه  
أشعاره تحيى وتُحيى أُمَّة  
يا راحلاً ملأ الزمان بدائِعاً  
أتركت بعدك شاعراً ترضى بأن  
يبكي بك الإسلام خير جنوده  
وكان وادي النيل من أحزانه  
ونوادبُ العربية الفصحى لها  
انظر إلى الإخوان كيف تركتهم  
انظر لحال أخ فداك بروحه  
قد كنت طول العمر قرّة عينه  
مضت السنون الأربعون ونحن في

أرعاك عن بعدٍ وترعاني على  
قد كنت أطمع أن تُرى لي راثياً  
كنّا نخاف رداك قبل وقوعه  
تبّاً لعيشٍ قد يكون مساؤه  
والمرء إن ينظر لما يبلى به  
فالميت وهو يذوب في حشراتهِ  
نرجو لك الدار التي عمّارها  
يضفي عليك الله من آلائهِ  
قد كنت في الدنيا هزّاراً صادقاً  
فالיום كُنْ بجلال ربِّك ساجعاً

عهد نهزُّ الرطب من عذباتهِ  
يا من غدوتُ اليوم بين رثاتهِ  
فلنا الأمان اليوم من دهشاته  
ترحاً وكان سروره بغداته  
لا فرق بين بقائه وفواتهِ  
كالحَيِّ وهو يذوب في حشراتهِ  
هم كلٌّ مَنْ صَنَعَ الجميلَ لذاتهِ  
والله لا تُحصَى ضروب هباتهِ  
يشجي ويسلي الناس في نغماتهِ  
والطائر المحكي في جناتهِ





# مَن الذي راضَ شوقي وحافظًا في الشعر

الوسيلة الأدبيَّة ومأخذها من القلوب بما تضمَّنته  
من شعر محمود سامي

## (١) مراسلات المؤلف مع محمود سامي

يقول الأستاذ الرافعي: «إن الكتاب الأول الذي راضَ خيال شوقي وصقل طبعه وصحَّ نشأته الأدبيَّة هو بعينه الذي كانت منه بصيرة حافظ وذكرناه في مقالنا عنه؛ أي كتاب الوسيلة الأدبيَّة للمرصفي. وليس السرُّ في هذا الكتاب ما فيه من فنون البلاغة ومختارات الشعر والكتابة، فهذا كلُّه كان في مصر قديمًا ولم يُغنِ شيئًا ولم يخرج لها شاعرًا كشوقي، ولكن السرُّ ما في الكتاب من شعر البارودي؛ لأنه معاصر والمعاصرة اقتداء ومتابعة على صواب إن كان الصواب، وعلى خطأ إن كان الخطأ. وقد تصرمت القرون الكثيرة والشعراء يتناقلون ديوان المتنبي وغيره ثم لا يجيئون إلا بشعر الصناعة والتكلف، ولا يخلد الجيل منهم إلا لما رأى في عصره ولا يستفتح غير الباب الذي فُتح له. إلى أن كان البارودي وكان جاهلاً بفنون العربية وعلوم البلاغة لا يُحسن منها شيئًا، وجهله هذا هو كلُّ العلم الذي حوّل الشعر من بعد، فيا لها عجيبة من الحكمة، وهي دليل على أن أعمال الناس ليست إلا خضوعًا لقوانين نافذة على الناس. وأكبَّ البارودي على ما أطاقه وهو الحفظ من شعر الفحول؛ إذ لا يحتاج الحفظ إلى غير القراءة ثم المعانة والمزاولة، وكانت فيه سليقة

فخرجت مخرج مثلها في شعراء الجاهلية والصدر الأول من الحفظ والرواية، وجاءت بذلك الشعر الجزل الذي نقله المرصفي بإلهام من الله تعالى ليخرج به للعربية حافظ وشوقي وغيرهما. فكل ما في الكتاب أنه ينقل روح المعاصرة إلى روح الأديب الناشئ فتبعته هذه الروح على التمييز وصحة الاقتداء، فإذا هو على ميزة وبصيرة، وإذا هو على الطريق التي تنتهي به إلى ما في قوة نفسه ما دام فيه ذكاء وطبع، وبهذا ابتداء شوقي وحافظ من موضع واحد وانتهى كلاهما إلى طريقة غير طريقة الآخر، والطريقتان معاً غير طريقة البارودي.» اهـ.

قلت: والظاهر أن الوسيلة الأدبية للمرصفي بما فيها من شعر البارودي، قد أنشأت أكثر من شوقي وحافظ، وبعثت الشعر العالي من مرقدته وأحييت للأدب العربي دولة جديدة بعد أن كان الناس يظنون أن الشعر هو عبارة عن النكتة، وكان جهادى الشاعر من المتأخرين أن يُضمّن كلّ بيت نكتة من أدب أو تاريخ أو مثلٌ سائر أو تورية أو استخدام بديعي أو طباق أو مقابلة أو لف ونشر أو جناس لفظي أو معنوي أو غير ذلك ممّا استقصاه علماء البديع.

فأما أسلوب الجاهلية والمُخَضَّرِمين والطبقة التي جاءت بعدهم ممن عاشوا في أوائل الدور العباسي ولم يكن طراً الوهن على ملكاتهم، فقد كان محفوظاً في الكتب حفظ النفائس في الخزائن، وكان يرى الناس بدءاً أن ينسجوا على منواله ولا يزالون يرون أن البيت إذا خلا من النكتة فلا يُعدُّ شعراً ولو كان منحوتاً من أحسن مقاطع البلاغة. وبقي الأمر كذلك حتى نبغ البارودي بانطباعه على شعر الأولين وإرساله تلك القصائد التي عارض فيها آياتهم الكبر فلم يقصر عنهم، وصار الناظر في شعرهم وشعره لا يفرّق بين النسجين. وسواء عرف البارودي شيئاً من قواعد النحو والصرف أو لم يعرف فقد كان المثل الأعلى في نقاء اللغة وبداعة الأسلوب ومتانة التركيب، وكنّت إذا قرأت شعره ملك عليك مشاعرك وهزك هزة لا تجدها إلا في شعر الفحول المُفْلِقِينَ مثل زهير وعنترة والأعشى والنابغة الذبياني وبشار وأبي تمام ومَنْ في ضربهم، كأنما قميصه زُرَّ على واحد من هؤلاء.

فالذين اهتدوا من ناشئة العصر إلى الوسيلة الأدبية للمرصفي وجدوا فيها ضالّتهم التي طالما نشدوها فلم يجدوها إلا في شعر محمود سامي. رأوا نسبة معاصريه له نسبة البغاث إلى الباز، ولا أعلم هل كانت الوسيلة الأدبية هي التي بعثت الشعر في شوقي وحافظ

أم كانت لهما وسائل غيرها؛ لأنني لم أشاهد حافظًا في حياتي وعندما كنت أذاكر شوقي وأنشده من شعر محمود سامي لم يقل لي شيئاً يتعلّق بكونه إنما نسج على طرازه أو إن شعر محمود سامي هو الذي أُرهِف قريحته. وقصارى ما لحظته من شوقي هو إجلال البارودي كشاعر، وما عرفت أن محمود سامي كان صَيَقَلَ حافظ وشوقي في الشعر إلا من رواية الرافعي هذه، وهذا القول جدير بأن يكون صحيحاً لأنني أعرف ذلك من نفسي، فقد كان اطلاعنا على شعر محمود سامي بواسطة الأستاذ الإمام حُجَّةَ الإسلام الشيخ محمد عبده يوم كان منفياً في بيروت، وكنا نلازمه استفادة من واسع علمه واستفاضة من عارض فضله، فهو الذي عرفنا بالوسيلة الأدبية للشيخ حسين المرصفي، وكنا أنا وأخي نسيب — رحمه الله — نصبو من صبانا إلى طريقة الأولين في الشعر ونؤثر شعر الجاهلية والمخضرمين والبطن الأول من المولّدين على شعر أهل العصر الأخيرة مهما حلّت نكاتهم وكثرت الأنواع البديعية في أشعارهم، ولم نكن نجهل علم البديع ولا كان يفوتنا شيء ممّا في خزنة ابن حجة ولكن ذلك كله كان عندنا لعباً ولهواً بالقياس إلى المعلّقات السبع وشعر النابغة والأعشى، ثم شعر الأخطل وجريير والفرزدق وعمر بن أبي ربيعة ثم شعر أبي العتاهية وأبي نواس وبشار ومسلم بن الوليد ومروان بن أبي حفصة وأبي تمام والبحرتي وطبقتهم. وكان المتنبّي كله لا يروقنا إلا من جهة الأمثال والحكم، وكنا نرى شعره في الأحايين نازلاً عما يجب أن يكون، فلما قرأنا شعر محمود سامي سكرنا بأدبه، ورقصنا على قصبه، وبعث لنا نشأة روحية لم نعهد لها في أنفسنا من قبل أن عرفناه، وعلمنا أن في المعاصرين مَنْ قَدَرَ أن يضارع الأولين وأن يسامي بنفسه أنفاسهم.

وكنا من قبل محمود سامي نظنُّ الأولين غايةً لا تُدرَك، وأنهم إذا قُرِنَ بهم المتأخرون أو المعاصرون كان أولئك هم السماء وهؤلاء هم الأرض. وبقي فينا هذا الاعتقاد إلى أن ظفرنا بشعر محمود سامي وحفظنا جميع قصائده التي في الوسيلة الأدبية، فلم نكن لشدة إعجابنا بها نخرم منها بيتاً واحداً، وكان حِفْظنا لها من أعمال الشعر فينا، بل كنا نشعر إذ ذاك بحاسة طربٍ تهتّزُّ لها جوارحنا كلّمًا رويها شعر البارودي في أنفسنا أو أمام الناس. وكما قال كارليل عن شكسبير: «إننا نحن معاشر الإنجليز نرى شكسبير أثنى لنا من الهند.» فقد كنتُ أقول في نفسي إن محمود سامي هو بذاته مملكة عربية. وكان الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده بمكانه من رئاسة الدولة الفكرية يذهب إلى ما

يقوي فينا هذه العقيدة؛ ولذلك كنت أنا أراني خريجاً في الشعر لمحمود سامي البارودي، وإلى هذا أشرت في أول قصيدة أجبته بها يوم بدأ بمراسلتي من منفاه في سيلان، فقال لي:

وأمسكتُ لم أهمس ولم أتكلم  
حَبَانِي بِهِ لَكِن تَهَيَّبْتَ مَقْدَمِي  
لَأَنْطِقَ إِلَّا بِالثَّنَاءِ الْمُنْمَنَمِ  
وَأَنْكَرَ ضَوْءَ الشَّمْسِ بَعْدَ تَوْسَمِ  
بِقَوْلِ سَرَى عَنِّي قِنَاعِ التَّوْهُمِ  
بِحَلَّتْهَا فَالْفَضْلَ لِلْمُتَقَدِّمِ  
مِنَ النَّظْمِ سَدَّهَا بِمَدْحِ الْعُلَا فَمِي

أَشَدَّتْ بِذِكْرِي بَادئًا وَمُعَقَّبًا  
وَمَا ذَاكَ ضَنًّا بِالْوُدَادِ عَلَى امْرئٍ  
فَأَمَّا وَقَدْ حَقَّ الْجَزَاءُ فَلَمْ أَكُنْ  
وَكَيْفَ أَزُودُ الشُّكْرَ عَنِ مَسْتَقْرِهِ  
وَأَنْتَ الَّذِي نَوَّهْتَ بِاسْمِي وَرَشْتَنِي  
لَكَ السَّبْقُ دُونِي فِي الْفَضِيلَةِ فَاشْتَمَلِ  
وَدُونَكَهَا يَا ابْنَ الْكِرَامِ حَبِيرَةَ

فأجبتة بقصيدة أقول له فيها:

لِتَقْدِيرِ حَقٍّ مِنْ عُلاكَ مُحْتَمِّمِ  
تَذَكَّرْ فَضْلَ أَوْ جَمِيلَ لِمَنْعَمِ  
فَدَلَّ عَلَى أَعْلَى خِلَالٍ وَأَكْرَمِ  
رَأَى ذَكَرَهُ فَرَضًا عَلَى كُلِّ مُسْلِمِ  
لِعَمْرِي الَّذِي قَدْ شَقَّ فِي شَعْرِهِ فَمِي  
يَرَى ثِقْفِيًّا فِي الْوَرَى كُلِّ أَعْجَمِ  
فَأَيُّ يَدٍ لِلطَّائِرِ الْمُتَرَنِّمِ  
بِوَجْهِ فَمَا فَضْلَ الْعَمِيدِ الْمُتَمِّمِ  
وَيَنْكَرُ حَسَنًا غَيْرَ مِنْ طَرْفِهِ عَمِي  
وَقَدْ جَاءَ ضَوْءَ الشَّمْسِ لَمْ يَتَكْتَمِ  
وَلَا تَيَأَسُنْ مِنْ أَهْلِهِ بِالتَّوْهُمِ  
لِتَأْخُذْهُ فِي الْحَقِّ لَوْمَةً لَوْمِ  
لِغَيْرِكَ فِي الْعُلِيَاءِ صَدْرُ التَّقَدِّمِ  
فَجَاءَتْ كَعَقْدٍ فِي ثَنَاكَ مِنْظَمِ  
وَإِنَّكَ قَطْبُ فِي يِرَاعٍ وَمَخْذَمِ

لَكَ اللَّهُ مِنْ عَانَ بِشُكْرِ مُنْمَنَمِ  
وَشَهْمُ أَبِي النَّفْسِ أَضْحَى يَرَى يَدًا  
رَأَى كَرَمًا مَنِّي تَذَكَّرَ قَوْلِهِ  
وَلَوْ كَانَ يَدْرِي فَاضِلٌ قَدَّرَ نَفْسَهُ  
أَيَعْجَبُ مِنْ تَنْوِيهِ مِثْلِي بِمِثْلِهِ  
وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَعْجَمِ فَبِفَضْلِهِ  
إِذَا أَمَطَرَ الْغَيْثَ الرِّيَاضِ بَوَابِلِ  
إِذَا مَا تَصَبَّتْ بِالْعَمِيدِ صَبَاحَةَ  
وَهَلْ يَنْكَرُ الْإِحْسَانَ إِلَّا لِأَمَّةٍ  
وَهَلْ فِي شَهُودِ الشَّمْسِ أَدْنَى مَزِيَّةٍ  
رُوَيْدِكَ لَا تَكْثُرُ لِدَهْرِكَ تَهْمَةٌ  
فَمَا زَالَ مِنْ يَدْرِي الْجَمِيلِ وَلَمْ يَكُنْ  
وَأَنْتَ الَّذِي لَوْ أَنْصَفَ الدَّهْرُ لَمْ يَكُنْ  
جَمَعْتَ الْعُلَا مِنْ تَلْدَاهَا وَطَرِيفِهَا  
غَدَّتْ خَطَّتِي إِذَا يِرَاعٍ وَمَخْذَمِ

إلى المجد إرعاف المداد مع الدم  
إلى محتدٍ سامٍ إلى المجد ينتمي  
إذن لبلغت النيّرات بسُلم  
لأفصح من عهد النواصي ومسلم  
لأعظم نثرًا من رُفاتٍ وأعظم  
يدانيك فيه لا ولا مُتقدّم  
بمنجدهم من كلِّ حي ومتهم  
وخلق أبي تمام غير مُتمّم  
وأنست عكاظ الشعر بل كل موسم  
حظوظك منها شرّد غير نوّم  
ولم أرو من وجدي بها نار مضرّم  
فيسري الهوى بالقول للمتكلّم  
طوى جانحًا منّي على نار ميسم  
فكم من صباً منها عليك مسلم  
تردّدها ما بين أقدم وأحجم  
وبالروضة الزهرا أليّة مقسم  
وخوضي في حوضٍ من الدم مُفعم  
وأهون من ذاك المقام المُعظّم  
فهل يطمع البازي بلقيان ضيغم  
فها أنذا منه به بتُّ أحتمي  
وطال عليك الزجر طائر أشام  
وحظُّ الشقا بالمكث حظُّ التنعم  
لك الشهد إلا من مرارة علقم  
وينصاح صبح السعد في جنح مظلم  
حبيرة مسدٍ في ثناك وملحم

ولم أرَ كفاً مثل كفّك أحسنت  
جمعتها جمع القدير بكفه  
ولو كان يرقى المرء ما يستحقه  
وأنت الذي يا ابن الكرام أعدتها  
وأنشرت ميت الشعر بعد مصيره  
وأشهد ما في الناس من متأخر  
ولو شعراء الدهر تعرض جملة  
لأبصرت شخص البحترى معك بحتراً  
لك الآبدات الآنسات التي نأت  
لكم أسهرت جفن الرواة وخالفت  
شغفت بها طفلاً فأروي بديعها  
ولا عجب أني أحنُّ صباية  
أفي كل يوم فيك وجد كأنه  
أحمل ریح الهند كلّ تحية  
وقد طالما حدّثت نفسي وعاقني  
حلفت بما بين الحطيم وزمزم  
لألفيت عندي دوس مشتجر القنا  
أقل بقلبي في المواقف هيبة  
وهب أنني بازٌ قد انقضّ أشهب  
ولكن لي من عفو مولاي ساتراً  
أحمد سامي إن يك الدهر خائناً  
فما زالت الأيام بوّسي وأنعما  
ولولا الصدى ما طاب ورد ولا حلا  
عسى تَعْتَب الأقدار والهمُّ ينجلي  
وأهديك في ذاك المقام تهانناً

فأنت ترى من كلِّ حرف من حروف قصيدتي هذه حالتي النفسية التي تتلخّص في هذه الجملة: إن البارودي هو إمامي في الشعر. ولا أنكر أنني قبل أن قرأت شعر البارودي

## شوقي

بدلالة الشيخ محمد عبده كان سبق لي نظمٌ غيرٌ قليلٍ، وكان اطلع عليه الشيخ محمد عبده نفسه، فقال لي في اجتماع في الجامعة الأميركية في بيروت، وقد عرّفوه بي: أنت ستكون من أحسن الشعراء. وكذلك قال العلامة الشيخ إبراهيم الأحدب الذي كان الصدر المُقدّم في الأدب وقد قرأ لي أبياتاً في إحدى الجرائد، وأنا بعدُ في المدرسة: إن هذا الولد سيكون شاعراً. إذن لم يكن نظمي للشعر موقوفاً على حِفْظي لشعر البارودي ولكن هزني من شعر هذا الرَّجُل ما لم يهزني شعرُ شاعرٍ من أوّلٍ وآخر، فكنتُ أرى منتهى السعادة في أن تكون لي معه مراسلة وأن أمتّ إليه بصلة، كما كنتُ أحنُّ إلى مثل هذه العلاقة مع السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده بما أسمع عنهما وأقرأ لهما إلى أن ظفرت بذلك، وجميع الشبان المتأدّبين كما لا يخفى لهم ولوع شديد، بل هوسٌ بتقليد كبار علماء عصرهم، ووجدُ مبرح للاتصال بهم والأخذ عنهم، وهو ما قد عبّرت عنه من جهة محمود سامي في قولي:

أفي كلّ يوم فيك وَجَدَ كأنه      طوى جانِحاً مَنّي على نار مَيِّسَم  
أحمَلُ ريحَ الهند كلّ تحية      فكَم من صبّاً منها عليك مسلّم

وكنت كثيراً ما أحدثت نفسي بنشدان وسيلة أتحكك بها بهذا الشاعر الكبير فأحصل منها على جواب منه فأكون سعيداً، ولكنني كنت أتهيّب الإقدام وأخشى أن تتزلزل مَنّي الأقدام فأعود فأنكص عن إجراء فكرتي هذه، وإلى هذا أشرت بقولي بعد أن بدأ هو بالمراسلة:

وقد طالما حدّثت نفسي وعاقني      تردّدها ما بين أقدم وأحجم  
حلفت بما بين الحطيم وزمزم      وبالروضة الزهرا ألية مقسم  
لألفيت عندي دوس مشتجر القنا      وخوضي في حوض من الدم مفعم  
أقل بقلبي في المواقف هيبة      وأهون من ذاك المقام المُعظّم

ولكن كما كان الإقدام على ذاك المقام أشقّ من خوض المارك واقتحام المهالك، كان الشوق أيضاً إلى صاحب تلك القصائد التي كنت أتلوها كلّ يوم من بعد تلاوة كتاب الله وأترنم بها في نجواي، وأجعلها نقل أسماري وغبوق ليلى وصبوح نهاري من نوع البرحاء

مَنْ الذي راضَ شوقي وحافظًا في الشعر

التي لا تدافع ومن نمط النزعات التي لا تُنارَع، فعدت إلى طريقة ثانية أبلغ بها مرامي وأروي أوامي؛ وهي أن أستشهد بشعر البارودي في مقالاتي التي كنت أنشرها إذ ذاك في جريدة الأهرام، فاستشهدت له إحدى المرات ببيتين بدون تصريحٍ باسمه، وهما قوله:

فيا قلبُ صبرًا إن أضرَّ بك الهوى      فكلُّ فراقٍ أو تلاقٍ له حد  
فقد يشعب الإلفان أدناهما الهوى      ويلتئم الضدان أقصاهما الحقد

واستشهدت مرة أخرى ببيت له عن أهل كريت، وذلك مع التصريح باسمه، ومع نعتة بلقب «أمير الشعراء»، وقد كانوا ثاروا على الدولة:

قومُ أبي الشيطانُ إلا خُسُرم      فتسلَّلوا من طاعة السلطان

ولما كان من التجاذب بين الأرواح مهما تباعدت الأماكن، وتراخت المساكن ما لا يقلُّ عن انتقال الأصوات بتموجات الهواء ونفوذ الكهرباء، كان حنيني هذا إلى معرفة محمود سامي قد لاقني مثله إليّ، وقد كان يقرأ مقالاتي في الأهرام فيشعر لكاتبها بعاطفة لا يعرف لها سببًا خاصًا، وما زال كذلك حتى رأني أستشهد بشعره أولاً وثانيًا فعلم أنَّ ما به من جهتي هو بي من جهته، وأن بين الروحين رسائل من غير كُتب ووسائل بلا أسلاك، فعندها جاءني منه الأبيات التي يبتدئ فيها بقوله:

أشدَّت بذكري بادئًا ومُعقَّبًا      وأمسكت لم أهمس ولم أتكلم  
وما ذاك ضنًا بالوداد على امرئٍ      حَباني به لكن تهَيَّبَت مقدمي

ثم بعد أن أجبته على أبياته هذه بالقصيدة التي تقدَّمت جاءني منه هذا الكتاب الذي أنا أنقله الآن بحروفه:

عن كندی في ٢٨ ذي القعدة سنة ١٣١٥:

تقبَّل يا شكيب ثناء حُرِّ      أمين الغيب محمود السلوك  
سرتُ نَزواتُ ودِّكَ في عروقي      مَسير الكهرياءة في السلوك

## سيدي الأمير

لولا حنين النفس، وهو علاقة الحبِّ، لصبرت على المكاتبه هنيهة مخافة الإملال، ولكني راجعت النفس فأبَّت عليَّ زاعمة أن الإغباب يكون في الزيارة لا في الكتابة، وبعدُ، فقد تلقَّيت اليوم ما تفضَّلتُم به عليَّ بيدٍ ترعد فرحًا وفؤاد يهتزُّ مرَّحًا، وما عساي أن أقول في نظمٍ لو وصفته لقلت سحرًا، ونثرٍ لو وردت شرعته لكان بحرًا، إنها وايم الله منَّة لا يقوم بها الشكر ولا يتدرَّج إلى معروفها النكر، كيف لا وقد أضاعت عليَّ غيابة الوحشة، وسرت عني ضبابه الحسرة، فالحمد لله الذي صدق ظنِّي، وحقَّق أملي، فإنني منذ طالعت آثار قلمكم في جريدة الأهرام شعرت بميلٍ في النفس إليكم ونزاع منها إلى التعارف بكم، ثم لم ألبث أن رأيت بها تعريضًا خفيًّا سمعت منه هاتفًا روحانيًّا يدعوني إليكم، فحدَّثت نفسي بمد أسلاك المراسلة لتبادل كهرباءة المودَّة معكم، ولكنني راعيت الحال فأمسكت على مَضض حتى سمعت هاتفًا آخر يدعوني باسمي صراحًا فلم أتمالك أن لبيَّتُ دعوته، فتمَّ الأمل بتعارف الأرواح قبل تقارب الأشباح، هذا ما كنت أجدُّه في نفسي أنكره لكم على سبيل الغرابة، وسأكتب بعد هذا إن شاء الله، فاقبلوا تحية فؤادي وخالص ودادي ودُمتم.

الداعي محمود سامي

إن هذه الحالة التي وقعت بيني وبين محمود سامي هي تصدّاق الحديث: «الأرواح جنود مُجنَّدة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف.»  
وبالجمله فبينما أنا كنتُ أروي قصائده ولا أروي ظمًا فؤادي إلا بالتعارف معه، كان هو يشعر بميلٍ خاصٍّ إلى كاتب تلك المقالات في الأهرام قبل أن يعرفه بل بمجرد التجاذب الروحي والتعارف الغيبي وبسائق تلاؤم الأشكال الذي قرَّر الحكماء أنه منشأ الحبِّ بين الخلق، ثم إنه رأني أستشهد بشعره ولكن بغير تصريح باسمه فكاد يجاذبني حبل المراسلة إلا أنه توقَّف قليلاً ثم رأني أصرَّح باسمه وأقول إنه أمير الشعراء فلم يملك نفسه بعد ذلك عن البديئة بالخطاب والإسراف في الثناء فأرسل إليَّ بتلك الأبيات الميمية، وإلى هذا المعنى الأخير أشار بقوله:

فأمَّا وقد حقَّ الجزاء فلم أكن لأنطق إلا بالثناء المُنمَّم



ويوم وصفت محمود سامي بقولي: إنه «أمير الشعراء» لم يكن شوقي قد طارت شهرته إلى أن صار يزاحمه على هذا الاسم، ولا كنت أنا أجمع عن شوقي أنني أعد محمود سامي أبا الشعراء في وقته، ولا كان قد جاء الدور الذي أصبح شوقي يرى نفسه فيه الجواد المبر على الجميع، والفد الذي تأخذه النخوة على نظرائه، ولا يرى فيه أحدًا من أكفائه، بل كنت، ما دام البارودي حيًّا، أوَّل من بايعه بالإمامة، ولم يضع أحدًا أمامه إلى أن مضى لسبيله، فكان من جملة ما رثيته به قولي:

كان الأوائل في الأنظار معجزة	حتى أتى فتأى مَنْ جدَّ من قدما
لو كان في الزمن الماضي وعاصره	حكيم كندة لم يزعم بما زعما
لو كان أدرك عصرًا قد تقدّمه	عيّ حبيب عن الإنشاد مُعتصما
فانعوا لنا الشعر والآداب قاطبة	معه وقولوا لشوقي إنّه يتما

ولكن مَنْ يدري فقد يكون شوقي غصَّ برئاسة البارودي من ذلك العهد، وقد تكون الفترة التي ظهرت لي منه عندما جئت إلى مصر قاصدًا طرابلس الغرب، وما رأيت من تدلُّه ولحظت من تسحُّبه أثرًا من آثار المقالة التي أجبته فيها سليم سركيس عمَّن أراهم أشعر الشعراء في هذا العصر، وأسجَلت فيها أن الأول فيهم هو محمود سامي والثاني هو شوقي والثالث هو حافظ إبراهيم، فجاءت مقالتي هذه فزَعًا على كبده رحمه الله. ولعلَّ الأخ شاعر القطرين خليل مطران يدري من هذا الأمر ما لا أدريه أنا؛ لأنه قد كان بينه وبين شوقي من الخلطة والمودة والتبذُّل في الحديث ما لم يكن بين اثنين، وكيف كان الأمر فقد صدق مصطفى صادق الرافعي في قوله: إن شوقي أصبح بعد أن صار شاعر الأمير كالجواد العتيق ينافس حتى ظله. وقد صدق الرافعي أيضًا في قوله: إن طريقة شوقي في الشعر لم تكن طريقة البارودي؛ لأن شوقي كان يضعف عن طريقة البارودي ولم تكن تنهياً في أسبابه وخاصّة في أول عهده. وهذا شيء لا يختلف فيه اثنان فلكلِّ من هذين طريقة خاصّة به، والغالب على البارودي هو علوُّ النفس والجزالة، والغالب على شوقي هو الرقّة والحكمة والتأثير في النفس.



## أماثيل من شعر شوقي

وقد حان الآن أن نذكر أماثيل ممّا يعجبنا من شعر شوقي، وقد سبق للأدباء حتى في حياته أن تكلموا في هذا الموضوع وأشاروا إلى المختار من شعره والأثير من قوله، واتفق الجميع على أن القصيدة التي أولها:

خدعوها بقولهم حسناء ... ..

هي من عيون قصائده التي رُزِقَ فيها من التوفيق ما لم يَقَعْ فيه جدال مع أنها ممّا نظمته في أول شبابه. وقد نشر الأديب الضليع أنطون بك الجميل رسالة بعد وفاة أمير الشعراء ضمّنها ما رآه الأحسن في نظره، وهو لا يخرج عمّا كان يؤثّر له الناس في حياته ويأثرونه دائماً عنه. وسأنقل أنا أيضاً من جملة الناس ما يعجبني من شعر شوقي غير ناهب مذهب الإطالة في التحليل ولا مقتصر على مجرد السرد بدون تذييل؛ فأقول: ينقسم شعر شوقي إلى ثلاثة أقسام: أحدها الشعر الشخصي، وهو ما اصطلح الإفرنج على تسميته بالشعر المُطرب Lyrique والشعر التاريخي أو شعر الوقائع، وهو ما يقولون له épique والشعر الروائي وهو القصص المنظوم شعراً، ولشوقي عدّة روايات منظومة لم أكن اطّلت عليها إلا بعد وفاته. فالشعر الشخصي هو الجانب الأوفر من شعر شوقي، وإذا أراد الناقد أن يعتام جيده لا ينتهي منه إلا بديوان كبير؛ لأن شعر شوقي نسج واحد لا يكاد ينزل، ولو وضع كلامه في أتفه المواضيع، فالغثاة وشوقي على طرفي نقيض.

من أحسن ما يعجبني من شعره الشخصي ما افتتح به ديوانه المطبوع أول مرة،  
وذلك تحت عنوان «إلى مولانا أمير المؤمنين عبد الحميد الثاني أيده الله»:

سلام الله لا أرضى سلامي	فكلُّ تحيةٍ دون المقام
وعين من رسول الله ترعى	وتحرس حامل الأمر الجسام
وتنجد مُقَلَّة في الله يُقْطَى	وتخلفها على أمم نيام
تقلب في ليلٍ من خطوب	تركن المسلمين بلا سلام
ومن عجب قيامك في الليالي	وأنت الشمس في نَظَر الأنام
أحبُّ خليفة الرحمن جهدي	وحبُّ الله في حبِّ الإمام
وأجعل عصره عنوان شعري	وحسن العقد يظهر في النظام
فإن تفت الموانع منه حظي	فليس بفائت حظُّ الكلام
وقد يرعى الغمام الأرض أذناً	وأين الأرض من سمع الغمام

وبعد أن قدّم هذه التحية إلى الخليفة عاد فشفعها بتقديمه إلى الخديوي فقال:

إلى ابن مُحَمَّد أهدي كتابي	وقد يُهدى القليلُ إلى الكريم
وما أهدي له إلا فؤادي	وما بين الفؤاد من الصِّميم
وغرس طفولتي وبنى شبابي	وما أوعيت من وحي قديم
وما حاولت من عصر عظيم	من الآداب للوطن العظيم
وكان مُحَمَّدٌ أوفى وأرعى	لهذا الدرُّ من راعي اليتيم
فكُنْه يا ابن توفيقٍ فأني	فخيم الظنُّ في الجاه الفخيم
وإنَّ الشعرَ ريحان الموالى	وراحة كلِّ ذي ذوق سليم
وما شَرِبَ الملوك ولا استعادوا	كهذي الكأس من هذا النديم

والبيت الأخير هو بيت القصيد، وفي قوله: وكان محمد أرعى لهذا الدرُّ من راعي اليتيم، تورية لطيفة ولكنه استعمل لفظة «فخيم» ولا يوجد في العربي «فخيم»، وإنما هو «الفخم» وقد انسابت هذه اللفظة إلى كلام شوقي من كلام الدواوين ومن المعلوم أن لغة الدواوين في القرون الأخيرة كانت عليها مسحة تركية.

ومن شعره الذي شَرَّقَ وغَرَّبَ وذهب كلَّ مذهب، ولم يبقَ أحدٌ إلا رواه قوله:

خدعوها بقولهم حسناء      والغواني يغرهنَّ الثناء

وهي أبيات معدودات أحسنَ فيها غاية الإحسان، ولا سيما عند قوله:

نظرة فابتسامة فسَلام      فكلام فمَوعد فليقاء  
ففرار يكون فيه دواء      أو فرار يكون منه الداء

فلو قال أحدٌ إنه ما قيل في هذا العصر شعر أشعر من هذا في الغزل ما أبعد. وله أبيات لو لم أقرأها في ديوانه لظننت أنها من شعر أبي العتاهية الذي استولى على الأمد في نظم الزهد بالسهل الممتنع الذي يقرأ منه الإنسان ويعيد ولا يمل ولا تخلق طلاوته ولا تذهب حلاوته. قيل لأبي نواس وقد عظمَ أبا العتاهية كثيراً: لأنت أشعر منه. فأجاب: ما رأيته قطُّ إلا ظننت أنه سماء وأنا أرض. وأبو العتاهية هذا نسيجٌ وحده في الممتنع السهل والمهلل الجزل لو نسبت إليه هذه الأبيات الخفيفة اللطيفة التالية لكانت به جديرة وهي:

كم لنا من عجيبة	طي هذي البسيطة
أمم قد تغيَّرت	وبلاد توَلَّت
وبحار تحوَّلت	من مكان لبقعة
تم نابت جزيرة	عندها عن جزيرة
أيها الأرض خبْري	عن شباب البسيطة
دُول قد تصرَّمت	دولة إثرَ دولة
وقرون تلاحقت	وعصور تقصَّت
ذهب الدهر كلُّه	بين يوم وليلة

نعم على هذا الشعر مسحة عصريَّة جيولوجية لا توجد في شعر أبي العتاهية، ومن شعر شوقي في إنكار رفع الصوت أمام الجنائز:

أرى زُمرًا مشيعة      وأسمع أيَّما صوت  
ولو عقلوا لما فعلوا      جلال الموت في الموت

ومن قوله في الرضى بما قسم الله:

أعادلتني في اختيار الرضى      ولائمتني في اعتقاد القَدَر  
تجيء النفوس الرضى مرة      إذا هي لم تنتفع بالضجر

ومن حكم شوقي السائرة وأبياته النادرة ما قاله في مداراة العدو، وما ذهب إليه من  
أن أشدَّ الناس على العدو أخذهم له بالحيلة فهو يقول:

قد أتعب الأعداء مَنْ داراهمو      فأقِمْ عدوك بالليان وأقعد  
إن الأرقام لا يُطاق لقاؤها      وتُنال من خلف بأطراف اليد

ومن حكمه:

إن الوفاء سياج أخلاق الفتى      مَنْ حازَه حازَ المحامد أجمعا  
كم من لبيبٍ كان يُرجى نفعه      لكن أبى عدَمُ الوفا أن ينفعا

ومن لطائفه:

رمينا بإبليس من حالق      ولم نرمِ بالتاجر الفاسق  
وكم في الحوانيت شيخ أحق      بقطع اليمين من السارق

ومن أقواله المأثورة:

جهول الناس للنصحاء قال      وعند أخي النهي لهمو ملال  
عليك النصح إن صادفت أهلاً      وليس عليك في النصح الجدال

وقد كرر هذا المعنى في مكان آخر، فقال:

لك نصحي وما عليك جدالي      آفة النصح أن يكون جدالا

وكرَّره ثالث مرة فقال:

آفة النصح أن يكون جدالاً      وأذى النصح أن يكون جهارا

أمثال من شعر شوقي

وقد ذهب السيد مصطفى صادق الرافعي إلى أن شوقي أخذ هذا من قول ابن الرومي:

وفي النصح خير من نصيح مُوَادِعٍ      ولا خير فيه من نصيح مُوَاتِبِ

ولا حاجة إلى الإبعاد كل هذا، فأقرب إليك من قول ابن الرومي المثل المشهور: لا  
تبالغ في النصيحة فتهم بك على الفضيحة.  
ومن حكم شوقي:

كم ساهر خائف والدهر في سنة      وراقد آمن والدهر في سَهَرٍ  
فلا تبيتنَ محتالاً ولا ضجرًا      إن التدابير لا تُغني عن القَدَرِ

ومن مرقصات شعر شوقي القصيدة المشهورة في وصف ليلة راقصة بسراري عابدين  
مطلعها:

حفَّ كأسها الحَبَبُ      فهي فضة ذهب

ومما يعجبني فيها:

أشرقت نوافذه      فهي منظر عجب  
واستنار رفرفه      والسجوف والحجب  
تعجب العيون له      كيف تسكن الشهب  
أقبلت شمس ضحَى      ما لهن منتقب  
الظلام رايتها      وهي جيشه اللجب  
في هَوادج عجلًا      بالجياد تنسجِب

فقد كان هذا قبل اختراع السيارات الكهربائية ثم قال:

قام دونها سَبَبٌ      واستحثَّها سَبَبٌ  
فهي تارة مَهَلٌ      وهي تارة حَبَبٌ  
يرتمي بهن حمى      لا يجوزه رَغَبٌ  
بابه لداخله      جنة هي الأرب

شوقي

قامت السراة به  
وانبرى النساء له  
العفاف زينتها  
أنجم مطالعها  
والمعية النجب  
عجمهن والعرب  
والجمال والحسب  
عابدين والرحب

إلى أن يقول:

الليوث ماثلة  
الحرير ملبسها  
والقصور مسرحها  
يستفزها نغم  
يُستعاد مرقصه  
فالقُدود بانُ رُبِّي  
يلعب العناق بها  
فهي آنة سعد  
وهي ها هنا وهنا  
مثلما التقت أسلُ  
الرءوس مائلة  
والنهود هامة  
والخصور واهية  
والظباء تنسرب  
واللُجَيْن والذهب  
لا الرمال والعشب  
لا صدِّي ولا لجب  
تارة ويُقتَضَب  
بَيِّدَ أنها تَثِب  
وهو مشفق حدب  
وهي آنة صَبَب  
تلتقي وتصطحب  
أو تعانقت قُضِب  
في الصدور تحتجب  
والخدود تلتهب  
بالبنان تنجذب

إلى أن يقول:

هكذا الكرام كرا  
ليلة علت وعلت  
يكفل الأمير لنا  
م وإن همو طربوا  
ليت فجرها كذب  
أن تعيدها الحِقَب

وله في وصف متنزه الخديوي:

متنزه العباس للمجتلي  
العيش فيه ليس في غيره  
آمنت بالله وجناته  
يا طالب العيش ولذاته



قصور عزّ باذخات الذرى      يودها كسرى مشيداته  
دارت على البحر سلايمه      فبتن أطواقاً للبتاته  
من عمل الإنس سوى أنها      تنسي سليمان وجنّاته

إلى أن يقول:

ومن ظباء في كناساتها      تهيج للعاشق لوعاته  
يرتعن والآساد في ألفة      من عدل حلمي ومساواته

وله في وصف الشروق والغروب وهو في سفينة:

ويا للمصور آثارها      بكل بحار وفي كلّ بيد  
وإزواؤها كلّ جمّ السنأ      وإزواؤها كلّ عالٍ مشيد  
من النار لكن أطرافها      تدور بياقوتة لن تبديد  
من النار لكن لألاءها      إلهية زينت للعبيد  
هي الشمس كانت كما شاءها      ممات القديم حياة الجديد  
تردّ المياه إلى حدّها      وتبقى جبال الصفا والحديد  
وتطلع بالعيش أو بالردى      على الزرع فائمة والحصيد  
وتسعى لذا الناس مهما سعت      بخير الوعود وشر الوعيد  
وقد تتجلى إذا أقبلت      بنعمى الشقي وبؤس السعيد  
وقد تتولى إذا أدبرت      وليست بمأمونة أن تعود  
فما للغروب يهيج الأسى      وكان الشروق لنا أي عيد  
كذا المرء ساعة ميلاده      وساعة يدعو الحمام العنيد  
وليس بجارٍ ولا واقع      سوى الحقّ ممّا قضاه المرید

على هذه الأبيات الأخيرة مسحة من شعر المعري الذي يختلط الشعر فيه بالفلسفة،  
وله وصف طلوع البدر وهو في السفينة أيضاً:

وزهت لناظرها السماءً وقرّ ما      في البحر من عجب ومن تيار  
وأهلّ لله السراة وأزلفوا      لك في الكمال تحيةً الإكبار

## شوقي

وتأملوك فكلُّ جارحة لهم عين تسامر نورها وتساري  
والبدر منك على العوالم يجتلي بشر الوجوه وزحمة الأبصار

انظر إلى قوله «زحمة الأبصار» هنا كمّ فيه من البلاغة إذا تأملت تطلع الناس إلى  
البدر في الليلة البليغاء.  
ثم يقول:

متقدّم في النور مَحْجُوب به      موفٍ على الأفاق بالأسفار  
يا درّة الغوّاص أخرجَ ظافرًا      يُمناه يجلوها على النظّار  
مُتهللاً في الماء أبدى نصفه      يسمو بها والنصف كاسٍ عار  
وافى بك الأفق السماء فأسفرت      عن قفل ماسٍ في سوار نضار  
ونهضت يزهو الكونُ منك بمنظر      ضاحٍ ويحمل منك تاجَ فخار  
الماء والأفاق حولك فضّة      والشهب دينار لدى دينار  
والفلك مشرقة الجوانب في الدجى      يبدو لها ذيل من الأنوار  
وكانها والموج مُنتظّم وقد      أوفيت ثم دنوت كالمُحتار

وقد استعمل شوقي لفظة «المحتار» ولا يوجد فعل مطاوعة من «حار» ولكن استعمل  
ذلك بعض الأعلام متابعة للعامة، وقال الشيخ عبد الغني النابلسي:

حكم حارت البرية فيها      وجدير بأنها تحتار

وسمّى فقيه عصره السيد محمد بن عابدين حاشيته على الدرّ المختار باسم «رد  
المحتار» ولم يسلم من الاعتراض.  
وله في البحر المتوسط الأبيض:

أي الممالك أيها      في الدهر ما رفعت شراعاك  
يا أبيض الآثار والصد      فحات ضيّع من أضعاك  
إن البيان وإن حُسُ      نَ العقل ما زالا متعاك

يشير بذلك إلى أن الأمم التي عاشت على ضفاف هذا البحر هي التي فرطت إلى حوض المدينة مثل مصر وفينيقية واليونان ورومة، وأنها هي التي اشتهرت بذلاقة اللسان وسداد المنطق ثم يقول:

أبدًا تذكرنا الذي      من جلوا على الدنيا شعاعك  
وبنوا منارك عاليًا      متلاليًا وبنوا قلاعك  
وتحكّموا بك في الوجو      د تحكّمًا كان ابتداعك

أي إن البحر المتوسط هو الذي سهّل الفتوحات للذين ملّكوا على شواطئه، وله في وصف سويسرا:

ناجيت من أهوى وناجاني بها      بين الرّياض وبين ماء سويسرا  
حيث الجبال صغارها وكبارها      من كلّ أبيض في الفضاء وأخضرا  
تخذ الغمامُ بها بُيوتًا فانجلت      مشبوبة الأجرام شائبة الذرى  
والصخر عالٍ قام يحكي قاعدًا      وأناف مكشوف الجوانب مُنذرا  
بين الكواكب والسحاب ترى له      أذنًا من الحجر الأصمّ ومشفرا  
والسفح من أيّ الجهات أتيتّه      ألفيته درجًا يموج مدورًا  
نثر الفضاء عليه عقد نجومه      فبدا زبرجده بهنّ مجوهرًا

إلى أن يقول:

والماء من فوق الديار وتحتها      وخلالها يجري ومن حول القرى  
متصويًا متصعدًا متمهلاً      متسرّعًا متسلسلاً متعثرًا  
والأرض جسر حيث نُرّت ومعبّر      يصلان جسرًا في المياه ومعبرا  
والفلك في ظل البيوت مواخرا      تطوي البحائر نحوها والأنهرا

إن هذا الأسلوب في وصف الطبيعة هو الذي جرى عليه الشعراء من قديم الزمان؛ يأتون بالتشابه المرقصة والكنيات المطربة في نظم كأنه يمشي الحَبَب، وشعر كأنه يتحدّر من صَبَب، فتعرف القافية قبل أن تصل إليها، وتستدلّ على اللفظة بما حواليتها، وتظن نفسك على ضفة نهر مُطرّد يتدفق، أو أمام غمام مُنسجم يتبجس، وقد تكثر المترادفات

في مثل هذا الوصف فلا تُزَجِّج، وتتوالى المتجانسات فتعجب وتبهج، وكأن الموصوف يخلع على الوصف حلاه، وكأن الشاعر يأخذ من الطبيعة لفظه كما يأخذ معناه.

وقلماً قرأت شعراً من الزهريات أو الطرديات أو غير ذلك مما وصفوا به الطبيعة إلا رأيته مسحوباً هذا السحب مسكوباً هذا السكب، كأن لكلِّ مقام لغة تناسبه ولكلِّ موضوع أسلوباً خاصاً لا يجيد فيه من يجانبه. وأما لفظه «البحائر» التي أتى بها شوقي هنا بمعنى الأبحرة أو البحيرات فليست من اللغة، وإنما البحيرة هي الناقة التي سُقَّتْ أذنها من فعل بَحَرَ بمعنى شَقَّ، قال الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ﴾ وقال أبو إسحق النحوي: أثبت ما روينا عن أهل اللغة في البحيرة أنها الناقة كانت إذا نتجت خمسة أبطن فكان آخرها ذكراً بَحَرُوا أذنها؛ أي شَقُّوها وأعَفَوْا ظهرها من الركوب والحمل والذبيح، ولا تُحَلَّأُ عن ماء تَرِدُهُ ولا تُمْنَعُ عن مرعى، وإذا لقيها المعبي المنقطع به لم يَرَكْبُهَا. قالوا وجمع البَحِيرَةِ على بَحْر وهو جمع غريب في المؤنث إلا أن يكون قد حُمِلَ على المذكر نحو نذير ونذُر. وليس لهذه اللفظة وجه هنا إلا أن يُقال إن البحار جمع بحيرة وهذه فعيلة من فعل بَحَرَ أي شَقَّ. وقد قيل إن البحر إنما سُمِّيَ بحراً لأنه شَقُّ في الأرض، فهل يصل تسمُّح علماء اللغة إلى إجازة هذا القياس؟ إنهم إن أجازوا مثله فقد فتحوا باباً يُتَعَدَّرُ سُدُّهُ. ثم يقول شوقي من هذه القصيدة:

وخرجت من بين الجسور لعلني	أستقبل العرف الحبيب إذا سرى
أوي إلى الشجرات وهي تهزني	وقد اطمأن الطير فيها بالكري
ويشوق مني الماء في لمعانه	فأميل أنظر فيه أطمع أن أرى
وهنالك ازدهت السماء وكان أن	آنست نوراً ما أجلُّ وأبهرا
فسريت في لألائه وإذا به	بدرى تسايره الكواكب معشرا
حلم أعارتني العناية سمعها	فيه فما استتممت حتى فُسرا
فرايت صفوي جهرة وأخذت أنـ	سى يقظة ومناي لبَّتْ حضرا

ثم يذكر شروق الشمس، فيقول:

تبدو هنالك للوجود وليدة	تَهْنَأُ بها الدنيا ويغْتَبِطُ الثرى
وتضيء أثناء الفضاء بغرة	لاحت برأس الطود تاجاً أزهرها
فسمت فكانت نصف طار ما بدا	حتى أناف فلاح طاراً أكبرا

لا أعلم ماذا يريد بقوله «طار» إلا أن يكون يريد الإطار بالألف، فأطار الألف  
لضرورة الوزن وليس هذا بجائز؛ لأنه لم يرد إطار بمعنى طار في فصيح اللغة.  
ثم يقول:

سالت به الآفاق لكن عسجدا	وتفشَّت الأشباح لكن جوهرًا
واهترَّ فالدنيا به مُهترَّة	وأُنا فأنكشف الوجود منورًا
حتى إذا بلغ السموُّ كماله	أذنت لداعي النقص تهوي القهقري
فدَنَّت لناظرها ودان عنانها	وتبدل المستعظم المستصغرا
واصفرَّ أبيض كلَّ شيء حَوْلها	واحمرَّ بُرقعها وكان الأصغرا
وسما إليها الطود يأخذها وقد	جعلت أعاليه شريطًا أحمرًا
مسَّته فاشتعلت بها جنَّباته	وبدت ذراه الشمُّ تحمل مجمرًا
فكأنما مدت به نيرانها	شَرَكًا لتصطاد النهار المدبرًا
حرقته واحترقت به فتولَّيا	وأتى طولُهما الظلامُ فعسَّغرا
فشروقتها الأملُ الحبيب لمن رأى	وغروبها الأجل البغيض لمن درى
خطبان قاما بالفناء على الصفا	ما كان بينهما الصفاء ليعمرًا
تتغير الأشياء مهما عاودا	والله عزَّ وجلَّ لن يتغيَّرًا

ثم إنه يصف جبل الساليف الذي فوق جنيف فيقول:

أنهارنا تحت السليف وفوقه	ولدى جوانبه وما بين الذرى
مشيًا ورُكَّابًا وزحلقة على	عَجَلٍ هنالك كهربائي السرا

هنا محلُّ نظر؛ فإنه إذا أراد مشيًا ورُكَّابًا وزحلقةً على أنها مصادر وبلا تشديد  
لفظة ركاب لم يستقم الوزن، وإذا كان يشدُّ رُكَّاب بمعنى جمع راكب أو كانت غلطة  
مَطْبَعِيَّةً وأصلها ركبان فهي في قلق زائد في هذا المحل؛ لأنها تكون جمع اسم فاعل بين  
مصدرين المشي والزحلقة، وربما قاسها شوقي على كذب كذَّابًا بالتشديد، ولكن ليس  
القياس في اللغة بالمذهب الراجح. والرُكَّاب بالتشديد هو الكابوس وليس هذا هو المراد

هنا. وقد حاولت أن أجعلها مشياً وتركاباً وزحلقَةً ... إلخ، ولكني لم أجد مساعماً لتكثير المصدر من كلِّ فعلٍ إلا إذا أخذنا القياس، فأما متون اللغة فإنك تجد فيها أفعالاً تأتي مصادرها على تفعال فيقولون مثلاً سكب الماء والدمع سكباً وتسكاباً وهتن الغيث هتناً وهتوناً وتهتاناً، وعليه قلت من قصيدة في هذه الأيام الأخيرة:

نار تأجج في قلبي فهل لكما أن تطفئها بتسكاب وتهتان

ولكن هذا غير مطرد وإن كان المتنبي قال:

وإن تكن محكمات الشكل تمنعني ظهور جرِّي فلي فيهن تَصْهال

فإنك لا تجد تَصْهال في كتب اللغة، وإنما قاسها المتنبي على غيرها، والقياس في اللغة مذهب ضعيف. وقد نظرت في كتاب سيبويه، فرأيتَه يقول: «هذا باب ما تُكْتَرُ فيه المصدر من فَعَلَتْ فتلحق الزوائد وتبنيه بناءً آخر، كما أنك قلت في فَعَلَتْ فَعَلَتْ «بالتشديد» حين كَثُرَتْ الفعل وذلك قولك في الهدر التَّهْدَار، وفي اللعب التَّلْعَاب، وفي الصفق التَّصْفَاق، وفي الرد التَّرَاد، وفي الجولان التَّجْوَال والتَّقْتال والتَّسْيَار، وليس من هذا مصدر فَعَلَتْ «بالتشديد» ولكن لما أردت التكثير بنيت المصدر على هذا كما بنيت فَعَلَتْ على فَعَلَتْ — الثانية بالتشديد.» اهـ. قلت ولا يُستقَاد من هذا أنه يجوز اطراد مصدر تَفَعَّل من كلِّ الأفعال؛ لأنه لو كان ذلك كذلك لما كان جامعوا اللغة قالوا هتن يهتن هتوناً وتهتاناً، ولم يقولوا ركب يركب ركوباً وتركاباً. ولنترك ركاباً هذه على حالها ونكمل وصف شوقي لجبل السليف، فيقول:

في مركب مستأنس سألت به قضبُ الحديد تعرُّجاً وتحدرًا  
ينساب ما بين الصخور تمهلاً ويخفُّ بين الهوتين تخطراً

ولو جاء شوقي جنيف كما دعوته يوم تلاقينا في السويس لرأى الآن شيئاً أعجب وأغرب، وهو أنهم وضعوا من حذاء السليف إلى رأس الجبل مركبةً سلكيةً كهربائية، يُقال لها «تلفريك» يظنُّها الرائي طيارةً طائرةً في الجوّ، ويقطع فيها الراكب هذه المسافة من

ذيل الجبل إلى رأسه في ثماني دقائق بسرعة برقيّة، وهذه المركبة من بعيد تلوح كالزنبيل  
مُعلِّقًا في الهواء، ثم قال:

لما نزلنا عنه في أمّ الذرى  
أرض تموج بها المناظر جمّة  
قد صغر البُعد الوجود لنا فيا  
قمنا على فرع السليف لننظرا  
وعوالم نعم الكتاب لمن قرا  
لله ما أحلى الوجود مُصغرا

ولشوقي قصيدة عن رومة فيها أبيات جديدة بأن تُحفظ:

وجرت ها هنا أمور كبار  
راح دين وجاء دين ووَلَّى  
والذي حصّل المُجدُّون إهرا  
ليت شعري إلامَ يقتتل النا  
بلد كان للنصارى قنادًا  
وشعوب يمحون آية عيسى  
ويُهيئون صاحبَ الروح ميثًا  
عالم قَلْبٍ وأحلامُ خَلْق  
رومة الزهو في الشرائع والحك  
والتناهي فما تعدى عزيزًا  
يصبح الناس فيك مولى وعبدا  
أين ملكٌ في الشرق والغرب عالٍ  
واصل الدهر بعدها جريانه  
ملك قوم وحلّ ملك مكانه  
ق دماء خليقة بالصيانه  
سُ على ذي الدنيّة الفتّانه  
صار ملك القسوس عرش الديانه  
ثم يُعلون في البريّة شأنه  
ويُعزّون بعده أكفانه  
تتبارى غباوة وفطانه  
مة في الحُكم والهوى والمجانه  
فيك عزٌّ ولا مهينًا مهانه  
ويرى عبدك الورى غلمانه  
تحسد الشمس في الضحى سلطانه

وله على قبر نابليون أبيات منها:

مَرَمَرٌ أُضْجِعَ فِي مَسْنُونِهِ  
هَلْ دَرَى الْمَرَمَرُ مَاذَا تَحْتَهُ  
يَنْمَحِي الْمَيْتَ وَيَبْلَى رَمْسَهُ  
حَصَّنُوا مَا شَتَّتُمْ مَوْتَاكُمْ  
لَيْسَ فِي قَبْرِ وَإِنْ نَالَ السَّهَى  
فَانْزِلِ التَّارِيخَ قَبْرًا أَوْ فَنَمِ  
حَجَرُ الْأَرْضِ وَضِرْغَامُ الْعَرِينِ  
مَنْ قَوَى نَفْسَ وَمَنْ خَلَقَ مَتِينِ  
وَيَغُولُ الرَّبْعَ مَا غَالِ الْقَطِينِ  
هَلْ وَرَاءَ الْمَوْتِ مِنْ حَصْنِ حَصِينِ؟  
مَا يَزِيدُ الْمَيْتَ وَزَنًّا وَيَزِينِ  
فِي التُّرَى غَفْلًا كَبَعْضِ الْهَامِدِينِ

وله في توت عنخ آمون قصيدة يقول فيها:

ملوك الدَّهْر بالوادي أقاموا      على وادي الملوك محجَّبينا  
فرب مُصَفِّدٍ منهم وكانت      تُساق له الملوك مُصَفِّدِينا  
تقيِّدُ في التراب بغير قيِّد      وحلَّ على جوانبه رَهِينا  
تعالى الله كان السحر فيهم      أليسوا للحجارة مُنطِقِينا

ويخاطب اللورد كارنارفون الذي اهتدى سنة ١٩٢٢ إلى ما اهتدى إليه من الكنوز تحت مدفن رمسيس السادس، فقال:

أبوَّتنا وأعظمهم تراث      نحاذر أن يئول لآخرينا  
ونأبى أن يحلَّ عليه ضيِّم      ويذهب نهبة للنَّاهِبِينا  
سكتَّ فحام حولك كلُّ ظن      ولو صرَّحت لم تثر الظنونا  
يقول الناس في سرِّ وجهٍ      وما لك حيلة في المرُجِفينَا  
أمن سرق الخليفة وهو حيٌّ      يعفُّ عن الملوك مُكفِّينَا!

يريد أن يقول إن الناس اتَّهموا اللورد الذي كشف الكنوز بأنه استأثر لنفسه بها، والحال أنها حقُّ مصر، وقد حامت الظنون حول هذه القصة، وقال الناس: أفاذاً سرقوا الخليفة وهو حي لا يسرقون كنوز الملوك وهم أموات؟! إشارة إلى أن الإنجليز نقلوا الخليفة وحيد الدين من قصره في الأستانة إلى مالطة بعد أن انتهت حرب اليونان وتركيا واتَّسق الأمر لحكومة أنقرة، والسبب في فرار الخليفة حينئذٍ ما بلغه عن نيَّة حكومة أنقرة محاكمته والحكم عليه بالقتل بحجَّة أنه خان الوطن.

وكان السلطان وحيد الدين في بدء احتلال الإنجليز للأستانة بعد الحرب العامة، قد اعتقد أن الإنجليز يقدرّون على كلِّ شيء فأطاعهم خوفاً لا خيانة ولم يشأ أن يذهب إلى الأناضول وينضمَّ إلى رجال الحركة الوطنية اعتقاداً بأنه إن خرج من الأستانة لن يعود ملك آل عثمان إليها أبداً، وأن الإنجليز وغيرهم من الأجانب يريدون فرصة لإعادة القسطنطينية إلى الروم، وقد كانت في أوروبا — ولا سيما في إنجلترا — حركة شديدة لهذا الغرض فتضافرت الأسباب كلُّها لبقاء السلطان في الأستانة حتى لا تخرج هذه العاصمة المنقطة النظر من يد الإسلام، ولما كان الإنجليز هم المُحتلِّين وهم أصحاب الكلمة العليا



بعد الحرب الكبرى لم يجد وحيد الدين بُدًّا من مطاوعتهم، فانتَهزَ أعداؤه الفرصة لانتهاكه بالخيانة وبالخروج عن رأي أمته، ولما كان بين الأتراك حركة قديمة ترمي إلى تُلُّ العرش العثماني وتأسيس حكومة جمهوريَّة، وهذه الحركة لا يقدر أصحابها على التظاهر بها خوفًا من الشعب التركي المُتمسِّكُ بآل عثمان، فقد استغلَّ هذه المرة رجال تلك الحركة طاعة وحيد الدين لإنجلترا الناشئة عن الخوف، وجعلوها من باب الخيانة ونشروها بين الشعب التركي وفي الآفاق، وبنوا عليها فيما بعد إسقاط سلطنة آل عثمان وإسقاط الخليفة والخلافة، مع أن مجلس أنقرة الكبير كان قد قرَّر أن الحركة التركيَّة الاستقلالية إنما كان المقصد منها إنقاذ الخليفة الذي هو أسيرٌ بين أيدي الإنجليز، وقد اضطرَّ السلطان الخليفة وحيد الدين أن يفرَّ من الأستانة حتى لا يُصلَبَ على جسر الخليج، فقصد مالطة على باخرة إنكليزية ثم جاء منها إلى الحجاز، وبعد أن أقام أيامًا في مكة وأيامًا في الطائف ذهب إلى أوروبا وأقام في سان ريمو من إيطاليا، ولم يعيش بعد سقوطه مدة طويلة، وعندما مات كان يعاني من جهة أمر معيشته مع حاشيته أزمةً شديدة، وكانت عليه ديون لأصحاب الدكاكين الذين كانوا يبيعونه بالنسيئة ويصبرون عليه، فلما مات قاموا يطالبون بحساباتهم وطلبوا تأخير نقل الجثة من سان ريمو، حتى يكونوا استأدوا أموالهم فبقيت الجثة في سان ريمو أسبوعين أو ثلاثة رهنًا، حتى يأتي من آل عثمان من يؤدِّي الحسابات التي كانت على السلطان المُتوفِّي! وفي ذلك الوقت قال لي سمو الخديوي السابق: إن هذا عار على الإسلام وكان من الواجب أن يتبرَّع ذوو الحمية من المسلمين بالمبلغ الباقي على السلطان المرحوم حتى يتيسَّر نقل جثمانه إلى الشام لدفنه فيها كما أوصى بذلك. فقلت له: ومن أوَّلَى منك بهذا الأمر؟ فذكر لي محذورًا سياسيًا يمنعه من التظاهر بهذه القضية، وأشار بأن أكتب إلى سمو الأمير عمر طوسون الذي هو المفزَع للإسلام عند كلِّ حادثة، فكتبت إلى الأمير المشار إليه ولا شكَّ أنه لم يكن ليتأخر عن الواجب، ولكن في أثناء ذلك جاء الخليفة عبد المجيد ابن عمِّ السلطان وحيد الدين من بلدة نيس التي يُقيم بها، وأدَّى المبلغ الباقي لأصحاب الحسابات، وهكذا تمكَّن من شحن جثة السلطان إلى دمشق؛ حيث دُفنت في التكية السليمانية.

ومن هنا يعلم القارئ أن السلطان وحيد الدين كان خالي الوفاض، وأنه لو كان خائنًا لأمته كما يتشدد بعض الناس الذين يهرفون بما لا يعرفون، وكان خادماً لأغراض إنجلترا كما يزعمون لكانت إنجلترا تقوم بنفقاته وتكفي أهله تلك الإهانة التي وقعت بإبقاء جثته رهينة مدة ثلاثة أسابيع على حسابات دكاكين سان ريمو.

ومما تحقّقتَه والحال تؤيِّده أنه لما برح السلطان وحيد الدين الآستانة، وكان الذي في يده من المال نَزْرًا لا يكفيهِ أن يعيش سلطانًا، بل لا يكفيهِ أن يعيش كسائر الناس مدّة طويلة مَكْفِيًا قُوت يومه، أشار عليه بعض أعيانه بقوله: إنك تقدر أن تأخذ بعض قِطْع من جواهر التاج المحفوظة في خزانة سراي طوبقوب، والتي فيها من النفائس ما يقوم بعدّة ملايين من الجنيّات، وأنت معذور في ذلك حتى تتمكّن من معيشتك في الغربة بالمقدار الضروري. فقال له السلطان وحيد الدين: «ابن بويله خرسزلق ياپم.» أي لست أنا مَنْ يرتكب هذه السرقة، وهذه الرواية مُؤيِّدة بواقع الحال؛ إذ لو شاء السلطان وقتنّذ أن يأخذ شيئًا من تلك النفائس ما كان أحد يقدر أن يمنعه، ولكنه أبى لنفسه أن يلوّثها بفعلته كهذه؛ «والحرُّ حرٌّ ولو مسّه الضرُّ.» وكلُّ يذكر أن إحدى نساءه جاءت إلى مصر وبلغ منها الفقر مبلغًا أن قذفت بنفسها في النيل لتخلص من هذه الحياة، وأن أناسًا أدركوها فانتشلوها ووَضعت في المستشفى.

ومن قصائد شوقي البديعة ما خاطب به أمّ الخديوي السابق التي كان يُقال لها أمّ المحسنين بعد نهضتها تلك في حرب طرابلس الغرب:

أرفعي السُّنَّ وحَيِّي بالجبين	وأرينا فلق الصبح المبين
وقفي الهُودج فينا ساعة	نقتبس من نور أمّ المحسنين
واتركي فضل زماميه لنا	نتناوب نحن والروح الأمين
قد سقيننا بمحيّك الحيا	ولقينا حول يُمنّك اليمين

ثم يقول:

يا مثلاً للعقيلات العُلا	وكمالاً لنساء العالمين
جارة الإسلام في محنّته	علمي الجارات ممّا تعلّمين
نكّريهن فروقًا وصفي	طلعة الخيل عليها والسفين
ووليًا للطواغيت بها	كان يدعى بأمر المؤمنين

يقول لها وهي راجعة من الآستانة إلى مصر لتتحدث عن حال الآستانة، وهنا تكلم في السلطان وحيد الدين بما كان وقتنّذ شائعًا ورائجًا من أنه خان أمّته ومالاً الإنجليز عليها، وما أشبه ذلك من الأقاويل التي كان يذيعها الكماليون وكانت تُنشر في الخلق،

وتجد هوىً في نفوسهم لشدة ما عانى أهل مصر وأهل الشرق أجمع من ظلم الإنجليز، وما وقر في قلوب الناس من بُغضهم.

وحقيقة الحال هي ما ذكرناه من كون السلطان محمد السادس إنما غلب عليه الخوف واعتقاد أنه إن خالف الإنجليز لم ينفعه نصيرٌ في العالم، وقد يخرجونه من الأستانة ويعيدونها إلى الأروام. ومَنْ كان في ذلك الوقت يعتقد أن الإنجليز سيبرحون الأستانة أو أن الحركة الوطنية في الأناضول ستؤول إلى نجاح؟ بل رجال تلك الحركة أنفسهم كانوا يقولون إنهم لا يريدون أن يسلموا تركيا بثمن بخس؛ أي إنهم لا يأملون الفوز لكنهم يريدون ألا تذهب بلادهم رخيصة، وهناك أمور نحب أن تبقى مطويةً على غرّها وأسماء أشخاص هم على رأس تركيا اليوم كانوا قطعوا الأمل من استقلالها إلى حدٍّ أنهم أجمعوا على وجوب جعلها تحت انتداب إحدى الدول العظام، لكنهم اختلفوا في الدولة التي يجب أن تكون مُنتدبة عليها؛ فبعضهم أشار بإنجلترا والآخرين أشاروا بأمريكا، وتوجد وثائق خطية تُثبت كَوْن هؤلاء الذين يُدبرون تركيا اليوم لا غيرهم قد وصل بهم اليأس إلى أن أشاروا بجعل تركيا تحت انتداب إحدى الدول العظام، وهي تلك المملكة التي كانت بالأمس إحدى الدول السبع العظام اللواتي إليها الحلُّ والعقد في العالم، فلا نعلم بعد هذا وجه التشدق والتنطق في حق السلطان وحيد الدين وتخصيصه باليأس دون سواه وقد كانوا بأجمعهم يائسين.

يرى القارئ أننا في التعليق على قصائد شوقي التاريخية لم نستنكف أن نعرِّج على التاريخ ولو بصورة مُجملة أو بإشارات خفيفة؛ وذلك لأن الشعر التاريخي يحتاج أحياناً إلى تفسير يقوِّيه ويجلي بداعة نكته. ومع هذا فلو شئنا أن نتوسّع في هذه المواضع التي طرّقها شوقي في شعره لاستهدف لنا غرض لا ينتهي وعرضت تفاصيل لا تنقضي، ونحن كل ما أردناه إنما هو الإتيان بالمختار والسائر على ألسن الناس من شعر شوقي، وما نراه نحن من شعره منيفاً على غيره، فإن للناس أدواقاً مختلفة وقد يرى الواحد ما لا يرى الآخر، وفي عرض هذه الشواهد قد تعنُّ لنا ملاحظة فنُديها على غير أطراد، وبدون أن نتخذ ذلك قاعدةً، وبدون أن نخوض في نحوٍ ولغة وبيان وبديع وعروض إلا ما عرض اتفاقاً، فليس ما علقناه على هذه الشواهد من شعر أمير الشعراء شرحاً ولا تفسيراً؛ إذ لو توخَّينا ذلك لطلال بنا الأمر وخرجنا عن الخطة التي ترسّمناها في عملنا هذا الذي هو عبارة عن عهد بين صديقين وذمة بين أخوين.

## شوقي

وإني لأخجل من نفسي إذا رأيتني قصرت فيما يجب عليّ نحو شوقي بعد وفاته، وإني لأتخيل شوقي — وهو الذي يقول كما جاء في جريدة كوكب الشرق: إني أحد أصحابه الثلاثة الذين لا يعزُّ أحدًا عليهم — قد نظر إليّ من برزخه وأطلّ عليّ من نافذة الغيب وحدّق بي بعيونه تلك التي كان يقول فيها صديقنا الشيخ علي اللبثي: «محاجر مسك ركبت فوق زئبق.» وقال لي: أهكذا ضمننتني يا أخي بعد وفاتي؟ وإنه في تلك الساعة قد ينشدني قول أبي العتاهية:

سيعرض عن ذكري وتنتسى مودّتي      ويحدثُ بعدي للخليل خليلُ  
إذا ما انقضت عني من الدهر ليلة      فإن بكاء الباقيات قليلُ

فأبدأً أجيبه قائلاً: لو نسي عهدك الأولون والآخرين لما خفرتُ لك عهدًا ولا مذقت لك وُدًا، وإنك في الغيب عندي لكما في المشهد، وأنت تعلم أنها صداقة أربعين سنة تساقينا كئوسها صفواً بدون قذى وتبادلنا رياحينها عفواً بدون أدنى.  
فإن أظماً عهدك النسيان في مدامع ترويه، وإن شطّط بشعرك النوى فإن الدهر كلّه يرويه، وإنه بكاك الناس حباً بالأدب ورحمة للسان العرب، فإنني لأبكيك بصفتين: صفة الأديب البرّ بلغته الغيور على صناعته، وصفة الأخ الضنين بأخوته الحريص على مروءته، فأنا في مقدمة من لك من الإخوان والأتراب الذين يبكون فضلك ويذكرون عهدك إلى أن يُواروا في التراب.

نقلنا هذه الشواهد من الطبعة الأولى من الشوقيات وهي التي فيها المقدمة التي بقلم شوقي، ومن الطبعة الثانية التي مقدمتها، وأظن تفسيرها، بقلم الدكتور محمد حسين هيكل، وكما أهداني شوقي الطبعة الأولى بخطّ يده فقد أهداني الطبعة الثانية أيضاً بخطّ يده وكتب عليها هذه العبارة:

إلى مولاي وصديقي الكريم الأمير شكيب أرسلان.

المخلص شوقي

٣٠ أبريل سنة ١٩٢٦

فسلامًا يا أخي ومولاي ونور عيوني وتحيّة طيبة، والله أسأل أن يجعلنا أخوين في عالم الغيب كما كنّا في عالم الشهادة، ولا يجعلها بيننا آخر معهد.

ومن رقيق شعر شوقي:

ليل عداد نجومه رُقباء  
ما للهموم وما لها إرساء  
ومن السهاد لو التفت شفاء  
سال العقيقُ به وقام الماء  
إلاً وطيفك في الكرى العنقاء  
فخلون منك ونابت الأقداء  
مما أفصنَّ وعلت الأهواء

لا السر يطويه ولا الإغضاء  
داجى عباب اليمِّ فوضى فلكه  
أغزالة الإشراق أنت من الدجى  
رفقاً بجفن كلاً ما أبكىته  
ما مدَّ أهداباً ليصطاد الكرى  
كان القرير وكنت زهو عروشه  
وخسرتهن لياليا نهل الصبا

وله من قصيدة إلى الجناب الخديوي:

وأن تدعي شرقاً وأن تدعي غرباً  
بهرن بها من حيث كُنَّ لها حجباً  
وما زالت الدنيا لضرَّاتها حرباً  
بموسى وأعوى بابن مريم الطُّبأ  
من الشكر لم تترك لذي منطِق ريباً  
تركت السهى حيران في بابه صبا  
تسير على التيجان تسحبه سحبا  
أظللُّ بها آباؤك العجم والعربا  
وأسكار والمختار في قومه الندبا  
وجم الثنا زادا وشم العلى صحبا  
وناجى الثرى نعليك يستوهب الخصبا  
فلو حُيرت لاخترن أذياك القشبا  
أحق بها والمهد أولى بمن ربى

وشمس تعالت أن تنار وأن ترى  
وما جلَّت الأضواء عنها وإنما  
أغرِن بها الدنيا هوى فتغيَّرت  
رمى بي القوافي مَنْ رَمى السحر قبلها  
فأسمعت عباس الندى كل آيه  
فتى الملك ما هذا السموُّ ببيته  
لك العرش والتاجان والمطرف الذي  
وملك عريق في الوجود ودولة  
ولمَّا أتيت القيصرين ويوسفا  
تخذت إليهم عالي الذكر مركبا  
وقيل ابن رب النيل فافترت القرى  
وطالت عروش المالكين تشرُّفاً  
ولكن عرشاً تحته النيلُ جارياً

ومن شعره في الخديوي:

وبت تذكرني اللذات والطرب  
يُرام فيه ويقضي للعلا أرب

صحوت واستدركتني شيمتي الأدب  
وما رشادي إلا لمع بارقة

دعت فأسمع داعيها ولو سكتت  
وهكذا أنا في همِّي وفي هممي  
دعوت أسمعها والحر ينتدب  
إن الرجال إذا ما حاولوا دأبوا  
لا حيث تجعلها الأحداث والنوب

كُلُّ مَنْ يقرأ هذه الأبيات يلحظ أن شوقي أراد به معارضة محمود سامي في قصيدته  
البائية التي يقول فيها:

سواي بتحنان الأعراب يطرب  
وما كنت ممن تأسر الخمر لبه  
ولكن أخو همُّ إذا ما ترجَّحت  
نفى النومَ عن عينيه نفسُ أبية  
بعيد مناط الهمِّ فالغرب مشرق  
له غدوات يتبع الوحشُ ظلَّها  
همامة نفس صغرت كلَّ مأرب  
ومن تكن العلياء همّة نفسه  
إذا أنا لم أعطِ المكارم حقَّها  
ولا حملت درعي كميّت طمرة  
أسيرُ على نهج يرى الناس غيره  
فلست لأمرٍ لم يحنُ متوقِّعاً  
خُلقت عيوفاً لا أرى لابن حرّة  
وإني إذا ما الشك أظلم ليُّه  
صدَّعتُ حفاقي طرّتيه بكوكب  
ونقع من الهيجاء خضت عبابه  
تظلُّ به حُمُر المنايا وسودها

وغيري باللذات يُلهى ويعجب  
ويملك سمعيه اليراع المثقّب  
به سورة نحو العُلا راح يدأب  
لها بين أطراف الأسنّة مطّلب  
إذ ما رمى عينيه والشرق مغرب  
وتغدو على آثارها الطير تنعب  
فكلفت الأيام ما ليس يُوهب  
فكلُّ الذي يلقاه فيها مُحبّب  
فلا عزّني خالٌ ولا ضمّني أب  
ولا دار في كفي سنان مذرب  
لكلِّ امرئٍ فيما يحاول مذهب  
ولستُ على شيء مضى أتعتّب  
لديّ يداً أغضى لها حين يغضب  
وأمتت به الأحلام حَيْرى تشعب  
من الرأى لا يخفى عليه المُغيّب  
ولا عاصم إلا الصفيح المشطب  
حواسرَ في ألوانها تتقلّب

وقد عارض محمود سامي بقصيدته هذه قصيدة الشريف الرضي التي أولها:

لغير العُلا منِّي القلى والتجنّب  
ولولا العُلا ما كنت في الحبّ أرغب

ومع جلالة قدر الشريف الرضي وعلو كعبه في الشعر وفحولة لغته التي ينزع بها عرق الهاشمية الكريم ومجدها الصميم، لا يقدر أحدٌ أن يقول إن البارودي قصر عن الرضي في شيء بل ربما أناف عليه، ولمثل قصيدة البارودي هذه وأشباهاها صرحت بأنه سيد الشعراء في وقته وقلت في رثائه:

كان الأوائل في الأنظار معجزة حتى أتى فتأى من جد من قدما

ولا شك أن شوقي لا يرقى في الجزالة وعلو النفس إلى هذه السماء، ولكن له أسلوب آخر كما تقدّم الكلام عليه طابعه السلاسة ومزيتة الرقة، وانظر الآن إلى قوله:

أوشكت أتلّف أقلامي وتلّفني همو رأوا أن تظللّ القضب مُغمّدة رَضِيْتُ لو أن نفسي بالرَضَى انتفعت نالت منابر وادي النيل حصّتها وملعب كمعاني الحلم لو صدقت تدفّق الدهر باللذات فيه فلا وجاملت عصابة يحيا الوفاء بهم باتوا الفراقد لألاء وما سفروا وأسعدت مشرفات من مكامنها مستأنسات قريرات بأخبية ما بين حام يهاب الجار ساحته وغادة من بنات الأيك ساهية قريرة العين بالدنيا مروعة وتبرح الفرع نحو الفرع جاذبة	وما أنلت بني مصر الذي طلبوا فلن تُذيب سوى إغمادها القضب وكم غضبتُ فما أدناني الغضب منّي ومن قبل نال اللهو والطرب وكالأمانيّ لولا أنها كذب عنها انصراف ولا من دونها حجب فهم جمال الليالي أو هم الشُّهْب عليه والبان أعطافاً وما شربوا حمر المناقير في لبّاتها ذهب من سندس الروض لم يمدد بها طنب وناشئ يزدهيه الطوق والزغب ما تستفيق وأخرى همّها اللعب بالأسر تضحك أحياناً وتنتحب بالغصن فالفرع نحو الفرع مُنجذب
--	---

وهنا أراد شوقي أيضاً أن يعارض محمود سامي فيما بقي من قصيدته البائية التي أوردنا ما أوردنا منها، وفي قصيدة رائية يتكلم بها عن الحمام.

وإليك ما قال محمود سامي في قصيدته البائية هذه ممّا تعلم منه أن شوقيّاً أراد أن يجري مجراه، ولكنه جرى ضمن أسلوبه وعلى شاكلة لغته، قال محمود سامي:

كذلك دأبي في المراس وإنني      لأمرح في غيِّ التصابي وألعب  
وفتيان لهو قد دعوت وللكرى      خباء بأهداب الجفون مُطنَّب

ما مررت في حياتي بجملة أعلى في درجة البلاغة وأبدع في التصوير من قوله «وللكرى خباء بأهداب الجفون مُطنَّب.» وكيف لا يكون شاعر الأولين والآخرين من يغزي هذا الغزي؟ ثم يقول:

إلى مربع يجري النسيم خلاله      بنشر الخزامى والندى يتصبَّب  
فلم يمض أن جاءوا مُلبّين دعوتي      سراعاً كما وافى على الماء ربرب  
بخيل كآرام الصريم وراءها      ضواري سلوق عاطل وملبب  
من اللاء لا يأكلن زاداً سوى الذي      يضرّسنه والصيد أشهى وأعذب  
نرى كلَّ محمّر الحماليق فاغرٍ      إلى الوحش لا يألُو ولا يتنصَّب  
يكاد يفوت البرق شدّاً إذا انبرت      له بنت ماء أو تعرّض ثعلب  
فملنّ إلى وادٍ كأنّ تِلاعه      من العصب مَوْشِيّ الحباك مُذهَّب  
تُراح به الآمال بعد كلالها      ويصبو إليه ذو الحجا وهو أشيب  
فبيننا نرود الأرض بالعين إذ رأى      ربيئتنا سرباً فقال ألا اركبوا  
فقمنا إلى خيل كأنّ مُتونها      من الضمر خوط الضيمران المُشدَّب  
فلما انتهينا حيث أخبر أطلقت      بُزاة وجالت في المقاود أكلب  
فما كان إلّا لفتة الجيد أن غلّت      قُدور وفار اللحم وانفضّ مارب  
وقلنا لساقينا أدبرها فإنما      قُصارى بني الأيام أن يتشعبوا  
فقام إلى راقود خمر كأنه      إذا استقبلته العين أسود مُغضب  
يُمجُّ سُلafa في إناء كأنه      إذا ما استقلّته الأنامل كوكب  
فلم نأل أن دارت بنا الأرض دورة      وحتى رأينا الأفق ينأى ويقرب  
إلى أن تولى اليوم إلّا أقله      وقد كادت الشمس المنيرة تغرب  
فرحنا نجرّ الذيل تيهاً لمنزل      به لأخي اللذات واللهو مَلعب  
مسارح سگير ومربض فاتك      ومخّذع أكواب به الخمر تُسكّب



أمثال من شعر شوقي

فلما رأنا صاحب الدار أشرق  
وقال: انزلوا يا بارك الله فيكمو  
أساريه زهواً وجاء يُرحب  
فما زال حتى استل منه سبيكة  
فعندي لكم ما تشتهون وأطيب  
فيا حسن ذاك اليوم لو كان باقياً  
من الخمر تطفو في الإناء وترسب  
ويا طيب هذا الليل لو دام طيباً

لا جرم أن هذه هي الفصاحة التي تأخذ بمجامع اللبِّ، وتفكُّ أغلال القلب، والتي من أجلها قال مصطفى صادق الرافعي، إن شعر محمود سامي هو الذي بعث الشعر في الناس وأنجب لمصر مثل حافظ وشوقي.

فأما ما عارض به شوقي محمود سامي من وصف الحمام فهو يشير إلى رائية محمود سامي التي عارض بها أبو نواس عندما مدح الخصب أمير مصر، قال أبو نواس:

أجارة بيتينا أبوك غيور  
وميسور ما يرجى لديك عسير

فقال محمود سامي:

أبى الشوق إلا أن يحنَّ ضمير  
وهل يستطيع المرء كتمان لوعة  
وكلُّ مَشُوق بالحنين جدير  
خضعت لأحكام الهوى ولطالما  
ينمُّ عليها مَدْمَع وزفير  
أفُلُّ شِباة الليث وهو مُناجز  
أبيت فلم يحكم عليَّ أمير  
ويجزع قلبي للصدور وإنني  
وأرهبُ لحظَّ الرِّيم وهو غرير  
وما كلُّ مَنْ خاف العيونَ يراة  
لدى البأس إن طاش الكمي صَبُور  
ولا كلُّ مَنْ خاض الحُتُوفَ جَسُور

إلى أن يقول:

ويا ربَّ حيِّ قد صَبَحْتُ بغارةٍ  
تكاد لها شمُّ الجبال تَمُور

وقد كان أبو نواس خرج من بغداد قاصداً مصر ليمدح أبا نصر الخصب بن عبد الحميد صاحب ديوان الخراج بها، فأنشده القصيدة وذكر المنازل التي مرَّ عليها في طريقه، وهي من أركى ما أثمر الشعر العربي ومن مشهور أبياتها:

تقول التي من بيتها خفَّ مَحْمَلي  
عزیز علينا أن نراك تَسِير  
أما دون مصر للغنى مُتَطَلَّب  
بلى إن أسباب الغنى لكثير

فقلت لها واستعجلتها بواذر  
ذريني أكثر حاسديك برحلة  
إذا لم تزر أرض الخصب ركابنا  
فما جازه جود ولا حلّ دونه  
فتى يشتري حُسن الثناء بماله  
جرت فجرى من جريهن غدير  
إلى بلدة فيها الخصب أمير  
فأى فتى بعد الخصب تزور  
ولكن يصير الجود حيث يصير  
ويعلم أن الدائرات تدور

ومنها:

فمن كان أمسى جاهلاً بمقالتي  
وما زلت توليه النصيحة يافعاً  
إذا غاله أمرٌ فإمّا كفيته  
فإن أمير المؤمنين خبير  
إلى أن بدا في العارضين قدير  
وإمّا عليه بالكفى تُشير

ثم يقول:

زها بالخصب السيف والرمح في الورى  
جواد إذا الأيدي قبضن على الندى  
فإني جدير أن بلغتك للغنى  
فإن تولني منك الجميل فأهله  
وفي السلم يزهو منبر وسرير  
ومن دون عورات النساء غيور  
وأنت لما أمّلت منك جدير  
وإلا فإنني عاذرٌ وشكور

ويقال إن أبا نواس لما عاد إلى بغداد مدح الخليفة فقال له: وأي شيء تقول فينا وقد  
قلت في بعض نوابنا:

إذا لم تزر أرض الخصب ركابنا  
فأى فتى بعد الخصب تزور  
فأطرق قليلاً ثم رفع رأسه وأنشد:

إذا نحن أثنينا عليك بصالح  
وإن جرّت الألفاظ منا بمدحة  
فأنت كما تُثني وفوق الذي نثني  
لغيرك إنساناً فأنت الذي تُعنى

هكذا روى ابن خلكان في وفيات الأعيان وقد روى ابن خلكان أيضاً معارضة لهذه القصيدة النواسية لأبي عمرو بن محمد بن دراج القسطلي الأندلسي كاتب المنصور بن أبي عامر وشاعره، وهذه المعارضة هي من غرر الشعر ومن أبدع أمثلة الأدب العربي، قال ابن دراج:

ألم تعلمي أن الثواء هو التوى  
تخوفني طول السفار وإنه  
دعيني أردد ماء المفاوز أجناً  
فإن خطيرات المهالك ضمن  
وأن بيوت العاجزين قبور  
لتقبيل كف العامري سفير  
إلى حيث ماء المكلمات نمير  
لراكبها أن الجزاء خطير

ومنها في وصف وداعه لزوجته وولده الصغير:

ولما تدانت للوداع وقد هفا  
تناشدني عهد المودة والهوى  
عبي بمرجوع الخطاب ولحظه  
تبواً ممنوع القلوب ومهدت  
فكل مفدأة الترائب مرضع  
عصيت شفيح النفس فيه وقادني  
وطار جناح البين بي وهفت بها  
لئن ودعت مني غيوراً فإنني  
ولو شاهدتني والهواجر تلتظي  
أسلط حرّ الهاجرات إذا سطا  
وأستنشق النكباء وهي لواقح  
وللموت في عين الجبان تلون  
لبان لها أني من البين جازع  
أمير على غول التناثف ماله  
ولو بصرت بي والسرى جل عزمي  
وأعتسف الموماة في غسق الدجى  
بصبري منها أنة وزفير  
وفي المهد مبغوم النداء صغير  
بموقع أهواء النفوس خبير  
له أذرع محفوفة ونحور  
وكل محياة المحاسن ظير  
رواح لتداب السرى وبكور  
جوانح من زعر الفراق تطير  
على عزمتي من شجوها لغيور  
علي ورقرق السراب يمور  
على حرّ وجهي والأصيل هجير  
وأستوطئ الرمضاء وهي تفور  
وللذعر في سمع الجريء صفير  
وأني على مض الخطوب صبور  
إذا ريع إلا المشرفي وزير  
وجرسي لجنان الفلاة سمير  
وللأسد في غيل الغياض زئير

## شوقي

وقد حَوَّمت زُهر النُّجوم كأنَّها      كواكب في حُضْر الحقائق حور  
وقد خيَّلت طُرُق المَجْرَة أنها      على مَفْرِق الليل البهيم قَتِير  
وثاقب عَزْمي والظلام مُرَوِّع      وقد غَضَّ أجفان النجوم فُتُور  
إذن أيقنتُ أنَّ المنى طَوْع همَّتي      وأني بعطفِ العامريِّ جدير

وأحسن ما في هذه القصيدة قوله في علوِّ الهمة:

دَعيني أَرِدْ ماءَ المفاوز أجنا      إلى حيث ماء المكرمات نَمير  
فإنَّ خطيرات المهالك ضَمْنُ      لراكبها أنَّ الجزاء خطير

وقوله في وصف الطفل وقد فارقه أبوه وهو في سريره، وكلُّنا قد عرف لَوْعة هذا  
الفراق:

عيِّي بمرجوع الخطاب ولحظه      بموقع أهواء النفوس خبير ... إلخ

وممَّا استولى فيه على الأمد وصفه مشاقَّ السفر وقطع الفيافي في حرِّ الهواجر وذلك  
عند قوله:

ولو شاهدتني والهواجر تلتظي      عليَّ ورقراق السراب يَمور

... إلخ.

فقصيدة ابن دراج القسطي تصحُّ أن تكون ضَرَّةً لقصيدة أبي نواس وإن كان في  
شعر ابن دراج شيء من الصنعة، وكان شعر أبي نواس أقرب إلى الطبيعة، وكلُّ منهما في  
نظري ليست أبرع ولا أنق ولا ألعب بالألباب من قصيدة البارودي التي فيها من النسيب  
واللهو والشراب ووصف الحمام إلى الفخر إلى الحماسة ما ليس وراءه مُتَطَلِّع.  
ولحمود سامي جولة أخرى في وصف الحمام في القصيدة التي بعث بها إليَّ من  
سيلان؛ إذ فيها يقول:

وترنَّمت فوق الأراك حمامة      تصف الهوى بلسان صبِّ مولع  
تدعو الهديل وما رأته وتلك من      شيم الحمام بدعة لم تُسمَع

أمثال من شعر شوقي

رِياً المسالك حيث أمتَّ صادقتَ      ما تشتهي من مجثمٍ أو مرثع  
فإذا علت سكنت مظلةً أَيْكةً      وإذا هوت وردت قرارة منبع  
أملتُ عليّ قصيدة فجعلتها      لشكيب تحفةً صادقٍ لم يدع

فأنت ترى إذا أنعمت النظر في أبيات محمود سامي التي يصف بها الحمام، ثم كررت بنظرك على أبيات شوقي من عند قوله:

وأسعدت مشرفات من مكامنها      حُمر المناقير في لبّاتها ذهب

إن شوقي أراد أن يُعارض شيخ الشعراء في وقته، وإن كلاً منهما قد بلغ شأوَ الإجابة ضمن دائرة ديباجته.

وهذه القصيدة البائية لشوقي هي من عيون قصائده، وهي التي فيها يقول:

والصدق أَرْفَعُ ما اهتَزَّ الملوك له      وخير ما عودَ ابناً في الحياة أب  
وإنما الأئمُّ الأخلاق ما بَقِيَتْ      فإن هموُ ذهبِ أخلاقهم ذهبوا

أليس هذا هو البيت الذي سار مسير القمر، وصار حديث السمر، وأصبح مثلاً مضرّوباً يُستشهد به كلُّ يوم، ويدور على ألسن العوامِّ فضلاً عن الخواصِّ، فلو لم يكن لشوقي غيره لأخلده، ومن أرقِّ أغزال شوقي:

لي الله ما أَعَزَى الغرام بمهجتي      وأهدي لأقمار المنازل مُقلتي  
بدور أتاني من مطالعها الهوى      فما أوقعتني فيه حتى استسرت  
فبتُّ يريني الوهم في الجوّ سلماً      ومن لي في سُكنى السماء بجيلتي  
خليليّ مالي بالديار مُوكِّلاً      أروح لإتلافي وأعدو لفتنتي  
طرقت فتاة الغرب والليل مُقبل      طروق ابن آوى من حذار ورقبة  
فقال عجوز يا أبا الشوق إنها      تخاف أباهاً فأثتها بعد هجعة  
سيسأل عنها الساهرون على الحمى      ويسمع عنها نسوة في المدينة  
فقلت هَبِيبها مريمًا أنا يوسف      تعالَى ضميري أن يهَمَّ بريبة  
أبت لي الدنيا عزةً عربية      ودين يرى الفحشاء شرّاً ذريعة  
فلا رَجِمَ الرحمن بعدَ كُثَيِّر      محبّاً ولا صلّى على غير عزة

يودُّ من الأرواح ما لا تودُّه  
 نمير تواليه المحاسن وردًا  
 مروع بالمام النسيم مروع  
 إذا استلَّه في أنسه أو نفااره  
 وإن هزَّ أعطافًا فما مركز القنا  
 خذوه بنفسي إنه هو قاتلي  
 ولا تسألوه ما ذنوبي واسألوا  
 ولا تذكروني عنده بشفاعة  
 فإن يك فيما يزعم الناس قد سلا  
 لجافي الذي لم يعرف السهد جفنه  
 وقاطعني مَنْ كنت أرجو وفاءه  
 ويفتك فيها مُسرِّفًا وهي جنده  
 وتنهل منه النفس لو راق ورده  
 بماض خفيف ينزع اللب حده  
 فكلُّ فؤاد في البريَّة غمده  
 بأشقى من الأكباد فيهنَّ قده  
 ولا تقتلوه إنني أنا عبده  
 قبول متابي قبل ذنب أعدّه  
 فإن شفيح الواجد الصبَّ وجدّه  
 فما بال قلبي عنده لا يرده  
 ولم تدرِ تقليب المضاجع كبده  
 وأين أخو الودِّ الذي دام ودّه

## (١) دفع اعتراض

ربما يعترض بعض القراء على سردي هذه الأمثال من شعر شوقي من دون أن أعلِّق عليها ما يعنُّ لي فيها، وما أجد من محلِّ اعتراض أو من مكان إعجاب، والجواب أنني لو شئت أن أردف كلَّ بيت بما يبدو لي فيه لاستغرق ذلك أجلاً، والحال أننا من البدء ما قصدنا شرح شعر شوقي ولا التعليق عليه بما يبدو لنا في كلِّ بيت منه، وإنما هي رسالة توحَّينا فيها تجديد ذكرى شاعرٍ كبير وتسجيل علاقاتنا مع أخٍ قديم إنجازاً لوعده قطعناه على نفسنا يوم فُجعنا به، والإخاء إخاء في الحياة وبعد الممات، وعلى اللاحق أن يحفظ عهد السابق، وأراني قد أشفقت على عهد شوقي أن يُنسى، وتخيَّلت روحه من وراء الغيب تتشذني:

سُيعرض عن ذكرى وتُنسى مودَّتي  
 إذا ما انقضت عني من الدهر ليلة  
 ويحدث بعدي للخليل خليل  
 فإن بكاء الباكيات قليل

ولما كانت ذكرى شاعر كبير لا بدّ من أن تُسدى وتلحم بالشعر، فقد أوردنا ما أوردناه من الشواهد لا على سبيل شرح ولا على نيّة تفسير، ولكن إن خُطرت في بالنا جملة أرسلناها عفواً أو عدّت ملاحظة يروق الأدباء قيدها لم نجمم بها، وسنتبع هذه الطريقة إلى الآخر.

## رأي للمؤلف

فأما أسلوب التحليل الذي درج عليه بعض أدباء هذه الحقبة الأخيرة من هذا العصر يذهبون فيه مذاهب الإفرنج لا في المعنى فقط بل باللفظ تقريباً، ويورد الواحد منهم البيت فيأخذ بتشريحه من وجهه ومن قفاه ومن أسفله ومن أعلاه، ويشير إلى ما هنا من عاطفة جريئة، وما هناك من ابتسامه بريئة، ويستعمل في الوصف تلك الألفاظ الأوروبية التي ليس فيها من العربي إلا الحروف، بحيث إن كثيراً من العرب لا يفهمون منها قليلاً ولا كثيراً فلسنا من هذا الأمر في قبيل ولا دبير. وإننا لا نحب أن نخلط العربي بالأعجمي ولا أن نخاطب العرب إلا بما يعقلون ويشعرون وما تسيغه أذواقهم، فإن لكل أمة أدباً ولكل قوم مشرباً، وإن الخلط بين شعبان ورمضان إظهاراً لسعة العلم وتزيّداً بما ليس من مقتضى الواقع ليس بطريقتنا، وإننا نؤثر على ذلك أن نكتب مثل هذه الفصول التحليلية بلغة أوروبية رأساً كما يفعل المستشرقون الأوروبيون إذا أخذوا كتاباً عربياً فشرعوا في تحليله، نعم نؤثر الكتابة بلغة أوروبية في هذا الموضوع على أن نباشر هذا التحليل بجمل أوروبية في حروف عربية يمشي فيها القارئ مرحلة وكأنه واقف مكانه لعدم ألفته بهذه الألفاظ المترجمة وبهذه الأعلام التي هي غريبة عن قومه.

فالذي يحمل نفسه على قراءة هذه التحليلات التي نحاول أن نجري فيها مجرى كتاب الأوروبيين تراه أبداً يشرب ولا يرتوي. ومن الناس من يظن عدم عقله لها ناشئاً عن مجرد جهله والحقيقة ليست كذلك بل إنها من باب وضع الشيء في غير محله، لا بأس في الأحيان في أن يُورد الكاتب في تحليله لبيت من شاعر عربي معنى قد توارد عليه مع شاعر أجنبي أو ملاحظة ظهر فيها شيء من الموافقات أو المفارقات بين أدبنا وأدبهم، فأما اتخاذ هذا الأسلوب دأباً ودَيْدناً كلما أردنا أن نصّف بيتاً لطرفة بن العبد أو قصيدة للأعشى لزمنا أن نفحم فيها فيكتور هوغو وألفرد ديموسيه ولامرتين وغوته وشكسبير، وأن نكثر على قرء العرب من سرد أعلام لا يعلمون عنها شيئاً تقريباً، فهذا تنطع بالفارغ وتحذلق غير سائغ والأولى بنا أن نراعي قبل كل شيء الذوق العربي، وأن نستشهد بأدباء العرب ونعلم أنه كما كان العربي يعاف طعام الأمم الأجنبية وشرابهم،

فإنه لا يتسوغ بالسهولة أشعارهم وأدابهم، وليس الشعر والأدب ميكانيكيات ومواد، يستوي فيها العربي والعجمي، وقد فات الناس أن الشعر هو شيء والعلم شيء آخر، فلو فكروا ملياً في هذا الأمر لأراحوا أنفسهم مما يعانونه هم ويعانيه قراؤهم معهم.

## (٢) عود إلى غرر شوقي

ومن غزل شوقي — عفا الله عنه:

عرضوا الأمان على الخواطر	واستعرضوا السمر الخواطر
فوقفت أحذرهم وياً	بى القلبُ إلا أن يخاطر
يا قلب شأنك والهوى	هذي الغصون وأنت طائر
إن التي صادتك تر	عى بالقلوب لها النواظر
يا ثغرها أنا فيك كالم	غواص أحلم بالجواهر
يا لحظها من أمها	أم من أبوها في الجآذر
يا خصرها لي منك في	ليل الهوى وهم مسامر
يا ردفها بالله كُن	بعريض جاهك لي مؤازر
يا شعرها لا تسع في	هَنُكي فشأن الليل سائر
يا قدّها حتّام تغدو	عادلاً وتروح جائر
مولاي عبدك ما غوى	لكنّها خطرات شاعر
عفوًا فلست بأول	في ذا المقام ولا بآخر

ومن مرقص أشعار شوقي قصيدة في الخديوي منها:

نفدي المسافر والسفر	والأقربين من النفر
وركابهم لما مَشى	وقطارهم لما صفر
ومسيرهم بين السلا	مة والكرامة والظفر
وقدومهم إسكندريّ	ة والإياب المُنتظر
وظلوعهم والصبح في	ها بالحجول وبالغمر
قل للعباد هو الهلا	ل وللبلاد هو المطر
في زمة الآيات رح	لته وفي حفظ السور



ملك أبوه محمد      لا غرّو أن يقفو الأثر  
من في السراة سواك تج      لوه المنازل كالقمر  
وتحلّه في ثغرها      يومًا، ويومًا في البصر  
ولقد أقول إذا بلغ      ست بلثم راحتك الوطر  
يا روض هل لك في الشدى      يا بحر هل لك في الدرر

ومن قصائده فيه:

بصوتك حاجبنا الممالك والعصرا      وقلنا فباتت مصر في مجدها مصر

ومنها:

سندعو بني الدنيا إلى النيل دعوة      تلون منها الجاه والنائل الغمرا  
وملگًا كما تهوى الأحاديث عاليًا      كأن الخديوي فيه قيصر أو كسرى  
فتمرح في أيامه النفس حرّة      تناولها قشبا وتلبسها خضرا

### (٣) استطراد ورأي في المديح

ولقائل أن يقول: ما هذه إلا أمداح فارغة، ومنازع قديمة أشبه بمنازع الشعراء الذين كانوا ينتجعون الملوك طمعًا في الجائزة، وقد كان الأليق أن يضع براعته؛ حيث يضع الناس عقيدتهم لا حيث يرجو هو منزلة سامية ونعمة هامية، فإن هذه محاولات شخصية لا تفيد وطنًا ولا تؤيد قومًا إلى غير ذلك مما طالما أخذوه على شوقي وعلى غيره من شعراء الملوك، ولقد قدّمنا في هذا الباب ما فيه مقنع؛ وهو أن شعراءنا لم يفارقوا الطريقة القديمة التي معناها أن الشاعر يجود على الملك بنفائس أدبه ليجود عليه الملك بنفائس نَشَبه أو ليحلّه محلّ القرب والتقديم ويبلغ به آمالًا ويرفه حالًا. وسواء كانت هذه الطريقة قديمة أو حديثة فالشاعر في هذا الموطن لا يفترق عن غيره من البشر الذين كلٌّ منهم يرتاد لمعيشته وينتجع لسدّ مفارقة، وما زالت أعمال الناس أجمع شابًا تلقى في بحر الوجود ليصطاد بها الإنسان ما يقسم له حظّه، وإن القول هو من جملة الشباك التي تُنال بها الحظوظ، وقد قال أبو بكر الخوارزمي: لا صيد أعظم من إنسان ولا شبكة أصيد من لسان، وشتان بين من اقتنص وحشيًا بحبالته وبين من اقتنص إنسيًا بمقالته.

ولعمري لا غضاضة على مَنْ حاول مثل هذا الاقتناص إذا لم يشب ذلك بالسعاية والوشاية والإضرار بالناس وجعل الباطل حقاً والحقَّ باطلاً، فما نهى الله الإنسان عن الكدح لأجل معيشته، ولكنه نهى عن إتيانه هذا الباب عن طريق الباطل وبالوسائل غير المشروعة.

وأيضاً فإن الشاعر لا يزال يلتمس موضعاً يشحذ فيه غرار قريحته ومجالاً يركض فيه جواد ملكته، فلا يجد لذلك خيراً من خطاب الملوك الذين إن لم يستحق الواحد منهم كلَّ هذه المداخل بمحاسن خلاله وجلائل أعماله، فقد استحَقَّها بالمقام الذي يشغله على رأس الأمة، فتعظيم الملك هو تعظيم الأمة التي هو مَلِكُ عليها، وتعزيز المقام إنما يكون بتعزيز المقيم.

ولقد ذكرنا فيما تقدّم أن استيلاء الأجانب على أكثر بلاد الإسلام واستئثارهم بالأمر والنهي والقطع والوصل وتركهم ملوك المسلمين عبارة عن أشباح ماثلة حَمَلٌ كثيراً من مفكّري الإسلام، إشفاقاً على ملكهم وضناً بدولهم، أن يتقرّبوا من ملوكهم وأمرائهم الذين يرون فيهم رمز السلطان القديم وبقية الاستقلال السابق، وأن يُشيدوا بذكرهم ويهتفوا بمبايعتهم في وجه الأجانب، وإنهم لما فاتهم الفعل فزعوا إلى القول يذكرون به أقوامهم، وكأنهم يقولون لهم إن هذا هو سلطانكم الشرعي الذي يجب أن تجتمعوا حوله وتستردّوا به الحقوق المغصوبة، وأنَّ الحقَّ حقٌّ لا يذهب باعتداء الأجانب ولا بما يطرأ من الغير، فهم يحاولون إحياء فكرة الاستقلال في صدور الأمة وتلقينها أن ما هي عليه من الخنوع للأجنبي إنما هي حالة مؤقتة، وأن الأمر لا بدَّ أن يعود إلى نصابه. وبالجملة فهذا ضرب من ضروب الدفاع عن الوطن، ولون من ألوان الاحتجاج على احتلال الغريب للبلاد.

#### (٤) من معارضات شوقي

ولشوقي قصيدة في الخديوي يعارض فيها قصيدة البحري الرائية في المتوكل على الله العباسي، قال شوقي:

أشكو هواك لمن يلوم فيعذر	وأجادل العذال فيك وأكثير
وأبيت أجتنب الرقيب وأتقي	وأخاف ألسنة الوشاة وأحذر
وأصون ذكرك هواك عن هذا الورى	وأجلُّ سرِّك أن يُذاع وأكبر

وأردد الزفّرات فيك وأشتكي      وأعلل القلب الشقي وأصبر  
الله في صبّ قضي إنسانه      سهرًا عليك ومن حبك يسهر  
وجوانح بليت وما بلي الأسي      وحشى تموج به الضلوع وتظهر

فشوقي عندما كان يقول هذه القصيدة الرائية كان كأنه ينظر إلى قول أبي عبادة:

أُخْفِي هَوِي لكَ فِي الضُّلُوعِ وَأُظْهِرُ      وَالْأَمُّ فِي كَمَدِ عَيْبِكَ وَأَعْذِرُ  
وَأَرَاكَ خَنْتَ عَلَى النَّوَى مِنْ لَمْ يَخُنْ      عَهْدَ الْهَوَى وَهَجَرْتَ مَنْ لَا يَهْجُرُ  
وَطَلَبْتَ مِنْكَ مَوَدَّةً لَمْ أَعْطِهَا      إِنْ الْمُعْنَى طَالِبٌ لَا يَظْفِرُ  
هَلْ دِينَ عُلُوَّةٌ يُسْتَطَاعُ فَيُقْتَضَى      أَوْ ظَلَمٌ عُلُوَّةٌ يَسْتَفِيقُ فَيُقْصَرُ

ثم تخلّص شوقي من النسيب إلى المديح اقتضابًا على طريقة البحري، فإنه بينما كان ينسب ويقول: وحشى تموج به الضلوع ويظهر، إذا به خاطب المدوح فقال:

هجر الكرام إليك يا ابن محمدٍ      ورحابك الدنيا التي لا تهجر  
تهتئ من كرم وترتجل الندى      وتُنيل من فوق الظنون وتغمر  
وتعيد عهد الجود بالنعم التي      يحيا الزمان ببعضها والأعصر

ثم يقول:

وكذا الأصيل إذا سما لخليقة      شرعت مناسبه وسن العنصر  
لولا دماء في العروق كريمة      ما عف كسرى أو تواضع قيصر

ثم يقول:

وأعدت للنيل العلوم وعهدما      والعلم تاج للبلاد ومظهر  
ما جل عيب أو تناهت سوءة      إلا وعيب أخي الجهالة أكبر  
وإذا الفتى لم يحله عرفانه      فالحسن أول شائن والمنظر  
أيدت أعلام الإمارة بعد ما      طوت الخطوب وأقسمت لا تنشر

وكذلك البحترى بينما يقول:

وإني وإنْ جانفتُ بعضَ بطانتِي      وتوهم الواشون أني مُقصرُ  
ليشوقني سحرُ العيون المُجتلى      ويروقني ورد الخدود الأحمر

إذا به انتقل إلى المديح اقتضاباً فقال:

الله مَكَّن للخليفة جعفر      ملكاً يحسُّنه الخليفة جعفر  
نُعْمَى من الله اصطفاه بفضلها      والله يرزق مَنْ يشاء ويقدرُ  
فاسلمَ أمير المؤمنين ولا تزلُ      تعطي الزيادة في البقاء وتُشكرُ  
عمَّت فواضلك البريةَ فالتقى      فيها المُقل على الغنى والمُكثِر

وكان شوقي يهنئ الخديوي بعيد مولده، فقال:

شرفاً جمادى نلت بالعباس ما      لا ترتجيه من البدور الأشهر  
أو كلما جددت للنديا سنا      نكرت ولاد السعد فيما تذكر  
في المهد يراعه الرجاء ويرتجي      وتُعد آمال البلاد وتذخر  
وتطول أعناق السراة بربها      طوراً ويدركها الخشوع فتقصر  
يومٌ هو الأعياد إلا أنه      حسب الزمان به يتيه ويفخر

والبحترى كان يهنئ المتوكِّل بعيد الفطر، فهو يقول:

بالبرِّ صُمْتَ وأنت أفضل صائم      وبسنَّة الله الرضيَّة تُفطر  
فانعم بيوم الفطر عيناً إنه      يوم أغرُّ من الزمان مُشهر

ووصف البحترى موكب الخليفة وكان هذا من الأوصاف التي لا تزال تُعدُّ من غرر الشعر، وتُحصى من منتخبات الشعراء، قال:

أظهرت عزَّ الملك فيه بجحفل      لِحِبِّ يُحاط الدين فيه ويُنصر  
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت      عُددًا يسير بها العديدُ الأكثر  
فالخيلُ تَصْهَلُ والفوارس تَدَّعي      والبيضُ تلمعُ والأسنةُ تزهر

والأرضُ خاشِعةٌ تَمِيدُ بِثِقَلِهَا  
والشمسُ ماتِعةٌ تَوَقَّدُ بِالضُّحَى  
حتى طَلَعَتْ بَضْوَةً وَجِهَكَ فَانْجَلَتْ  
وافْتَتَنَنَّ فِيكَ النَّاظِرُونَ فَأَصْبَحَ  
يَجِدُونَ رُؤْيَيْكَ الَّتِي فَازُوا بِهَا  
ذَكَرُوا بِطَلْعَتِكَ النَّبِيِّ فَهَلَّلُوا  
حتى انْتَهَيْتَ إِلَى المَصَلَى لِابْسَا  
ومشيت مشية خاشع متواضع  
فَلَوْ أَنَّ مَشْتاقًا تَكَلَّفَ غَيْرَ ما  
أُيِّدَتْ من فصل الخطاب بحكمة  
ووقفت في بُرْدِ النَّبِيِّ مُذَكَّرًا  
ومواعظ شفت الصدور من الذي  
صلوا وراء الآخذين بعِصْمَةِ  
فاسلم بمغفرة الإله فلم يزل

فعارض شوقي أبا عبادة البحرى في وصف الموكب، فقال:

باكرت دار الملك فيه بموكب  
راعت روائعه النهار جلالة  
كُسي الخميس به جمالك رونقا  
فالأرض مائجة المذاهب بالقنا  
والخيل تعجب بالكماة وتنثني  
ومن السلامة في ركابك هاتف  
قام السراة به وحف العسكر  
فالشمس تجفل والضحي تستأخر  
وأعير غرتك اللواء الأحمر  
والأفق حال بالسيوف مجوهر  
وتشير تيهًا بالوجوه وتخطر  
ومن الدعاء مهلل ومكبر

من قرأ القصيدتين البحرية والشوقية لم يتردد في أن يقول إن القديم طبع والجديد تطبع، وأن الأول توليد وأن الآخر تقليد، ولكن لو تأمل المتأمل وكان بصيرا بشعر الجاهلية والمخضرمين والمولدين لعلم أن البحرى والمتنبى وأبا تمام وأولئك الفحول لم ينطبعوا إلا على غرار من تقدمهم، فإن القراءة تستقر في الذهن وإن القوالب ترسخ في الطبع فتتهافت بمثلها سليقة الشاعر، وقد يكون لا يتذكرها ولا يتعمد محاكاتها ولا يحسب أنها من

محفوظه فيظنُّ مَنْ لا بصيرةَ له أن هذا الشاعر قد سرق من ذلك الشاعر الذي تقدّمه، وهو في هذا الحكم ظالمٌ متعسّفٌ أو جاهلٌ لا يعرف؛ لأنه ليس كلُّ مَنْ جاء في كلامه شيءٌ مُتوارِدٌ مع كلامٍ آخر يجب أن نعدّه سارقاً، وقد كنت أروي مرة قصيدة محمود سامي التي سبق إيرادنا منها، وهي التي يُعارض فيها رائيّة أبي نواس في الخصيب، وذلك أمام رجل من الأدباء رواة الشعر الجيد، فلما وصلت إلى قول محمود سامي:

ولي شيمة تآبى الدنيا وعزمة      تفلُّ شباة الخطب وهو عسير  
مُعَوّدة ألا تكفّ عنانها      عن الجدِّ إلا أن تتمّ أمور

قال لي ذلك الأديب: إن هذا لمن قوله:

مُعَوّدة ألا تُسلِّ نصالها      فتُعَمَدُ حتى يُستباحَ قَتيل

فقلت له: إذا كنت تلتزم هذا المذهب فلا يبقى شاعرٌ إلا وهو سارق ولا يلبث فوق الغربال لا متنبّي ولا بحتري ولا غيرهما، فإن هذه المشابهات قد وجدناها بين كلامهم وكلام الجاهليين والمتقدمين في مواضع كثيرة، وماذا تقول في قول امرئ القيس:

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيهم      يقولون لا تهلك أسى وتجمّل

ثم قول طرفة بن العبد:

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيهم      يقولون لا تهلك أسى وتجلّد

فالبيتان بيت واحد لا يختلفان إلا في لفظتي «تجمّل» و«تجلّد» وكلتاهما بمعنى واحد والحال أن الشاعرين كلُّ منهما فحلٌّ لا يحتاج أن يستعير من الآخر وكلاهما بحرٌّ لا تنزحه الدلاء.

ولشوقي من جيّد الغزل أبيات تخلّص منها إلى مديح الخديوي، وهي هذه:

دع عنك ما صاغ الوشاة وزخرفوا      واسمع لحسنك إنه بي أعرف  
أ يكون عندك في يدك وجوده      ويكون للعدّال فيه تصرف  
ماذا أقول وكيف وصفي مُهجة      فعلت بها عيناك ما لا يُوصف

يا مَنْ حوى روجي وضنَّ بنظرة  
ما بت فيك معاديًا طيب الكرى  
رفعت لناظرك المحاسن دولة  
وحبتك من بين الملاح بوجنة  
أما عدولي في هوك فطاعني  
أنا لا أميل إلى الملامة فهي من  
حاشا المروءة منذ سنَّ خلالها

لا أنت ذو بخلٍ ولا أنا مُسْرِفٍ  
إلا وأنت على عدوي أعطف  
القول فيها ما يقول المرهف  
كالنار لا تلوي على ما تتلف  
لم يلقَ ما ألقى فكيف يعنف  
بدع الهوى ولكلُّ شرع زُخرف  
عباس حلمي في الكرام ليقتفوا

ومن الغزل الذي تخلَّص به إلى المديح قوله:

حلو الوعود متى وفاك  
من كلِّ لفظ لو قبلت  
يروي الحلاوة عن ثنايا  
رخصت به الدنيا فكيف  
ظلمًا أقول جنى الهوى  
غدتا منية من رأيـ  
والنفس تهلك مرَّة  
مَنْ علَّم الأَجفان في  
وتصيُّد الأساد بالـ  
يا قاسي القلب اتئد  
ماذا انتفاعي فيك بالر  
نفس قضت في الحبِّ مَنْ  
عبَّاسِ عِشٍّ للالِ عِشٍّ  
قابلت بالتاج الهلا  
ونهضت تبعث من ثنا

أُتراك مُنَجِّزها تراك  
لأجله قبَّلت فاك  
ك العذاب وعن لماك  
ف إذا أنالته يداك  
لم يجنِّ إلا مُقلِّتاك  
ت ورحت مُنية من رآك  
والنفس يشفيها الهلاك  
أهدابها مدَّ الشباك  
أجام تسلبها الحراك  
وأقل صدك في جفاك  
حماء من باكٍ وشاك  
أولى برحمتها سواك  
للملك عِشٍّ لبنى ولاك  
ل وجزت بالعرش السماك  
نك للنجوم ومن سَناك

ومن القصائد المرقصة ما قاله في المرحوم الخديوي مهنئًا له بعيد الأضحى:

لك مصر يجري تحت عرشك نيلها      ولك البلاد عريضا وطويلها

يسمو بك الآباء أو تسمو بهم  
فمحمّد في الترك كان عليّها  
ولئن غدا للعُرب بيتك كعبة  
وإذا تسابقت الفوارس تصطلي  
مولاي مصرك لا تزال عزيزة  
ألقت مَفاتِحها إليك فأصبحت  
دانت لأمرك في الأمور عظام  
وتهيأت لعلاك مملكة سَمَا  
واخضر من عرس المحامد ريعها  
فالأرض مشرقة بنور عزيزها  
والنيل من فجر العيون خلالها  
سعت الوفود إلى رحابك سعيها  
وكأنما علمت بمقصدك القرى  
حسدت أهاليها عليك فلو مَشَتْ  
حتى إذا بلغت حماك أظلمها  
فرأيتها مثلاً ببابك عاليًا  
وتجلت الذات الموفقة التي  
يا مكرم الشعراء كم من آية  
ألبستني حُلل القلوب فنلت شأ  
وإليكها عذراء لا يُرجى لها  
تهتز أعطاف الملوك لمثلها  
أما وقد رفعت إليك فإنها

في دولة علياء أنت سَليها  
يعتزُّ معشرها به وقبيلها  
يسعى لها فأبوك إسماعيلها  
نار الوغى فأبو أبيك خليلها  
بين الممالك زاهرًا بك جيلها  
يزن الزمان كنوزها ويكيلها  
ما زال مأمونًا عليك سبيلها  
نحو السهى بك وازدهى إكليلها  
وابيض من صفو الموارد نيلها  
يتلو ضحاها في الشروق أصيلها  
تحليه من نعمى يدك سيولها  
للبيت شوقًا والرجاء دليلها  
فغدا يصفق زرعها ونخيلها  
لسعت إليك حزونها وسهولها  
لك من ظلال المكرمات ظليلها  
تكبيرها مُتواصلاً تهليلها  
ملك القلوب جمالها وجميلها  
لي فيك ليس لشاعر تبديلها  
وَأ في القوافي لم ينلّه فحولها  
وصل ولا باع الشيوخ يطولها  
لو كان يوجد في القريض مثلها  
جرّت على هام السمك ذيولها

من تأمل في شعر شوقي في اقتباله لا يجده نازلًا عن شعره بعد اكتهاله، بل تجد  
الشاعرية فيه أقوى وأظهر في مبدأ أمره وريعان شبابه، وتأمل في هذه القصيدة فهي من  
المرقص المطرب المؤنق المعجب، وما أنس لا أنس أني عندما قرأتها ترنح لها عطفياً طرباً



وقلت: قد نال شوقي شأوَ القوافي وبَدَّ الفحول. وقد مضى على هذه القصيدة أربع وأربعون سنة وما برحت أتذكّر وَقَعَهَا في نفسي كأن ذلك من حوادث أمس. ولا جرم أن الذكرى التي تمضي عليها هذه المدة الطويلة ولا تزال غضة طرية لا تكون إلا على أثر وقع عظيم في النفس.

وله مهنتاً الخديوي بالسام العثماني المرصع:

لمن الباب عاليًا ومؤمل      يمثل الدهر في ثراه المقبل

ومنها:

ولمن راية هنالك وافى      ظلها النصر ثم لم يتحول  
يمنع الدين أن يميل وتحمي      ركنه الشامخ الذرى أن يزلزل

ومنها:

يا مليكي عباس صدرك صدر      في المعالي وذا المرصع أول  
هو مثل السماء صفوًا ورحبًا      وهي ذي أنجم العلا تنزل  
عرف المالكون قدرك لكن      ما رآه فيك الخليفة أفضل  
فتهنأُ علياء وافتك منه      يذكر النجم من حباها فيخجل  
ووسامًا مُرصَّعًا ما رأينا      قبله جوهراً إلى البحر يحمل

وبمناسبة قوله: «جوهراً إلى البحر يحمل.» تذكّرت بيتاً انتقدته على الشاعر الأديب الشيخ خليل اليازجي، فقد كان نَظَمَ رواية اسمها «المروءة والوفاء» وجعلها مقدمة لأخيه الأستاذ الكبير اللغوي الشهير الشيخ إبراهيم اليازجي، ولكنّه استهلَّ المقدمة بهذا البيت:

لما رأيتك مثل بحر زاخر      ألقىت بين يديك بعضَ جواهري

وكنت أنا لذلك العهد في المدرسة لم أتجاوز الرابعة عشرة من العمر، ولكني كنت بدأت بالنظم وكانت جرائد بيروت تنشر من شعري، وهذا مصدق وهذا مكذب، ومن الناس مَنْ يقول: لا يمكن أن ناشئاً في هذه السن الحديثة يفري هذا الفري، وما زالت

الشبهة تعترض حتى كثر النظم وتواترت الأدلة فزالَت الريبة وانقلعت الشبهة ولم يمضِ مدة ثلاث سنوات حتى كان لي ديوان اسمه «الباكورة» جعلته تقدمة للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وكان إذ ذاك في بيروت وجعلت قصيدة التقدمة من ذلك البحر وتلك القافية. وهذا نصها وكانت بعنوان:

### إهداء الباكورة

حضرة العالم العامل الفيلسوف الكامل واسطة عقد الحكماء ودرة تاج البلغاء.  
الأستاذ الأكبر الشيخ محمد عبده المصري أيده الله تعالى:

أَلْقَيْتَ بَيْنَ يَدَي سِوَاكَ بَوَاكِرِي  
كَانَ الْكَمَالُ إِذَا سَلَوْتِكَ عَاذِرِي  
وَعَدَوْتُ أَعَذَبَ مَنَهْلٍ لِلخَاطِرِ  
وَسَمَوْتُ بَيْنَ بَصَائِرٍ وَبَوَاصِرِ  
بَاعَزَ نَفْسٍ كُلَّ خَلْقٍ بِأَهْرِ  
فِي الخَطْبِ يَهْزَأُ بِالحُسَامِ الْبَاتِرِ  
كُلَّ الْبَرِيَّةِ بِالثَّنَاءِ الْعَاظِرِ  
لَا يَنْتَهِي مِثْلَ الْبَحَارِ لِآخِرِ  
أَضْحَتْ رِيَاضَ قَرَائِحٍ وَضَمَائِرِ  
مَنْ كُلُّ بَادٍ فِي الْأَنَامِ وَحَاضِرِ  
تَقْدِيمِهِ فِي الْفَضْلِ خَيْرٌ خَاصِرِ  
وَأَنَا رَقِيقُ فِضَائِلٍ وَمَآثِرِ  
مِمَّا بِهِ لِلْمَرْءِ قُرَّةٌ نَاطِرِ  
لِلشُّعْرِ بَيْنَ مُسَبِّبٍ وَمُبَاشِرِ  
لَا حَتَّ وَجْوهُ الدَّهْرِ غَيْرَ بَوَاسِرِ  
بِرْحِيقِهَا مِنْ سَالِفٍ وَمُعَاصِرِ  
كَنْتُ الْأَحَقُّ بِكُلِّ مَقُولِ شَاعِرِ  
يُزْرِي عَلَى لَجَجِ الْعِبَابِ الزَاخِرِ  
يَا بَحْرُ لَكِنْ لَا أَقُولُ جَوَاهِرِي

لَوْ هَاجَ مِثْلُ الْفَضْلِ خَاطَرَ شَاعِرِ  
أَوْ لَوْ وَجِدْتَ بِمِثْلِ فَضْلِكَ عَادِلًا  
لَكِنْ سَطَوْتُ عَلَى الْقَرِيضِ بِأَسْرِهِ  
فَزَهَوْتُ بَيْنَ مَدَارِكٍ وَمَشَاهِدِ  
أَوْ كَيْفَ لَا تَسْمُو وَمِثْلُكَ مَنْ حَوَى  
عِلْمَ عَلَى عَمَلٍ عَلَى قَلَمٍ غَدَا  
وَفِضَائِلُ تَسْتَنْطِقُ الْأَفْوَاهِ مِنْ  
عَلَامَةِ الْعِلْمَاءِ وَالْبَحْرِ الَّذِي  
يَا أَيُّهَا الْعِلْمُ الَّذِي أَوْصَافُهُ  
شَهِدَ الزَّمَانُ لَنَا بِأَنَّكَ فَرْدُهُ  
يَا أَوْحَدَ الْعَصْرِ الَّذِي عَقَدْتِ عَلَى  
لَا غَرَوْ أَنْ أَهْدِي إِلَيْكَ رِقَائِقِي  
لَيْسَ الْقَرِيضُ سِوَى تَأْتُرِ خَاطِرِ  
تُمْسِي الْمَحَاسِنَ وَهِيَ فِيهِ بَوَاعِثِ  
غَرُّ عَلَى الْإَيَّامِ لَوْلَاهَا لَمَّا  
لَمْ تَبْرَحِ الشَّعْرَاءُ صَرَغَى نَشْوَةِ  
فَإِذَا انْجَلَّتْ فِي مِثْلِ ذَاتِكَ مَرَّةً  
يَا مَنْ غَدَا بِعَوَارِفٍ وَمَعَارِفِ  
أَهْدِيكَ بَعْضًا مِنْ عَقِيقِ قَرِيحَتِي

أبياتُ إحسانٍ وليسَ جميعُها  
قد جادها صوبَ الصِّبا وبَنَشَرها  
دَرَجَت مَعِي أطوارُ عُمُرٍ واصل  
قد باكَرَتني قبلَ صايقِ فَجْرِهِ  
أوحَتُ إليّ قلبِي الهوى فشعرتُ إذْ  
فمَضَيْتُ بينَ كَمائِلٍ ومَفاخِر  
ما قلتُ ذا فخرًا ولا عَجَبًا وما  
لِكنْ لِتَرْفُوقِ غَيْرِ مأمورِ بها  
إن تاتني عَفْواً فكم هدَّبتُها  
مكَّنْتُها بعدَ النزاعِ وكَم حَكَّت  
حتى أتت من بعد تَرِيبتِي لها  
عَوَّضت ما حَسِرْتَه من حُسْنِ بما  
فكُن الوصيَّ على يَتامَى ناظِم  
أهديتها لا كي تليق وطالما  
هي دون ما يُهدى إليكَ وإنما

من كلِّ بيتٍ بالمحاسِنِ عامِر  
نمَّ الصِّبا عن كلِّ عَرفٍ ذافر  
ما جاشَ من يومِ بليلى ساهر  
مُد كُنْتُ من أَعوامِهِ في العاشر  
عُصْنَ الصبابةُ لا يَميلُ لهاصر  
ومشيتُ بينَ خَمائِلٍ وأزاهر  
من مُعجِبٍ في نَظْمِها أو فاجر  
فلَكَم حَطَّتْ طَورًا لَنيلِ الحاضر  
من سَخَفِ لفظٍ أو رويِّ ناثِر  
قلقَ القِداحِ بَدَتْ بكفِّي يأسِر  
حسبي وإن لم تَغْدُ ملءَ مَحاجرِي  
رفعتُ إليك فلم أكنُ بالخاسِر  
وبناتِ فِكْرٍ في ثنالك قواصر  
قبلَ الكَبيرِ هديَّةً من صاغر  
مثلي على ما فاق ليس بقادر

## (٥) عَوْدُ إِلَى شَوْقِي

وقد كنتُ يومَ نَظَمْتُ هذه القصيدةَ في السادسة عشرة من العمر.  
ونعود إلى شوقي فنرى في هذه القصيدة اللامية ما يدلُّ على أنه لم يمدح الخديو  
مجاناً، وأنه ما أصاب تلك النعماء الوارفة إلا بما سَيرَ من المدائح في الجنب الخديوي،  
وأنه حامَ فَوَرَدَ، وغنَى فأطرب، ورَقَّح معيشته بَقِيضِ قَرِيحَتِه، وكان إذا أغضى الخديو  
على خَلْتِه، بفتح الخاء، ولم يجدها قذى عينيه لم يهمل أن استرعاها النظر إليها على طريقة  
المتنبي، ففي هذه القصيدة يقول شوقي:

يا عزيز الزمان سمعاً لناء  
أتجدُّ الأيام في هَدْمِ بيتي  
أي عذِرُ للدهر عندي ورُكْنِي  
نظرة نظرة وعذراً لعبيدٍ  
قد دعاكم على النوى وتوكل  
ونداكم بكلِّ بيتٍ مُوَكَّل  
أنت مهما تكلف الدهر يفعل  
عهده فيك مُنعمًا ليس يسأل

ومن قصائد شوقي الخديوية قصيدة يقول فيها:

حُسْبُكَ اللهُ قَدْ جَدَّتَ الْجَمَالَا	أَيْهَا الْمُنْكَرَ الْغَرَامَ عَلَيْنَا
كَيْفَ لَا تَعْشَقُ الْعُيُونَ أُمَّتَالَا	أَيَّةَ الْحُسْنِ لِلْقُلُوبِ تَجَلَّتْ
أَفَةُ النَّصْحِ أَنْ يَكُونَ جِدَالَا	لَكَ نُضْحِي وَمَا عَلَيْكَ جِدَالِي
مَا مِنَ الْعَقْلِ أَنْ تَرُومَ مُحَالَا	هَبْ مِنَ الْعَقْلِ أَنْنِي أَنَا أَسْلُو
مَا غَلَبَتِ الْأَهْوَاءَ وَالْأَمْيَالَا	إِنْ نَجِدْ مِنْ مِثَالِ لِقْمَانَ جَيْشَا

سَيَعِيبُ علماء اللغة قوله: «الأميال» فالأميال هي جمع ميل بكسر الميم لا جمع ميل بفتحها؛ وذلك لأن المصادر على فعل بالفتح لا تَجْمَعُ على أفعال؛ ولذلك تجد الكتاب عدلوا إلى لفظة «ميول» تخلُّصًا من هذا المحذور. وما وجدت في الكلام العربي القديم لفظة «ميول» ولكن القياس يُوجِبُها. ومن هذه القصيدة قوله:

يَالِ أَمْ يُبْتَلَىٰ بِهَا الْأَجْيَالَا	لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يُبْتَلَىٰ مِصْرَ بِالْأَجْ
وَتَضَحَّىٰ مَعَالِمًا وَرَجَالَا	هَيْكَلُ تَعْقَلِ الْمَمَالِكِ فِيهِ
تَبْصُرَ الدَّهْرَ دُونَهُ أَطْلَالَا	قُوِّضَتْ كُلُّ بِنْيَةِ وَهُوَ بَاقٍ
جَدَّكَ الْجُودَ أَمْ أَبَاكَ النَّوَالَا	يَا ابْنَ تَوْفِيقِ أَيِّ أَصْلَاكِ نَسْلُو
لَمْ تَذُقْ نِعْمَةً وَلَا اسْتِقْلَالَا	أَمْ عَلِيًّا وَمِصْرَ لَوْلَا عَلِيٌّ

ويظهر أنه لما نظم هذه القصيدة كان الممدوح في المقيم المقعد مع بعض الأحزاب في مصر، فإنه يقول:

جُو لِحْسَمٍ مِنْ غَيْرِ رُوحٍ مَالَا	أَنْتَ رُوحٌ وَوِضْرُ جِسْمٍ وَهَلْ تَرِ
صَيَّرْتَهُ بَنُو الْبِلَادِ عَضَالَا	وَالَّذِي بِالْبِلَادِ غَيْرِكَ دَاءِ
جَعَلَ الْأَهْلَ حَرْبَهَا وَالنِّكَالَا	وَإِذَا عَاكَسَ الزَّمَانُ بِلَادَا
هَا فَكَانَ النَّصِيبُ مِنْهَا حَيَالَا	نَامَ قَوْمِي عَنِ الْمَعَالِي وَرَامُو
وَسَكُونًا إِلَى الْمُنَى وَاحْتِمَالَا	حَسَبُوا الْعَيْشَ غَيْبِيَّةً وَأَضْطَغَانَا
عَلِقَتْ بِالصَّغَائِرِ الْأَمَالَا	وَإِذَا كَانَتْ النُّفُوسُ صِغَارًا

أمثال من شعر شوقي

وله في الخديوي قصيدة ميمية من بحر السريع أراه يُعارض بها محمود سامي في  
قصيدة من البحر والقافية، ومطلع قصيدة شوقي:

هل تيمّ البانُ فؤاد الحمام      فناح فاستبكي جفونَ الغمام

ومنها:

يا خيرَ مَنْ سَنَّ خلالَ الوفا      وخيرَ مَنْ زَكَّى وصلَى وصام  
يهزُّكَ الإسلامُ مهما دعا      مُؤيِّداً منك بعَضْبِ حُسام  
أنتَ لهذا الدينِ ما يشتهي      ظلُّ له ضافٍ ورُكْنِ جسام  
مولايَ ذا شهرُ الصيامِ انقضى      أحياكم الله إلى كلِّ عام

فأما قصيدة محمود سامي فليست في ديوانه المطبوع؛ لأن الجزء الثاني انتهى بحرف  
اللام، ولم أعلم أنهم طبعوا جزءاً ثالثاً، وإنما يجد الإنسان هذه القصيدة في «الوسيلة  
الأدبية» للمرصفي، وهي ليست تحت يدي في هذه الساعة، ولا أزال أتذكّر من قصيدة  
البارودي هذه بيتين في مُنتهى البداعة:

يا لَيْتَنِي في السُّلكِ حَزَفَ سَرَى      أو ريشةً بينِ خوافي الحمام  
حتى أوافي مصر في ليلة      أقضي بها في الله حقَّ الذمام

ولشوقي في الجنب الخديوي:

أمغتم الفرصات بشراك بالغنم      فما دانت الأوطانُ إلا لذي همّ  
وقلِّ لدخيل في المعالي يُريدها      بلا بدلٍ أمَلتَ صيداً ولم ترم

ومنها ما رمى به شوقي أبعد شأؤ المرتمي في الفخر والبأؤ، وقد جازَ هنا الحدَّ الذي  
اقتنع به في قصيدته الدالية التي سبق الاستشهادُ ببعض أبياتها:

فلا حِكْمَتِي دعوى ولا مُنْطِقِي هوى      ولا مبدئي لؤم ولا قلمي وغد

فإنه في هذه القصيدة الميمية يقول:

إذا أنا لم تكفل لي الخلد حكمتي  
فلا استرجعت بي الضاد بُنيان مجدها  
ولم ألتمْسه في بياني وفي علمي  
ولا لقيت بي العصر في البَدْخِ الجم

البَدْخِ مُحرَّكة هو المجد، ثم يقول:

ولا جازَ شعري النيرات ولا اعتلى  
لسدَّة عَبَّاسِ الفتى العَلَمِ النَّجم

جعل شعره فوق النيرات ومع هذا فهي من دون سدَّة المدوح، ثم يقول:

ومَهلاً رَوَيْداً في الكَمالات والحجى  
وحَفَّ لِعِبَادِ اللهِ أَنْ يَتَوَهَّمُوا  
تُحَاوِلُ مِنْ دُنْيَاكَ مَا أَنْتَ عَارِفٌ  
وتظهر في عزٍّ من الصَّدقِ بَاهِرٍ  
يُدَارِي أَنَاْسُ بِالْجِرَاءِ طَيْشَهُمْ  
فَمَا أُعْطِيَ النَّاسُ النُّبُوَّةَ بِالْحلم  
فَرَبٌّ يَقِينٌ لِلْعَقُولِ مِنَ الْوَهْمِ  
وتصَحَّبَ أَحْوَالُ الزَّمَانِ عَلَى عِلْمِ  
إِذَا التَّمَسَّتْ أَعْدَاؤُكَ الْعِزَّ فِي الْإِثْمِ  
ويَتَعَبُ قِرَاءَ الْعَوَاقِبِ بِالْحَزْمِ

ثم يقول:

وعَرَشَيْكُمَا مَا خُنْتُمَا الْحَقَّ مَرَّةً  
ولكن تهيج الحاسدين علاكُما  
ولا حَدِثْتُمَا عَنْ حِكْمَةِ اللهِ فِي الْحُكْمِ  
وهيهات يَبْقَى الْفَرْقَدَانِ بِلَا خِصْمِ

ولا شك أنه يشير إلى ما كان يقع بين المدوح وبين الأحزاب في مصر من التضادَّ والتشادَّ، وأي بلاد لا تُصابُ بمثل هذه الفتن؟ وشوقي على كلِّ حال شاعر الأمير لا يفتأ ينضح عنه بشعره، وربما كان لسانه أَرَدَّ عن ممدوحه من جيش، وأمضى من سيف، فإن يكن الخديو قد أغرق شوقي بالإنعام والإحسان فقد أثنى شوقي عليه ثناء حَسَّان على غَسَّان؛ ففاز كلُّ منهما بطلبته، فلم يكن شوقي إذن على مذهب محمود سامي الذي يقول:

الشُّعْرُ زَيْنُ الْمَرْءِ مَا لَمْ يَكُنْ  
قد طالما عَزَّ بِهِ مَعْشَرُ  
وسيلةٌ لِلْمَدْحِ وَالذَّمِّ  
وربَّما أَرَى بِأَقْوَامِ

فاجعله إما شئت في حكمة أو عظة أو حَسَبٍ نام  
واهتف به من قبل تَسْرِيحِهِ فالسَّهْمُ مَنْسُوبٌ إِلَى الرامي

نعم لم يكن محمود سامي لينظم إلا في الغزل والنسيب والفخر والحماسة ووصف الوقائع والحكم والمواعظ والرياء والإخوانيات والزهديات والطرديات، وغير ذلك من مقامات الشعر المختلفة حاشا المديح؛ فقد كان يتجنبه ما أمكن، وإذا مدح فإنما يمتدح مَنْ كان من أقرانه أو إخوانه، ولم أجد له مديحًا كبيرًا إلا الخديو إسماعيل يوم جلس على أريكة مصر، وكان ذلك سنة ١٢٧٩؛ أي أيام كان محمود سامي في ريعان شبابه، ورأيت له في ديوانه أبياتًا امتدح بها الخديو السابق بعد رجوعه من سرنديب، وكذلك قصيدة في تهنئة الخديو توفيق بالجلوس على الأريكة الخديوية سنة ١٢٩٧ ف شعر البارودي في المديح لا يكاد يُذكر وهو في جانب ديوانه ثم في جانب بحر، وقد وصف البارودي الشعر في إحدى قصائده فقال:

ما بِالْحَوَادِثِ مِنْ نَقْصٍ وَتَغْيِيرِ  
كَالدَّهْرِ يَجْرِي بِمَيْسُورٍ وَمَعْسُورِ  
فِي الْأَرْضِ مَا بَيْنَ إِذْلاجٍ وَتَهْجِيرِ  
يَغْتَالُ بِالْبَهْرِ أَنْفَاسَ الْمَحَاضِيرِ  
عَلَى إِطَارِ مِنَ الْأَضْوَاءِ مَسْعُورِ  
فِي جَوْشَنِ مِنْ حَبِيبِ الْمُنِّ مَزْرُورِ  
لِلدَّهْرِ فِي كُلِّ نَارٍ مِنْهُ مَعْمُورِ  
وَيَتَّقِي الْيَأْسَ مِنْهَا كُلُّ مَعْمُورِ  
وَكَمْ بِهَا حَمَدَتْ أَنْفَاسُ مَعْرُورِ  
مَا حَطَّه الْفِكْرُ مِنْ بَحْثٍ وَتَنْقِيرِ  
رَفْعًا وَخَفْضًا بِمَرْجُوٍّ وَمَحْذُورِ  
مِنَ الْفَخَّارِ حَدِيثًا جَدَّ مَأْثُورِ  
فَبَاءَ مِنْهُ بِصَدْعٍ غَيْرِ مَجْبُورِ  
عَادُوا بِغَيْرِ حَدِيثٍ مِنْهُ مَشْهُورِ  
مَا سَارَ فِي الدَّهْرِ يَوْمًا ذَكَرَ كَأْفُورِ

للشعر في الدهر حُكْمٌ لَا يَغْيِرُهُ  
يَسْمُو بِقَوْمٍ وَيَهْوِي آخِرُونَ بِهِ  
لَهُ أَوَابِدٌ لَا تَنْفِكُ سَائِرَةٌ  
مِنْ كُلِّ عَائِرَةٍ تَسْتَنُّ فِي طَلْقِ  
تَجْرِي مَعَ الشَّمْسِ فِي تِيَارِ كَهْرَبَةٍ  
تُطَارِدُ الْبَرْقَ إِنْ مَرَّتْ وَتَتْرِكُهُ  
صَحَائِفٌ لَمْ تَزَلْ تُتَلَّى بِاللِّسْنَةِ  
يَزْهَى بِهَا كُلُّ سَامٍ فِي أُرُومَتِهِ  
فَكَمْ بِهَا رَسَخَتْ أَرْكَانُ مَمْلَكَةٍ  
وَالشُّعْرُ دِيْوَانُ أَخْلَاقٍ يَلُوحُ بِهِ  
كَمْ شَادَ مَجْدًا وَكَمْ أَوْلَى بِمَنْقَبَةٍ  
أَبْقَى زُهَيْرٌ بِهِ مَا شَادَهُ هَرَمٌ  
وَفَلَّ جَرُولُ غَرْبِ الزُّبَيْرِقَانِ بِهِ  
أَخْزَى جَرِيرٌ بِهِ حَيَّ النَّمِيرِ فَمَا  
لَوْلَا أَبُو الطَّيِّبِ الْمَأْثُورُ مَنْطِقُهُ

فأنت ترى أن البارودي وإن لم يكن مداحًا بنفسه، ولم يقع منه مديحٌ إلا في الندرة وغير مكتسبٍ مالا ولا جاهًا كان في غنى عنهما؛ فإنه يعترف بكون الشعر يرفع ويضع، ويسم ويصم، ويخلد المآثر ويقيّد المآثم، ويقول كم وطّد الشعر أركان ملكٍ وذلل أعراف مجدٍ، ولين أعطافٍ سعيدٍ وقرب غايات جدٍ، وأخرت كلمةً منه قومًا، وهزّت عرشًا، وحسبك أنه وقع زلزالٌ عظيم بمصر في أيام كافور الإخشيدي فدخل أحد الشعراء على كافور والناس تفرُّ من كلِّ حذبٍ إلى الصحراء، فأنشده قصيدةً قال له فيها:

ما زُلزَلتِ مِصرٌ من حَوْفٍ يُرادُ بها      لكنها رَقِصَتْ من عَدْلِهِ طَرَبًا

فكان لذلك من حُسن حظِّ الوقع على كافور ما أجازته لأجله بصلة ولا كالصلوات، وقيل إن المتنبّي لم ينتجع كافورًا إلا بعد سماعه بهذا الخبر. فالبارودي وإن لم يذهب هو هذا المذهب، ولا كان له فيه مأرب لم يقدر أن يُنكر مكان الشعر من الاجتماع ولا تأثيره في الاتضاع والارتفاع، ولا تخليده للذكر، ولا تسجيله للفتكة البكر. ونعود إلى شوقي فنقول: من جملة قصائده في الخديو قصيدةٌ يقول في مطلعها:

صَرِيحٌ جَفْنِيكَ يَنْفِي عَنْهُمَا التُّهُمَا      فما رَمَيْتَ ولكنَّ القضاءَ رَمَى  
الله في روح صبِّ يغشيان بها      موارد الحتف لم ينقل لها قدما

ومنه خطابًا للممدوح:

وابغ الأحاديث واستعصم برايتها      سيان فذت خميسا أم ملكت فما  
إن الزمان لعالٍ في مقالته      فلن يعظم حيا أو يرى عظما  
أعطيت مصرًا من العرفان حصتها      ومن كمصر مكانا لامرئ علما  
شاد الزمان وأبناء الزمان لها      فلم يزيدوا إلى أهرامها هراما  
يخلد العلم للبلدان منزلةً      في العالمين وتحيي الحكمة الأما

إن من وجوه الشبه بين شوقي والمتنبّي أنك لا تكاد تقرأ قصيدةً لكلّ منهما مهما ضربت في وإد من أودية قولهما إلا وجدت بها حكما جاريةً مجرى الأمثال، ومن انطوى على شيء فاض على لسانه في كلِّ موقف.



ولشوقي في الخديوي تهنئة شهر الصيام وإهداء السلطان عبد الحميد له قصر ببك  
في الأستانة، وهي قصيدة استهلها بقوله:

الله في الخلق من صبٍّ ومن عانٍ  
صُونِي جَمَالِكَ عَنَا إِنْنَا بَشَرٌ  
تَفَنَّى القلوب ويبقى قلبك الجاني  
من التراب وهذا الحُسن روحاني

ومنها:

أمن هجرت إلى الأوطان رؤيتها  
تعهدين حنيني في الزمان لها  
وَعَبِطِي الطَّيْرَ آتِيَةَ أَصِيحْ بِهِ  
مُرِّي عَصِيَّ الكرى يَغْشَى مُجَامِلَةَ  
لئِن ضَنْنْتُ فما لي ما أضنُّ به  
وَمَنْطِقُ يَرِثُ التَّارِيخُ جَوْهَرَهُ  
فرحت أشوق مشتاق لأوطان  
وَسَكَّيِي الدَّمْعَ من تَذْكَارِهَا قَانِي  
لَيْتَ الكَرِيمَ الَّذِي أَعْطَاكَ أَعْطَانِي  
وَسَامِحِي فِي عِنَاقِ الطَّيْفِ أَجْفَانِي  
على الفناء سوى آثارِ وُجْدَانِي  
عن الزمانِ وعن عَبَّاسِهِ الثَّانِي

ومنها:

وإنَّ حلمي لَتَسْتَكْفِي البلادُ به  
لما بدا الشهرُ واستقبلتْ غرَّتَه  
وقمتْ تَسْطِيعُ بالأَنْوَارِ من أَفُقٍ  
كَأَنَّكَ البَدْرُ فِي غَايَاتِ رِفْعَتِهِ  
فَاهُنَّا مَكَانَكَ وَهَنَا ما يَلُوحُ بِهِ  
أَهْدَى الخليفة ما أَهْدَى يَبِشِّرُنَا  
قَصْرًا على اللُّجِّ لولا أنْ مُهْدِيَهُ  
كَالعَيْنِ تَمَّتْ معَانِيهَا بِإِنْسَانٍ  
لَاخَ الهِلَالُ وَلاخَ البَدْرُ فِي آنٍ  
بِالمُسْلِمِينَ وبِالإِسْلَامِ مُزْدَانٍ  
لو كانَ للبَدْرِ كَرْسِيٌّ وَتَاجَانٍ  
لرب يلدز من آثارِ إِحْسَانٍ  
أَنْ الودادِ بِأَسَاسٍ وَأَرْكَانٍ  
عبد الحميد لقلنا القصر نعماني

يشير إلى الخورنق والسدير من قصور النعمان بن المنذر، ثم يقول:

ببيت من عزة اليوسفور صاحبه  
إذا الأكارم سنوا للندی سُبُلًا  
يظلُّ يَسْجَعُ فِي الإِسْلَامِ شَاعِرُكُمْ  
ويشتهي الدولة العليا مُعَزَّرَةً  
على مكان من الدنيا وإمكان  
سَنَنْتَ أَجْمَلَهَا يا فَرَعُ عُثْمَانَ  
كَأَنَّ أَيَّامَهُ أَيَّامُ حَسَّانٍ  
من الوئامِ بِأَنْصَارٍ وَأَعْوَانٍ

لا يجهل شوقي مكان شعره من الخليفة والخديو واحتياج العروش إلى الشعراء  
يحمون حوزة الملك بأقلامهم احتياجهم إلى القواد يحمونها بسيوفهم، أفلا تراه يقول في  
أبياتٍ سبقت:

وابغِ الأحاديثَ واستعصمِ برايتها      سيان قُدت خميساً أم ملكت فما

كأنه يقول للخديو: إنك وقد ملكت فمي فقد قُدت جحفلًا جرارًا، ثم يقول إنه قائم  
في جانب الخلافة مقام حسان بن ثابت في جانب الرسالة. فشوقي يشعر بغناء الشعر في  
جانب الملك، وكأنه يخشى أن يغفل ممدوحه عن هذه الحقيقة فهو يذكره بها، وله من  
قصيدة في الخديو تتضمن أبياتاً رشيقة في وصف استقباله وقد عاد من الإسكندرية إلى  
مصر:

حتى نرى الدرّ وقد زينت	وزين الميدان والسلمان
وأزدحم البابُ وساحاته	وسدّة الرُكن وماجَ المكان
وقامت الرّاية خفاقة	للمجتلي من بعد طول اكتنان
حمرّاء فوق الحصن ممدودة	تومي إلى القصر بشبه البنان
قد بشر الناقوس بالمسلم الـ	عادل من قبل أن يُشير الأذان

### (٦) شعر شوقي في الرثاء

ولنختم بهذا الذي أوردناه باب المديح من الشوقيات، ولنأت ببعض الأمثلة من المراثي،  
وأولها مرثية شوقي للمرحوم الخديو توفيق، التي تتضمن أيضاً تهنئة الخديو السابق  
على توليه منصب أبيه قال:

بينَ ماضي الأسي وآتي الهناء	قام عذُرُ النُّعاة والبشراء
نبأ مُعذّر نفي بَعْضُهُ بَعْدَ	ضاً فكان السِّفيه في الأنباء
سُرٌّ من حيث ساءَ كلُّ مصافٍ	ساءَ من حيث سرُّ كلُّ مرء
ما نَظَرْنَا مُحَمَّدًا في فتاه	أن غَفَرْنَا الضَّرَّاءَ للسرَّاء

أمائيل من شعر شوقي

هَابَنَا الدَّهْرُ فِيهِ حَيًّا وَمَيِّتًا  
وعزاء البلاد أن يخلد المُلْد  
فَأَتَانَا مِنْ دَائِنَا بِالدَّوَاءِ  
ك وَيَحْيَا الْآبَاءُ فِي الْأَبْنَاءِ

ومنها خطابًا للمرحوم:

يَا أَمِيرِي أبا أَمِيرِي الْمُفْدَى  
أَسْهَرْتَنِي الْمَنُونَ فِيكَ وَنَامتِ  
مَنْ لَشَعْرِي بِذَاكَ بِالْإِصْغَاءِ  
لَا خَلَّتْ عَيْنُهَا مِنَ الْأَقْدَاءِ  
وَأَطَارَتْ عَنِ الْمَضَاجِعِ قَلْبِي  
أَسْكَنَ اللَّهُ جَنْبَهَا كُلَّ دَاءِ

ومنها:

جاء والعَصْرُ فَخَرَهُ بِبَنِيهِ  
فَبَنَى فِي الْبِلَادِ لِلْعِلْمِ دَوْرًا  
وَأَبَى أَنْ يُقَالَ عَنْ مِصْرٍ وَالْأَهْمِ  
وَأَبَى الدَّهْرَ سَرْعَةً فِيهِ إِلَّا  
يَا مَلِيكِي عَبَّاسَ هَنَنْتَهَا عَلِ  
هُوَ ذَا الدَّهْرُ عِنْدَ بَابِكَ أَلْقَى  
وَتَجَلَّدَ لِأَجْلِ مِصْرٍ فَلَوْلَا  
وَاحِمِ السَّيْفِ وَالْبَيْسِ التَّاجِ وَارِقِ الْ  
وَزِدِ الْمَلِكِ مِنْ شَبَابِكَ حُسْنًا  
وَفَخَارِ الْمِصْرِيِّ بِالْقُدَمَاءِ  
تَتْبَاهَى بِالْفِئْتِيَةِ النَّجَبَاءِ  
رَامَ فِيهَا تَضَنُّ بِالْبِنَاءِ  
أَنْ يَتَمَّ ابْنَهُ نِظَامَ الْبِنَاءِ  
يَاءِ جَاءَتْ تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءِ  
عُذْرَهُ فَاعْفُ لَا يَعْذُ لِلرِّيَاءِ  
ك لِمَا هَمَّ قَلْبُهَا بِالْعِزَاءِ  
عَرَشَ وَانْهَضَ بِالدَّوَلَةِ الْعِلْيَاءِ  
وَأَنْزَرَ عَصْرَهُ بِذَاكَ الذِّكَاءِ

ثم يقول:

وَتَعَزَّزَ بَرَبٌ يَلْدُزُ حَامِي  
إِنْ عَبْدَ الْحَمِيدِ سَيْفُ نَضْتِهِ  
حَوْزَةَ الدِّينِ قُدْوَةَ الْخُلَفَاءِ  
أَلْ عَثْمَانَ هَاشِمِي الْمَضَاءِ  
لَ حَفِيًّا بِأَلْكَ الْكُرْمَاءِ  
صَدَقَ الْوَعْدَ مِصْرَ فِيكَ وَمَا زَا

وهنا الدليل من أدلة لا تحصى على استمساك شوقي من الأول إلى الآخر بالجامعة الإسلامية، تجد هذه الروح فائضة من شعره مُنبئة في جميع جوارحه بحيث قد قيل بحق

## شوقي

إنه شاعر الإسلام والمسلمين، وقد مضى إلى ربّه وهذه الخدمة التي لم يتخلّف عنها دقيقة واحدة من عمره؛ نورٌ يسعى بين يديه.

ومن مرثي شوقي الشهيرة قصيدته في إسماعيل باشا الخديو الأسبق، وهي التي يقول فيها:

حلمٌ مدّه الكَرْى لك مدًّا      وسُدَى تُرْتَجَى لِجِلْمِكَ رَدًّا  
وحياة ما غادرتُ لك في الأحـ      ياء قبلاً ولم تَدْرُ لك بَعْدَا

ومنها:

يا أجلّ الكرامِ جاهًا ووجْهًا      وأبَرَّ الورى حَفِيدًا وجدًّا  
وكبيرِ الحياةِ في العَصْرِ والعا      لي فيه فما أرى لك ندًّا  
أين كِسرى وأين قيصر ممّا      نلتُ بالمجد أو بلغتُ مجدا

ومنها:

وغزاة في البيض والسود تبغي      مصر فيها مجددًا مستردا  
وبريد لها تسيل به القصد      ب وثان بالبرق أجرى وأهدى  
وخطوط بها التنائى تدان      وبخار به الأقاليم تندى

ثم يقول:

فتركتَ السَّرِيرَ مضطربَ الأحـ      ووالٍ من نأى ربه ليس يهدا  
لم تكن مَنْ جَنَى عليه ولكن      عودته الأيام أن يَسْتَبْدَا  
منعت مصر أن تتوج مصر      وأبى النيل أن يجرر وردا

وفيها يصف وقد الملوك يوم فتح ترعة السويس:

نهَضتُ مَصْرُ بِالزَمانِ نزيلا      وبأهليه يومَ ذلك وفدا  
خطرُوا بين زاخرين ولاقوا      ثالثًا من ندادك أخلّى وأندى

بين فُلك يجري وآخر رأسٍ      ولواء يحدو وآخر يُحدَى  
وملوك «صيد» يراح بهم في      واسع الرِّيف والصعيد ويُعدَى  
صور لم تكن حقاً وحلم      فجع الصبح فيه لمّا تبدَى

يظهر أن شوقي هو ممّن يُجيز استعمال «تبدّى» بمعنى بدا أي ظهر؛ إذ لا يخفى وقوع الاختلاف فيه، ومن الناس من يذهب إلى أن تبدّى لا تُفيد إلا معنى الدخول في البداوة، ثم يقول:

وقناطر يجفل الحصر عنها      كل يوم تعدّها مصر عدّاً  
وملكت السودان في الطول والعر      ض وفي شأنه المُعظّم عبداً  
نلت بالمال والدماء منه أرضاً      بجبال الياقوت والدرّ تُفدى  
ثم نظمته ممالك كانت      نار تنظيّمها سلاماً وبرداً

ثم يشير إلى الواقعة التي وقعت بين مصر والحبشة وإلى تمحيص الجيش المصري فيها فيقول:

ليت لم تغش بعده في حماها      حبش المكر والخديعة أسداً  
سلبوا مصر أي جيش كريم      كان للمجد والفخار أعدا  
أنت أنشأته فلم تر مصر      جحفاً بعده ولم تر جُنُداً  
وتولّيته بعطفك والبرّ      وللمكرّمات لم تألّ جهداً  
فهوى جيشك العظيم ومالت      رايةً كان حقها أن تُسداً  
ونفضت اليدين يأساً على الرغ      م كأن لم تجد من الصبر بُداً  
وإذا لم يكن من الله عون      فاطراح الآمال بالنفس أبدى  
يا لعصر رآك في العز لا يُر      سلّ دمعاً ولا يبئل خدّاً  
أين ودّ عهدت منه وعطف      وولاء مؤكّد كان أبدى  
وملوك له أتتك وسادا      تُ حداها إليك وفداً فوفداً  
أبيت الناس فيك للناس إلا      أن يُجاروا الزمان وصلّاً وصدّاً  
فرايت الحميم أول جافٍ      ووجدت الولي في البؤس ضدّاً  
ورجالاً لولاك لم يعرفوا العي      ش أبوا أن يقدموا لك حمداً

نعم هذا حال الناس مع الزمان يدورون حيث دار، ثم يقول:

بَانَ مَجْدُ الْبِلَادِ إِذْ بِنَتْ وَالصَّفْ      وَكَانَ الرَّجَاءُ حَيًّا فَأُودِيَ  
فبكى البائسون منك حُسامًا      طالما قد هامه الخَطْبُ قَدًّا

إن تأكيد المفعول المطلق يصح في الحقيقة لا في المجاز كما هي القاعدة؛ أي يُقال: سال السحاب سَيْلًا؛ لأنه حقيقي، ولا يجوز أن يُقال: سال كَرَمٌ حَاتِمٌ سَيْلًا؛ لأنه مجاز، غير أنّي لا أرى هذه القاعدة مرعية عند الشعراء من القديم.  
ثم يقول:

عُدْ إِلَى مِصْرِكَ الْوَفِيَّةِ وَاَنْزِلْ      فِي ثَرَاهَا وَاسْكُنْ مِنَ الْمَهْدِ لَحْدًا  
لَا تَقُلْ أَعْرَضْتُ بِلَادِي وَصَدَّتْ      مِصْرُ حَيْرِ هَوَى وَأَكْرَمَ عَهْدًا  
وَقَبِيحٌ بِالْدارِ أَنْ تَعْرِفَ الْبُغْضَ      وَبِالْمَهْدِ أَنْ يُبَاشِرَ حَقْدًا  
غَفَرْتُ مِصْرُ مَا مَضَى لِعَلِّي      وَبِنِيهِ وَلِلْحَفِيدِ الْمُفْدَى

فشوقي كان لا ينسى «الحفيد المُفْدَى» كيفما انقلب؛ إذ هو شاعره، والذي يريد شوقي أن يُدِيرَ الكلامَ كُلَّهُ عليه وإن انحرف عنه يَمَنَةً أو يَسْرَةً فلكي يرجعه إليه.  
ومن أحسن ما نظم شوقي في الرثاء قوله عند وفاة والده علي بك شوقي:

سَأَلُونِي لِمَ لَمْ أُرِثْ أَبِي      وَرِثَاءُ الْأَبِ دَيْنٌ أَيْ دَيْنٌ  
أَيُّهَا اللُّوَامُ مَا أَظْلَمَكُمْ      أَيْنَ لِي الْعَقْلُ الَّذِي يَسْعُدُ أَيْنَ  
يَا أَبِي مَا أَنْتَ فِي ذَا أَوَّلِ      كُلُّ نَفْسٍ لِلْمَنَايَا فَرَضَ عَيْنِ  
هَلَكْتَ قَبْلَكَ نَاسٌ وَقَرَى      وَنَعَى النَّاعُونَ حَيْرَ النَّقْلَيْنِ  
غَايَةَ الْمَرْءِ وَإِنْ طَالَ الْمَدَى      آخِذٌ يَأْخُذُهُ بِالْأَصْغَرَيْنِ  
وَطَبِيبٌ يَتَوَلَّى عَاجِزًا      نَافِضًا مِنْ طَبِّهِ حُقِّي حُنَيْنِ  
أَنَا مَنْ مَاتَ وَمَنْ مَاتَ أَنَا      لَقِيَ الْمَوْتَ كَلَانَا مَرَّتَيْنِ  
نَحْنُ كُنَّا مَهْجَةً فِي بَدَنِ      ثُمَّ صِرْنَا مُهْجَةً فِي بَدَنَيْنِ  
ثُمَّ عُدْنَا مَهْجَةً فِي بَدَنِ      ثُمَّ نَلَقَى جَنَّةً فِي كَفَنَيْنِ

وهذا من أعلى الفلسفة، وقد يُقال إن هذا معروف ليس فيه معنى مُبتكر، والجواب على ذلك أن أفصح الكلام هو ما تَضَمَّن المعنى المعروف لا المعنى الغامض ولكن العِبْرَة في القوالب. وأنتى نجد هذه الحقائق في مثل هذه الرقائق. وبعد أن ذكر كيف كان هو وأبوه واحدًا، ثم صارا اثنين عاد فقال إن هذين الاثنين سيصيران إلى واحد هو ابنه علي:

ثَمَّ نَحْيَا فِي عَلِيٍّ بَعْدَنَا      وَبِهِ نُبْعَثُ أَوْلَى الْبِعْثَتَيْنِ  
انظُرِ الْكُونَ وَقُلْ فِي وَصْفِهِ      كُلُّ هَذَا أَصْلُهُ مِنْ أَبْوَيْنِ

وهذا أيضًا من أعلى الفلسفة، وممَّا جاء في كتاب الله، قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الرُّؤُوسَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ﴾ ... وغير ذلك من الآي العظام في هذا المعنى، وقد فسَّر العلامة الرياضي الفريد الغازي مختار باشا — رحمه الله — في كتابه «سرائر القرآن» هذه الآيات وغيرها بقوله: إن جميع الكون مبنيٌّ على الزوجية، فالعالم الحيواني كلُّه أزواج كما هو ظاهر والعالم النباتي أيضًا لا يختلف عن العالم الحيواني في الزوجية، والجمادات فيها القوتان السلبية والإيجابية من الكهربائية أي فيها الزوج كالحيوانات والنباتات، فالكون كلُّه أبٌ وأمٌّ، ثم قال شوقي:

ما أبى إلا أخُ فارقتُه      وُدُّه الصَّدقُ ووُدُّ الناسِ مَينِ  
طالما قُمْنَا إلى مائدة      كانت الكِسرة فيها كِسْرَتَيْنِ  
وشربْنَا من إناء واحد      وغسَلْنَا بعد ذا فيه اليدينِ  
وتمشينا يدي في يده      مَنْ رآنا قال عَنَّا أَحْوَيْنِ  
نظَر الدهرُ إلينا نَظْرَةً      سَوَّت الشَّرِّ فكانت نَظْرَتَيْنِ  
يا أبى، والموت كأسٌ مُرَّة      لا تذوق النَّفس منها مَرَّتَيْنِ  
كيف كانت ساعة قَضِيَّتْهَا      كُلُّ صَعْبٍ قَبْلُهَا أو بَعْدُ هَيْنِ  
أشْرَبت الموتَ فيها جُرْعَةً      أم شَرِبت الموتَ فيها جُرْعَتَيْنِ

## شوقي

كأن شوقي يسأل أباه — رحمهما الله — كيف تجرّع تلك الكأس؟ هل تجرّعها نفساً واحداً أم تجرّعها أنفاساً؟ فقد صار الآن يدري ما دراه أبوه، وكلُّ حيٍّ فهو دأريها في يومٍ من الأيام، ثم قال:

لا تحفْ بعدك حُزناً أو بُكا      جمَدتْ منِّي ومنك اليوم عَيْن

أي جمدت عين أبيه بالموت وجمدت عينه بكونه أصبح لا يبكي لمصيبة بعد موت أبيه؛ إذ المصائب كلها تهون بعد هذا المصاب. وهذا معنى طرّقه الشعراء، فليس بجديد ولي أنا في رثاء صديقي محمود سامي باشا:

هانَتْ بمصرعك الأرزاءُ أجمَعها      فليس يعظُم من رُزءٍ ولو عَظما

وقد كرّرت في قصيدة حديثة؛ هي رثاء لصديقي الحاج عبد السلام بنونة عميد بلاد الريف بالمغرب:

يقُلُّ بعدك مدْفوناً فجعتُ به      أن استطارَ على ضعفي لحدّثان

ثم يقول شوقي:

ليت شِعْري هل لنا أن نلتقي      مرّة أم ذا افتراق الملوّين  
وإذا متُّ وأودعتُ الثرى      أنلقى حُفرةً أم حُفرتين

لعمري هذا هو المشكل الذي أعيى على الثقيلين عرفانه ولم يضىء من طريق العقل برهانه، وإنما هو ممّا أوحى به الدين وحيّاً لا يخالف العقل، بل هو يؤيِّده، وقد قال أحد السادة الصوفيّة: ما رأته العيونُ ينسب إلى العلم، وما رأته القلوبُ ينسب إلى اليقين. وهذا ممّا تراه القلوبُ لا العيون.

ثم يتساءل شوقي: هل بعد هذه الدنيا اجتماع حتى يجتمع بأبيه؟ وهل هذه هي الحفرة الأخيرة أم يعود فيلد مرة أخرى ويستقبل حفرة ثانية وهلم جرّاً. وقد ذهب الناس من كبير وصغير ودرج الخلائق من أوّل وأخير وهم في حَسرة أن يعرفوا من طريق



الفكر هذا السرّ في هذه الحياة الدنيا قبل أن يموتوا فماتوا والحسرة في قلوبهم، ثم يرثي جدّته:

خُلِقْنَا للحياة وللممات  
ومن هذين كلُّ الحادثات  
ومَنْ يُولَدُ يعيش ويمتُ كأن لم  
يمرَّ خياله بالكائنات  
هي الدنيا قتال نحن فيه  
مقاصد للحسام وللقناة  
وكلُّ الناس مَدْفُوعٌ إليه  
كما دُفِعَ الجبان إلى التّبّات  
نُرُوعُ ما نُرُوعُ ثم نُرمَى  
بسهمٍ من يد المَقْدور آتٍ

ومراد الشاعر هنا أن الإنسان يُرُوعُ طول حياته ويقضيها كلّها في آلامٍ وأهوال، ثم ينتهي منها إلى أعظم البلاء الذي هو الموت.  
ولي في هذا المعنى في رثائي للمرحوم أحمد باشا تيمور، وهو تَوَارَدَ خواطر:

لَعَمْرُكَ ما بالعيش إرب لعاقل  
تَوَعَّلَ في عِلْمِ الحقيقة خَاطِرُهُ  
تَسْلُسُلُ آلامٍ وتَرْدَادُ مَحْنَةٍ  
تُراوِحه في كربها وتُبَاكِره  
وخيبة آمالٍ وفَقْدُ أَعزّةٍ  
وبعد طوال السجِنِ فالموت آخِرُهُ

ثم أهنئ الفقيد بأنه جاز هذه الدنيا إلى حياة لا يروع فيها دائماً باستقبال الموت، فأقول:

لِيَهْنِكِ يا تيمورُ أَنْكُ جُرْتَهَا  
إلى ملاً لا يعرف الموتَ زائرُهُ  
وفارقتَ داراً لا يزال قَطِينُهَا  
يفكّر في الهول الذي هو غامرُهُ  
فإن تكُ عَقْبِي الدارَ قِسْمَةً فاضِلٍ  
فأقصى أمانيك الذي أنت صائرُهُ

ثم يقول شوقي لجدّته:

تبناك الملوك وكنت منهم  
بمنزلة البنين أو البنات  
يظنون المناقب منك شتّى  
ويؤون التقي والصالحات  
وما ملكوك في سوق ولكن  
لدى ظلّ القنا والمرهفات

أي إنها لم تكن أمةً اشتراها النخاس في سوق، ولكن كانت من جملة السَّبِي في الحرب ثم يفصل ذلك:

عَنْتَ لَهُمْ بِمَوْرَةَ بِنْتِ عَشْرِ      وَسَيْفِ الْمَوْتِ فِي هَامِ الْكُمَاةِ  
فَكَنْتَ لَهُمْ وَلِلرَّحْمَنِ صَيْدًا      وَوِاسِطَةَ لِعِقْدِ الْمَسْلَمَاتِ  
تَبِعْتَ مُحَمَّدًا مِنْ بَعْدِ عَيْسَى      لَخَيْرِكَ فِي سَنِيكِ الْأُولِيَّاتِ

وتحرير الخبر أنها كانت من جملة سَبِي حرب المورة فهي رومية الجنس، نشأت في الإسلام وهي بنت عشر سنوات، ولم يشأ شوقي أن يجعل للمتنبى وحده حصّة الفخر بجده، ويجعل لجده حقّ الفخر به، فالمتنبى يقول في رثاء المرحومة جدّته:

ولو لم تكوني بيت أكرمٍ والدٍ      لكان أباك الضخم كونك لي أمًّا

أي إنها تقدر أن تفتخر بنسب ابنها، ولكن لو فرضنا أنها لم تكن بنت أبٍ كريم لكان يجزيها في مقام الفخر كونها جدّة أبي الطيب. وهنا شوقي يقول:

ولو لم تظْهري في العُربِ إلَّا      لأحمدَ كنتِ خيرَ الوالِداتِ  
تجاوزتِ الولائدَ فاخراتِ      إلى فخرِ القبائلِ واللغاتِ  
وأحكَمَ من تحكَمَ في يراعٍ      وأبْلَغَ مَنْ تَبْلَغُ من دِوَاةِ  
وأبْرَأَ مَنْ تَبْرَأُ من عِدَاءِ      وأنزَهَ مَنْ تَنْزَهُ عن شِنَاتِ  
وأصَوْنَ صائِنَ لأخيه عِرْضًا      وأحْفَظَ حَافِظِ عهدِ اللدَاتِ  
وأقتلَ قاتلَ للدَّهرِ جرءًا      وأصْبَرَ صابِرِ للغاشِيَاتِ

والحاصل أنه أفضى بجميع ما عنده من حُسن الظنِّ بنفسه رحمه الله، فلولا قليل لبلغ من الفخر مبلغ ابن سناء الملك، ولكن الذي حفّزه إلى ركوب هذا المركب في رثاء جدّته هو أن والده الروحي أبا الطيب قد ركب هذا المركب من قبل في مثل هذا المقام ولا عَزُو أن يحذو الفتى حذو والده.

ولما كنّا في باريس أنا وشوقي لأوّل معارفتنا وكلانا في الثالثة والعشرين من العمر، كان يذكر لي دائماً محبة عبد الرحمن باشا رشدي له، ويطلعني على كتب من هذا الوزير إليه، ولما كنّا نمرح ونعبث ويقول كلُّ منّا للأخر كل شيء يخطر بباله، قال لي مرة: إنه يحب عبد الرحمن باشا رشدي مثل والده، وإنه متى مات سيياد برثائه فكانت نكتة ضحكنا لها كثيراً، وقلت له: ما أحسن وفاءك! وقد حصل ذلك فعلاً؛ فإن عبد الرحمن باشا رشدي بعد هذا الكلام بسنوات قد مضى إلى رحمة ربّه، وقد أنجز شوقي وعده برثائه، وقال فيه ما يدلُّ على شدة تعلقه به فقال:

يقولون رشدي مات قُلت صدقتُمو	ومات صوابي يوم ذاك وأمالي
وركني الذي للنائبات أعدّه	وذخري في الماضي وعوني على الحال
أرشدي لقد عشت الذي عشت سيِّداً	ولم تك عبد الجاه والأمر والمال
ولم تأل كتب العلم درساً ومطلباً	ولم تك عنها في الثمانين بالسّالي
وكنت تحلُّ الفضل أسمى محلّة	وتنزل أهل الفضل في المنزل العالي
ولم تتخيّر ألف خلٍّ وصاحب	ولكن من تختاره الواحد الغالي

فشوقي في رثاء عبد الرحمن رشدي لم ينس أن يمدح نفسه أيضاً، ثم يقول:

حببتك والدنيا تحبُّك كلّها	وزدتك حبّاً عندما كُتر القالي
وقست بك الأعيان حياً وميتاً	فوالله ما جاء القياسُ بأمثال
ولو أنّ إنساناً من الموت يُفتدى	فديتك بالنفس النفيسة والآل

ورثي فقيدي العلم الوزير على باشا مبارك والطبيب سالم باشا سالم، فقال:

ما لذا الدهر ماله والدعائم	أعليّ بالأمس واليوم سالم؟
نقص الله مصر من طرفيها	بالفقيدين من طبيب وعالم
الذي كان مظهر العلم فيها	والذي كان طبها والمراهم
وإذا قدر الإله شقاء	لبلاد أصاب فيها الأعظم

وله رثاء في غاية السلاسة للمرحوم سليمان باشا أباطة قال فيه:

من ظنَّ بعدك أن يقول رثاء	فليرث من هذا الوري من شاء
---------------------------	---------------------------

ومنها:

أبَا مُحَمَّدٍ أَتَدُّ فِي ذَا النُّوَى      وَأَرْفُقُ بِأَلِكِ وَأَرْحَمُ الْأَبْنَاءِ  
وَأَسْتَبِقُ عَزَّهُمْ بِطَهْرَاءِ التِّي      كَانُوا النُّجُومَ بِهَا وَكُنْتُ سَمَاءَ  
أَدْجَى بِهَا لَيْلُ الْخُطُوبِ وَطَالَمَا      مَلِئْتُ مَنَازِلَهَا سَنَى وَسَنَاءَ  
وَإِذَا سَلِيمَانَ اسْتَقَلَّ مَحَلَّةً      كَانَتْ بِسَاطًا لِلنَّدَى وَرِخَاءَ

لا شك أن شوقي عندما لفظ اسم سليمان خطر بباله سليمان بن داود، فتذكّر معه بساط الريح والريح الرخاء، فجاء بهما في البيت، وحولهما إلى معنى آخر، وهكذا هو الشعر كثرة شجون وانتقال أفكار، وأحسن الناس شعراً أسرعهم انتقالاً، ثم يقول:

سَارَتْ جِنَازَةٌ كُلُّ فَضْلٍ فِي الْوَرَى      لَمَّا رَكِبْتَ الْآلَةَ الْحَدَبَاءِ  
وَتِيَّتَمُ الْأَيْتَامُ أَوَّلَ مَرَّةٍ      وَرَمَى الزَّمَانَ بِصَرْفِهِ الْفُقَرَاءِ  
وَلَقَدْ عَهَدْتُكَ لَا تَضِيْعُ رَاجِيًا      وَالْيَوْمَ ضَاعَ الْكُلُّ فَيْكَ رَجَاءَ  
وَعَلِمْتُ أَنَّكَ مَنْ تَوَدُّ وَمَنْ يَفِي      فَفَقِفِ الْغَدَاةَ لَوْ اسْتَطَعْتَ وَفَاءَ  
أَبْنِيهِ كُونُوا لِلْعُدَى مِنْ بَعْدِهِ      كَيْدًا وَكُونُوا لِلْوَلِيِّ عَزَاءَ

وكان سليمان باشا أباطة من أفاضل مصر لائقاً بهذا الرثاء، وقد تعرّفت إليه بواسطة أستاذنا الشيخ محمد عبده، وسمرنا عنده ليلة في سنة ١٨٩٠، فرأيت كثيراً من نُبْله، وسمعت جزيلاً من فضله، ولشوقي رثاء رثى به سليم بك تقلاً مؤسس جريدة الأهرام، فقال:

ضَنَّ الزَّمَانُ بِهِ وَكَانَ كَرِيمَا      وَاعْتَلَّ بَعْدَ أَنْ اسْتَقَامَ سَلِيمَا  
فَقَدْتُ يَدَاهُ مِنْهُ أَسْمَرَ حَالِيًا      لَدُنَا كَمَا تَهْوَى الْأُمُورَ قَوِيمَا  
بَكَتِ الْقُلُوبُ عَلَيْهِ قَبْلَ عُيُونِهَا      فَجَرَّيْنَ حَبَّاتٍ وَسَلْنَ صَمِيمَا  
أَمُودِعُ الْأُوطَانَ تَارَكَ عَهْدَهَا      حِكْمًا وَأَدَابًا بِهِ وَعِلُومَا  
مَاذَا رَحِيْلُكَ إِنَّمَا كَانَتْ تَرَى      لَكَ أَنْ تَدُومَ لِمَجْدِيهَا فِيدُومَا  
لِلَّهِ أَهْرَامُ الزَّمَانِ وَمَا جَلَا      فِيهَا لِسَانُ الصِّدْقِ مِنْكَ كَرِيمَا  
أَوْدَعَتْهَا لِمَحِّ الْهَدَى وَبَدَائِهَا      لَوْ كُنَّ لِلجَّوْزَاءِ كُنَّ نَجُومَا

فَارْحَلْ حَبِيبًا مَا يُطَاقُ رَحِيلَهُ  
وَاسْتَحْفِظِ الْأَهْرَامَ قَوْمَكَ إِنَّهُمْ  
وَأَقْدُمُ مَرْجَى مَا يُطَاقُ قَدُومًا  
سَمُّ الْأَعَادِي حَادِثًا وَقَدِيمًا

وله رثاء لعلي حيدر باشا يكن:

قُلْتُ لِمَا لَقِيتَ حَيْدَرَ يَوْمًا  
هَكَذَا الْبُرِّ وَالنَّدَى وَالْأَيْدِي  
أَنْتَ لَوْ كَانَ فِي الْغَنَى لَكَ ثَانٌ  
شُرِّفْتَ بِالْوَزِيرِ أُسْرَةَ مَجْدٍ  
مِثْلَ مَا شُرِّفْتَ بِحَاتِمِ طِي  
فَتَوَلَّى فَا نَهْدَ رُكْنَ قَوِي  
لِعَلِيٍّ فِيهَا الْمَقَامَ الْعَلِيِّ  
وَأُصِيبَتْ وَزَارَةٌ وَبِلَادٌ

ثم عزى فيها ولده صفر بك، فقال:

العزاء العزاء يا صفر الخيـ  
حَكَمَ اللَّهُ فِي أَبِيكَ وَحُكْمَ اللَّهِ  
كَلْنَا مَنْ بَكَى أَبَاهُ وَكَلُّ  
ر فَأَنْتَ الْفَتَى اللَّيِّبَ النَّقِيَّ  
فِي الْخَلْقِ سَابِقٌ مَقْضِي  
بَعْدَ حِينٍ مُودِعٌ مَبْكِي

ورثى المرحوم أمين باشا فكري، وكان أمين باشا صديقًا للمرحوم إسماعيل باشا صبري فقال يرثي الأول ويعزّي الثاني:

يَا أَقْرَبَ النَّاسِ مِنْ أَمِينٍ  
خَطْبُكَ هَذَا أَجَلٌ خَطْبُ  
أَسْلِيكَ فِيهِ وَلِي فَوَادٍ  
فَقُمْ بِنَا نَنْدُبُ الْمَعَالِي  
أَمْثَلُ فِكْرِي أَبَا حَسِينِ  
وَالنَّاسُ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ  
مُؤْمَلُ الْكُلِّ فِي شَبَابِ  
كَذَلِكَ الْمَوْتُ كُلُّ يَوْمٍ  
فَلَوْ عَلِمْتَ الْمَنُونَ شَخْصًا  
وَأَفْقَدَ النَّاسِ لِلثَّمِينِ  
فَخُذْ لَهُ الصَّبْرَ بِالْيَمِينِ  
يَذُوبُ لِلْمَيْتِ وَالْحَزِينِ  
فَجَرَحُهَا الْيَوْمَ فِي الْوَتِينِ  
يَمُوتُ فِي نَضْرَةِ السَّنِينِ  
وَالْقَطْرُ يَرْجُوهُ لِلشَّوْتِينِ  
وَمُرْتَجَى الْأَهْلِ وَالْبَنِينِ  
يُبِيدِي فَنُونًا مِنَ الْجَنُونِ  
لَقَلْتُ لَا عَقْلَ لِلْمَنُونِ

## شوقي

وكان إسماعيل باشا صبري، كما لا يخفى، من كبار الشعراء ومن حسنات مصر الكبرى، وقد رثى صديقه أمين باشا فكري بقصيدة، أثبتها شوقي في ديوانه تعظيمًا لمقام الرائي والمرثي، فها أنذا أيضًا أقفو أثر شوقي فأنشر رثاء شوقي ورثاء صبري وأعززهما بثالث هو رثائي لأمين باشا، فقد كان صديقي وكان من شبّان مصر المشار إليهم بالبنان، والذين يجدر بمصر وبغيرها من بلاد العرب أن ترتيهم وتبكيهم على طول الزمان، قال إسماعيل باشا صبري:

وهبتك يا دهرٌ من تطلّب	أبعد أمين أخ يُصحب
طويت المودة في شخصه	فأيّ وداً امرئٍ أخطب
وأيّ بديلٍ له أرتضي	وأيّ شمائله أندب
أمينٌ اتنّد في النوى وارُعني	فبيني وبينك ما يوجب
أتذكّر إذ أنت منّي النياط	من القلب أو أنت لي أقرب
وإذ نحن هذا لهذا أخ	وهذا لذا ابنٌ وهذا أب
ومنّ قال عنّا من الناظرين	نديمي جذيمة لا يكذب
حسبتُ بأنك لي خالد	فكان الذي لم أكن أحسب

كم تتوارد الخواطر بين الشعراء فإني عندما قرأت هذا البيت تذكّرت قولي منذ شهر من الزمن لا غير في رثاء صديقي الحاج عبد السلام بنونة:

قد كنتُ أملُ أن نحى مُعاصرة	مديدٌ عُمر وألقاه ويلقاني
أدعو له في جناني كلّما انفردت	نفسى بنجوى وأرعاه ويرعاني
فخيّب البينُ ما قد كنتُ أمله	وكم أرثني الليالي ضدّ حسباني

ثم يقول إسماعيل صبري:

أفي ذا الشباب وهذا الإهاب	يموت الفتى الطاهر الطيّب
عجيب من الموتِ أفعاله	وعثبي على فعله أعجب
بذا حكّم الله في خلقه	لكلّ امرئٍ أجلٌ يُكتب
وجدتُ الحياةَ طريقَ الممات	وكلُّ إلى حتفه يسرّب

ويعثر فيه الفتى بالشباب  
ويتعَبُ بالزَّادِ فيه الفَقِيرُ  
ويشقى أخو الجَهْلِ في جَهْلِهِ  
ويخرج بالعالم المَذْهَبُ  
مَوارِدُ مَشْرُوعَةَ للحياة  
فأَيُّ مَوارِدِها الأَعْدَبُ  
أَتَعْلَمُ عَيْنُ الرَّدَى مَنْ تُصِيبُ  
وتأه به الشرق والمغرب  
لَمَّا تَكَامَلَ نورُ الأَمِينِ  
وأوفى المكارم ما أَمَلتُ  
طواه الرَّدَى عِلْمًا فانطوى  
فيا نائياً والهوى ما نأى  
هنيئًا لدار تيممتها

ومنها:

حسبت على رحمت الرحيم  
وجادك رضوانه الصَّيِّبُ  
ولا زالت السحب مُنْهَلَّةً  
وأنت لأذيالها تسحب  
وروتك منّا دموع تَسِيلُ  
تخامرُها مُهَجٌ تسكبُ

وأما رثاء كاتب هذه السطور للمرحوم أمين باشا فكري، فهو هذا:

بقيّة مجيدٍ ودّعت يوم ودّعا  
وَأَمالُ عَزٍّ أن تتقطّعا  
ولم تنعه الأيامُ إلاّ وأدّمت  
من الشرق شطرًا في منيته معا  
لقد جاءنا نوؤ الزمان مصائبًا  
يلوح لنا أن مُزْنها ليس مقلعا  
وسبحان من ساق الرَّدَى بوجوهه  
فلقى لعمرى الجمع والفرد مصرعا  
إذا شنَّ جيش النُحس في القوم غارةً  
فما أجدَر الأرزاء أن تتنوعا

وقد وقع مصاب أمين باشا فكري في أيام كانت كلُّها مصائب سياسية على مصر؛  
من جملتها استيلاء الإنجليز على السودان:

وما كنت حتى اليوم أحسبُ دهرنا  
إذا ساء لا يَرْتاد للعدُّر مَوْضعا  
ألم يكفِه ما غال من كلِّ غاية  
وأفسد من معنَى وعطل مَرَجعا

وراخى مجالات المراثي وأوسعا  
وتنقلب العلييا بمارن أجدعا  
على فائتٍ ولينع دهرُك من نعي  
إذا كان من أودى الأمين المشيعا  
فإنني فتى أبغي أنوح وأجزعا  
وقلت لطرّفي اليوم لا تأل مدمعا  
فكلُّ شرابٍ زينه أن يشعشعا  
إذا أنا لم أستف ذا الكأس مُترعا  
ولا كان قلبي من أخي الود بلقعا  
لو احتملتها الشم مالت تصدعا  
أعار الليالي صفوه رغن مشرعا  
وقبلي نجوم الأفق مثلي من رعي  
فلا زهرت تلك الكواكب مطلعا  
بروق أمانٍ كن بالأمس لمعا  
وليس يرع الناس إلا لأروعا  
ولكنه كان المصارع أجمعا  
وصدق المبابي والذمام الممنعا  
ولا خطة إلا ثوت معه مضجعا  
كفته فريديات الخصال مُشفعا  
وخلده لو أن في الخلد مطمعا  
ولم يلق أسرى منه نفسا وأرفعا  
فلا رحن للعلياء إلا ترزععا  
فلم يبق عاصٍ منه حتى تطوعا  
ولا من قلوب الخلق أقرب موقعا  
ولا زفرات الصدر إلا تصنعا  
ولا حزم للمحزون إلا مضيعا  
لها الشمس حتى لا ترد بيوشعا  
وكم شفة باتت تجاور إضبعها

وضيق أرجاء الرجاء فسدها  
كذا فليجل الخطب وليفدح الأسى  
حلفت فلا تمرى النوادب عبرتي  
فهيها ما إن أشتار لفاع  
أحببنا إن قيل في الصبر رجلة  
تركت لكم فضل التصبر صبرة  
وشعشع كئوس الدمع بالدم ساقيا  
واعتدها نحو الأمين خيانة  
فما كان ودي للأعزة ضائعا  
حملت له بين الضلوع أمانة  
وأصفيته مني إزاء لو أنه  
وما زلت أراه على البعد صاحبا  
فإن يك هذا الترب غرب بدره  
ولا لمعت تلك البروق وقد حبت  
قضى اليوم من راع البرية رزوه  
ولم يأت فيه الموت مضرع واحد  
أصاب الحجي والعلم والحزم والمضا  
وما بقيت في المكرمات سجية  
فلو نفعت عند المنون شفاعة  
ودافع عن حوبائه طيب الثنا  
ولكن داعي الموت لا يقبل الرشى  
مصاب له الأقطار إذ شاع زلزلت  
أذل إباء الدمع من كل جامد  
ولم أر في الأرزاء أبعد غارة  
عشية ما في الناس مالك عبرة  
عشية لم تبق الفجيعة مسكة  
عشية وارى الناس شمسًا وأظلمت  
فكم من يد أضحت تدق بأختها



فإن يك وادي النيل أشعرَ فَقَدَهُ  
كريم به لفظ الكريم مُقَصِّر  
توَحَّى طريقَ الخيرِ مَحْضًا كأنه  
له خُلُقٌ سَهْلٌ ونَفْسٌ أَبِيَّةٌ  
وأقلامٌ صِدْقٌ راجع في ولائها  
فَمَنْ بعد عبد الله كان مُؤَمَّلًا  
فلا جبل في الشام إِلَّا تَصَعَّصَا  
إذا قِيلَ عن قومِ كِرامٍ توسعا  
من المَهْدِ حتى اللُّحْدِ جاءَ لِيَنْفَعَا  
وحُسْنٌ خِلالِ دونها الرُّوضِ ممرعا  
لأكتب من أوتي الكتاب وأبرعا  
بأن لم يَغِبْ ذا الأصلِ إِلَّا وفرعا

هذه ثلاث مرات في أمين باشا فكري لثلاثة أصحاب من أعز الناس عليه وأعزهم له. ولو فسح المقام لاستوفيت له ثلاثين مرتبةً وكان بها قَمِنًا، وقد تأملت الآن كيف كنا أربعة أصحاب، كلُّ يحب إخوانه الآخرين ويُجَلِّهم، فقد كنت أحبُّ أمين باشا وأجلُّه، وكانت بيننا مراسلة بعد مراسلة مع أبيه عبد الله باشا فكري الأديب المشهور، وكنت أحبُّ إسماعيل باشا صبري وأجلُّه إجلالي لأخيه أمين باشا. ولما كان صبري مُحَافِظًا للإسكندرية وقدمها من أبناء عمي الأمير عارف أرسلان احتفى به إسماعيل باشا جدَّ الاحتفاء، فلما عاد ابن عمي إلى سورية رغب إليَّ في أن أرسل قصيدة بامضائه إلى إسماعيل باشا شكرًا له على حفاوته، فنظمت قصيدة سيقروها قرأء ديواني الذي تحت الطَّبْع. وكنت أحبُّ شوقي وأجلُّه وأقدسه كما يدلُّ عليه كتابي هذا، وكان شوقي يحبُّ صبري وفكري ويُجَلِّهما كما ترى من شعره. فهؤلاء ثلاثة إخوان في نَسَقٍ قد طوتهم المنون من دوني، وبقيت في حياة موحشة بفقد أصحابي، مُقَفِّرة من أنسِ أترابي أتسلَّى عنهم بالآثار والذكريات، وأرسل وراءهم الحسرات والزفرات الكُبريات، قائلًا: لا حياة بعد صدع ذلك الشَّمْل، وبني منهم فوق الرمل ما بهم في الرمل، كما قال أبو الطيب من قبل.

ولما أصاب إسماعيل باشا صبري حادثٌ في القطار الحديديّ بعث شوقي إليه بهذه الأبيات التي يصحُّ أن تكون من جُملة مُختاراته:

أَتَتَّنِي الصُّحُفُ عنكَ مُخَبِّرات  
بخطبك في القطار أبا حُسَيْن  
أُصِيبُ المَجْدُ يوم أُصِبت فيه  
وساء الناس أن كَبِت المعالي  
بحادثه ولا كالحادثات  
وليس من الخطوب الهيئات  
ولم تخلُ الفضيلة من شكاة  
وأزعجهم عثار المَكْرُمات

ولستُ بناسِ الآدابِ لَمَّا      تراءت ربهَا مُتلهِّفات  
وكانَ الشعرُ أجزَعها فؤادًا      وأحرصها لَدِيكَ على حِياة  
هَجَزتَ القولَ أياَمًا قصارًا      فكانتَ فِترَةً للمُعْجِزات

فما أبدعَ قوله: فكانت فترة للمعجزات.

### (٧) شعره العائلي

ولشوقي من الشعر العائلي لا سيمًا في خطاب أولاده ما يرويه الناس ويستلطفونه، وإني لأختار منه قوله لولده علي بك يوم ولادته:

رزقت صاحب عهدي      وتمَّ لي النسل بعدي  
هم يحسدوني عليه      ويغبطوني بسعدي  
ولا أراني ونجلي      سنلتقي عند مجد  
وسوف يعلم بيتي      أنني أنا النسل وحدي  
فيا علي لا تلمني      فما احتقارك قصدي  
وأنت مني كروحي      وأنت من أنت عندي  
فإن أساءك قولي      كذب أباك بوعد

قيل لنا بليون الأول: نريد أن نكتب تاريخ عائلتك، وقد تحيرنا من أين نبدأ؟ فقال: ابدءوا بي، فإني أنا عائلتي. وشوقي يريد أن يقول إن ولده لن يبلغ عبقريته؛ فلذلك سيكون شوقي وحده هو نسل شوقي وليس في ذلك تصغير لابنه؛ أي لا غضاضة على ابنه إن قصر عن شأو أبيه فليس كأبيه كثير من الخلق، فشوقي يعرف من نفسه أنه سينفرد وأن ابنه لن يدركه، وهذا يُشير إلى المعنى الذي قلته أنا من رثاء شوقي:

هذا أميرُ الشعرِ غير مُدافع      في الشرق أجمع منذ فتق لهاية  
ما عابَ أهلَ العبقريَّةِ أنهم      قد قصروا في الجري عن غاياته

ومثله قولي في الإفرنج يوم هزمهم صلاح الدين في وقعة حطين:

لم يجبؤوا ساعة وإن فشلوا      وإنما الليثُ دونه النمر

وكان لي صاحبٌ لا بأس به، وكان تامَّ الرجوليَّةِ فارسًا مغوارًا قاريًا للضيف، وإنما كان له أبٌ أعلى منه بدرجاتٍ؛ فكان الناس يروُّنه صغيرًا في جانب أبيه ويقولون لي: ولد النجيب لا ينجب، فكان يقول لي: إني والله لم أكنْ مُقَصِّرًا في وغي، ولا في ندَى، ولا ممَّن يجد الناس فيه مُنتقدًا، ولكن أبي فضحني وأظهر قصوري ولو كنت ابن رجل آخر لكان أظهرَ لنجابتي، فإنما الناس تصغر وتكبر بالقياس.

## (٨) الحكايات في شعر شوقي

ولم يجتزئ شوقي من الشعر بالأمداح والمراثي والأمثال الحكمية والمراسلات الإخوانية، بل هام في جميع أودية الخيال، وضرب في عالم الإنشاد في كلِّ منكب، وأبى إلا أن يكون شاعرًا كاملَ الأدواتِ مُستوفياً الشروط، قابضًا على ناصية الفصاحة في كلِّ موضوع، فنظم شعرًا كثيرًا من الحكايات على نسقٍ لافونتين، ونظم على اللسن الطير والحيوانات والحشرات. وله في الجزء الأول من الشوقيَّات أربعون أو خمسون صفحة مملأى بهذه الخرافات، جعل كلامه فيها مُناسبًا لموضوعها، فهو كما يعلو في المقامات العالية ويختار لها فخم الكلام وشريف اللفظ يسفُّ في المقامات السانجة ويلبسها القوالب الخفيفة السهلة اللاتقة بها؛ فتراه مثلًا يقول في حكايته عن الخفَّاش ومليكة الفراش:

مِرَّتْ عَلَى الْخَفَّاشِ	مليكة الفراش
تَطِيرُ بِالْجُمُوعِ	سعيًا إلى الشموع
فَعَطَفَتْ وَمَالَتْ	واستضحكت فقالت:
أَزْرَيْتِ بِالْغَرَامِ	يا عاشقَ الظلام
صِفْ لِي الصِّدِيقَ الْأَسْوَدَا	الْخَامِلَ الْمُجْرَدَا
قَالَتْ سَأَلْتُ فِيهِ	أَصْدَقَ وَأِصْفِيهِ
هُوَ الصِّدِيقُ الْوَافِي	الْكَامِلُ الْأَوْصَافِ
جِوَارِهِ أَمَانٌ	وَسِرُّهُ كِتْمَانٌ
وَطَرْفُهُ كَلِيلٌ	إِذَا هَفَا الْخَلِيلُ
يَحْنُو عَلَى الْعَشَّاقِ	يَسْمَحُ لِلْمُشْتَاقِ
وَجُمْلَةُ الْمَقَالِ	هُوَ الْحَبِيبُ الْغَالِي

فَقَالَتِ الحَمَمَاءُ	وقولها استَهْزَاءُ
أَيْنَ أَبُو المَسْكِ الخَصِي	ذو الثمن المسترخص
مَنْ صَاحِبِ الأَمِيرِ	الظاهر المُنِيرِ
إِنْ عَدَ فِيمَنْ أَعْرَفَ	أَسْمُو بِهِ وَأَشْرَفَ
وَإِنْ سُئِلْتَ عَنْهُ	وعن مكاني منه
أَفْأَخِرِ الأَتْرَابِ	وَأُنْثِنِي إِعْجَابِ
فَقَالَ يَا مَلِيكَهُ	وَرَبِّةَ الأَرِيكِهِ
إِنَّ مِنَ الغُرُورِ	مَلَامَةَ المَغْرُورِ
فَأَعْطِنِي قَفَاكَ	وَامْضِي إِلَى الهَلَاكَ
فَتَرَكْتَهُ سَاخِرَهُ	وَذَهَبْتَ مَفَاخِرَهُ
وَبَعْدَ سَاعَةٍ مَضَتْ	مِنَ الزَّمَانِ فَانْقَضَتْ
مَرَّتْ عَلَى الخَفَّاشِ	مَلِيكَةِ الفِرَاشِ
نَاقِصَةَ الأَعْضَاءِ	تَشْكُو مِنَ الفَنَاءِ
فَجَاءَهَا مُنْهَمِغًا	يُضْحِكُهُ مِنْهَا البِكَاءُ
قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ	هَلَكْتَ أَوْ لَمْ تَهْلِكْ
رُبَّ صَدِيقٍ عَبْدٌ	أَبْيَضُ وَجْهَ الوُدِّ
يَفْدِيكَ كَالرَّئِيسِ	بِالنَّفْسِ وَالنَّفِّيسِ
وَصَاحِبِ كَالنُّورِ	فِي الحُسْنِ وَالظُّهُورِ
مُعْتَكِرِ الفُؤَادِ	مُضِيَّعِ الوُدَادِ
حِبَالَهُ أَشْرَاكَ	وَقُرْبِيهِ هَلَاكَ

نعم كم من شخص حسن الوجه سيئ الفعل، هذا الذي يريد شوقي أن يستفصه من هذه الحكاية، كما أراد أن يستخرج من هذه الحكايات كلها العبر التي استخرجها أمثاله من الشعراء أو من الكتاب الذين تكلموا على ألسن الحيوان والطيور، ورموا مرامي حكيمة بعيدة من هذه الحكايات الصغيرة، وهم مثل صاحب كليله ودمنة وغيره. ومن أقوال شوقي في هذا الباب حكاية عن الأسد عندما استوزر الحمار:

لَلَّيْثِ مَلِكِ القَفَارِ	وَمَا تَضُمُّ الصَّحَارِي
سَعَتْ إِلَيْهِ الرِّعَايَا	يَوْمًا بِكُلِّ انْكَسَارِ

يا دامي الأظفار	قالت تعيش وتبقى
يسوس أمر الضواري	مات الوزير فمن ذا
قضى بهذا اختياري	قال الحمار وزيري
ماذا رأى في الحمار	فاستضحكت ثم قالت
بمضحك الأخبار	وخلفته وطارت
كليلة أو نهار	حتى إذا الشهر ولّى
وملكه في دمار	لم يشعر اللئث إلا
والكلب عند اليسار	القرد عند اليمين
يلهو بعظمة فار	والقط بين يديه
مثلي عديم الوقار	فقال من في جدودي
وهيبتني واعتباري	أين اقتداري وبطشي
وقال بعد اعتذار	فجاءه القرد سرّاً
كُنْ عالي الأنظار	يا عالي الجاه فينا
من رأيكم في الحمار	رأي الرعية فيكم

وقال في القبرة وابنها:

تطير ابنها بأعلى الشجره	رأيت في بعض الرياض قبرة
لا تعتمد على الجناح الهش	وهي تقول يا جمال العش
وافعل كما أفعل في الصعود	وقف على عود بجنب عود
وجعلت لكل نقلة تمن	فانتقلت من فنن إلى فنن
فلا يمل ثقل الهواء	كي يشترخ الفرخ في الأثناء
لما أراد يظهر الشطاره	لكنه قد خالف الإشارة
فخانته جناحه فوقعا	وطار في الفضاء حتى ارتفعا
ولم ينل من العلامناه	فانكسرت في الحال ركبته
وعاش طول عمره مهناً	ولو تأنى نال ما تمنى
وغاية المستعجلين فوته	لكل شيء في الحياة وقته

وقال في الثعلب وهو في السفينة:

أبو الحصين جالَ في السفينه	فعرَفَ السمين والسمينه
يقول إن حاله استحالا	وأن ما كان قديماً زالا
لكون ما حلَّ من المصائب	من غضبِ الله على الثعالب
ويغلظ الأيمان للديوك	لما عسى يبقى من الشكوك
بأنهم إن نزلوا في الأرض	يرون منه كلَّ شيء يرضي
قيل فلماً تركوا السفينه	مشى مع السمين والسمينه
حتى إذا ما نصفوا الطريقا	لم يبقَ منهم حوله رَفيقا
وقال إذ قالوا عديم الدين	لا عجبَ أن حنثت يميني
فإنما نحن بنو الدهاء	نعمل في الشدة للرخاء
ومن تخاف أن يبيع دينه	تكفيك منه صُعبة السفينه

وخلاصة القول أن شوقي لم يُهمل هذا الباب أيضاً، وأنه دنا من اللفظ إلى الغاية التي تدركها الأطفال ويحفظها الجهال ولكلِّ مقام مقال. وكان مثله في هذا بشار فقد حدث ابن مهرويه عن أبيه قال: قلت لبشار يا أبا معاذ، إنك لتأتي بالأمر المتفارق، فمرة تُثير بشعرك العجاج فنقول:

إذا ما ضربنا ضربة مضرية	هتَكْنَا جِبابَ الشمس أو قطرت دما
إذا ما أعرنا سيدياً من قبيلة	نرى منبر صلَّى علينا وسلماً

ثم تقول:

رباب ربّة البيت	تصبُّ الخلَّ في الرِّيت
لها سبعُ دجاجات	وديكَ حَسَن الصَّوت

فقال بشار: «إنما أكلّم كلَّ إنسان على قَدْر معرفته؛ فأنت وعلية الناس يستحسنون ذلك، وأما رباب فهي جارية تربِّي دجاجاً وتجمع بيضهن، فإذا أنشدتها هذا حرصت على جمع البيض، وهو أحسن عندها وأنفق من شعري كلّه، فإذا أنشدتها في النمط الأوّل ما فهمته ولا انتفعت بها.»

قلنا: وهذه قضية لا جدال فيها؛ فالثوب ينبغي أن يُفصل على قدر القامة، والقول يجب أن يتناسب مع الحالة، وقد أورد أبو العلاء المعري قصة بشار هذه في عرض الكلام على قصيدة المتنبي السخيفة في ضبة وهي التي أولها:

ما أنصفَ القومُ ضبَّةً وأمَّه الطرطبة

فقال: إن أبا الطيب اجتاز يوماً بالطرف فنزل بأصدقاء له، وصادف هناك ولدًا اسمه ضبة يغدر بكلُّ أحد، وسارت الخيل إلى هذا العبد واسترَّكبه فلزمه السير معهم، فدخل هذا العبد الحصن وامتنع به وأقاموا عليه وليس سلاحه لهم إلا شتمهم من وراء الحصن أقبح شتم، ويسمِّي أبا الطيب بشتمه، وأراد القوم أن يجيبه أبو الطيب بمثل ألفاظه القبيحة، وسألوه ذلك فتكلَّف لهم على مشقة، وعلم أنه لو سبَّه لهم مُعرِّضًا لم يفهم، ولم يعمل فيه عمل التصريح، فخاطبه على أسنتهم من حيث هو، فقال تلك الأبيات: ما أنصف القوم ضبَّةً ... إلخ.

وروى المعري عن ابن جنِّي أنه قال: ورأيتَه — أي رأى المتنبي — وقد قرأت عليه هذه القصيدة وهو يُنكر إنشادها.

قلت: وهذا دليل على أن المتنبي كان خجل من نفسه وندم على إرسال تلك الكلمة المشؤمة التي صارت السبب في قتله وحرمان الناس من ذلك اللسان وذلك الجنان اللذين بخل بمثلهما الزمان، فأما المعري فلشدة إعجابه بالمتنبي وما اشتهر من حبه له، فقد حاول أن يتمحل له عذرًا، وأن يدمج هذه القصيدة تحت حكم «لكلِّ مقام مقال» وهذا التشبيه محال، ثم حاول من جهة أخرى عذرًا ثانيًا؛ وهو أن يجعل هذه القصيدة على ألسن أولئك الجماعة الذين كان يشتمهم ضبة، وهو أيضًا عذر ضعيف أرقُّ من خيط باطل؛ إذ المتنبي يعلم أنه مهما قال فقلوه لا بدَّ أن يسير، وأن الكلمة الفاردة من مثله تُحفظ وتبقى وتعلق في الأذهان، فكيف المنظوم الذي تسير به الرُّكبان. والحقيقة أنها كانت سُويعية نحس غفل فيها المتنبي عن نفسه وغاب عن حسه؛ فأرسل هاتيك الأبيات وهو يظنُّ أنها لن تتجاوز ذلك المكان، وأنه إنما يشفي بها غليل جماعته، أو أنه يضحكهم على ضبة، ونسي أنه بهذا العمل قد وضع نفسه في صفِّ ذلك السفية الذي وصفوا ما وصفوا من سفاهته وحُمقه، ومَن ذا يعض الكلب إذا الكلب عضه؟ فكانت من أبي الطيب هذه النبوة القبيحة سببًا في إتلافه ومصيبة الأدب العربي بفقد رجلٍ كان من أرجح أدباء الدنيا ميزانًا وأقواهم برهانًا وأذلفهم لسانًا. ومن هذه القصة يجب أن تُؤخذ العبرة

اللازمة والعِظَة التي لا يجوز أن تفارق خاطر، وهي أن الرجل الكبير يجب أن يبقى كبيراً في جميع أطواره، وأن يعلم أن كل ما يقوله سيسير ويحفظ عليه، وأنه سيبقى ويُنسب إليه. والقولُ لقائله كالولد لناجله. ومن أحسن مزايا شوقي أنه لم يتلوّث بشيء من هذه القاذورات، وأن أدب النفس كان أثره، فنزهه عن المرافقة قليل نظمه وكثيره، فلا أثار بقوله حفاظ ولا هاج أحقاداً وقد مضت جميع معاركه الأدبية على سلامة.

### (٩) شعر الملاحم

وقد آن لنا الآن أن نَصِفَ من شعر شوقي القِسْمَ الذي هو فيه الشاعر الفرد والأسد الورد، وهو شعر الملاحم épique أو الشعر التاريخي الذي بدأ فيه الأولين والآخرين، وسما وحلّق في عيون جميع الناظرين، وإني برغم عصبيّتي لصديقي محمود سامي باشا البارودي أقول إنه قد فاته هذا الغرض، ولم يقيض له الله هذه الفتوحات التي قيّضها لشوقي، والتي ضارع فيها شعراء الإفرنج، وكفّر عن سيئاته في المديح ومبالغاته إن كان لا بدّ أن يُحسب ذلك عليه من السيئات.

وقد فرط شوقي إلى هذا الحوض من أول مرّة وتنبّه له في مُقْتَبَلِ عمره؛ ففي سنة ١٨٩٤ أي بعد اجتماعنا في باريز بسنتين لا غير كانت له تلك الهمزيّة التي قالها عن وادي النيل وأنشدها في مؤتمر المستشرقين المُنعقد في جنيف، وهي التي يقول فيها:

وَحَدَاها بَمَنْ تُقِلُّ الرَّجَاءُ	هَمَّتِ الْفُلُكُ وَاخْتَوَاهَا الْمَاءُ
سَمَاءٌ قَدْ أَكْبَرَتْهَا السَّمَاءُ	ضَرَبَ الْبَحْرُ ذُو الْعُبابِ حَوَالِي
ضِ شِبَاكًا تَمُدُّهَا الدَّأْمَاءُ	وَرَأَى الْمَارِقُونَ مِنْ شَرَكِ الْأَر
تَنَدَجَّى كَأَنَّهَا الظُّلْمَاءُ	وَجِبَالًا مَوَائِجًا فِي جِبَالِ
لُ وَهَاجت حُمَاتُهَا الْهَيْجَاءُ	وَدَوِيًّا كَمَا تَأَهَّبَتِ الْخِي

هذا البيت الأخير ينظر إلى قول المتنبي عن بحيرة طبرية:

تهدر فيها وما بها قَطْمٌ	والموج مثل الفحول مزبدة
جيشا وعى هازم ومنهزم	كأنها والرياح تُضربها



ثم يقول:

لَجَّةٌ عِنْدَ لَجَّةٍ عِنْدَ أُخْرَى      كَهَضَابٍ مَاجَتْ بِهَا الْبَيْدَاءُ  
وَسَفِينٍ طُورًا تَلُوحُ وَحِينَا      يَتَوَلَّى أَشْبَاحَهُنَّ الْخَفَاءُ  
نَازَلَتْ فِي سَيْرِهَا صَاعِدَاتُ      كَالْهُوَادِي يَهْزُهُنَّ الْحُدَاءُ

هذا من الوصف الذي يصح أن يكون مثلًا في الإبداع وصحة التصوير، فتأمل عندما تكون في عرض البحر الخضم تنظر السفين عن بعد تارة تلوح لك أشرعتها من بعيد، وطورًا تحديق فلا تراها من سعة اليم وارتفاع أمواج الخضم، وتأمل أيضًا تشبيهه للسفن في صعودها ونزولها على ظهر الموج التي تتقاذفها بالإبل السائرة في البيداء، فراكب السفينة كراكب البعير لا يفتأ يشعر بنفسه صاعدًا نازلًا، ثم يقول وهو من أبداع ما قيل:

رَبِّ إِنْ شِئْتَ فَالْفَضَاءَ مَضِيقُ      وَإِذَا شِئْتَ فَالْمَضِيقُ فَضَاءُ  
فَاجْعَلِ الْبَحْرَ عِصْمَةً وَابْعَثِ الرَّحْدَ      مِمَّا فِيهَا الرِّيحَ وَالْأَنْوَاءُ  
أَنْتَ أَنْسُ لَنَا إِذَا بَعُدَ الْأَنْدُ      وَسِ وَأَنْتَ الْحَيَاةَ وَالْإِحْيَاءُ  
يَتَوَلَّى الْبَحَارَ مَهْمَا ادْلَهَمَّتْ      مِنْكَ فِي كُلِّ جَانِبٍ لِأَلَاءِ  
وَإِذَا مَا عَلَتْ فَذَلِكَ قِيَامُ      وَإِذَا مَا رَغْتَ فَذَلِكَ دَعَاءُ  
فَإِذَا رَاعَهَا جَلَالُكَ خَرَّتْ      هَيْبَةً فَهِيَ وَالْبِسَاطُ سَوَاءُ  
وَالْعَرِيضُ الطَّوِيلُ مِنْهَا كِتَابُ      لَكَ فِيهِ تَحِيَّةٌ وَثَنَاءُ

لا تظهر عبقرية شوقي ظهورًا باهرًا مثلما تظهر في هذا النوع من الشعر، فلو قلت إن كل ما قاله شوقي في باب المديح وباب الرثاء وباب الحكايات لا يوازي هذه الأبيات لم أكن مبالغًا، فكأن شوقي كلما علا الموضوع علا هو معه فلما رأى أمامه جلاله هذا الخلق العظيم وتأمل جلاله خالقه تعالى ارتفع به البيان إلى الدرجات العُلا، وتعلق بسدرة المنتهى التي تليق بوصف تلك الجلالة. وأما الكتاب الذي يتكلم عنه وهو عبارة عن العريض الطويل من هذا الخلق العظيم الذي هو البحر، فإن لي حكاية هي من هذا الموضوع بسبيل.

كنت أيام الحرب مبعوثًا لسورية في الأستانة دار الخلافة العثمانية تولاه الله برحمته، وكانت بيني وبين عبد الحق حامد بك الذي يُقال له أديب الأتراك الأعظم مودة أكيدة ولم

تَنَحَّصِرُ فِي لُحْمَةِ الْأَدَبِ، بَل تَجَاوَزَتْ إِلَى لُحْمَةِ النَّسَبِ؛ لِأَنَّ أَدِيبَ الْأَتْرَاكِ الْأَعْظَمَ عَرَبِيَّ الْأَصْلِ يَنْتَمِي إِلَى عَبْدِ الْحَقِّ السَّنْبَاطِيِّ، وَقَدْ جَاءَ سَلْفُهُ إِلَى اسْتَانْبُولِ فَاسْتَرَكُوا، وَكَانَتْ لِي مَعَهُ — فَسَّحَ اللَّهُ فِي أَجَلِهِ لِأَنَّهُ لَا يَزَالُ حَيًّا — مَجَالِسٌ نَتَنَاشِدُ فِيهَا الْأَشْعَارَ وَنَتَنَاقِلُ الْأَثَارَ، وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ صَادَفْتُهُ زَاهِبًا إِلَى إِسْمَاعِيلِ حَقِّي بَكْ، مِنْ أَدْبَاءِ التَّرِكِ كَانَ وَالْيَا لِبَيْرُوتِ يَوْمَ انْتَهَتْ الْحَرْبُ، وَهُوَ مِنْ مُرِيدِي عَبْدِ الْحَقِّ حَامِدٍ، فَأَخَذَ بِيَدِي، وَقَالَ لِي: تَعَالَ مَعِي حَتَّى نَقْرَأَ عَلَيْكَ شَيْئًا مِنْ آثَارِي الْجَدِيدَةِ. فَمَضَيْتُ مَعَهُ حَتَّى وَافِينَا مَنْزِلَ إِسْمَاعِيلِ حَقِّي، وَمَا اسْتَقَرَّ بِنَا الْجُلُوسِ حَتَّى بَدَأَ إِسْمَاعِيلُ حَقِّي يَتْلُو عَلَيْنَا رِوَايَةَ «طَارِقٍ» الَّتِي مِنْهَا مَا هُوَ نَظْمٌ، وَمِنْهَا مَا هُوَ نَثْرٌ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِالْتَّرِكِيِّ، فَوَصَلْنَا إِلَى مَكَانٍ يَسْمِيهِ عَبْدِ الْحَقِّ حَامِدٌ «مَنَاجَاةً» وَهُوَ أَنْ طَارِقًا يُولِي وَجْهَهُ شَطْرَ السَّمَاءِ وَيَنَاجِي رَبَّهُ بِأَقْوَالٍ يَضُرُّعُ بِهَا إِلَيْهِ، وَلَسْتُ مُتَذَكِّرًا مِنْهَا الْآنَ إِلَّا قَوْلَهُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تَقُلْ لَنَا كَذَا وَكَذَا فِي كِتَابِكَ الْمَنْزِلَةَ؟ أَلَمْ تَقُلْ كَذَا وَكَذَا بِلِسَانِ الطَّبِيعَةِ الَّتِي هِيَ أَيْضًا مِنْ كِتَابِكَ الْمَنْزِلَةَ؟ إِلَى آخِرِ مَا يَقُولُ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى هَذِهِ الْجُمْلَةِ وَهِيَ أَنَّ الطَّبِيعَةَ هِيَ مِنَ الْكُتُبِ الْمَنْزِلَةَ، قُلْتُ أَنَا فُورًا: وَرَبِّمَا كَانَتْ أَقْدَمَهَا، فَاهْتَزَّتْ لِذَلِكَ عَبْدِ الْحَقِّ حَامِدٌ وَقَالَ لِإِسْمَاعِيلِ حَقِّي: «أَمَانَ أَمَانَ بُونِي يَازِيكَز». أَيِ بِاللَّهِ عَلَيْكَ اكْتَبْ هَذِهِ. وَبَقِيَ يَرُدُّ هَذِهِ النِّكْتَةَ وَهِيَ أَنَّ الطَّبِيعَةَ هِيَ أَقْدَمُ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ، وَبَعْدَ ذَلِكَ بِمَدَّةٍ وَجَدْتُ رِسَالَةَ طَارِقٍ مَطْبُوعَةً وَفِي حَاشِيَةِ الْفَصْلِ الَّذِي اسْمُهُ «مَنَاجَاةً» مَكْتُوبَةٌ هَذِهِ الْجُمْلَةُ: «وَرَبِّمَا كَانَتْ هِيَ أَقْدَمُ الْكُتُبِ الْمَنْزِلَةَ». وَبِجَانِبِهَا يَقُولُ: «هَذِهِ الْجُمْلَةُ هِيَ مِنَ الْأَمِيرِ شَكِيبِ أَرْسَلَانَ». فَقَضَيْتُ الْعَجَبَ مِنْ أَمَانَةِ هَذَا الشَّاعِرِ الْكَبِيرِ الَّذِي أَبِي أَنْ يَنْسَبَ هَذَا الْمَعْنَى لِنَفْسِهِ وَأَصْرًا عَلَى نَسْبَتِهِ إِلَيَّ بِالصَّرَاحَةِ بَيْنَمَا كَثِيرٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ وَالْأَدْبَاءِ يَنْتَحِلُونَ أَقْوَالَ لَمْ يَكُونُوا هُمْ قَائِلِيهَا وَيَتَبَنُّونَ مَعَانِي قَدْ يَكُونُ نَجْلُهَا غَيْرُهُمْ، وَلَكِنْ عَبْدِ الْحَقِّ حَامِدٌ أَعْنَى مِنْ أَنْ يَسْرِقَ. وَالشَّاهِدُ هُنَا أَنَّ الْخَوَاطِرَ تَوَارَدَتْ وَأَنَّ شَوْقِي يَرَى الْبَحْرَ كِتَابًا مِنْ كُتُبِ اللَّهِ لَهُ فِيهِ تَعَالَى تَحِيَّةٌ وَثَنَاءٌ، وَأَنَّ عَبْدِ الْحَقِّ حَامِدَ الَّذِي هُوَ فِي التَّرِكِ كَشَوْقِي فِي الْعَرَبِ يَرَى فِي الطَّبِيعَةِ كِتَابًا إِلَهِيًّا أَنْزَلَهُ اللَّهُ لِيَقْرَأَهُ عِبَادَهُ، وَأَنَّ هَذَا الْعَاجِزَ يَرَى هَذَا الْكِتَابَ أَقْدَمَ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الطَّبِيعَةَ قَبْلَ أَنْ بَعَثَ الْأَنْبِيَاءَ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْوَحْيَ، ثُمَّ يَقُولُ شَوْقِي:

يا زمانَ البخارِ لولاكَ لم تفـ	جع بنُعْمَى زمانها الوجناء
فقديماً عنَّ وخذها ضاق وجه الـ	أرض وانقأ بالشرع الماء
وانتهت إمرة البحار إلى الشر	ق وقام الوجود فيما يشاء
وبنينا فلم يخل لبان	وعلونا فلم يجزنا علاء

وَمَلَكْنَا فَاَلْمَالِكُونَ عَبِيدٌ      وَالْبَرَايَا بِأَسْرِهِا أُسْرَاءُ  
 قَلْ لِبَنَانِ بَنِي فِشَادٍ فَعَالِي      لَمْ يَجْزُ مِصْرَ فِي الزَّمَانِ بِنَاءُ  
 لَيْسَ فِي الْمُمَكِّنَاتِ أَنْ تُنْقَلَ الْأَجْ      سِبَالٌ شَمًّا وَأَنْ تُنَالِ السَّمَاءُ  
 أَجْفَلَ الْجَنُّ عَنْ عِزَائِمِ فِرْعَوْنَ      وَدَانَتْ لِبِأْسِهَا الْآبَاءُ

يريد أن يقول إن الأولين كلما رأوا عجباً عدوه من صنعة الجن، وأن فرعون مع ذلك جاء بالأهرام التي لم ينسبها أحد إلى الجن، وهي أعجب وأصعب من كل ما يُنسب إلى الجن من بناء البشر، ثم يقول:

وَقَبُورٌ تَحَطُّ فِيهَا اللَّيَالِي      وَيُوَارَى الْإِصْبَاحَ وَالْإِمْسَاءُ  
 تَشْفَقُ الشَّمْسُ وَالْكَوَاكِبُ مِنْهَا      وَالْجَدِيدَانَ وَالْبِلَى وَالْفَنَاءُ  
 فَاعْذُرِ الْحَاسِدِينَ فِيهَا إِذَا لَا      مُوَا فَصَعِبٌ عَلَى الْحَسُودِ الثَّنَاءُ  
 زَعَمُوا أَنَّهَا دَعَائِمٌ شِيدَتْ      بِيَدِ الْبَغْيِ مَلْؤُهَا ظَلَمَاءُ  
 دُمِّرَ النَّاسُ وَالرَّعِيَّةُ فِي تَشْ      يِيدهَا وَالْخَلَائِقُ الْأُسْرَاءُ  
 أَيْنَ كَانَ الْقِضَاءُ وَالْعَدْلُ وَالْحَكُّ      سِمَةٌ وَالرَّأْيُ وَالنُّهْيُ وَالذِّكَاؤُ  
 وَبَنُو الشَّمْسِ مِنْ أَعْزَةِ مِصْرَ      وَالْعُلُومِ الَّتِي بِهَا يُسْتَضَاءُ  
 فَادَّعَى مَا ادَّعَى أَصَاغِرُ آثِي      سَنَا وَدَعَوَاهُمْ خَنَى وَافْتَرَاءُ

يريد أن يقول إن يونان التي زعمت كون هذه الأهرام بُنيت بالظلم والقسر على أيدي العبيد، وأنفقت عليها أموال الرعية إنما قالت ذلك حسداً ونفاسة لعجزهم عن مثلها، وإن قولها فُحِّشَ وَافْتَرَاءُ، ثم أثنى على الفراعنة الذين شيدوا تلك الأبنية الخالدة على الدهر تتحدى الزمان وتبارز الحدّان، وقال: إن تلك الدولة قد انتقلت إلى أناس خالفوا سُنن من قبلهم وهم ملوك الرعاة فساموا مصر العذاب، فتراه يقول في هؤلاء:

وَإِذَا مِصْرُ شَاةٌ خَيْرٌ لِرَاعِي السِّ      سَوْءٌ تُؤَذَى فِي نَسْلِهَا وَتُسَاءُ  
 قَدْ أَدَّلَ الرِّجَالَ فَهِيَ عَبِيدٌ      وَنَفُوسُ الرِّجَالِ فَهِيَ إِمَاءُ  
 وَلِقَوْمٍ نَوَالِهِ وَرِضَاهُمْ      وَلِأَقْوَامِ الْقَلْبَى وَالْجَفَاءُ  
 ففَرِيقٌ مُمْتَعُونَ بِمِصْرَ      وَفَرِيقٌ فِي أَرْضِهِمْ غُرَبَاءُ

إن ملكت النفوس فابغ رضاها      فلها ثورة وفيها مضاء  
يسكن الوحش للوثوب من الأسر      سر فكيف الخلائق العقلاء

يعني براعي السوء أحد الملوك الرعاة الذين يُقال لهم الهكسوس، والذين شوقي يقول فيهم:

أعلنت أمرها الذئاب وكانوا      في ثياب الرعاة من قبل جاءوا

وبعد أن وصف هذه الدولة بما وصفها به من استعباد مصر التفت فنصح الإنجليز الذين يحتلونها اليوم مُستبدين، فقال لهم: إن كنتم ترون أنفسكم قد تغلبتم على أهل مصر فلا ينبغي أن تأمنوا انتقاضهم بعد خضوعهم لكم بالقوة، فإن للنفوس ثورة ومضاء، وإن الوحش تتحرك لتتفلت من القيود فكيف لا تتحرك البشر لتحطيم القيود؟ وليس لي اعتراض هنا إلا على قوله يسكن الوحش للوثوب من الأسر ... إلخ، فإن السكون والوثوب لا يقترنان ولو أنه قال ينزع الوحش للوثوب من الأسر لكان أقعده.

ثم أتى شوقي على تاريخ رمسيس وسيزوستريس وأشاد بذكهما إشادة تجدر بعظمة مصر في تلك الأعصر الخوالي، وما زال إلى أن وصل إلى قمبيز ملك الفرس الذي استولى على مصر وجعل أعزة أهلها أذلة، ووصف ما حلّ بملوك مصر، فقال:

بنت فرعون بالسلاسل تمشي      أزعج الدهر عريها والحفاء  
فكأن لم ينهض بهودجها الدهر      سر ولا سار خلفها الأمراء  
أعطيت جرة وقيل إليك الناء      هر قومي كما تقوم النساء  
فمشت تُظهر الإباء وتحمي الد      مع أن تسترقه الضراء  
والأعادي شواخص وأبوها      بيد الخطب صخرة صماء  
فأرادوا لينظروا دمع فرعو      ن وفرعون دمع العنقاء  
فأرؤه الصديق في ثوب فقر      يسأل الجمع والسؤال بلاء  
فبكي رحمة وما كان من يب      كي ولكن ما أراد الوفاء

يريد أن يقول إن فرعون لم تدبر له دمعة لما رأى ابنته تحمل الجرة وتذهب إلى النهر لتستقي كإحدى الإماء، ولكنه لما رأى أحد أصدقائه يسأل الناس من فقره أجهش ولم يملك دمعته، وما كان سريع الدمعة ولكن الوفاء غلب عليه.

ثم ذكر كيف أن الإسكندر غلب على مصر وأزال منها حكم الفرس فقال:

طَلَبَةَ لِلْعِبَادِ كَانَتْ لِإِسْكَندَ	سَدَرَ فِي نَيْلِهَا الْيَدَ الْبَيْضَاءَ
شَادَ إِسْكَندَرُ لِمِصْرَ بِنَاءً	لَمْ تُشْهِدْهُ الْمَلُوكُ وَالْأَمْرَاءَ
بَلَدًا يَرْحَلُ الْأَنَامُ إِلَيْهِ	وَيَحْجُّ الطَّلَابُ وَالْحُكْمَاءَ
وَالجَوَارِي فِي الْبَحْرِ يُظْهِرْنَ عِزَّ الـ	مُلْكَ وَالْبَحْرَ صَوْلَةَ وَثَرَاءَ
وَالرعايا فِي نِعْمَةٍ وَلِبْطَلِيـ	مُوسَ فِي الْأَرْضِ دَوْلَةَ عَلِيَاءَ

يقول إن مصر في عهد البطالسة صارت دار علم وحكمة، واستراحت فيها الرعايا وغلظ أمرها، وكان لها أسطول حربي وأسطول آخر تجاري عبّر عنهما بقوله: «والبحر صولة وثناء». ثم ذكر خراب دولة البطالسة بمجيء كليوباترة، فقال:

ضَيِّعَتْ قَيْصَرَ الْبَرِيَّةَ أَنْثَى	يَا لِرَبِّي مِمَّا تَجَرُّ النِّسَاءَ
فَتَنَّتْ مِنْهُ كَهْفَ رُومَا الْمُرْجَى	وَالْحُسَامَ الَّذِي بِهِ الْإِتِّقَاءَ
فَأَتَاهَا مَنْ لَيْسَ تَمْلِكُهُ أَنْـ	سَثَى وَلَا تَسْتَرْقُهُ هَيْفَاءَ

أشار كيف لعبت كليوباترة بقلب قيصر، ثم بقلب أنطونيوس حتى جاءها أوكتافيوس الذي لم يؤثر فيه جمالها، فغلب عليها وانتحرت بأن وضعت حية على صدرها وهو ما أشار إليه بقوله:

سَلَبَتْهَا الْحَيَاةَ فَاغْجَبَ لِرَقْطَا ۞ أَرَاخَتْ مِنْهَا الْوَرَى رَقْطَاءَ

ثم جاء هنا بالمقطع الذي هو بيت القصيد، والذي لم أزل أبحث في شعر المعاصرين فلا أجد ما يُدانيه، ولو كان شوقي لم يقل غيره لكان كافيًا لمجده وأجره، ولجزاه دنيا وآخرة، تأمل في هذا المفصل المدهش في جلالة معناه وجزالة مَبْنَاهُ، قال:

رَبِّ شَقَّتِ الْعِبَادَ أَزْمَانُ لَا كُتَّ	سَبَّ بِهَا يُهْتَدَى وَلَا أَنْبِيَاءَ
نَهَبُوا فِي الْهَوَى مَذَاهِبَ سَتَّى	جَمَعَتْهَا الْحَقِيقَةُ الزُّهْرَاءَ
فَإِذَا لَقِبُوا قَوِيًّا إِلَهًا	فَلَهُ بِالْقَوَى إِلَيْكَ انْتِهَاءَ

وإذا آثروا جمالاً بتنزيه	هـ فإنَّ الجمال منك حياء
وإذا أنشئوا التماثيل غرًا	فإليك الرموز والإيماء
وإذا قدَّروا الكواكب أربا	بأ فمك السنَّا ومنك السنَّاء
وإذا ألَّهوا النبات فمن آ	ثار نُعماك حُسْنه والنماء
وإذا يَمَّموا الجبال سُجُودًا	فالمراد الجلالة الشَّمَّاء
وإذا تعبَّد الملوك فإن الـ	مُلك فضلٌ تحبُّو به مَنْ تشاء
وإذا تُعبَّد البحار مع الأسـ	ماك والعاصفات والأنواء
وسباع السماء والأرض والأرـ	حام والأمَّهات والآباء
لعُلاك المُذكَرات عبيد	خُضَّع والمؤنَّثات إماء

أراد شوقي أن يسرد تاريخ ديانات أهل مصر، فقال: إنهم قبل أن تنزل الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل والقرآن تحيَّروا في العبادة وذهبوا مذاهب شتَّى يجمعها حقيقة واحدة هي الاعتقاد بالله، ولكنهم نشدوه من طُرُق مختلفة؛ فهذا يعبد القوي وذاك يعبد الجميل وذلك ينحت التماثيل، ومنهم من عبدوا الكواكب، ومنهم من قدَّسوا الأشجار، ومنهم من انحَنوا للجبال، ومنهم من ألَّهوا الملوك، ومنهم من سجدوا للبحار والأسماك والعواصف والطيور والوحش وغير ذلك، وكلُّ المراد المقصود المنشود هو الحقيقة الإلهية. كأنما شوقي يعتذر عن تنوُّع عباداتهم هذه وتسفُّل بعضها حتى صارت إلى الحيوانات بجهل الناس هناك الطريق القويم لعدم وجود الدليل، فكانت عقول الخلق في طفوليَّتها وكانوا يخشون ويرجون ويفزعون ويضرعون، ولا ينزل عليهم وحي يعرفون أنه الحق فيعولُّوا عليه، وما زالوا في هذه الحيرة حتى جاءت الرسل فأنارت الطريق وحصص الحق. وقد قدَّم شوقي هذا الاعتذار عن تحبُّط البشر في عقائدهم بقوله: يا رب إننا عشقناك وهمنا وراءك في كلِّ مكان فلا عجب أن كنَّا ضلُّلنا السُّبُل:

ربُّ هذي عقولنا في صباها	نالها الخَوْف واستبَّأها الرجاء
فعشقناك قبل أن تأتي الرُّسـ	ل وقامت بحبِّك الأعضاء
واتخذنا الأسماء شتَّى فلما	جاء موسى انتهت لك الأسماء

ثم ذكر كيف أن فرعون ربِّي موسى، واعتمد على وفائه فخانه موسى لأجل ربِّه؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فقال:

ظنَّ فرعونُ أنَّ موسى له وا	فِ وعند الكرامِ يُرَجَى الوفاء
لم يَكُنْ في حسابِه يومِ ربِّي	أن سيأتي ضدَّ الجزاءِ الجزاءُ
فرأى الله أن يعقَّ ولله	تفي لا لغيرِه الأنبياء
مصر موسى عند انتماءِ وموسى	مصر إن كان نسبةً وانتماء
فيه فَخَرها المُؤيِّدُ مهما	هزَّ بالسيدِّ الكليمِ اللواء

فقد خرجنا هنا بالمصريين من عهد الرموز والتماثيل والعبادات المتنوعة والآلهة أشكالاً وألواناً إلى عبادة الواحد الأحد الذي دلَّ عليه موسى عليه السلام، فوضع أساس الشريعة الإلهية، ثم تلاه عيسى — عليه السلام — أيضاً فوصف شوقي مولد عيسى — عليه السلام — بما لا أظنُّ عيسويًّا على وجه الأرض قال أحسن منه ولا مثله، ألا ترى أنه ليس فيمن ينطق بالضاد من مسلم ومسيحيٍّ تقريباً من يجهل هذه الأبيات:

وُلِدَ الرَّفِيقُ يومَ مَولِدِ عيسى	والمُروءات والهدى والحَياء
وازْدَهَى الكونُ بالوليدِ وضاءت	بَسَناه من التَّرى الأرجاء
وسرَّتْ آيَةُ المَسيحِ كما يسـ	ري من الفجر في الوجود الضياء
تملاً الأَرْضَ والعوالم نُورا	فالتري مائج بها وَضَاء
لا وعيدٌ لا صولةٌ لا انتقام	لا حُسام لا غزوةٌ لا دمَاء
مَلَكٌ جاوَرَ الترابَ فلَمَّا	ملَّ نابت عن التُّرابِ السماء
وأطاعته في الإله شيوخ	خَشَعُ خَضَعُ له ضَعْفَاء
أدَعَنَ الناسُ والملوكِ إلى ما	رسموا والعقول والعُقلاء
فلهم وقفة على كلِّ أرض	وعلى كلِّ شاطئِ إرساء
دَخَلوا نَيْبَةً فأحسن لُقيا	هُم رجال بئَيْبَةٍ حُكْماء
فهموا السرَّ حين ذاقوا وسَهْلُ	أن ينال الحقائق الفَهْماء
فإذا الهيكل المقدَّس دَير	وإذا الدَّير رَوْنق وبَهَاء
وإذا ثيبةٌ لعيسى ومنفـ	سُ ونيل الثراء والبَطْحاء

إِنَّمَا الْأَرْضُ وَالْفُضَاءُ لِرَبِّي      وملوكُ الحقيقة الأنبياء  
لَهُمُ الْحُبُّ خَالِصًا مِنْ رَعَايَا      هم وكلُّ الهوى لهم والولاء  
إِنَّمَا يُنَكِّرُ الدِّيَانَاتِ قَوْمٌ      هم بما يُنكروَنَّهُ أشقياء

بعد أن ذكر مجيء موسى بالشرعية الإلهية جاء الدور إلى عيسى فقال إنه بمولده وُلد الرفق والحياء والمروءة وانتشر النور في الأرض، وكانت شريعة ليس فيها شيء غير اللين والعطف واللطف وتحمل الأذى وحب الأعداء والعفو عن الذنب وعدم مقابلة الشر بالشر، وقد عاش عيسى — عليه السلام — ما عاش إلى أن رفعه ربُّه إلى السماء، فناب عنه في الأرض الحواريون وهم قوم ضُعفاء مساكين صيادو سمك أطاعوه فصاروا بطاعتهم له سادة الأرض، وخضعت لهم الملوك والقيصرة فضربوا في البلاد وقطعوا البحار ونزلوا بكل شاطئ، وجاء أحدهم «مرقص» فدخل ثيِّبة إحدى عواصم مصر فتلقاه أهلها وكانوا حُكماء فذاقوا الكلام الذي جاء به مرقص واتبعوا ذلك النور الذي معه، وليس بعجب أن يفهم الحكمة الحكماء فردُّوا هياكلهم كنائس وصارت مصر لعيسى، وحقيقة الأمر أن ملوك العالم هم الأنبياء فالناس تطيعهم من دون الملوك؛ لأن طاعة الأنبياء تُخالط القلب وطاعة الملوك لا تخالط إلا الجسم، والأنبياء لهم الباطن والملوك لهم الظاهر، وما أنكر الأديان قوم إلا شقوا بما أنكروه، ثم قال:

هَرَمْتُ دَوْلَةَ الْقِيَاصِرِ وَالِدَوِّ      لَأْتُ كَالنَّاسِ دَاوُھُنَّ الْقَنَاءِ  
لَيْسَ تُغْنِي عَنْهَا الْبِلَادُ وَلَا مَا      لُ الْأَقَالِيمِ إِنْ أَتَاهَا النَّدَاءُ  
نَالَ رُومًا مَا نَالَ مِنْ قَبْلُ آثِي      نَا وَسِيْمَتِهِ ثِيْبَةُ الْعَصْمَاءِ  
سَنَةَ اللَّهِ فِي الْمَمَالِكِ مِنْ قَبْ      لُ وَمِنْ بَعْدُ مَا لَنْعُمَى بَقَاءِ

أراد شوقي هنا أن يذكر هرم الدولة الرومانية وأن الدول تهرم كما يهرم الرجال حسبما قال ابن خلدون، وأنها لا يُغني عنها كثرة الملك والمال إذا أتاه أمر ربِّها ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، فرومة نالها ما نال من قبلها آثينا عاصمة يونان وثيبة عاصمة مصر، ولم تكن دولة تبقى إلى الأبد، ولما هرمت الدولة الرومانية انتشرت في نواحيها الضلالة ففتك بها الجهل، وتشعبت المذاهب، وأخذ الناس يقتتلون على العقائد، وعادوا إلى مثل الوثنية الأولى، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، فرأى الله أن لا بدَّ من القوة لإقامتهم على الحق، وأنه لا بأس بالسيف إذا لم ينجح الوعظ ولم تغن



النُّذْرُ، وقد يقطع الطبيب عضوًا من الجسم لسلامة سائر الأعضاء، فقال شوقي وقد جعل هذه الحالة توطئة لظهور محمّد عليه الصلاة والسلام:

وتولّى على النفوس هوى الأؤ	ثانٍ حتّى انتهت له الأهواء
فرأى الله أن تُطهّر بالسيب	فِ وَأَنْ تَغْسِلَ الخطايا الدماء
وكذاك النفوس وهي مراض	بعضُ أعضائها لبعضِ فداء
لم يُعادِ الله العبيدَ ولكن	شَقِيتَ بالغباوةِ الأغبياء
وإذا جَلَّتِ الذنوبُ وهالَت	فَمِنَ العَدْلِ أَنْ يَهُولَ الجِزاء
أشرقَ النور في العوالمِ لَمَّا	بَشَّرَتْهَا بأحمدِ الأنبياء
باليَتيمِ الأمِّيِّ والبَشَرِ المُو	حَى إليه العلوم والأسماء

فهو يقول: إن الله لا يريد لعباده إلا الخير ولكن بعض عباده أصروا على المعاصي ومَرَدُوا على النفاق. وإذا كانت الذنوب عظيمة وأعظمها هو الشرك فمن العدل أن تُقَمَعَ بالسيف؛ إذ لا حيلة فيمن كانت قلوبهم غُلْفًا وأذانهم صُمًّا؛ ولذلك أرسل الله الرسول العربي اليتيم الأمِّي الذي أنزل عليه الفرقان فمحا الشرك وشدخ يافوخ الكفر، وقد كنت أحبُّ أن يستعمل شوقي محلًّا قوله: فمن العدل أن يهول الجِزاء، قوله: فمن العدل أن يجلَّ الجِزاء؛ لأن جِزاء تلك الذنوب التي عددها لم يكن قاسيًا هائلًا بالنسبة إليها. وكان ينبغي لشوقي أن يذكر مبدأ الرسالة المحمّديّة بالنصح، والقول الحسن، ودعوة الناس إلى الحقِّ مدّة مديدة من الزمن ليس فيها بأس ولا شدّة ولا شيء يختلف عن دعوة عيسى لقومه، إلى أن أصرَّ المشركون على عنادهم وحاولوا قتل الرسول الأمين لأجل بلاغه المبين، فهاجر إلى قوم نصره وأزروه حتى لا تموت الدعوة ولا تذهب الحقيقة ضحيّة أهواء ذوي السلطة وأنصار الضلالة، فلم يقع الجِزاء إلا بعد أن انقطع الرجاء وما كان إلا جِزاءً وفاقًا.

ثم قال:

قوّة الله إن تولّت ضعيفًا	تعبت في مِرَاسِه الأقوياء
أشرف المرسلين آيته النُط	قُ مُبِينًا وقومُه الفُصحاء
لم يفه بالنبأغ الغرّ حتّى	سبق الخلق نحوَه البلغاء

وأنته العقولُ مُنقادةُ اللَّبِّ	ولبَّى الأعوانُ والنصرَاءُ
جاء للناسِ والسرائرُ فَوْضَى	لم يؤلَّفَ شتاتهن لِيَواءِ
وجمى الله مُستَباحَ وَشَرَعَ الله	والحق والصوابِ وَرَواءِ
فلجبريلَ جِيئةَ وَرَواحِ	وهبوطِ إلى الثرى وارتقاءِ
يحسب الأفقَ في جناحيه نورًا	سكنته النجوم والجِوَاءِ
تلك آيُ الفرقانِ أُرسلها الله	ضياءً يهدي بها مَنْ يشاءِ
نسخت سنَّةَ النبيين والرسدِ	ل كما يَنسخُ الضياءُ الضياءُ
وحماها غرٌّ كرامٍ أشدًّا	على الخَصمِ بينهم رُحماءِ

قال: إن الله إذا تولى ضعيفًا لم تقدر على مقاومته الأقوياء، ومن ينصره الله فلا غالب له، وهو يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ وقال: إن محمدًا هو أشرف المرسلين، وإن الله بعث كلَّ رسول بآية، وإن آية محمد — عليه السلام — كانت النطق المبين؛ لأنه بُعث في قوم فصحاء، لسانهم أفصح الألسنة، وقرائحهم أصفى القرائح، فهم أقرب أن يتأثروا بالفصاحة من كلِّ قبيل؛ ولذلك لم يفهم الرسول بتلك الكلمات النواذب حتى أقبل البلغاء عليه قبل غيرهم وانقادوا له، وقد كان الناس أوانئذ في شقاقٍ بعيد وفي ارتكاب محارم؛ يئذون بناتهم ولا يعلمون حلالًا ولا حرامًا، وكان يتسلط قوتهم على ضعيفهم ويجعلون الحق دُبر أذانهم؛ فنزل جبريل على محمد ﷺ بالشرعة التي ألقت بين قلوبهم وجعلتهم إخوانًا وطهرت خلائقهم من تلك الآثام التي كانوا مُنغمسين فيها، ونقلتهم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن، وذلك كله بآيات القرآن الذي نسخ ما قبله لا نسخ ضياء لظلام بل نسخ ضياء لضياء؛ لأن شريعة موسى كانت حقًا فجاءت شريعة عيسى فأكملتها ولأن شريعة عيسى كانت حقًا فطرات عليها طوارئ فجاءت شريعة محمدٍ فقومتها وأعادتها إلى أصلها.

قال: وقد تولى حماية هذه الشريعة الجديدة صحابةً للرسول كرامٍ ﴿أشداءً على الكفارِ رُحماءً بينهم﴾ ثم قال:

أمة ينتهي البيان إليها	وتتول العلوم والعلماء
كلما حثت الركابُ لأرض	جاورَ الرُشدُ أهلها والذكاء

ل ونالت حُقوقها الضُّعفاء	وعلا الحقُّ بينهم وسَمَا الفضُّ
زانَ من دينها إلى مَنْ تَشَاء	تَحْمِلَ النَجْمَ والوسيلةَ والميـ
هو طيب الوجود وهو الدَّواء	وتُنِيل الوجودَ منه نِظامًا
سنَّ والجاجِدون والأعداء	يرجع الناس والعصور إلى ما
ذُوهها وتشتهي الأذكياء	فيه ما تشتهي العزائم إن همَّ
ولمن أثر الشقاء شقاء	فلمن حاولَ النعيمَ نعيمٌ
عجيبًا أن تُنجب البيداء	أيرى العُجم من بني الظلِّ والمـ
ع تراها أسادها الهيجاء	وتُثير الخيامَ أسادَ هيجا
أرض طُرًّا في أسرها والفضاء	ما أنافت على السواعدِ حتَّى الـ
د ومصر والغرب والحمراء	تشهدُ الصينُ والبحار وبغدا

يقول: إن الأمة العربية أمة ينتهي إليها البيان، وتجد فيها العلوم صدورًا مُنشرحة فهي تُقبل عليها بطبيعتها، وتُقيم وزنًا للعلماء حيث كانوا، فكانت كلما استولت على قطر اهتزَّ العلمُ فيها وربًا، ونشأ فيه العلماء الفحول، وعَلَّت رايةُ الحقِّ، ونال كلُّ إنسان ما يستحقُّه بعمله واطمحلَّت الطبقاتُ، وارتفعتِ الفروقُ، وعَلِمَ الناس أنهم شرع في نظر الشرع، وأن أكرمهم عند الله أتقاهم، وأن الملك والسُّوقة سواء، وأن جبلة الأيهم إذا لطم الأعرابي يُقاد منه في الحال، وأن الحدَّ الشرعي يُقام على الجميع من دون مراعاة وعلى ابن الخليفة، وأن الرسول يهتف قائلًا: «لو أن فاطمة بنت محمد سَرقت لأمرت بقطع يدها». وأن عمر يقول: «والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أُولى بمحمد منَّا يوم القيامة، فلا ينظر رجل إلى القرابة، وليُعمل لِمَا عند الله، فإنَّ من قَصُر به عمله لا يسرع به نسبه». وأن الرسول كان يُقيد من نفسه، وأن عمرَ كان يُقيد من نفسه، وأن عليًّا كان يساوي اليهودي في القضاء؛ فكانوا يصدعون لمبادئ القرآن ويطبِّقونها على الكبير والصغير، وصادَفَ أن الدولة الفارسيَّة والدولة الرومانيَّة كانتا قد أسرع إليهما الفساد وضاعت فيهما الحقوق وعلا القويُّ فوق الضعيف، فما ظهر الإسلام حتى انهارت الأولى لديه انهيارًا تامًّا وتقلَّصت الثانية أمامه تقلُّصًا أورت الإسلام ثلثي ممالكها، فالعرب حملوا العدل الذي في دينهم إلى الأمم التي استولوا عليها، وأثاروا فيها حبَّ العمران والسعي في مَنابِ الأرض، وصار هذا الدين نظامًا للوجود يرجع الناس إليه في أمور الدنيا والعقبى، ولم يكن بدين آخرة فحسب، بل كان ناظرًا للدنيا والأخرى

معاً؛ أحلَّ الله فيه الطيِّبات ويَسَّر ما تشتهي نفوس الأذكياء، وإنما حرَّم الإسراف والخِيلاء والإثم والاعتداء والمشْي في الأرض مَرَحًا، فهو دين برٌّ بمنَّ برِّه، صارمٌ على مَنْ عَقَّه، ثم قال:

ولم يكن عجباً أنَّ أبناء الصحراء يفوقون أبناء الظلِّ والماء وبيتُّون منهم ممالكهم، فطالما كانت الصحارى مواطن الآساد، فما ثارت هذه الآساد من بادية العرب حتى رأينا الأقطار تنتظم في ملكهم من الصين شرقاً إلى المغرب والأندلس غرباً، ثم قال:

من كعمرو البلاد والضاد ممَّا	شادَ فيها والملَّة الغرَّاء
شادَ للمسلمين رُكنًا جُسامًا	ضافيَ الظلِّ دأبه الإيواء
طالما قامت الخِلافة فيه	فاطمأنت وقامت الخُلفاء
فاك عمراً إن كنت مُنصِّف عمرو	إن عمراً لنيرٍ وضاء
جادَ للمسلمين بالنيل والنيب	لُ لمن يقْتَنِيه أفريقاء
فهي تعلقو شأنًا إذا حرَّر النيب	لُ وفي رِقَّه لها إزراء

لم يكن لشوقي بدُّ من ذكَّر عمرو بن العاص — رضي الله عنه — وهو فاتح وادي النيل للإسلام ومُمتَّعه بتلك النعم الجُسام. قال شوقي: إن العروبة والإسلام كانا في مصر من غرس يدي عمرو، وإنه جعل من مصر رُكنًا للملَّة الإسلامية تأوي إليه وتدرُّ خيراتها عليه، فإذا مسَّت المجاعة أهل المدينة — دار الخِلافة وقتئذٍ — أغاثها عمرو بالأرزاق المتصلة من وادي النيل، قال: ففضل عمرو على الإسلام لا حدَّ له؛ لأنه ملك المسلمين النيل والنيلُ هو إفريقيا، وكفى بذلك وصفًا لعظمة العمل الذي قام به عمرو بن العاص.

ويظهر أن شوقي استطال تاريخ مصر في الإسلام فلم يشأ أن يعرِّج منه إلَّا بالحداثات الكُبرى وطوى دُور الأمويين في مصر ودُور بني العباس، فلم يقل شيئاً عن آل طولون ولم يعرِّج على الفاطميين، مع أنه كانت لهم دولة زاهرة لمعت ردحاً من الدَّهر، ولعلَّه تجانف عن ذكِّرهم بحَيْدِهِم عن طريق السنَّة والجماعة. وبالجملة فقد قفز شوقي من زمن عمرو بن العاص طفرة واحدة إلى زمن صلاح الدين الأيوبي، فقال:

واذكر الغرَّ آل أيُّوب وأمدح	فمن المَدح للرجال جزاء
هم حُماة الإسلام والنَّفَر البيـ	ضُ الملوك الأعزَّة الصُّلحاء

كلَّ يوم بالصالحيةِ حِصْن	وبلبليس قَلْعَة شَمَاء
وبمصرٍ للعلمِ دارٍ وللضيءِ	فان نارٌ عظيمة حَمراء
ولأعداءِ آلِ أُيُوب قَتْل	ولأسراهم قرى وثواء
يعرف الدين من صلاحٍ ويدري	مَن هو المسجدان والإسراء
إنه حِصْنه الذي كان حصناً	وحماه الذي به الاحتماء

أشار إلى ما كان عليه بنو أيوب من الحمية وعزّة النفس الإسلامية والصلاح والجهاد، وأنهم كانوا بينون الحصون ويشيدون دور العلم، ويقرون الضيوف ويوقدون نار الوغى للأعداء ونار القرى للقصاد، ويكرمون أسراهم شأن الأبطال الكرماء، وأن الدين الإسلامي يعرف مقام صلاح الدين من حمايته، وأن الحرم الثلاثة تعرف خدمته العظيمة. أشار بقوله المسجدان إلى مكّة والمدينة وبقوله الإسراء إلى القدس الشريف، وقال إنه كان حصناً للقدس وحميّ لذلك الحمى، ثم أتى على ذكر الحرب الصليبية لأنها من الملاحم الكبرى فقال:

يوم سارَ الصليبُ والحاملوه	ومشى الغربُ قومُه والنساء
بنفوسٍ تجول فيها الأماني	وقلوبٍ تنور فيها الدماء
يُضْمِرُونَ الدَّمَارَ للحقِّ والنا	س ودينِ الذين بالحقِّ جاءوا
ويهدُّون بالتلاوة والصلـ	بان ما شاد بالقنا البناء
فتلقَّتْهم عزائمُ صدقٍ	نُصِّ للدين بينهن خباء
مزَّتْ جَمْعَهُم على كلِّ أرضٍ	مثلما مزَّق الظلام الضياء
وَسَبَّتْ أمرَدَ الملوكِ فردَّتْ	ه وما فيه للرعايا رجاء
ولو أنَّ المليكِ هيبَ أذاه	لم يخلُّصه من أذاها الفداء
هكذا المسلمون والعربُ الخا	لون لا ما تقولُه الأعداء
فبهم في الزمانِ نلنا الليالي	وبهم في الورى لنا أنباء
ليس للذلِّ حيلة في نفوس	يستوي الموتُ عندها والبقاء

من أحسن مزايا شوقي رسوخه في اللّغة؛ فهو يقول: «قومه والنساء» وذلك لأن القوم هم جماعة الرجال خاصة؛ لأنهم يقومون بعظائم الأمور.

وقد قابل القوم بالنساء كأنه يقول: ومشى الغرب رجاله والنساء وقد كانوا في حرب الصليب جاءوا بالفعل رجالاً ونساء.

أما النساء فمنهن من كُنَّ قد جِئْنَ مع أزواجهن، ومنهن من كُنَّ قد استُجِلْنَ للرَّفَثِ، وكان هذا الجيش من النساء كثيراً في جيش الإفرنج، وقد وصفهن العماد الأصفهاني الكاتب في الفتح القدسي بأسجاعه المعهودة وجناساته المعروفة وصفاً يلذُّ المُجَان، ولكنه يُنبئ بحقيقة تاريخية تدل على أن هذا الأمر قديم العهد في جيوش الإفرنج.

ثم إن شوقي يشير كيف جاء الصليبيون بنفوس مملأى بالأمانى، وصدور مُفعمة بالأحقاد يريدون أن يقضوا على الإسلام ويخنقوا كلَّ مَنْ دانَ به، وأن يهدموا الحقَّ وأن يدمروا مَنْ جاء بالحق.

وقال: إنهم لما هاجموا بلاد الإسلام تلقَّتهم من المسلمين عزائم صادقة نهضَ بها الدين فننَّرتْ جموعهم على كلِّ أرضٍ، وأسَّرتْ في بعض هذه الحروب لويس التاسع ملك فرنسا الذي يُقال له القديس لويس، وانقطع أملُ قومِه منه، ولكنه فدى نفسه بالمال بعد مدة من أسره، ولو كان المسلمون خافوا عاقبة إطلاقه ما قبلوا منه الفدية، ولكنهم كانوا أوثق بأنفسهم وأعظم اتكالاً على الله من أن يخافوا عاقبة تسريح ملك من ملوك أوروبا.

قال: وكان هكذا المسلمون من العزِّ والمنعة، وعطف على قوله: «المسلمون» بقوله: «والعرب الخالون» من باب التخصيص على حدِّ ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ وأنهم لم يكونوا كما يصورهم الإفرنج للناس، وأنا بهم سُدْنَا في العالم زمناً طويلاً، وورثنا ما ورثناه من تاريخ مجيد، وقال: إذا استوى عند أمة الموت والحياة فلا حيلة فيها للعدوِّ، وهو من قبيل:

تأخَّرت أستبقي الحياة فلم أجدْ      لنفسي حياةً مثل أن أتقدِّما

ولا بدَّ لي هنا من الوقوف بعض الشيء، بل من الاعتراض على شوقي — رحمه الله — فقد قصر المسافة بين زحف الصليبيين وبين تلقِّي المسلمين لهم بعزائم الصدق، والحال أن بين العهدين حقبة يصحُّ أن تُسمَّى دَهْرًا؛ وذلك أن أوَّل وقعة أصلتها الجموع الصليبية الجيش الإسلامي كانت واقعة نيقية في الأناضول التي وقعت بين الصليبيين والترك، وفاز بها الصليبيون واسترجعوا نيقية وتاريخها ٢٦ يونيو سنة ١٠٩٧، ومنذ ذاك اليوم إلى واقعة «حطين» التي قضت على دول الصليبيين في الشرق تسعون سنة كان

فيها الصليبيون يسرحون ويمرحون في ظلِّ فَوْضَى الإسلام ومشاقةً بَيْنِهِ بعضُهُم لبعض، فإنه ما رأى الراءون ولا روى الراوون ولا يمكن أن يتصوَّر العقل مهما كان واسعاً ولا الخيال مهما كان خصباً درجة الفوضى التي كانت عليها الدول الإسلامية وقتما زحف الصليبيون إلى الشرق، ففي كلِّ بلدة أمير تائر على سلطانه، وفي كلِّ قصبه شيخٌ تائر على أميره، وفي كلِّ قطر دولة تناوئ أختها، وفي كلِّ مملكة وُزراء يمدُّون أيديهم في الخفاء إلى أعداء دولتهم، والفاطميون في مصر حَرَب على العباسيين في بغداد والسلاجقة حَرَب بعضهم على بعض بين فرع ألب أرسلان أصحاب فارس وفرع قطلوش أصحاب قونية والأناضول وجميع السلاجقة أعداء للدانشمنديين أصحاب شرقي الأناضول. وهذا كلُّه سَهْل لا يُعَدُّ شيئاً بالقياس إلى فَوْضَى سورية التي كان كلُّ مَنْ فيها تقريباً يُريد أن يكون مُسْتَقِلاً.

فالشام في يد دقاق السلجوقي، وحلب في يد رضوان أخيه، وهما يقتتلان برغم أنهما أخوان، وحماة في يد أمير، وحمص في يد أمير آخر، وطرابلس لها أمراء، وفلسطين يتقاسمها الفاطميون والسلاجقة، ولا يقيم العامل في عمله أكثر من أشهر معدودة حتى يثور على دولته طمعاً في الاستقلال. ولا يوجد قائدٌ حصنٍ إلا وهو يأبى أن تكون فوق يده يدٌ، وقد جاء الصليبيون فارتكبوا من الذَّبْح والفتك والقتل العام وحصد الرؤوس بلا استثناء واستئصال الأهالي المسلمين كالمحاربين وإتلاف النساء والأطفال والشيوخ والأسرى والتجاوُز على الأعراض وإنزال المعرَّات ببيوت الصون والستر ما لا رأت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على بال، وأسالوا من الدماء في أنطاكية ومعرة النعمان وحارم وتل باشر وعزاز والرها وسروج وشيزر وحماة واللاذقية وطرابلس وبيروت ويافا وعسقلان وعكا ما لا تصف هوله الألفاظ ولا تبلغ كنهه العبارات. والطامة الكبرى في القدس؛ حيث تعترف تواريخهم نفسها بأن الخيل غاصت في الدماء إلى صدورها، وتواريخ العرب تقول إن الذين نذحهم الصليبيون في المسجد الأقصى كانوا سبعين ألفاً بينهم النساء والأطفال.

وكلُّ هذا لم يكن كافياً في نظر المسلمين مدَّة تسعين سنة أن يتحدوا في وجه العدو، وأن يتركوا الشقاق والعداء فيما بينهم، ويتخلَّصوا من هذه المجازر المُستمرَّة التي كان الإفرنج يرتكبونها فيهم ويفتنونهم — لا في كلِّ عام بل في كلِّ يوم — مرَّة أو مرَّتين وهم لا يدبِّرون، بل كانوا يمدُّون أيديهم لمعاهدة الإفرنج، وقد يجتمعون معهم على إخوانهم وجيرانهم ويكون الإفرنج قد قفلوا من بلدة للمسلمين فتحوها واستأصلوا جميع من فيها

فيأتي إليهم أمير من أمراء المسلمين وهم غائصون في دماء المسلمين يعاهدهم ويمشي معهم على أمير آخر من قومه كأنه لم يفعل شيئاً.

ولما فتح الصليبيون أنطاكية وذبحوا تلك الألوف المؤلفة من مسلمي أنطاكية وما يجاورها كانت الدولة الفاطمية تُرسل وفدًا من القاهرة لتهنئة الصليبيين بهذا الفتح العظيم وتعرض عليهم الحلف، وكان الصليبيون قد ظفروا بالمسلمين في إحدى الوقائع يوم كان الوفد الفاطمي ضيوفاً عندهم، فأرسل أمراء الصليبيين إلى الوفد الفاطمي ثلاثمائة رأس من رؤوس قتلى المسلمين ينفحون الوفد بها ويكرمونه بمشاهدتها، كما لو قدموا لهم شيئاً من الفاكهة مثلاً، وكان الفاطميون يُظهرون سرورهم بذلك الفوز الصليبي، وكان الأمراء بنو عمار أصحاب طرابلس ينصحون الخدمة للصليبيين ولولاهم لانكسر بودوين الأول عندما كان في شمالي سورية، ومن أمثال هذه النوادر أشياء لا تدخل تحت الإحصاء قد استقصيتها كلها من كتب العرب وكتب الإفرنج معاً ومحصنتها تحميصاً لا يدع مكاناً لعارض شك ينقدح في صحتها.

ولم تكن هذه الحوادث عبارة عن فلتات جاءت على خلاف القياس أو وقعت في الأحايين من غير انتباه، بل استمرت هذه الفوضى الإسلامية بشكل لا يمكن عقل عاقل أن يدرك مداه مدة ستين إلى سبعين سنة، وما كفى تمزيق المسلمين بعضهم لبعض حتى نجمت منهم فرقة الإسماعيلية الحشاشين وتمالتوا مع الإفرنج، وصار هؤلاء كلما خشوا عادية أمير مسلم يرون فيه خطراً عليهم أو يبدو لهم منه أنه يسعى في جمع شمل الإسلام رموه بهؤلاء الحشاشين فذهب هؤلاء واغتالوه، وقد يكونون في هذه المؤامرة في اتفاق مع أناس من ملوك المسلمين؛ وذلك كما اغتيل مودود قائد الجيش السلجوقي الذي جاء لاستنقاذ مسلمي سورية فخاف طغتكين أمير دمشق من مغبة الأمر، وأرسل من اغتاله في الجامع الأموي وهو يصلي، وكان ذلك بتواطؤ بين طغتكين والصليبيين، وكما اغتيل برسق صاحب حلب والموصل وهو يصلي في جامع الموصل وكان من كبار المجاهدين. وكثيراً ما جاءت جيوش جرارة من آل سلجوق مُجمعة من فارس والعراق والجزيرة؛ لأجل استخلاص سورية من أيدي الإفرنج فلم تكن تصل هذه الجيوش إلى سورية حتى تجد كثيراً من أمراء المسلمين في سورية قد انحازوا إلى الإفرنج ووقفوا صفًا واحداً معهم في وجه تلك الجيوش الآتية لاستنقاذهم وقاتلوها أشد قتال، ثم ترجع هذه الجيوش إلى بلادها وتترك المسلمين في سورية بإزاء الإفرنج فيعود الإفرنج ويكرؤون على المسلمين



وَيَنْقُضُونَ الْعَهْدَ الَّذِي كَانُوا عَاهِدُوهُمْ إِيَّاهُ وَيَذْبَحُونَ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ وَالْأَطْفَالَ ثُمَّ لَا تَجِدُ الْمُسْلِمِينَ يَتُوبُونَ وَلَا يَذْكُرُونَ، وَلَا تَجِدُ مَعَ ذَلِكَ أَمْرَاءَ الْإِسْلَامِ فِي سُورِيَةِ مُسْتَفِيدِينَ أَيَّ عِبْرَةٍ مِنْ نَكْتِ الْإِفْرَنْجِ الْمُتَكَرِّرِ، وَلَا مُتَنَاهِينَ عَنْ غِيْبِهِمْ وَغَرَامِهِمْ بِالشَّقَاقِ وَقِتَالِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا.

وإنني لأجد هذا الشقاق في كلِّ أمة، ولا يخلو منه مكان وقد وقع بين الصليبيين أنفسهم، ولكن إن كان الشقاق عامًّا فلا شكَّ في أن تسعة أعشاره هي عند المسلمين والعشر الواحد عند سائر الأمم بأجمعها، وإن فسح لي الوقت لأكتبنَّ كتابًا وأسميه «الفوضى الإسلامية وما جنَّته على المسلمين، والوحدة الإسلامية وما جنَّته للمسلمين» وحسبك أن الصليبيين بعد فتحهم للقدس رجع أكثر المقاتلة منهم إلى بلادهم، قيل إنه رجع منهم عشرون ألف مقاتل فلم يبقَ في القدس إلا عدة مئات لا غير؛ أي كان بيت المقدس بقي بلا حامية وكانوا أوانئذ لو جمعوا جميع جند الصليبيين في سورية لما زادوا على أربعة أو خمسة آلاف، وهم مع ذلك أشتات في كلِّ بلدة منهم شرذمة يسيرة، ومع هذا فإن فوضى المسلمين قد كلفت للصليبيين البقاء والاطمئنان ولم تحدِّثهم أنفسهم بأن يتجددوا على هذه الشرائم المُشْتَتَّة ويخلصوا بلادهم من العبودية لها.

وما زال هذا الأمر على هذه الصفة التي ليس لها مثال في التاريخ حتى ظهر عماد الدين زنكي وهو عامل من عمال السلاجقة، فكان أول واضح لأساس الوحدة السورية في وجه الصليبيين بعد أن أدب ملوك الطوائف من المسلمين، وتلاه ابنه نور الدين العادل الشهير الذي وطَّد تلك الوحدة فتمكَّن من الإيقاع بالصليبيين، وأراهم أن في السويدياء رجالًا، ثم تلاه صلاح الدين يوسف فكان ما كان ممَّا لا يحتاج إلى بيان.

وقد حذف شوقي هذا القسم المؤلم المُخجل المُدمي للقلوب من تاريخ الإسلام في قصيدته هذه وطوى هاتيك الحقبة التاعسة التي وصمت الإسلام بالعار وأدهشت الإفرنج أنفسهم ممَّا رأوا من تخاذل المسلمين، وجاء رأسًا ينوِّه بعزائم صلاح الدين ورهطه التي بدلت الأرض غير الأرض ورأى فيها الإفرنج من الإسلام غير الإسلام الذي عرفوه من قبل. ولراقم هذه السطور قصيدة في صلاح الدين هي من شعر الملاحم نظمتها؛ إذ أنا في طبرية سنة ١٩٠٢ ومطلعها:

أحسن ما فيه يسرح النظر      واد بحيث الأردن ينفجر

وقد كانت مجلة المقتطف نشرتها في حينها ثم أعادت جريدة الفتح نشرها في العام الماضي، وهي ستظهر في ديواني الذي هو الآن تحت الطبع؛ فلذلك لا أجد داعياً لإعادتها هنا برمتها ولكني أذكر منها بعض أبيات:

أسس عيسى هنا شريعته      وقوم موسى توراتهم فسروا  
وفي حروب الصليب قد رفعت      رايات دين الذي نمت مضر

وقبل أن دخلت في تاريخ صلاح الدين وجدتُ فرضاً ذُكر المقدمة التي مهّدت له طريق الوحدة الإسلامية بإزاء الإفرنج بدلاً من تلك الفوضى وهي دولة آل زنكي عماد الدين بن آق سنقر، ثم ولده نور الدين العادل المشهور بالعدل والزهد وحب الجهاد فقلت فيه:

فاتحة النصر في ولاية نور الد      ين ملك بالعدل يأتزر  
تقرُّ عين النبيِّ سيرته      ويرتضي مثل هديه عمر  
مجاهد ماهدٌ بغرته      زال البلا واستحالت الغير

ثم ذكرت تربية نور الدين لصلاح الدين، وكيف أصلح صلاح الدين يوسف أحوال المملكة المصرية، فقلت:

أصلح شعث الأمور فانقلبت      بيوسف مصر وهي تفتخر

وأما يوم حطين فقلت فيه:

يا يوم حطين كم حططت من الـ      إفرنج شأنًا ما كان ينكسر  
عدوا على الشرق بالجيوش فلم      يُعص عليه بدو ولا حضر  
وكل جيش أراد صدّهمو      عادوا به وهو للقنا جزر

ومنها في وصف الواقعة:

الشرق والغرب بعد طول وغي      تبارزا والبراز مُختصر  
ثلاثة والنزال بينهما      نزالٌ من بعد يومه العُصر

فمن هنا آل أحمد دلف  
ومن هنا معشر المسيح مشى  
كأنما قومنا وقد وثبوا  
كأنما قومنا وقد ثبتوا  
كم من بغى طيره بأجنحة  
ذاق العدى من سلاف طعنهم  
والذكر يُتلى في الصفِّ والسور  
والصلبوت الشهير والصور  
زعازع للغصون تهتصر  
شمُّ حصون لها القنا جُدُر  
إذ قصرت عن ضميره الضمر  
خمرًا بغير العنقود تعتصر

ثم ذكرت كيف دارت الدائرة عليهم وفرَّ منهم كونت طرابلس مع خيله، ووقع جيشهم كلُّه في الأسر:

لما رأوا الأمرَ غير ما حسبوا  
ولوا ظبى يوسف ظهورهمو  
وأدبر القمص مع فوارسه  
والهيكليون مع قساورهم  
لم يجبنوا ساعة وإن فشلوا  
أوثق بالأسر كلَّ جيشهم  
قاصمة الظهر للفرنج غدت  
بها جدود الإسلام قد صعدت  
حظُّ ابن أيوب أن يفوزَ بها  
وحظُّ قوم بغوا الجهاد فلم  
والناس من فوق صبرهم صبروا  
تأخذ منها فوق الذي تَدَّر  
ما غرَّه مثل غيره الغرر  
لم يبقَ إلا هياكل دُنُر  
وإنما الليث دونه النمر  
وأصبح الملك ضمن من أُسروا  
وقعة قرني حطين مذ ظهروا  
من بعد ما كان أهله عثروا  
والله في خلقه له أثر  
يشغلهمو عن جهادهم وطَّر

ومنها في كيفية استحياء صلاح الدين للإفرنج بعد أن صاروا جميعًا في قبضة يده قيل كان عددهم ذلك اليوم ثلاثين ألف مقاتل وقيل خمسين ألفًا:

أبى عليه الإباء مَصْرَعهم  
أرادَ أن يشهدوا بِأعيُنهم  
إن نويه الأعلون فضلهمو  
وإنه في السلام غالبهم  
عُومِل بالأسرِ مُوقِن بردى  
وعفوه والخلائق الزُّهر  
عَفَّة أهل الإسلام إذ قدروا  
في الحرب والسلم ليس يُنْحَصِر  
وغالب والحروب تستعر  
وجلَّ ملكًا مع العمى العور

ومنها في كيفية قتله للبرنس أرناط أمير الكرك وهو من أمراء فرنسا، يقال له renaud de chatillon وكان هذا الأمير من أخصب أمراء الإفرنج خلُقًا وأسوئهم عهدًا وأكثرهم نكاية بالمسلمين، ومرارًا أراد صلاح الدين أن يصمد إليه في الكرك ويريح الإسلام منه فكان يستشفع لديه ويتعهد بإصلاح نفسه، وكان صلاح الدين — رحمه الله — يصفح عنه لما هو معروف به من سعة الصدر والميل إلى العفو، ولكن أرناط كان غدًّا لا حيلة فيه.

وأخيرًا قبض أرناط على قافلة من الحجَّاج قاصدة إلى الحجاز فألقى بهم في سجن قلعة الكرك ونهبهم وجردهم من كلِّ ما معهم، وقال لهم: ادعوا مُحَمَّدكم يخلصكم. ووصل خبرُ هذه الواقعة إلى صلاح الدين، وكان وقتئذٍ في الديار الجزرية يفتقد ملكه هناك، فأنحى الناس على السلطان صلاح الدين باللائمة، وقالوا له: إنك ما زلت تعفو عن هذا الرجل الذي لا يستحقُّ العفو، فتأمل الآن ماذا صنع بعد عفوك. وكان صلاح الدين ذلك اليوم مريضًا قد اشتدَّت به العلة، وما زالوا به حتى أقسم لهم بأنه إذا وقع أرناط في يده ليقتلنه بيده، فكان وقوع أرناط في يوم حطين مع ملك القدس وسائر أمراء الإفرنج، وجلس السلطان بعد انتهاء الواقعة وجلس أمامه الأمراء الإفرنج ومن شدَّة الحرِّ جيء بماء مثلوج فشرب منه السلطان وأعوانه وشرب أمراء الصليبيين، ولما وصل الدور إلى أرناط قال السلطان للساقي: أنت سقيته أمَّا أنا فلم أسقيه. قال القاضي بهاء الدين بن شداد صاحب سيرة صلاح الدين المسماة بالمحاسن اليوسُفيَّة — وكان ملازمًا للسلطان يُقيد كلَّ ما يراه ويسمعه: إن صلاح الدين كان على جميل عادة العرب لا يجوز قتل من نزل وأكل من الزاد وشرب من الماء، فأراد أن يقول إن الساقي هو الذي سقى أرناط من نفسه.

ففهم الناس من هذا أن السلطان لا يريد أن يعفو هذه المرة عن برنس الكرك بعد أن نذر بقتله، ثم قام السلطان وانتهر أرناط وضربه بالسيف فرماه وأجهز عليه الأعوان وعندما رماه في الأرض قال له: أنا أقتص منك لمحمد. فأخذ ملك الإفرنج يرتجف ظنًّا بأن السلطان قاتله في تلك الساعة كما قتل أرناط، فقال له صلاح الدين: ليسكن روعك فإن الملوك لا يقتل بعضهم بعضًا، وإنما نذرتُ قتلَ هذا الرجل لكثرة ما أفحش من النكاية بالمسلمين، وكلَّ مرة كنتُ أصفح عنه وهو يعود إلى غدِّه، ثم إنه قذف علنًا نبيَّنًا ﷺ، فل هذه الأمور قد استثنيتُه من العفو.

ولقد أوردت هذه الحادثة في الأبيات الآتية:

فَفَوْاْ بِهِ عَمَّهُمْ وَأَخْرَجَ مِنْ      بَنَكْنُهُ السَّهْلَ ضَاقَ وَالْوَعْرَ  
وَقَىْ بِأَرْنَاطِ نَذْرِهِ بِيَدِ      إِذْ طَالَمَا لَمْ تَحْكْ بِهِ النَّذْرَ  
وَقَالَ إِذْ تَلَّهْ بِصَارِمِهِ      هَا أَنْذَا لِلنَّبِيِّ أَنْتَصِرَ  
أَزْوَجَ تَحْتَ التَّهْلِيلِ مُهْجَتِهِ      مَخْضُوبَةٌ صَارِمًا هُوَ الذِّكْرُ  
فَأَصْبَحَ الْمَلِكُ وَهُوَ مُرْتَجِفٌ      يَمَلُّوهُ بَعْدَ مَا رَأَى الدُّعْرَ  
أَبْصَرَ جِسْمَ الْبِرْنَسِ مُنْعَفِرًا      فَقَالَ إِثْرَ الْبِرْنَسِ أَقْتَفِرَ  
فَأَفْرَخَ الرَّوْعَ مِنْهُ سَاعَةً إِذْ      أَبْلَغَ أَنْ لَنْ يُصِيبَهُ ضَرَرُ

ومنها في ذكر حبِّ صلاح الدين للعفو وشدة تحرُّجه من سفك الدماء حتى عابه بعض المؤرخين، وقالوا: إنه بعفوه عن الإفرنج وتركه إيَّاهم بعد حطين وبعد فتح القدس مكتفياً بتجريدتهم من السلاح، قد جرَّ على الإسلام مُصيبةً عظيمةً؛ فإنهم ذهبوا إلى صور واعتصموا بها ولما توافر جمعهم زحفوا منها وقاتلوه أشدَّ قتال:

إِنْ عِيبَ بِالْحَمِّ وَالْوَفَا رَجُلٌ      فَإِنَّهُ خَيْرٌ مَا هَفَا الْبَشَرَ

وقلت عن شدة تعظيم الإفرنج إلى الآن لقدَّر صلاح الدين بسبب هذه الأخلاق العالية:

وَكَانَ مِنْ حَرَمَةِ الْعَدُوِّ لَهُ      أَنْ ذَكَرَهُ فِي بِلَادِهِمْ عَطِرُ

وذكرت زيارة الإمبراطور غليوم الثاني عاهل ألمانيا لضريح ص لاح الدين في دمشق وما أظهره من الخشوع في ذلك المقام:

تَعْدُو عِظَامُ الْمُلُوكِ وَاقِفَةٌ      بِبَابِهِ وَهُوَ أَعْظَمُ نَخْرَ  
وَيَنْحَنِي حَاسِرًا بِتَرِبَتِهِ      رَأْسُ بَأَعْلَى التِّيَّجَانِ مُعْتَجِرَ

وقد ذكر هذه الزيارة شوقي بعد وقوعها بقليل؛ أي سنة ١٨٩٨، فقال تحت عنوان تحية غليوم الثاني لصلاح الدين في القبر:

عَظِيمُ النَّاسِ مَنْ يَبْكِي الْعِظَامَا      وَيَنْدِبُهُمْ وَلَوْ كَانُوا عِظَامَا  
وَأَكْرَمُ مِنْ غَمَامٍ عِنْدَ مَحَلِّ      فَتَى يُحْيِي بِمِدْحَتِهِ الْكِرَامَا

وما عذُرُ الْمُقْصِرِ عن جزاء  
فهل من مُبْلِغِ غليومِ عني  
رَعَاكَ اللهُ من مَلِكِ هُمَامِ  
أرى النسيانَ أظْمَأَه فلَمَّا  
تُقَرَّبَ عَهْدَه للناسِ حتَّى  
أُتَدْرِى أَيُّ سُلْطَانِ تُحْيِي  
دَعوتِ أَجَلِ أَهْلِ الأَرْضِ حَرْبًا  
وقفتَ به تذكُّرَه ملوكًا  
وكمُ جَمَعْتَهُمُ حَرْبُ فكَانُوا  
كِلَامُ للبريَّةِ دَامِيَاتِ  
فلما قلتَ ما قد قلتَ عنه  
تساءلتِ البريَّةُ وهي كَلْمِي  
وأنتَ أَجَلٌ أن تُزْرِي بِمَيِّتِ  
فلو كان الدوامُ نَصِيبَ مَلِكِ

وما يَجْزِيهِمُو إِلَّا كَلَامَا  
مَقَالًا مُرْضِيًا ذاك المَقَامَا  
تَعَهَّدَ في الثرى ملكًا هُمَامَا  
وقفتَ بقبْرَه كنتَ الغمَامَا  
تركتَ الجِيلَ في التاريخِ عَامَا  
وأيُّ مُمْلِكِ تُهْدِي السَلَامَا  
وأشرفهم إذا سَكَنُوا سَلَامَا  
تعوَّدُ أن يلاقوه قِيَامَا  
حدائِدهَا وكان هو الحُسَامَا  
وأنتَ اليومَ من صَمَدِ الكَلَامَا  
وأسمعتَ الممالكَ والأَنَامَا  
أحبًّا كان ذاك أم انتقامَا؟  
وأنتَ أبرُّ أن تُؤْذِي عِظَامَا  
لَنَالَ بحدِّ صارمه الدوامَا

وقد ترجمتُ من عهدٍ غير بعيد هذه الأبيات لجلالة الإمبراطور غليوم الثاني، وذكرت له مَنْ شوقي في العالم العربي، وأنته كان أشعر شعرائنا، فارتاح جدًّا لهذه الأبيات وترحم على قائلها، وأما البيت الأخير فقد وقع بيني وبين شوقي توازدًا خواطر على معناه؛ لأنني لما زرتُ مقام سيدنا خالد بن الوليد - رضي الله عنه - في حمص كتبتُ هذين البيتين على الجدار:

مَغْيِبُكَ سيفَ اللهُ في غمِّكَ الثرى  
فلو أن فردًا خَلَدته فتوحه

دليلٌ بأن الله لا شكَّ واحد  
لما كان في الأَقْوَامِ إِلَّا كَ خَالِدِ

وتاريخ هذين البيتين أقدم من تاريخ أبيات شوقي. ولو لم يكن لشوقي إلا ما قاله في هذه القصيدة عن الحرب الصليبية لكان ذلك كافيًا له حتى يُلقب بالشاعر الإسلامي وهي الصِّفَة التي استمالت له قلوب المسلمين شرقًا

وغيرًا، فكيف وله في هذا الباب يتائم تقلد بها جيد الدهر، وقد ذكر منها الكاتب البليغ الأستاذ محب الدين الخطيب مطلع قصيدته في حرب الدولة العثمانية مع اليونان:

بسيفك يعلو الحقُّ والحقُّ أغْلَبُ  
وما السيفُ إلا آيةُ الملكِ في الوري  
وَيُنْصِرُ دِينَ اللَّهِ أَيَّانَ تَضْرِبُ  
وما الأمرُ إلا للذي يتغَلَّبُ  
لِنِعْمِ الْمَرْبِيِّ لِلطُّغَاةِ الْمُؤَدِّبِ  
فأدَّب به القوم الطُّغَاةَ فإنه

وقوله عند سقوط أدرنة:

يا أختِ أندلسِ عليك سلام  
بِكُما أصيب المسلمون وفيكما  
هوتِ الخلافةُ عنك والإسلام  
دُفن اليراع وغُيب الصمصام

وقوله يوم أسقط الكماليون في تركيا منصب الخلافة:

عادتُ أغاني العُرسِ رجَعُ نواح  
ضجَّتْ عليك ماذنٌ ومنابر  
وَنُعِيَتْ بَيْنَ مَعَالِمِ الْأَفْرَاحِ  
وبكَّتْ عليك ممالكٌ ونواحي  
يا للرجالِ لحرَّةِ موءودة  
إن الذين أسَتْ جراحك حربهم  
قتلتك سلْمُهُمُ بغيرِ جراح  
موشيةٌ بمواهبِ الفتحِ  
كيف احتيالك في صريعِ الراح  
هتكوا بأيديهم ملاءةَ فخرهم  
إن الغرور سقى الرئيسِ براحه

وذكر له ما قاله في الحجَّ عندما دعاه الخديوي أن يكون معه وهو في الدرجة القصوى من التأثير لا يقرؤه قارئ إلا ويستعبر:

لك الدينُ يا ربَّ الحجيجِ جمعتهم  
دعاني إليك الصالحُ ابنُ محمَّد  
وقدِّمتُ أعذارِي وذُلِّي وخَشيتِي  
وفي راحتي ما ضِ إذا ما هزَّزته  
لبيتِ طُهُورِ الساجِ والعِرصاتِ  
فكان جوابي صالحِ الدعواتِ  
وجئتُ بضِعْفي شافعًا وشكَّاتي  
تركتُ عدوَّ الله في السكراتِ  
ونزَّهته عن ريبةِ وأذاة  
ولم أبغِ في جهري ولا خَطراتي  
وتشهد ما أذيتُ نفسًا ولم أضر

ولا غَلَبْتَنِي شِقْوَةٌ أَوْ سَعَادَةٌ  
ولا جالُ إِلَّا الخَيْرُ بينَ سَرائِرِي  
ولا بَتُّ إِلَّا كابنَ مَريمَ مُشَفِّقًا  
ولا حَمَلتُ نَفسُ هوى لِبِلاها  
وَإِنِّي ولا مَنُّ عَلَـيكَ بِطاعَةِ  
أُبالِغُ فِيها وَهِيَ عَدْلٌ وَرِحمَةٌ  
وَأنتَ وَلِيُّ العَفْوَ فامحُ بِناصِعِ  
وَمنَ تَضَحَكِ الدَنياءِ إِلَـيهِ فَيَغْتَرِرُ  
عَلَى حِكمَةِ آتَيْتَنِي وَأناةً  
لدى سَدَّةِ خَيرِيَّةِ الرَغَباتِ  
عَلَى حُسدِي مُستَغفِرًا لِعِداَتِي  
كَنَفسِي فِي فِعلِي وَفِي نَفتائِي  
أَجَلٌ وَأَعْلِي فِي الفَروضِ زِكاتِي  
وَيَتَرُكُها النُّساکَ فِي الخَلْواتِ  
مِنَ الصَّفحِ ما سَوَدتُ مِن صَفحَاتِي  
يَمَتُّ كَقَتِيلِ الغَيدِ بِالبَسَماتِ

ولعمري من عرف شوقي معرفة تامّة واختلط به لم يجده مبالغاً فيما ناجى به  
رَبّه، ولشوقي عدا هذا قصائد نبويّة مشهورة منها هذه الهمزيّة:

وُلِدَ الهُدَى فَالكَائِناتِ ضِياءُ  
الرُّوحِ وَالمَلأُ المَلائِكِ حَولَهُ  
والعَـرشِ يَزهُو وَالخَظِيرةَ تَزدهي  
وَحَديقَةَ الفُرْقانِ ضاحِكةَ الرُّبى  
والوَحيِ يَقطُرُ سَلسَلاً مِن سَلسِلِ  
نُظِمتُ أَسامِي الرُّسُلِ فَهِيَ صَحيْفَةٌ  
اسمِ الجِلالَةِ فِي بَديعِ حَروفِهِ  
يا خَيرَ مَن جِاءَ الوِجودَ تَحِيَّةً  
بِبيتِ النَبِيينِ الَّذي لا يَلتَقِي  
خَيرَ الأَبوَّةِ خارَهمَ لِكَ أَدَمِ  
هَمِ أَدركوا عَزَّ النَبوَّةِ وانتهتِ  
حُلِقَتْ لِبَيتِكَ وَهُوَ مَخْلوقُ لَها

ومنها:

بِسوى الأمانة في الصبا والصّدق لم  
يا مَن له الأخلاق ما تهوى العُلا  
لو لم تُقم ديناً لقامت وحدها  
يَعرِفُهُ أَهلُ الصّدقِ والأَمْناءِ  
مِنها وما يَتعَشَّقُ الكِبراءِ  
دِينًا تُضِيءُ بِنورِهِ الأَناءِ



وملاحة الصديق منك إباء  
 ما أوتي القواد والزعماء  
 وفعلت ما لا تفعل الأتواء  
 لا يستهين بعفوك الجهلاء  
 هذان في الدنيا هما الرُحماء  
 في الحق لا ضغن ولا بغضاء  
 ورضا الكثير تحلم ورياء  
 تعرفو النديي وللقلوب بُكاء  
 جاء الخصوم من السماء قضاء  
 أن القياصر والملوك ظماء  
 يدخل عليه المُستجير عداء  
 ولو أن ما ملكت يدك الشاء  
 وإذا ابتنيت فدونك الآباء  
 فجميع عهدك نمة ووفاء  
 في العلم أن دانت بك العلماء  
 فيها لباعِي المُعجزات غناء  
 وتقدم البلغاء والفصحاء  
 وتخلّف الإنجيل وهو ذكاء  
 بالحق من ملل الهدى غراء  
 نادى بها سُقراط والقُدماء  
 وأصمّ منك الجاهلين نداء  
 والناس في أوهامهم سُجّناء  
 ومن النفوس حرائر وإماء  
 يُوصف له حتى أتيت دواء  
 لا سُوقة فيها ولا أمراء  
 والناس تحت لوائها أكفاء  
 والأمر سُورى والحقوق قضاء

أما الجمال فأنت شمس سمائه  
 والحسن من كرم الوجوه وخيره  
 وإذا سخوت بلغت بالجد المدى  
 وإذا عفوت فقادراً ومقدراً  
 وإذا رحمت فأنت أم أو أب  
 وإذا غضبت فإنما هي غضبة  
 وإذا رضيت فذاك في مرضاته  
 وإذا خطبت فللمنابر هزة  
 وإذا قضيت فلا ارتياب كأنما  
 وإذا حميت الماء لم يُورد ولو  
 وإذا أجرت فأنت بيت الله لم  
 وإذا ملكت النفس قمت ببرها  
 وإذا بنيت فخير زوج عشرة  
 وإذا أخذت العهد أو أعطيته  
 يا أيها الأمي حسبك رتبة  
 الذكر آية ربك الكبرى التي  
 صدر البيان له إذا التقت اللغى  
 نسخت به التوراة وهي وضيئة  
 بك يا ابن عبد الله قامت سَمحة  
 بُنيت على التوحيد وهي حقيقة  
 لما دعوت الناس لبي عاقل  
 أبوا الخروج إليك من أوهامهم  
 ومن العقول جداول وجملامد  
 داء الجماعة من أرسطاليس لم  
 فرسمت بعدك للعِباد حُكومة  
 الله فوق الخلق فيها وحده  
 والدين يُسر والخِلافة بيعة

قد ذكر شوقي هنا ما لم يكن أتى به في همزيّة وادي النيل وما أشرت إليه في تعليقي على قصيدته تلك فأنت ترى أنه لا يفوته شيء إن نقص كلامه في محلّ كملّ في محلّ آخر، ثم يقول:

الاشتراكيون أنت إمامهم      لولا دعاوى القوم والغلواء  
داويت مُتَبِّدًا وداؤوا طَفرة      وأخفُّ من بعض الدّواء الداء

أي إن الزكاة المشروعة في الإسلام والتي هي والصلاة توأمان تضمن من سدّ الفقر وتقريب الطبقات بعضها من بعض ما تضمن المبادئ الاشتراكية التي قاموا بها في العصر الحاضر، ولكن الاشتراكيين غلوا وأرادوا الطفرة فكان عملهم أبلغ في الضرر من الحالة الأولى التي أرادوا الخلاص منها، ثم يقول:

الحرب في حقّ لديك شريعة      ومن السُّموم الناقعات دواء  
والبرُّ عندك ذمّة وفريضة      لا منّة مَمْنونة وحباء  
جاءت فوحدت الزكاة سبيله      حتى التقى الكرماء والبخلاء  
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى      فالكلُّ في حقّ الحياة سواء  
فلو أنّ إنسانًا تخير ملّة      ما اختار إلا دينك الفقراء

هو يقول إن الحرب في تأييد الحقّ مشروعة في الإسلام لا غبار عليها، وهي دواء لسُموم الضلال الناقعة، وإن البر ليس بفضيلة اختيارية في الإسلام ولا إيثار، بل هو فرض كفرض الصلاة لا يجوز قطعه، وإن الزكاة يجب على المسلم إخراجها إذا أراد أن يكون مسلمًا، فلا تعود إلى إرادته وإلى خُلُقهِ من كرم أو لؤم، وليس هذا فرضًا في سائر الأديان كما هو في الإسلام. يقول إن الفقراء قد كفاهم الإسلام مؤنّة الاحتياج؛ وذلك بالزكاة التي انتصف منها الفقراء من الأغنياء، ومن قوله في الإسراء:

يا أيُّها المُسرَى به شرفًا إلى      ما لا تنال الشمس والجوزاء  
الله هيأ من حظيرة قُدسه      نُزلاً لِدَاتِك لم يجزه علاء  
والرُّسل دون العرش لم يؤدّن لهم      حاشا لِغَيْرِك مَوْعد ولِقَاء

ومن قوله في شجاعة النبي ﷺ:

الخيلُ تَأبَى غيرَ أحمدَ حامياً  
شيخُ الفوارسِ يعلمون مكانه  
وإذا تصدَّى للظبي فمهتد  
ساقى الجريحِ ومطعمِ الأسرى ومن  
إن الشجاعةَ في الرجال غلاظة  
وبها إذا ذُكر اسمُه خيلاء  
إن هيَّجتُ أسادها الهيجاء  
أو للرماحِ فصعدة سَمراء  
أمنتُ سنابكُ خيله الأشلاء  
ما لم تزنها رافةً وسخاء

لله درُّ شوقي في هذا الوصف الذي يليق بأن ينشد عنده:

وإن أحسنَ بيتٍ أنتَ قائله  
بيتٌ يُقال إذا أنشدته صدقا

نعم كان محمدٌ — عليه الصلاة والسلام — أشجعَ الشجعان وأقدمهم إذا حمي الوطيس، وأثبتهم إذا دارت الدائرة على الصحابة؛ كما ظهر في يوم أُحُد وغيره، وكان مع صلابته هذه أرفأَ الناس وأرقهم قلباً وأنداهم محجراً، وكان إذا ظهر على عدوه يعرف أن يرقق ويعفو، ولم تكن خيله لتدوس على المطروحين بالعرء من أعدائه، ثم يقول:

الحقُّ عرضُ الله كلُّ أبيَّة  
والحقُّ والإيمان إن صُبا على  
بين النفوس حمى له ووقاء  
بردٍ ففيه كتيبة حرساء

ويقول عن الصحابة الكرام:

نسفوا بناء الشُّرك فهو خرائب  
يمشون تُغضي الأرض منهم هيبة  
حتى إذا فتحت لهم أطرافها  
واستأصلوا الأصنام فهي هباء  
وبهم حيال نعيمها إغضاء  
لم يُطغهم ترَف ولا نعماء

ثم يقول مخاطباً الرسول:

ما جئتُ بابك مادحاً بل داعياً  
أدعوك عن قوم الضعاف لأزمة  
ومن المديح تضرُّع ودعاء  
في مثلها يلقي عليك رجاء

## شوقي

أَدْرَى رَسولُ اللهِ أَنَّ نَفوسَهُم رَكِبَتْ هَواها وَالقُلُوبَ هَوا  
مُتَفَكِّكُونَ فَمَا تَضُمُّ نَفوسَهُم ثِقَةٌ وَلا جَمعَ القُلُوبَ صَفاء  
رَقَدُوا وَغَرَّهَم نَعيمٌ باطِلٌ وَنَعيمٌ قَومٌ في القَيُودِ بَلاء  
أَقطَعَتَهُم غَررَ البِلاَدِ فَضَيَّعُوا وَغَدَوا وَهَمَّ في أَرضِهِم غُرَباءُ  
ظَلَمُوا شَريعَتَكَ الَّتِي نَلنا بِها ما لَمْ يُنلْ في رَومَةِ الفِقاء

ما أصدق قوله: «وغدوا وهم في أرضهم غرباء..» إلا ما ندر.

ولشوقي غير هذه الهزمية في الرسول ﷺ قصيدة مُعارضة للبردة الشريفة، رضي الله عن صاحبها، ولو استشارني شوقي في هذه المعارضة لتهيته عنها، وهل نظمه في هذه المعارضة للبردة أقل إبداعاً من سائر نظمه؟ أو أنزل عن طبقته المعهودة؟  
لا والله فنظمه نظم نسجٍ واحدٍ، هو نسيجٍ وحده في هذا العصر، ولكن يا سبحان الله متى قابلته بالبردة فقد رونقه ذاك وصرت تريد أن تطويه على غره وتتجاوزته إلى غيره، فما ألقى الله بردة الفصاحة على قصيدة نبوية كيميية صاحب البردة، هكذا كتب في اللوح وجفَّ القلم وأثر الله الأبوصيري ببيكاراة البردة وأعجز كلَّ فحلٍ عن افتراع مثلها، فما كانت معارضة شوقي للبردة بالرأي الموفق، ولو كانت أبيات قصيدته كلها عامرة بالمحاسن ولنستشهد مع ذلك ببعض ما قاله فيها مثلاً:

يا نَفْسُ دُنياكَ تُخفي كُلَّ مُبَكِّيةٍ وَإِنْ بَدَأَ لَكَ مِنْها حُسْنٌ مُبْتَسَمٌ  
فُضِّي بِتَقَوَّاقِ فَاهَا كُلِّما ضَحَكَتْ كَما يَفْضُ أَدنى الرِّقْشاءِ بِالثَّرَمِ  
مَخطُوبَةٌ مِنْذَ كانَ النَاسُ خَاطِبَةً جُرْحُ بَآدِمٍ يَبكي مِنْه في الأَدَمِ  
لا تُحَفلي بِجَناها أو جِنايَها المَوْتُ بِالزَّهَرِ مِثْلَ المَوْتِ بِالْفَحْمِ

هنا جاء شوقي بمعنى عصري، وهو أن الكربون يقتل في الزهر كما يقتل في الفحم ولم أجد لذلك طلاوة؛ لأن الشعر بعيد عن الكيمياء بُعد الأرض عن السماء، ثم يقول:

يا وَيَلِتاها لِنَفسي راعِها وَدَهِىَ مَسوَدَّةِ الصَحفِ في مَبيضَّةِ اللَّمَمِ  
رَكَّضُها في صَريعِ المَعضِياتِ وما أَخذتُ مِنْ حَميَّةِ الطاعِاتِ لِلتَّحَمِ  
هاَمَتِ عَلى أَثرِ اللَّدَّاتِ تَطَلُّبُها وَالنَفْسُ إِنْ يَدعُها دَاعي الصِّبا تَهَمُ

اجتهد بقدر إمكانه أن يقلد الأباصيري في نهجه، وأن يأتي بمثل ديباجته، وأن يقابل بيتاً ببيت ويحذو قدّة بقدّة؛ فحام وما نزل ورمى وما قرطس إلا أنه لما وصل إلى المديح ارتقى عن ذي قبل وجاء بما من حقه أن تسمعه ولو كان من دون البردة:

لِزِمْتُ بَابَ أَمِيرِ الْأَنْبِيَاءِ وَمَنْ  
فَكُلُّ فَضْلٍ وَإِحْسَانٍ وَعَارِفَةٍ  
عَلَقْتُ مِنْ مَدْحِهِ حَبْلًا أُعْزُّ بِهِ  
يَزْرِي قَرِيضِي زَهِيرًا حِينَ أَمَدَحِهِ  
مَحَمَّدَ صَفْوَةَ الْبَارِي وَرَحْمَتِهِ  
وَصَاحِبَ الْحَوْضِ يَوْمَ الرُّسُلِ سَائِلَةٍ  
يَمْسِكُ بِمِفْتَاحِ بَابِ اللَّهِ يَغْتَنِمُ  
مَا بَيْنَ مُسْتَلَمٍ مِنْهُ وَمُلْتَزِمِ  
فِي يَوْمٍ لَا عَزَّ بِالْأَنْسَابِ وَاللُّحْمِ  
وَلَا يُقَاسُ إِلَى جُودِي نَدَى هَرِيمِ  
وَبُغْيَةِ اللَّهِ مِنْ خَلْقٍ وَمِنْ نَسَمِ  
مَتَى الْوُرُودِ وَجَبْرِيلَ الْأَمِينِ ظَمِي

ثم يقول:

لَمَّا رَأَاهُ بَحِيرًا قَالَ نَعْرِفُهُ  
سَائِلِ حِرَاءِ وَرُوحِ الْقَدِيسِ قَدْ عَلِمَا  
بِمَا حَفِظْنَا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالسِّيمِ  
مَصُونٍ سَرٌّ عَنِ الْإِدْرَاكِ مُنْكَتِمِ

ثم قال:

وَنُودِي أَقْرَأُ تَعَالَى اللَّهُ قَائِلُهَا  
هَنَّاكَ أَدْنَى لِلرَّحْمَنِ فَاْمْتَلَأَتْ  
جَاءَ النَّبِيُّونَ بِالْآيَاتِ فَاَنْصَرَمَتْ  
لَمْ يَتَّصِلْ قَبْلَ مَنْ قَبِلَتْ لَهُ بِفَمِ  
أَسْمَاعُ مَكَّةَ مِنْ قَدْسِيَّةِ النَّعْمِ  
وَجِئْتُنَا بِحَكِيمٍ غَيْرِ مُنْصَرِمِ

أي بالقرآن الحكيم.

آيَاتِهِ كَلَّمَا طَالَ الْمَدَى جُدُّ  
يَزِينُنَهُنَّ جَلَالُ الْعِتْقِ وَالْقَدَمِ

ومن مستحسن أبياتها:

جُبَّتِ السَّمَاوَاتِ أَوْ مَا فَوْقَهُنَّ بِهِمْ  
رَكُوبَةٌ لَكَ مِنْ عَزٍّ وَمَنْ شَرَفَ  
مَشِيئَةَ الْخَالِقِ الْبَارِي وَصَنَعْتَهُ  
عَلَى مُنَوَّرَةٍ وَرَدِيَّةِ اللَّجْمِ  
لَا فِي الْجِيَادِ وَلَا فِي الْأَيْتِقِ الرَّسْمِ  
وَقُدْرَةَ اللَّهِ فَوْقَ الشُّكِّ وَالْتُهُمِ

## شوقي

حتى بلغتَ سماءً لا يُطار لها      على جناحٍ ولا يُسعى على قَدَمٍ  
وقيل كلُّ نبيٍّ عند رُتبته      ويا محمَّدَ هذا العرش فاستلم

ولما كان صاحب البردة قال:

فإن لي ذمّةً منه بتسميتي      محمَّدًا وهو أوفى الخلق بالذمِّ

أراد أحمد شوقي أن يُباريه في ذمّة مثلها من التسمية بأحمد:

يا أحمدَ الخيرِ لي جاهٌ بتسميتي      وكيف لا يتسامى بالرسول سمي  
المادِّحون وأرباب الهوى تَبَعُ      لصاحب البُرْدَةِ الفيحاءِ ذي القدم  
الله يشهد أنّي لا أعارضه      مَنْ ذا يُعارضُ صَوْبَ العارضِ العَرِمِ  
وإنما أنا بَعْضُ الغابِطينِ وَمَنْ      يَغْبِطُ وليِّكَ لا يُذَمُّ ولا يُلَمُّ

وقد أحسن أبو عليٌّ بهذا الاستدراك وتنصُّله من معارضة سيِّدٍ مَنْ جاء بالسهل  
المُمتنع والداني المُرتفع، ثم قال خطابًا للرسول عليه السلام:

إنُّ قُلْتُ في الأمر لا أو قلتَ فيه نعم      فخيرة الله في لا منك أو نعم  
أخوك عيسى دعا مَيِّتًا فقام له      وأنت أحييتَ أجيالًا من الأمم

ودخل شوقي في جدلٍ مع الذين اعترضوا على الإسلام، وقرع مع القادحين فيه فقال:

قالوا غزوتَ ورُسلَ الله ما بُعثوا      لقتلَ نفسٍ ولا جاءوا لسفكِ دَمِ  
جَهْلٌ وتضليلُ أحلامٍ وسفْسطة      فتحتُ بالسيفِ بعد الفَتْحِ بالقلمِ  
لما أتى لك عفواً كلُّ ذي حَسَبٍ      تكفَّلَ السيفُ بالجهالِ والعممِ  
والشرُّ إن تَلَقَّه بالخيرِ ضِقتَ به      ذرْعًا وإن تَلَقَّه بالشرِّ يَنحسِمِ  
سَهْلُ المسيحيةِ الغرَّاءِ كم شربت      بالصابِ من شهواتِ الظالمِ الغلمِ  
لولا حماة لها هبُّوا لنُصرتَها      بالسيفِ ما انتقمتِ بالرفقِ والرحمِ

يريد أن يقول إن كلام هؤلاء المُعتريين سفْسطة مَحْضَةٌ؛ لأن الله يَرعُ بالسُلطان ما  
لا يَرعُ بالقرآن، وإن نبي الإسلام في بدءِ دعوته لم يألُ جهدًا في الدعوة بالرفق والمقارعة

بالبرهان، وإنه ما دُفِع إلى الضرب والحرب إلا من بعد أن رأى عُقْم الوعظ والنصح، وأن لا حيلة في الجهل والظلم إذا مَرَد الناس عليهما إلا بالتأديب أن هذه المسيحية التي تُعَلِن أنها دين السلام أصابها من الطرد والقتل والتعذيب والانتقام والاصطلام ما لا تسعه الكتب المؤلفة، وبقي ذلك مدّة ثلاثمائة سنة إلى أن تنصّر قسطنطين فحينئذٍ استقرّت قواعدُها وانتشرت في الأرض وأمنت الغوائل، ولم تنتشر في الأرض إلا بقوة ملوكها وسلاطينها، وكم من ملك من ملوك النصرانية بثّ المسيحية أو الكاثوليكية بالسيف مثل شارلمان وملوك فرنسا، ومثل قياصرة بيزنطة ومثل ملوك الروسية وملوك المجر وغيرهم، ثم عزّز كلامه هذا بشواهد العصر الحاضر، فقال:

تلك الشواهد تَتَرى كلَّ آونة      في الأعصر الغرِّ لا في الأعصر الدُّهم  
بالأمس مالت عروشٌ واعتَلت سُرُر      لولا القذائف لم تثلم ولم تصم  
أشباع عيسى أعدوا كلَّ قاصِمة      ولم نعدّ سوى حالات مُنقِصم

جاء في الطبعة الثانية من ديوان شوقي تعليقًا على هذه الأبيات، ولعلّه بقلم الكاتب الفاضل حسين بك هيكل ما يلي:

إن المتشيعين اليوم للدين المسيحي «دين الهدوء والسلام» هم أهل القوة الحربيّة الدائِبُونَ على إعداد المُهلِكَات في الحروب، حتى كأنهم أصبحوا ولم يبق لهم من شغل يشغلهم إلا استخراج الذهب من بطون الأرض وإنفاقه على مصانع الحديد وال فولاذ لطبع آلات الحرب في طول الأرض وعرض البحر، وقد افتنُّوا في أسباب الإهلاك والتدمير، ولم يكفهم أن يدمموا على الناس ويأخذوهم بالبلاء عن أيمانهم وعن شمائلهم ومن خلفهم ومن تحت أرجلهم حتى قاموا على تسخير الرياح ليرموهم من فوق رءوسهم بكلِّ دهياء ... إلخ.

ثم هاجت بشوقي نخوة الإسلام، شأنه في كلِّ موقف، وحمي أنفه للمدنيّة الإسلاميّة وقارنَ بينها وبين غيرها، فقال:

واثْرُكُ رعمسيسَ إن الملكَ مُظهِرُه      في نهضة العَدْل لا في نهضة الهَرَم  
دار الشرائع روما كلِّما ذُكرت      دار السلام لها أَلقت يدَ السَّلَم

## شوقي

ما ضارعتها بيانًا عند مُلتأمٍ      ولا حكتها قضاءً عند مُختَصمٍ  
ولا احتوتُ في طرازٍ من قِيَاصِها      على رشيدٍ ومأمونٍ ومعتصمٍ  
مَن الذين إذا سارت كَتائبُهُم      تصرَّفوا بحدود الأرض والتَّخَمِ  
ويجلسون إلى علمٍ ومَعْرِفَةٍ      فلا يدانون في عَقْلٍ ولا فهمٍ

وختم شوقي هذه القصيدة بأبيات في غاية التأثير تَدُوب لها القلوب حَسْرَةَ وذكرى  
وتتحدّر العبرات شَفْعًا ووتّرًا، وتشهد لشوقي فوق شهادات لا تُحصَى بأنه شاعر الإسلام  
بجميع جوارحه رحمه الله وجزاه عن الإسلام خيرًا:

يا ربِّ هبت شعوبٍ من مَنِيَّتِها      واستيقظتُ أُمَمٌ من رَقْدَةِ العَدَمِ  
سعدٍ ونَحْسٍ ومُلْكٍ أنت مالِكُهُ      تُدِيلُ من نَعَمٍ فيه ومن نِقَمِ  
رأى قضاؤكُ فينا رأيَ حِكْمَتِهِ      أَكْرِمُ بوجهكُ من قاضٍ ومُنْتَقِمِ  
فالطفُ لأجلِ رسولِ العالمين بنا      ولا تزدُ قومَه حَسْفًا ولا تسمِ  
يا ربِّ أحسنتُ بدءَ المسلمين به      فتمَّ الفضلُ وامنح حسنَ مُخْتَمِ

ومن أحسن ما قال شوقي الخطاب الذي خاطبَ به الخديوي عند زيارته للمدينة  
المنورة:

إذا زرتَ يا مولاي قَبْرَ مُحَمَّدٍ      وقبَلتَ مَنوَى الأعظمِ العَطِراتِ  
وفاضتُ من الدَّمعِ العُيونَ مَهَابَةً      لأحمدَ بين السِّتْرِ والحُجراتِ  
وأشرقَ نورٌ تحتَ كلِّ ثَنِيَّةٍ      وضاع أريجٌ تحتَ كلِّ حِصاةِ  
لِمُظْهِرِ دينِ الله فوقَ تنوِفةٍ      وباني صروحِ المجدِ فوقَ فلاةِ  
فقلْ لرسولِ الله: يا خيرَ مرسلٍ      أبْتُك ما تدري من الحَسراتِ  
شعوبُكُ في شرقِ البلادِ وعَرَبِها      كأصحابِ كَهْفٍ في عميقِ سُباتِ  
بإيمانهم نُورانِ ذِكرِ وَسْنَةِ      فما بالهم في حالِكِ الظلماتِ  
وذلك ماضي مَجْدِهِم وفَخارِهِم      فما ضرَّهم لو يعملون لآتِ  
وهذا زمانٌ أرضه وسماؤه      مجال لمقدام كبيرِ حياةِ  
مشى فيه قوم في السماء وأنشئوا      بوارج في الأبراجِ مُمتنِعاتِ  
فقلْ ربِّ وُقِّ للِعِظائِمِ أُمَّتِي      وزينَ لها الأفعالِ والعزماتِ



## (١٠) شوقي والخلافة

وجاء في ديوان شوقي الذي طُبِعَ مُؤَخَّرًا وعليه مقدمة من قلم محمد حسين بك هيكل تحت عنوان «خلافة الإسلام» ما يلي:

ما كاد العالم الإسلامي يفرح بانتصار الأتراك على أعدائهم في ميدان الحرب والسياسة ذلك النصر الحاسم الذي كان حديث الدنيا، والذي تمَّ على يد مصطفى كمال باشا في سنة ١٩٢٣ — قلنا: هذا غلط مشهور؛ فالحركة الوطنية في تركيا قام بها كاظم قره بكير وغيره قبل مصطفى كمال، ثم إنها بعد أن التحق مصطفى كمال بالحركة لم يكن فيها وحده، بل كان فيها عدة أبطال مثل كاظم قره بكير وحسين رءوف وعلي فؤاد ورأفت وعلي إحسان ونور الدين وعمر فوزي وغيرهم ممن أنقذ تركيا اجتمعاً مجهوداتهم، وأكثر الفضل في انقياد الشعب التركي لهؤلاء يرجع إلى علماء الدين الذين تقدّموا إلى الشعب باسم الدين، ولولاهم لم يَقمَ أهل الأناضول بهذه الحرب الاستقلالية — حتى أعلن هذا إلغاء الخلافة ونفى الخليفة من بلاد الأتراك، فنظم الشاعر هذه القصيدة يرثي فيها الخلافة وينبّه ممالك الإسلام إلى إسداء النُصْح لهذا الرجل لعلّه يبني ما هدم ويُنصف مَنْ ظلم:

عادت أغاني العُرس رَجَع نواح      ونُعيت بين معالم الأفراح  
كُفُنَتْ في ليل الزفاف بثوبه      ودُفِنَتْ عند تبلُّج الإصباح

أي إن مجلس أنقرة الكبير ومصطفى كمال نفسه أعلنوا بمنشورٍ رسميٍّ يوم أسسوا الحكومة التركية في أنقرة بأن جُلَّ مقصدهم من هذه الثورة على الدُول الأجنبية المحتلّة، هو إنقاذ الخلافة الإسلامية واستخلاص الخليفة الذي هو أسير في استامبول بين أيدي الإنجليز، وأعلنوا هذا القرار على جميع سكان تركيا، بل أوصلوه إلى جميع العالم الإسلامي، وكتبوا به إلى الإمام يحيى وغيره من ملوك الإسلام، فإنقاذ الخلافة كان هو الغرض الأول بزعم مصطفى كمال من هذه الحرب الاستقلالية، فلمّا انتهت الحرب بالطائلة للأتراك

كان أول ما فعله مصطفى كمال إلغاء نفس هذه الخلافة التي زعم أنه إنما تأسر لأجل المحافظة عليها، فكان دفنُها ليلة الزفاف كما قال شوقي، ثم قال:

شُيِّعَتِ مِنْ هَلَعٍ بَعْبْرَةَ ضاحِك	في كلِّ ناحية وسكرة صاح
ضَجَّتْ عَلَيْكَ مَأذُنٌ وَمنايِر	وبكتُ عليك ممالكُ ونواح
الهند والِهة ومِصْرُ حزينَة	أما من الأرض الخلافة ما ح؟
وأنتُ لك الجَمْعُ الجلائلُ مَأْتَمًا	فقعذَنَ فيه مقاعد الأنواح
يا للرجال لحرّة موءودة	قُتِلتْ بغير جَريرة وجُناح
إن الذين أسْتُ جراحك حربهم	قتلتك سَلْمهم بغير جراح

أي ثاروا لأجل أن يُضمدوا جراح الخلافة بزعمهم فلما اتسق لهم النصر قتلوا هذه الخلافة نفسها بغير جراح، وبئس العهد وساءت الشيمة:

هَتَكُوا بأيديهم ملاءة فخرهم	موشية بمواهب الفتاح
نزعوا عن الأعناق خَيْرَ قِلادة	ونصوا عن الأعطاف خيرَ وشاح
حَسَبُ أتى طول الليالي دونه	قد طاح بين عشية وصباح
وعلاقة فصمت عرى أسبابها	كانت أبرَّ علائق الأرواح

نعم، كانت الخلافة هي أحسن علاقة جامعة بين المسلمين وكان أربعمائة مليون مسلم في العالم يتولون حكومة تركيا بحجة أنها دولة الخلافة، فجاء مصطفى كمال وقطع هذه العلاقة بين تركيا والعالم الإسلامي، وزعم أنه لا يلوي على علاقة غير علاقة الترك خاصة وأن سائر المسلمين والأجانب في نظره سواء، وهو أمر مخالف للحقيقة وللواقع وللصلحة، وكان أنور — رحمه الله — يقول لي: إن الأتراك الذين في الروسية لا يعطفون علينا نحن أتراك تركيا بسبب أننا ترك بل بسبب أننا مسلمون. وهؤلاء الياقوت الذي هم في سيبيريا هم ترك من المحدث مثلنا، ولكن نظرًا لكونهم وثنيين لا يعطفون علينا ولا نعطف عليهم ولا يعرفوننا ولا نعرفهم.

جمعتُ على البرِّ الحضور وربما	جمعتُ عليه سرائر النزاح
نظمتُ صُفوف المسلمين وخطوهم	في كلِّ غدوة جمعة ورواح
بكتِ الصلاة وتلك فتنة عابث	بالشرع عرْبِيد القضاء وقاح

وقد علّق تحت هذا البيت تفسيراً للعزبيد؛ وهو الشرير الكثير العريضة، وهي سوء الخلق من السكر:

أَفْتَى حُرْزَعْبَلَةً وَقَالَ ضَلَالَةً      وَأَتَى بِكُفْرٍ فِي الْبِلَادِ بَوَاحٍ  
إِنَّ الَّذِينَ جَرَى عَلَيْهِمْ فِقْهَهُ      خُلِقُوا لِفِقْهِ كَتِيبَةٍ وَسَلَاحٍ

أي إن هذه النظريات إنما انقاد لها أناس لا يعلمون شيئاً سوى الحرب والضرب، فأما الذين يفكّرون في مصائر الأمور ويفهمون شذوفاً من السياسة فلا يمكن أن تُعجبهم:

إِنْ حَدَّثُوا نَطَقُوا بِخُرْسٍ كِتَابِيٍّ      أَوْ حُوِطِبُوا سَمِعُوا بِصَمِّ رِمَاحٍ  
أَسْتَغْفِرُ الْأَخْلَاقَ لَسْتُ بِجَاحِدٍ      مَنْ كُنْتُ أَدْفَعُ دُونَهُ وَالْأَجِي  
مَا لِي أَطَوِّقُهُ الْمَلَامَ وَطَالَمَا      قَلَدْتَهُ الْمَأْثُورَ مِنْ أَمْدَاحِي

لا جرم أن شوقي وغير شوقي قد استعجلوا في الحكم، وأنا نفسي من هؤلاء المستعجلين، وطالما عدلت صديقي أنور على خلافه مع مصطفى كمال، ولما كان مراد أنور بعد الحرب أن ينسلّ نجياً من برلين إلى الأناضول ويأخذ بنصيبه من الجهاد لاستقلال تركيا نهيته عن هذا الأمر خشية أن يكون زهابه إلى الأناضول مثار فتنة بينه وبين مصطفى كمال تكون نتيجتها صدع الوحدة وتشظية العصا.

وقد استعنت عليه بالدكتور ناظم بك — أحد أركان جمعية الاتحاد والترقي والوطني المشهور الذي كانت نزاهته أشهر من أن تذكر، وشنقه مصطفى كمال بتهمة المؤامرة على حياته، وهو بريء من تلك المؤامرة براءة الذئب من دم يوسف، ولكنه كان ينتقد سياسة الغازي علناً — فهذا الرجل هو الذي أعانني على أنور عندما كنّا في برلين حتى توقّف عن الدخول إلى الأناضول، وهكذا أمناً شرّاً الاختلاف بين قائدي الأتراك الكبيرين، ولكن مصطفى كمال إلى ذلك العهد كان جاعلاً شعاره الإسلام لا غير وكان يشهد الجمع ويحضر قراءة المولد ولا يبرح يخطب قائلاً: إخواننا العرب، إخواننا العرب، إخواننا المصريون وإخواننا المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها.

وقد ذكرت مرة في إحدى الجرائد كيف قال لي: لا بدّ أن نسترجع القدس إن شاء الله وهذا مُحَقَّق، وإنما أقول إن شاء الله كمسلم لا أقول إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ...

فهذه النغمات التي كان يسمعها الناس منه دائماً ولا يعلمون ما يطوي في قلبه من دونها حملت الناس على حبه والثناء عليه بإسراف، فلما انعقدت معاهدة لوزان وتمّ الصلح مع تركيا وظنّ الغازي أنه أمن المستقبل قلبَ ظَهْرِ المَجَنِّ، ونسي ما كان يقوله وجاهر بعكس ما كان يجاهر به من قبل:

هو رُكْنُ مملكة وحائط دولة	وقريع شَهْبَاءِ وَكَبْشِ نطاح
أأقول مَنْ أحيَا الجماعة مُلجِد	وأقول من ردَّ الحقوق إباحي؟
الحقُّ أُولَى من وليِّك حُرْمَة	وأحقُّ منك بنُصْرَة وَكِفاح
فامدح على الحقِّ الرجال ونلهمو	أو خلَّ عنك مواقف النُصّاح

لا شك بأن الحقَّ أولى بأن يُقال، ولكن نقطة العراك هنا هي تعيين الحق فإنه بعد أن استقلت تركيا ضلَّ الناس سبيلَ الحقِّ في تاريخ حوادث هذا الاستقلال فجعلوا الفضلَ كلَّه في تحرير تُركيا لمصطفى كمال، وزعموا أنه هو الذي أوَّجدها من العدم بعد أن كان قُضِي عليها القضاء المُبرم. وهذا خلاف الحقِّ وهو الخطأ المشهور الذي لا بدَّ للتاريخ من أن يصحَّحه في يوم من الأيام، ولو كان مصطفى كمال خدم تركيا في الحرب الخدمة الكبرى وكان من أعظم القوَّاد بلا نكير:

ومن الرِّجال إذا انْبَرَيْتَ لهدمهم	هَرَمٌ غليظٌ مناكِبِ الصُّفاح
فإذا قذفتَ الحقَّ في أجلاده	تَرَكَ الصِّراعَ مُضْعَضِعِ الألواح
أدوا إلى الغازي النصيحةَ يَنْتَصِح	إن الجَوَادِ يَثُوبُ بعد جِماح
إن الغرور سقى الرئيسَ براحه	كيف احتيالك في صريعِ الراح
نَقَلَ الشرائعَ والعقائدَ والقُرى	والناسَ نَقَلَ كَتائبَ في الساح

أي أراد أن يُلغِي العقائد والتقاليد القديمة والأوضاع التي مَضَتْ عليها القرون بمجرد أوامر عسكرية أشبه بالأوامر التي يُصدرها في ساحة الحرب:

تركته كالشبح المؤلَّه أُمَّة	لم تسلُّ بعدُ عبادةَ الأشباح
هم أطلقوا يده كقيصر فيهم	حتى تناول كلَّ غير مباح
غرته طاعاتُ الجموع ودولة	وجَدَ السوادُ لها هوى المُرْتاح

أمثال من شعر شوقي

وإذا أخذتَ المجدَ من أُميَّةٍ      لم تُعْطَ غيرِ سرايهِ اللَّماحِ  
مَنْ قاتلَ للمسلمينَ مَقالةً      لم يُوجِّها غيرُ النصيحةِ واحِ  
عَهْدُ الخِلافةِ فيَّ أوَّلَ ذائِدٍ      عن حَوْضِها بيراةِ النَّضاحِ

لم يتخلف شوقي عن موقف صدق من مواقف الإسلام جميعها؛ ومن جملتها تأييد الخلافة الإسلامية، وقد سبق لنا شواهد كثيرة من شعره تؤيد صحة دعواه هذه:

حُبُّ لذاتِ الله كان ولم يَزَلْ      وهوى لذاتِ الحقِّ والإصلاحِ  
إنِّي أنا المِصباحِ لستُ بضائعِ      حتى أكونَ فَراشةَ المِصباحِ  
غزواتِ أدهم كُلتُ بِذوابلي      وفتوحِ أنورِ فُصِّلَتِ بِصفاحي

أدهم هو أدهم باشا قائد الجيش العثماني المظفر في الحرب اليونانية، وأنور هو أنور باشا المشهور أحد أبطال الإسلام في التاريخ:

ولتَ سيوفُهما وبانِ قناهُما      وشبا يراعي غيرَ ذاتِ براحِ  
لا تبذلوا بُردَ النبيِّ لعاجزِ      عزلَ يدافعِ دونهِ بالراحِ  
بالأمسِ أوهى المسلمِ جِراحةً      واليومَ مدَّ لهمِ يدَ الجِراحِ  
فلتسمعنَّ بكلِّ أرضِ داعياً      يدعو إلى الكذابِ أو لسجاحِ  
ولتشهدنَّ بكلِّ أرضِ فتنةً      فيها يُباعُ الدينُ ببيعِ سَماحِ

رحم الله شوقي فلم يكن طبيباً أبصر منه بعلى الإسلام الحاضرة، وكان يعلم أن أكثر من يبيعون الدين ويفتون لأعداء الإسلام بما يريدون منه هم من رجال الدين ومن ذوي العمائم ويا للأسف! فقد جنت هذه الطبقة على الدين جنائيات لا توصف، وأخذت بالصادقين المخلسين من هذه الطبقة، ومنهم فقهاء الأناضول الذين لولاهم لم يتم القيام لمحاربة اليونان والحلفاء:

يُفتي على نهبِ المعزِّ وسيفه      وهوى النفوسِ وحقدِها المِلاحِ

## (١١) قصيدته في المولد النبوي

وله في ذكرى المولد قصيدة ليس للقلب طاقة أن يمرَّ بها فلا يأخذ منها إلى هذا الكتاب شيئاً، ولا سيما أن في أولها أبياتاً هي اليوم لسان حالي الباعث بي لهذه الذكريات أضمدُّ بها جراح النوى وأردد أوزاد الأسي، فهو يقول:

وإن طال الزمانُ به وطأبا	وكلُّ بساط عيش سوف يُطوى
إذا عادته ذكرى الأهل ذابا	كأنَّ القلبَ بعدهمُ غريب
كمنَّ فقد الأحبة والصحابا	ولا ينبيك عن خلق الليالي
تبدل كلَّ أونة إهابا	أخا الدنيا أرى دُنْيَاك أفعى
لبستُ بها فأبليت الثيابا	فمن يغترُّ بالدنيا فإنِّي
ولي صحك اللبيب إذا تغابى	لها صحك القيان إلى غبي
وذقت بكأسها شهداً وصابا	جنيت بروضها ورداً وشوكاً
ولم أرَ دون بابِ الله بابا	فلم أرَ غير حُكْمِ الله حُكماً
صحيح العلم والأدب اللبابا	ولا عظمتُ في الأشياء إلا
يُقلدُ قومه المَنن الرغابا	ولا كَرَمْتُ إلا وجَهَ حرّاً
ولا مثلَ البخيلِ به مُصابا	ولم أرَ مثل جمع المالِ داء
كما تزن الطعام أو الشرابا	فلا تقتلك شهوته وزنها

أي حفظ المال ينبغي أن يكون بميزان كما يزن الإنسان طعامه وشرابه على قدر حاجته إليهما؛ فلا يسرف ولا يُقتَر ويكون بين ذلك قواماً، ثم يقول:

وأعطِ الله حصته احتسابا	وخذُ لبنيك والأيام ذخراً
وجدت الفقرَ أقربها انتيابا	فلو طالعت أحداث الليالي
وأبقى بعد صاحبه ثوابا	وأن البرَّ خير في حياة
ولم أرَ خيرًا بالشرِّ أباً	وأنَّ الشرَّ يصدعُ فاعليه
على الأعقاب أوقعت العقابا	فرفقاً بالبنين إذا الليالي
ولا أدرعوا الدعاء المستجابا	ولم يتقلدوا شكر اليتامى

عَجِبْتُ لِمَغْشَرٍ صَلَّى وَصَامُوا      ظواهر خشية وتقى كذابا  
وتُؤْفِيهِمْ حِيَالِ الْمَالِ صَمًّا      إذا داعي الزكاة بهم أهابا

وهذا مرصُ المسلمين في الوقت الحاضر؛ تجدهم اختلفوا في كلِّ شيءٍ إلا أنهم اجتمعوا على خُلُقٍ واحد، وهو الإمساك الشديد في المصالح العامة، مع أنهم يرون النصرى واليهود ماذا يبذلون وماذا يتكفون على مصالحهم العامّة، وأنهم يجودون في هذه السبيل جود مَنْ لا يخشى الفقر، وكأن المسلمين يريدون أن يكتفوا بالصلاة والصيام دون الزكاة التي لا يكون الإسلام إسلامًا من دونها. وهذا أكثر الأصل في بلائهم الذي يتخبّطون فيه، وقد وثى شوقي هذا الموضوع حقّه وكان كما قلنا نطاسياً تاماً في معرفة علل الإسلام الحاضرة:

لقد كتموا نصيبَ اللهِ منه      كأنَّ اللهَ لم يُحصِ النَّصَابَا  
ومَنْ يَعدِلْ بحبِّ اللهِ شيئاً      كحبِّ المالِ ضلَّ هوَى وخابا  
أرادَ اللهُ بالفقراءِ برًّا      وبالأيتامِ حبًّا وارْتِبابَا  
فربُّ صغيرِ قومِ علّموه      سما وحما المسوِّمة العرابا  
وكان لقومه نفعًا وفخرًا      ولو تركوه كان أدَى وعابا  
فعلّم ما استطعتَ لعلَّ جيلاً      سيأتي يُحدِث العَجَب العُجابا  
ولولا البُخلُ لم يهلكَ فَرِيق      على الأقدارِ تُلَقَاهمِ غُضابَا  
تعبتُ بأهله لوماً وقبلي      دعاة البرِّ قد سَمِموا الخُطابَا

وكان شوقي سخياً بما يملك لا يأبى أن يجمع المال، ولكنّه كان يجمعه لينفقه ويعطي البرّ حقّه ويمتّع به أهله الذين كان لهم كما قال خليله المطران: «رثبلاً في اللاؤاء.» وكان فعل شوقي مطابقاً لقوله من جهة مؤاساة الفقراء، ثم إنه أخذ يبين المساواة الطبيعية بين البشر ليتبصر بها الذين يستأثرون بالمال لأنفسهم ولا يريدون أن يجعلوا للفقير نصيباً:

ألم ترَ للهواءِ جرى فأفضى      إلى الأكواخِ وأخترق القبابا  
وأن الشمسَ في الأفاقِ تغشى      حمى كسرى كما تغشى البيابا

## شوقي

وَأَنَّ الْمَاءَ يُرَوَّى الْأَسَدُ مِنْهُ      ويشفي من تلعلعها الكلابا  
وَسَرَّى اللَّهُ بَيْنَكُمْ الْمَنِيَا      ووسدكم مع الرسل الترابا

ومن هنا تخلّص إلى ذكّر الرسول الأعظم ﷺ الذي لم يشرف الفقراء ولا اليتامى  
بشيء مثل كونه خراج منهم، فقال شوقي:

وأرسل عائلًا منكم يتيمًا      دنا من ذي الجلال فكان قابا  
نبيُّ البرِّ بيّنه سبيلًا      وسنّ خلاله وهدى الشعابا  
تفرّق بعد عيسى الناس فيه      فلمّا جاء كان لهم مئابا  
وكان بيانُه للهدى سبيلًا      وكانت حَيْلُه للحقّ غابا  
وعلمنا بناءَ المجدِ حتى      أخذنا إمرة الأرض اغتصابا  
وما نيل المطالب بالتمني      ولكن تُؤخذ الدنيا غلابا  
وما استعصى على قوم منال      إذا الإقدام كان لهم ركابا

هذه الأبيات تكاد تكون أمثالا سائرة أشبه بقول شوقي: «وإنما الأمم الأخلاق ما  
بقيت.» ثم ذكر شوقي مولد الهادي عليه السلام، فقال:

تجلّى مولد الهادي وعمّت      بشائرُه البوادي والقصابا  
وأسدّت للبريّة بنتٌ وهب      يدًا بيضاء طوّقت الرقابا  
لقد وضعته وهاجًا منيرًا      كما تلدّ السمواتُ الشهابا

ثم خاطب النبيّ قائلاً له: إني سألت الله النصر لأبناء ديني، فإن كنت أنت الوسيلة  
عنده تعالى فإنه المجيب هذا الدعاء، فهو يقول:

سألتُ الله في أبناء ديني      فإن تكن الوسيلة لي أجاها  
وما للمسلمين سواك حصنٌ      إذا ما الضرُّ مسهمو ونابا  
كأن النّحس حين جرى عليهم      أطار بكلّ مملكة غرابا  
ولو حَفِظُوا سبيلك كان نورًا      وكان من النّحوس لهم حجابا  
بنيت لهم من الأخلاق رُكنًا      فخلوا الركن فانهدم اضطرابا



فكيف قَلَبَتْ نَظْرَكَ في شعر شوقي وجَدَّتَهُ يطوف في الآفاق ويرجع إلى مركز واحد هو الإسلام في دينه، والشرق في وطنه والعربيَّة في لغته والأخلاق في وصيَّته والعلم في رغبته، فكان عقله قويًّا وذوقه سليماً ووفاءه عظيماً، وقد قُلْتُ فيه يوم رَثِيته:

كانتْ قصائِدُهُ هي الصَّوْتُ الذي      سرَّي عن الإسلام ثقلُ سُبَّاتِهِ  
بعثتْ به رَوْحَ الحِياةِ كأنَّها      هي صوْرُ إسرَافيل في زَعقاتِهِ

وقلت:

ما حلَّ بالإسلام حَيْفٌ مُصِيبَةٌ      إلَّا وكان لها لسانٌ شَكَاتِهِ  
يحمي حقائقه ويوضح سُبُلَهُ      ويُقِيل طول الوقت من عَنَراتِهِ

وقلت:

وفى عن الشرق القديم نِضالَهُ      من يوم نَشَأَتَهُ ليوم وفاتِهِ  
أبدًا يحذِّره اسْتِلابُ تِراثِهِ      منه ويحفزه لأخذ تِراتِهِ  
لم يفتنَّ من عصره بمساوئٍ      كلًّا ولم يغمطه من حَسَناتِهِ  
قد لازم الإنصاف في أَحكامِهِ      لا فرقَ بين صحابه وعدادِهِ

## (١٢) ملحمة شوقي في حرب اليونان

ولا مرء في أنه لم يقل شوقي من شعر الملاحم أعظم من قصيدته البائيَّة في الحرب العثمانية التي أوَّلها:

بسيِّفك يعلو الحقُّ والحقُّ أغْلَبُ      ...      ...      ...      ...

فإنها القصيدة الغرَّاء، واليتيمة الدهماء، والكلمة التي طارت في الآفاق فحلَّقت فوق المحلقات، ولا نظنُّ أنه يُوجد عربي يمتُّ إلى الأدب بسبب إلَّا وهو يروي من هذه القصيدة كثيرًا أو قليلًا، ونحن أولاء الآن نروي منها بعض المقاطع التي يُلوح لنا أنها أخذُ للألباب وأمَلِك للقلوب من غيرها وإلَّا فهي من الألف إلى الياء مُحَكِّمة السَّرْد متساوية النَّسْج لا تجد فيها عَوْجًا ولا أُمَّتًا.

قال:

ومملكة اليونان محلولة العرى  
هددت أمير المؤمنين كيانها  
وما زال فجرًا سيف عثمان صادقًا  
إذا ما صدعت الحادثات بحده  
سما بك يا عبد الحميد أبوة  
رجاؤك يُعطيها وخوفك يسلب  
بأسطع مثل الصبح لا يتكذب  
يساويه من عالي نكائك كوكب  
تكشف داجي الخطب وانجاب غيب  
ثلاثون حُضار الجلالة غيب

يريد أنه سليلُ ثلاثين سلطانًا إن كانوا قد درجوا فإن جلالتهم لا تزال حاضرة في الأذهان:

قياصرُ أحيانًا خلائف تارةً خواقين طورًا والفخار المقلَّب

يريد بقوله قياصرة أنهم استتوا على عرش القسطنطينيين مكان قياصرة الرومان، وبقوله خلائف أنهم تسلّموا الخلافة الإسلامية مذ عهد سليم الأول من بني العباس، وبقوله خواقين بأنهم سلاطين الأتراك؛ لأن ملك الترك يُقال له خاقان، قال الحسن بن هاني:

كأن عمود الصبح خاقان معشر من الترك نادى بالنجاشي فاستخفى

ثم قال:

نجومُ سعودِ الملك أقمار زهوه  
تواصوا به عصرًا فعصرًا فزاده  
لو أنّ النجوم الزُّهر يجمعها أب  
مُعَمَّمهم من هيبة والمعصَّب

ثم يقول:

ظهرت أمير المؤمنين على العدى  
سل العصر والأيام والناس هل نبأ  
هُمؤ ملّثوا الدنيا جهامًا وراءه  
ظهورًا يسوء الحاسدين ويتعب  
لرأيك فيهم أو لسيفك مَضْرِب  
جهامٌ من الأعوان أهدى وأكذب

فلما استلّت السيف أخلب بزقهم  
أخذتهمو لا مالكين لحوضهم  
ولم يتكلف قومك الأسد أهبة  
كذا الناس بالأخلاق يبقى صلاحهم  
ومن شرف الأوطان ألا يفوتها  
وما كنت يا برق المنية تخلب  
من الذود إلا ما أطالوا وأسهبوا  
ولكن خلقتا في السباع التأهب  
ويذهب عنهم أمرهم حين تذهب  
حسام معز أو يراع مهذب

يعيد معنى بيته «وإنما الأمم الأخلاق» يذكر أن الأوطان لتكون عزيزة محتاجة إلى الجمع بين السيف والقلم، ثم يقول:

ملكته سبيلهم ففي الشرق مضرب  
ثمانون ألفا أسد غاب ضراغما  
إذا حليت فالشر وسنان حالم  
فيالِق أفشى في البلاد من الضحى  
تلوح لهم في كل أفق وتعتلي  
وتغشى أبيات المعاقل والذرى  
يقود سراياها ويحمي لواءها  
يجيء بها حيناً ويرجع مرة

لجيشك ممدود وفي الغرب مضرب  
لها مخلب فيهم وللموت مخلب  
وإن غضبت فالشر يقضان مغضب  
وأبعد من شمس النهار وأقرب  
وتطلع فيهم من مكان وتغرب  
فثيبهن البكر والبكر ثيب  
سديد المراني في الحروب مجرب  
كما تدفع اللج البحار وتجذب

ومنها:

ونادت فلبى الخيل من كل جانب  
خفافاً إلى الداعي سراعاً كأنما  
منيفين من حول اللواء كأنهم  
وما هي إلا دعوة وإجابة  
فأبصرت ما لم تبصرا من مشاهد

ولبى عليها القسور المترقب  
من الحرب داع للصلاة مثنوب  
له معقل فوق المعاقل أغلب  
إن التحمت والحرب بكر وتغلب  
ولا شهدت يوماً معد ويعرب

هنا جاشت الفكرة برأس شوقي فذهبت به إلى أبعد حدود المبالغة، فلا نزاع في الترك إذا ذكرت الشجاعة والصبر على الحروب كانوا في الذروة العليا التي ينحط عنها السيل، ولكن القول بأن مشاهدتهم لم تشهدوا معد ويعرب فيه نظر. ولعمري أن معداً ويعرب عندما فاضت جموعها على بلاد الله كانت تقاتل في ساحات لا يحصيها العدد، فبينما

جيوشها تحاصر القسطنطينية كانت جيوشُ أخرى تفتح إسبانيا وجنوبي فرنسا، وأخرى تقاتل أمة البربر العاصية، وأخرى تتوغّل في إفريقية، وجحافل تغزو الهند، وفيالق تغزو الخزر، وجيوش فيما وراء النهر تغزو الأتراك في عقر دارهم. وكلُّ ذلك في وقت واحد لا تُلهيهم حربٌ عن حربٍ ولا تشغلهم ساحةٌ قتال عن ساحةٍ قتال، وكانت حرب الترك ساحة واحدة من تلك الساحات الكثيرة يستقلُّ بها قائد مثل قتيبة بن مسلم الباهلي تجتمع عليه الترك من كلِّ حدب، فيوالي عليها الهزائم ويقودها بالخزائم، وهو في قلة بالقياس إلى أمم الترك التي اجتمعت عليه من كلِّ صوب، وما زال يُثخن فيها حتى ضرب عليها الذلّة والمسكنة إلى حدود الصين، ولذت أخيراً من بأسه بالإسلام ودانت به، فكان من ذلك الوقت مبدأ دخول الترك في الدين العربي، فصاروا فيما بعد أحمى حماته وأمضى سيوفه، ولكن لا يُقال إن أمة من الأمم تقدر أن تبدُّ العرب في ميادين القتال إذا كانت العرب مجتمعة على قلب واحد. وما أتى العرب إلا من تقطّع ما بينهم، وصعوبة مقادتهم لرئيس واحد. وفي هذا يفضّلهم الترك وبهذا سادوا عليهم.

ومن أحسن ما قال شوقي في حياته في هذه القصيدة وفي غيرها وما قاله شاعر قديم أو حديث وصف عبور الجيش العثماني مضيق «ملونا» في الحرب العثمانية اليونانية، ولا يكاد يوجد في العرب من يمتُّ إلى الأدب بسبب إلا وهو يعرف هذه الأبيات قال:

جبال ملونا لا تخوري وتجزعي	إذا مال رأسٌ أو تَضَعُضِعْ مَنْكِب
فما كنتِ إلا السيف والنار مركباً	وما كان يستعصي على التُّرك مَرْكَب
علوا فوق عُلَياء العدو ودونه	مضيق كحَلْق الليث أو هو أصعب
فكان صراط الحَشْر ما ثم ريبة	وكانوا فريق الله ما ثم مُذنب
يمرون مرَّ البرق تحت دجنة	دخاناً به أشباحهم تتجَلَّبَب

إلى أن قال في قتال الحاج عبد الأزل باشا قائد فرقة الفرسان الذي اقتحم الموت جهراً لا يمشي إليه الضراء، وذلك طمعاً في الشهادة:

وأشَمَط سَوَّاس الفوارس أشيب	يسير به في الشعب أشمطُ أشيب
رفيقاً زهاج في الحروب وجيئة	قد اصْطَحبا والحرُّ للحرِّ يَصْحَب
إذا شهداها جدداً هزة الصبا	كما يتصابى ذو ثمانين يطرب

فيهتَزُّ هذا كالحُسام وينثني  
توالى رِصاصُ المُطَلِّقين عليهما  
فَقِيلَ أنلُ أقدامك الأرض إنها  
فقال أيرضى وإهبُ النصر أننا  
ذروني وشأني والوغي لا مُبالياً  
وينفر هذا كالغزال ويلعب  
يخضُّل من شَيْبَيْهِما ويخضُّب  
أبرُّ جوادٍ إن فعلتَ وأنجبُ  
نموت كموت الغايات ونُعطبُ  
إلى الموت أمشي أم إلى الموت أركبُ

إلى أن يقول:

فهل من ملونا موقفٌ ومسامع  
فأسأل حِصْنَيْهَا العَجِيبَيْنِ في الورى  
ومن جَبَلَيْهَا منبر لي فأخطبُ  
ومدخلها الأعصى الذي هو أعجبُ

ويلاحظ هنا على قوله: «منبر لي فأخطبُ» بضمّ الفعل المضارع، وقد سبق ذلك استفهام في قوله: «فهل من ملونا» فالقاعدة هي أن الفعل ينتصب بعد الفاء إذا سبقه نفي أو استفهام، ثم يقول عن الترك:

هل البأس إلا بأسهم وثباتهم  
أم الدين إلا ما رأَت من جهادهم  
وأي فضاء في الوغى لم يضيّقوا  
أم الحزم إلا عزمهم والتلُّبُ  
أم الملك إلا ما أعزّوا وهيَّبوا  
وأي مضيق في الوغى لم يُرحبوا

وقال عن تلاقي الترك واليونان في سهل فرساله:

وفرسال إذا باتوا وبِتْنَا أعاديا  
وقام فتانا الليل يحمي لواءه  
توسّد هذا قائم السيفِ يَتَّقِي  
وهل يستوي القرنان هذا مُنعم  
على السهل لدا يرقبون ونزقُب  
وقام فتاهم ليله يتلعب  
وهذا على أحلامه يتحسب  
غرير وهذا نو تجاريب قَلْبُ

إلى أن يقول:

ورُحْنَا يهبُ الشرُّ فينا وفيهم  
وتشمل أرواح القتال وتجنبُ

أي إن رياح الحرب تهبُّ شمالاً وجنوباً.

ثم يقول:

كأننا أسودُ رابضات كأنهم  
 كأن خيام الجيش في السهل أينق  
 كأن السرايا ساكنات موائجًا  
 كأن القنا دون الخيام نوازلاً  
 كأن الدُجى بحرٌ إلى النجم صاعد  
 كأن المنايا في ضمير ظلامه  
 كأن صهيل الخيل ناعٍ مبشر  
 كأن وجوه الخيل غرًا وسيمة  
 كأن أنوف الخيل حرًا من الوغى  
 كأن صدور الخيل غدر على الدُجى  
 كأن سنا الأبواق في الليل برقه  
 كأن نداء الجيش من كلِّ جانبٍ  
 كأن عيون الجيش في كلِّ مذهب

يريد بعيون الجيش جواسيسه وأرصاده، ثم يقول:

كأن الوغى نارٌ كأن جنودنا  
 كأن الوغى نارٌ كأن الردى قرى  
 كأن الوغى نارٌ كأن بني الوغى  
 وثبنا يضيّق السهل عن وثباتنا  
 مشت في سراياهم فحلت نظامها  
 مجوسٌ إذا ما يّمّوا النار قربوا  
 كأن وراء النار حاتمٌ يآدب  
 فراشٌ له في ملمس النار مآرب  
 وتقدّمنا نارٌ إلى الروم أوّتب  
 فلما مشينا أدبرت لا تعقب

لم يمرّ بي في الشعر العربي كأنات أحلى وأجزل من هذه الكائنات التي هي مع وصف عبور ملونا واستشهاد عبد الأزل باشا عيون هذه الملحة الجبارة، ثم يقول:

فما في القوى أن السموات تُرتقى  
 سموتُم إليه والقنابل دونه  
 بجيش وأن النجم يُغشى فيغضب  
 وشهبُ المنايا والرصاص المصوب

يريد بالقنابل كرات المدافع المنفجرة وهو خطأ دخل على لغة شوقي من كلام الجرائد، وكلم للجرائد من فريسة في ميدان اللغة؛ فالقنابل في اللغة جمع قنبلة وهو مصيدة يُصاد بها أبو براقش، والقنابل أيضاً جمع قَنْبَل بفتح فسكون ففتح، وهو الطائفة من الناس والطائفة من الخيل، قيل من الخمسين فصاعداً، وقيل من الثلاثين إلى الأربعين. وأما الكرة المشوة بالديناميت التي تنفجر عند قذفها من فم المدفع فقد شَبَّهوها بالقنبرة لا بالقنبلة؛ أي بالراء لا باللام، ووجه الشبه أن الكرة لها رأس ناتئ مُحَدَّد وأن القنبرة وهي نوع من الدجاج لها فضل ريش في رأسها وهذه الكرة في شكلها كالقنبرة، وأظنُّ هذا الاستعمال بدأ في زمان محمَّد علي أمير مصر؛ لأنني رأيت هذه اللفظة في قصيدة للشيخ أمين الجندي الشاعر الحمصي؛ حيث يقول:

إن قيل إبراهيم جاء مُحَارِبًا	سقطوا ولو كان الكلامُ تقوُّلاً
قامت قيامة عكَّة من بأسه	وأحاط من كلِّ الجهات بها البلا
بمدافع ما إن لها من دافعٍ	وقنابر تحكي الفضاء المنزلاً

ثم يقول شوقي:

صعدتُ وما غير القنا ثم مصعد	ولا سُلِّمَ إلَّا الحديد المذرَّب
كما ازدحمت بئزان جو بمورد	أو ارتفعت تلقى الفريسة أعقب
فما زلتمو حتى نزلتم بروجَه	ولم تحترس شمس النهار فتغرب

والشطر الثاني من البيت الأول من هذه الأبيات الثلاثة ينظر إلى قول محمود سامي:

ونقع كموج البحر خضت غماره	ولا عاصم إلَّا الصفيح المشطَّب
---------------------------	--------------------------------

وأما قوله: «ولم تحترس شمس النهار فتغرب.» فالأولى فيه نَصَب فعل «تغرب» لأنَّه وارد بعد نفي كما تقدَّم الكلام عليه. وفي آخر القصيدة يقول شوقي مخاطباً السلطان عبد الحميد ولا ينسى في هذا الخطاب نغمته الدائمة، وهي أنه شاعر النيل غير مُدافع:

وإني لطيرُ النيلِ لا طيرُ غيره	وما النيلُ إلَّا من رياضك يُحسب
إذا قلتُ شعراً فالقوافي حواضر	وبغدادُ بغداد ويثربُ يثرب

شوقي

ولم أعدم الظلَّ الحَصِيبَ وإنما أجاز بك الظل الذي هو أخصب  
فلا زلت كهفَ الدينِ والهادي الذي إلى الله بالزُّلفى له يتقرب

وهذا البيت الأخير ينظر إلى قول القائل وأظنه الكميت في قصيدة يمدح بها آل البيت  
منها:

من النَّفَرِ البِيضِ الذين بحبهم إلى الله في ما نابني أتقرب  
بني هاشم رهط النبيِّ فإنني بهم ولهم أرضى مرارًا وأغضب

### (١٣) قصيدة شوقي بمناسبة مجيء ملنر إلى مصر

ولشوقي يوم جاء اللورد ملنر إلى مصر سنة ١٩١٩ قصيدة رثانة عن المشروع الذي  
يسميه المصريون بمشروع ملنر؛ لأن شوقي لم يغفل حادثة سياسية ذات بالٍ في الشرق  
حتى مهزها بمنظومة لتسجل تلك الحادثة على الدهر، قال:

اثن عنان القلب وأسلم به من ربرب الرمل ومن سربه  
ومن تنني الغيد عن بانه مرتجة الأرداف عن كتبه

إلى أن يقول:

يا ظبية الرمل وقيت الهوى وإن سعت عيناك في جلبه  
ولا ذرفت الدمع يوماً وإن أسرفت في الدمع وفي سكبته  
هذي الشواكي النجل صدن امرأ ملقى الصبا أعزل من غربه  
صياد آرام رماه الهوى بشادين لا بزرء من حبه  
شاب وفي أضلعه صاحب خلو من الشيب ومن خطبه  
واه بجنبي خافق كلما قلت تناهى لج في وثبه  
ما خف إلا للهوى والعلا أو لجلال الوفد في ركبه

بدأ هذه القصيدة بالنسيب ككثير من قصائده؛ لأنه كان على عادة شعراء العرب  
في تقديم النسيب، وأما الذي لم يرافق صاحبه في الشيب وشاب صاحب ولم يشب  
المصحوب؛ فيريد به القلب لأنه طالما يكون الإنسان شيخاً ويكون قلبه شاباً، وتقول العامة



لمن كان في هذه الحالة: «نفسه خضراء.» وأما قوله: «واه بجنبي خافق.» فهي كلمة للشيخ أحمد الزرقاني الشاعر الذي أنشدني قصيدة من شعره يوم ذهبت إلى مصر قدمتي الأولى إليها منذ خمس وأربعين سنة، وما زال عالقاُ بذهني منها ما يلي:

أرى لوعةً بين الجوانحِ لا تهدأ      أهذا الذي سمّاه أهلُ الهوى وجداً؟  
ويا أيُّها الواهي الخفوقِ بجانبي      أنت هو القلب الذي يحفظ الوداً؟

وكانت في شعر الزرقاني رقةٌ يشعر بها كلُّ سامع، ثم يقول شوقي:

ما بال قومي اختلفوا بينهم      في مدحة المشروع أو ثلبه  
كأنهم أسرى أحاديثهم      في لئِن القيد وفي صُلبه  
يا قومُ هذا زمنٌ قد رمى      بالقيد واستكبر عن سَحبه  
لو أنّ قيدياً جاءه من علٍ      خشيتُ أن يَأبى علي ربّه  
وهذه الضجة من ناسه      جنازة الرقِّ إلى تُربّه  
مَنْ يخلع النيرَ يعشُ برههً      في أثر النيرِ وفي ندبه  
يا نشأ الحَيِّ شباب الحمى      سلاله المشرق من نخبه  
بني الألى أصبح إحسانهم      دارت رَحَى الفنِّ على قُطبه  
موسى وعيسى نشأ بينهم      في سعة الفكرِ وفي رحبه  
وعالجا أول ما عالجا      من علل العالم أو طبّه  
ما نسيَتِ مِصرُ لكم برّها      في حازب الأمر وفي صَعبه

يقول لأهل مصر: ما لكم تختلفون في درجة الحرية التي هي مدار الخلاف بينكم وبين إنجلترا، إن هذا الزمان قد رمى القيود كلها وأبى أن يسحب قيدياً ولو كان القيد من السماء، وإن هذه الضجة التي ترونها إن هي إلا ضجة جنازة الرقِّ المحمولة إلى الدفن، ولكن مَنْ كان يحمل النير فإنه وإن تخلص منه فلا يزال عليه أثر جرحه، ثم يذكر أهل مصر بماضيمهم العظيم وبما هم جديرون به في المستقبل.<sup>١</sup>

<sup>١</sup> آه لو عاش شوقي إلى اليوم ورأى بعينه تحطيم هذا القيد وتحرير مصر، إذن لغنى الصوت الذي يرنُّ في الخافقين ولسقى من كرمه ابن هانئ ما تُغني وترقص له جبالُ حنين.

## رثاء المؤلف محمد فريد رحمه الله

وقد نكّرتني هذه الأبيات أبياتاً قلتها في رثاء المرحوم محمد بك فريد رئيس الحزب الوطني الذي توفي سنة ١٩١٩ في برلين، ولم أكن اطلّعتُ على قصيدة شوقي هذه، بل كانت وفاة فريد قبل مشروع ملنر، وإنما توارد خاطر مع خاطر؛ قلت:

فانظر إلى مصرَ العزيزة بعضها	مثل البريم ببعضها مشدوداً
تمشي إلى التحرير لا هيّابة	خطراً ولا الموت الزؤام مبيداً
حاشا ولو جار القوي ولو طغى	أحرارُ مصر أن تكونَ عبيداً
مهما استعزَّ الغالبون بجندهم	فالحقُّ أعظمُ قوةً وجنوداً
قد أقبل الزمنُ الذي أبناؤه	لا يحملون سلاسلاً وقيوداً

وهذا هو بيت القصيد، ومنها خطاباً لفريد رحمه الله:

لله وفيت الأمانة حقّها	وبذلت فيها طارفاً وتليداً
وأذبت في حسراتها كبدًا بها	أوديت تحرق من ذويك كبوداً

وكان موت فريد بمرض الكبد، ثم قلت:

لم تدّخر في حبِّ مصر وأهلها	وُسْعاً ولا جهداً هناك جهيداً
ما عزَّ عندك أن تركتَ لأجلها	وطناً وقصرًا كالسدير مشيداً
ولذائذْ ونفائسًا أورثتها	عنها انصرفت وعيلاً ووليداً
غادرته طفلاً وطال بك النوى	فحرمت منظره وصار رشيداً
لخلاص مصر قد تركتُ مآثرًا	بيضًا سهرت لها ليالي سوداً
كنت المقيم والعميد بحبها	فلذا لفتيتها غدوت عميداً
كَمْ خطئوك وعاندوك وكلُّ من	يفري فريك لم يزل محسوداً
حتى تمخضت السنون حقائقًا	خرُّوا لديها رُكعًا وسجوداً
علموا بأنك لم تكن متهورًا	بل كنتَ تنظر مذ نظرتَ بعيداً
عمدوا لرأيك فانقلبت وتلك من	نعم الإله مؤيداً تأييداً

لم تحتضر إلا ومصر كلها      لنظير صنعك تستحث وفوداً  
فلشدَّ ما قرَّتْ عيونك عندما      حفَّ الجميعُ لواءك المعقوداً

لا شك أن الكثيرين ممَّن كانوا يرمون محمد فريد بالتهوُّر وعُقم المساعي، عادوا بعد الحرب العامة إلى أفكاره حتى أصبح الجميع وطنيين، يدينون من العقيدة الوطنية بما كان يدين به، فصار الجميع حزباً وطنياً؛ ومنها:

نَمْ يا فريد على يقينك إنه      يوم تأذَّن بالخلاص عتيذاً  
لا بد من فرج قريبٍ عنده      مصر تؤمُّ شخصك الملحوداً  
ويبشرونك بالخلاص إلى الثرى      أن قُمْ وشاهدُ يومك الموعوداً

ولعمري كان جديراً بالمصريين بعد عقد المعاهدة التي انعقدت بينهم وبين الإنكليز أخيراً أن يؤمُّوا قبري مصطفى كامل ومحمد فريد، ويترحموا عليهما وعلى الشيخ جاويش في يوم مشهود:

يبقى مع الأهرام ذكرك ثابتاً      ويظل قبرك مثلها مشهوداً  
وهناك تنقلب المدامع قرّةً      ويعود مأتكم المفجع عيداً

ولهذه المرثية نكتة لا بأس بإيرادها، وما زال للحديث شجون؛ وذلك أنني لما سمعتُ نعي محمد بك فريد كنتُ في برن من سويسرة، وكنتُ أسكنُ أنا وسعادة الدكتور عبد الحميد بك سعيد رئيس جمعية الشبان المسلمين اليومَ في أوتيل واحدٍ على قمة الجبل المُشرف على برن، فلما جاءنا خبرُ فريد وكان عزيزاً على كلِّ منَّا بلغ الأسى منَّا مبلغه، فقال عبد الحميد بك: لا بد أن ترثيه. فقلتُ له: وهو كذلك. وثاني يوم قال لي بعد أن نهضنا عن الطعام: هل عملتُ الرثاء للمرحوم فريد؟ فقلتُ: لا. قال فيجب أن تعمله الآن. قلتُ: لا بد لي من القيلولة بعد الطعام. قال: إلا أن البريد سيمشي الآن، فوالله لا تقيل قبل أن تعمل هذا الرثاء. فصعدتُ إلى غرفتي ونظمتُ هذه الأبيات في نصف ساعة، ورجعتُ إلى عبد الحميد بك فناولته إياها، فدهش وقال لي: اذهب الآن ونمَّ. وحقيقة الحال أن سرعة النظم هي على قدر عمق التأثر ودرجة الاقتناع بالموضوع، فإذا كان الإنسان ملآن من الموضوع انثالت عليه الألفاظ كأنها تتقلع من صلبه آخذاً بعضها برقاب بعض، وإذا كان الإنسان محمولاً

## شوقي

على الموضوع بغير سائق الشعور أو حادى الاقتناع كان في نظمه أو نثره متعملاً متكلفاً، كأنما يصعد جبلاً؛ فأوصاف محمد فريد وأعماله هي التي أملت على ناظم هذه المرثية ما أملت، حتى قال هذه الأبيات في نصف ساعة وهو ثقيل الأجفان يريد أن ينتهي منها ليأخذ نصيبه من الراحة.

وَلْنَعُدْ إِلَى قَصِيدَةِ شَوْقِي فِي مَشْرُوعِ مَلْنَرِ، فَهُوَ يَقُولُ:

يَا رَبِّ قَيْدٍ لَا تَحْبُونَهُ      زَمَانُكُمْ لَمْ يَتَّقَيْدَ بِهِ  
وَمَطْلَبٍ فِي الظَّنِّ مُسْتَبَعِدٍ      كَالصَّبْحِ لِلنَّاطِرِ فِي قُرْبِهِ  
وَالْيَأْسُ لَا يَجْمَلُ مِنْ مُؤْمِنٍ      مَا دَامَ هَذَا الْغَيْبُ فِي حُجْبِهِ

### (١٤) قصيدة شوقي في مشروع ٢٨ فبراير

وقال شوقي في مشروع ٢٨ فبراير، ويا ليته عاش حتى رأى مصر حرةً مُطْلَقةً من عقالها كما هي اليوم:

أَعَدَّتِ الرَّاحَةَ الْكَبْرَى لِمَنْ تَعَبَا      وَفَارَ بِالْحَقِّ مَنْ لَمْ يَأْلُهُ طَلَبَا

وجاء في حاشية هذه القصيدة هذا التفسير، وأظنه لمحمد حسين بك هيكلي: «لم يأل: لم يقصر؛ قال تعالى: ﴿لَا يَأْلُوْنَكُمْ حَبَالًا﴾، وهذا البيت من الحكم الغالية التي لا تتاح لغير أمير الشعراء، فكُم وراء جهاد الحياة من راحة، وكُم وراء الضعف من قوة.» قلت: إنَّ لشوقي بلا نزاع حِكْمًا غالية لم تكن تُتاح لغيره، إلا أنه لم يكن أبا عذرة هذه الحكمة التي استهلَّ بها هذه القصيدة؛ فإن أبا تمام الطائي من قبله هو الذي قال:

بصرتَ بالراحةِ الكبرى فلم ترها      تُنَالُ إِلَّا عَلَى جَسْرِ مِنَ التَّعَبِ

وهي من قصيدته التي هنا بها المعتصم على فتح عمورية:

السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكتبِ      في حدِّه الحدُّ بين الجدِّ واللَّعبِ  
بيضُ الصفائحِ لا سودُ الصفائفِ في      مُتُونِهِنَّ جلاءُ الشكِّ والريبِ

ثم يقول شوقي:

وما قَصَّتْ مصرٌ من كلِّ لبانتها      حتى تجرَّ ذبولَ الغبطة القُشْبَا  
في الأمر ما فيه من جدِّ فلا تقفوا      من واقع جزعًا أو طائرٍ طربًا  
لا تُثَبِّتِ العينُ شيئًا أو تحقِّقه      إذا تحيَّرَ فيها الدمعُ واضطربًا

يريد أن يقول إنَّ من الناس مَنْ استطاره طربًا هذا الاستقلال المقيد؛ لأنه رآه بالقياس إلى الماضي غير منتظر، ومنهم مَنْ استطاره جزعًا لأنه نصف استقلال وليس هو بنشيدة آمال المصريين، فهو ينهى الفريقين هذا عن الطرب وهذا عن الجزع، ثم يقول للجازع: إن العين لا ترى المرئيات جيدًا إذا كان يجولُ الدمعُ في مآقيها، فارفعِ الدمعُ من عينك حتى تقدر أن ترى جليًا.

إذا طلبتَ عظيمًا فاصبرن له      أو فاحشِدنَّ رماحَ الخطِّ والقضبَا  
ولا تعدَّ صغيراتِ الأمور له      إن الصغائر ليست للعلَى أهبَا  
ولن ترى صحبةً ترضى عواقبها      كالحق والصبر في أمرٍ إذا اصطحبَا  
إن الرجال إذا ما ألبثوا لجنوا      إلى التعاون فيما جلَّ أو حزبَا

قال: إما الصبر وإما الحرب، فأما الصغائر فلا تصل بكم إلى غاية. ثم قال:

تمهَّدتْ عقبات غير هينة      تلقى ركابُ السرى من مثلها نصبَا  
وأقبلتْ عقبات لا يذلُّها      في موقفِ الفصلِ إلا الشعبُ منتخبَا  
كمَّ صعَّبَ اليومُ من سهلٍ هممتَ به      وسهَّلَ الغدُّ في الأشياءِ ما صعَّبَا  
ضمُّوا الجهودَ وخلوها منكرةً      لا تملئوا الشدقَ من تعريفها عجبَا

يريد أن يقول إن عقابًا كنودًا قد تمهَّدتْ، ولا تزال عقاب لا تقل عن تلك غير ممهَّدة، ولكن إذا اتَّفَقَ الشعبُ وانتخب نوابه، فقد يصل إلى أربه، وربما تيسر في الغد ما لم يتيسر اليوم (ولقد تيسر ما تكهَّن به شوقي بعد ثماني سنوات مما قال)، فضمُّوا مجهوداتكم

واجعلوها فكرةً منسوبةً للبلاد بأسرها، ولا تضيّعوا الوقتَ في نسبتها إلى الأشخاص،  
وتفضيل زيد على عمرو، والاختلاف على مَنْ كان هو العامل:

أَفِي الْوَعَى وَرَحَى الْهِيجَاءِ دَائِرَةٌ      تُحْصُونَ مَنْ مَاتَ أَوْ تُحْصُونَ مَا سَلِبًا  
خَلُّوا الْأَكَالِيلَ لِلتَّارِيخِ إِنَّ لَهُ      يَدًا تَوَلَّفَهَا دِرًّا وَمَخْشَلَبًا  
أَمْرُ الرِّجَالِ إِلَيْهِ لَا إِلَى نَفَرٍ      مِنْ بَيْنِكُمْ سَبَقَ الْأَنْبَاءَ وَالْكَتَبَا

يقول: إذا كانتِ الهيجاءُ دائرةً، فليس من العقل أن يشتغلَ الناسُ بإحصاءِ مَنْ ذهب  
أو إحصاءِ ما ذهب، بل هذا متروك إلى ما بعد انتهاء المصاف، كذلك الممارك السياسية  
التي التاريخ وحده هو الذي يعطي فيها كلَّ مقاتلٍ حَقَّهُ، فإلى التاريخ مرجع الفصل في  
هذه القضية، وأما أنتم فلستُم الآن في تاريخ بل في سياسة تجبُ معالجتها بما يناسبها.  
ثم يقول:

قالوا الحمايةَ زالتْ قلتُ لا عَجَبُ      بل كَانَ بَاطِلُهَا فِيكُمْ هُوَ الْعَجَبَا  
رَأْسُ الْحَمَايَةِ مَقْطُوعٌ فَلَا عِدْمَتُ      كِنَانَةُ اللَّهِ حَزْمًا يَقْطَعُ الذَّنْبَا

ولقد أتى الله الكنانةَ حزمًا كافيًا في أثناء غارةِ إيطاليا على الحبشة، فاستغلت الخصامَ  
الإيطالي الإنكليزي وقطعتْ ذنْبَ تلك الحماية.

لو تسألون «النبى» يومَ جندَلِهَا      بَأَيِّ سَيْفٍ عَلَى يَافُوجِهَا ضَرَبَا  
يا فاتحَ القدسِ خَلَّ السَيْفُ نَاحِيَةً      لَيْسَ الصَّلِيبُ حَدِيدًا كَانَ بَلْ خُشْبَا  
إذا نظرتَ إلى أينَ انتهتْ يَدُهُ      وكيف جاوزَ في سلطانه القُطْبَا  
علمتَ أن وراءَ الضعفِ مقدرةً      وأنَّ للحقِّ لا للقوةِ العَلْبَا

أي إن الصليب كان خشبًا لا حديدًا، وكان أصحابه أضعفَ خلق الله، ومع هذا فقد  
انتهى أمرهم إلى ما انتهى إليه من القوة، فلا ينبغي أن يعتمد القوي على قوته، ويسرف  
في الاعتماد عليها، وكَم من الله على الذين استضعفوا في الأرض وجعلهم أئمةً.  
وهذه الأبيات الثلاثة الأخيرة هي من الأبيات الخالدة التي يحفظها مئات الألوف  
من الناطقين بالضاد، ولا يبرحون يطرزون المجالس بها، ولو ترجمت إلى لغة أجنبية لما  
خسرت شيئًا من طلاوتها ولا من قوة معناها، كما هو الشأن فيما يُحوَّل من لغة إلى لغة.

### (١٥) قصيدة شوقي عن تأجيل حفلة التتويج ملك إنكلترا

ولشوقي قصيدة في تأجيل حفلة التتويج ملك إنجلترا إدوارد السابع، وقالوا إنها تأجلت لإصابة الملك بدمل، ومطلع هذه القصيدة هو هذا:

لَمَنْ ذَلِكَ الْمُلْكُ الَّذِي عَزَّ جَانِبُهُ      لَقَدْ وَعَظَ الْأَمْلَاكَ وَالنَّاسَ صَاحِبُهُ

ومنها:

أَيُّبَطْلُ عَيْدِ الدَّهْرِ مِنْ أَجْلِ دُمْلٍ      وَتَخْبُوُ مَجَالِيهِ وَتُطَوَى مَوَاكِبُهُ  
وَيَرْجِعُ بِالْقَلْبِ الْكَسِيرِ وَفُودُهُ      وَفِيهِمْ مَصَابِيحُ الْوَرَى وَكَوَاكِبُهُ  
وَتَسْمُو يَدُ الدَّهْرِ ارْتِجَالًا بِبِأْسِهَا      إِلَى طُنْبِ الْأَقْوَاسِ وَالنَّصْرِ ضَارِبُهُ  
وَيَسْتَغْفِرُ الشَّعْبُ الْفَخُورَ لِرَبِّهِ      وَيَجْمَعُ مِنْ ذَيْلِ الْمَخِيلَةِ سَاحِبُهُ

ما أحسن قوله يجمع من ذيل المخيلة صاحبه؛ أي يقصر من ذيل الخيلاء الذي كان يجره.

أَلَا هَكَذَا الدُّنْيَا وَذَلِكَ وَدُّهَا      فَهَلَّا تَأَنَّى فِي الْأَمَانِي خَاطِبُهُ  
أَعَدَّ لَهَا إِدْوَادَ أَعْيَادَ تَاجِهِ      وَمَا فِي حِسَابِ اللَّهِ مَا هُوَ حَاسِبُهُ

### (١٦) قصيدة شوقي في ذكرى كارنارفون

وقال شوقي في ذكرى كارنارفون:

مَنْ سَرَّهُ أَلَّا يَمُوتَ فَبِالْعُلَا      خَلَدَ الرِّجَالُ وَبِالْفِعَالِ النَّايِه  
مَا مَاتَ مَنْ جَازَ الثَّرَى آثَارَهُ      وَاسْتَوْلَتْ الدُّنْيَا عَلَى آدَابِهِ  
قُلْ لِلْمِدْلِ بِمَالِهِ وَبِجَاهِهِ      وَبِمَا يُجَلُّ النَّاسُ مِنْ أَنْسَابِهِ  
هَذَا الْأَدِيمُ يَصُدُّ عَنْ حُضَارِهِ      وَيَنَامُ مَلَأَ الْجَفْنَ عَنْ غِيَابِهِ

يريد بالأديم وجه هذه الأرض.

إِلَّا فَنَى يَمْشِي عَلَيْهِ مَجْدًا      دِيبَاجَتِيهِ مُعَمَّرًا لِحَرَابِهِ

## (١٧) قصيدة شوقي في تكريم الريحاني

وله في إكرام الفيلسوف الأديب الكبير الأستاذ أمين الريحاني اللبناني عندما جاء إلى مصر، وأقام له الأدباء حفلاً على سفح الأهرام، قال:

قَفْ نَاجَ أَهْرَامَ الْجَلَالِ وَنَادِ      هَلْ مِنْ بُنَاتِكَ مَجْلِسٌ أَوْ نَادٍ؟

ومنها:

إِيهِ أَمِينٌ لَمَسْتَ كُلَّ مَحَجَّبٍ	فِي الْحُسْنِ مِنْ أَثَرِ الْعُقُولِ وَبَادِ
قُمْ قَبْلَ الْأَحْجَارِ وَالْأَيْدِيِ الَّتِي	أَخَذْتَ لَهَا عَهْدًا مِنَ الْآبَادِ
وَحِذِّ النَّبُوعَ عَنِ الْكِنَانَةِ إِنَّهَا	مَهْدُ الشَّمُوسِ وَمَسْقَطُ الْآرَادِ
مَا زَالَ يَغْشَى الشَّرْقَ مِنْ لِمَحَاتِهَا	فِي كُلِّ مُظْلِمَةٍ شِعَاعُ هَادِ
كَمْ مِنْ جَلَائِلَ أَنْعَمَ لِمَحَمَّدٍ	بَلْ كَمْ لِإِسْمَاعِيلَ بِيضَ أَيَادِ
لَوْلَا اهْتِمَامُهُمَا لَطَلَّ الشَّرْقُ فِي	وَادٍ وَأَبْنَاءُ الزَّمَانِ بَوَادِ

ثم يخاطب الريحاني، وهذا الخطابُ يذكّرني بدويًّا سمعَ مديحًا في رجلٍ كبيرٍ فقال:

القولُ على الفعلِ يزين:

يَا نَجْمَ سَورِيَا وَلَسْتَ بِأَوَّلِ	مَاذَا نَمَتَ مِنْ نَيْرٍ وَقَادِ
أَطْلُعَ عَلَى يَمَنِ بِيَمْنِكَ فِي غَدِ	وَتَجَلَّ عَلَى الْعِرَاقِ لَتَرَى مَا تَرَى فِي رَسُومِ تِلْكَ الْأَرْبَعِ
وَأَجَلْ خِيَالِكَ فِي طُلُوعِ مَمَالِكِ	مِمَّا تَجُوبُ وَفِي رَسُومِ بِلَادِ

يقول له: لست أنت أول نجمٍ من أنجم سورية، فقد طلع منها نيراتٌ وقادةٌ قبلك، فاطلع الآن بعد مصر على اليمن، وتجلَّ على العراق لتري ما ترى في رسوم تلك الأربع وتندكر مجدَّ العرب القديم. ولقد قام الريحاني وايم الله بهذه المهمة، وكتب عن أحوال جزيرة العرب الكتب المتعة، ودعا إلى وحدة العرب بكل طريقة، ولا بد من الاعتراف بهذه الحقيقة. ثم قال له:

قَضَيْتَ أَيَّامَ الشَّبَابِ بِعَالَمِ	لِبِسِ السَّنِينَ قَشِيْبَةَ الْإِبْرَادِ
وَلَدَ الْبَدَائِعِ وَالرَّوَائِعِ كُلَّهَا	وَعَدْتُهُ أَنْ يَلِدَ الْبَيَانَ عُوَادِ



لم يَخْتَرِعْ شَيْطَانٌ حَسَّانَ وَلَمْ تُخْرِجْ مَصَانِعُهُ لِسَانَ زِيَادِ  
اللَّهِ كَرَمًا بِالْبَيَانِ عَصَابَةً فِي الْعَالَمِينَ عَزِيزَةَ الْمِيلَادِ

يقول للريحاني إنك قضيت أيام شبابك في عالمٍ جديدٍ أدلَّ اللهُ له أعرافَ البدائع الصناعية ولأنَّ أعطافَ الروائع العلمية، ولكنه لم يدرك شأوَ العرب في فصاحة اللسان، ولم يلد شعراء كثيرين مثل حسان بن ثابت، ولا خطباء كثيرين مثل زياد بن أبيه، ثم قال:

هوميرٌ أحدثُ من قرونٍ بعدهُ شعراً وإن لم تخلُ من آحادِ  
والشعرُ في حيثُ النفوسُ تلذُّه لا في الجديدِ ولا القديمِ العادي

يقول: إن هومير وهو أقدمُ الشعراء، لا يزال شعره حديثاً طلياً لم يبلغ درجته شعراء كثيرون تأخروا عنه عشرات من القرون؛ وذلك أن الشعر ليس فيه قديم وجديد، وإنما فيه لذيذ وغير لذيذ، فما استلطفته النفوس فهو شعر لا تخلقُ ديابجته ولو كان قديماً، وما مجّته الأذواقُ فليس بشعرٍ ولو كان جديداً.

### (١٨) رأي المؤلف في قديم الشعر وجديده

قلت: ولو كانتِ القدمة مما يهجن الشعر لوجبَ أن يكون هومير منبوذاً؛ فإنه أقدم شاعرٍ، ونحن لم نزل نقول لهؤلاء الذين لا يفتنون يتكلمون في القديم والجديد من الشعر، ويزعمون أن لكلِّ عصرٍ «مدرسة» على قولهم في الشعر: إن هذه «المدرسة» تكون في العلم، وتكون في الصناعة، وتكون في الزراعة، وتكون في كل شيء إلا في الشعر، فإن مدرسته هي القلب، وإن طريقته هي النفس، وإن النفس البشرية لم تتغيّر ولن تتغيّر، فهي هي في أذواقها ومشاربها ومواردها في الحياة ومصادرها، فإذا كان العلم يتغيّر بظهور حقائق جديدة وبروز أسرار كونية كانت حتى اليوم خافيةً، فإن العلم شيء والشعر شيء آخر.

وما سمعنا — يا ليت شعري — أن الإنجليز زهدوا في شعر شكسبير لكونه عاش قبل هذه الأيام بثلاثمائة سنة، ولا أن الألمان عابوا غوته لقدّم عهده ومجيئه قبل اليوم بمائة وخمسين سنة، ولم يزل غوته هو عند الألمان سيد الشعراء، ولم يزل شكسبير عند الإنكليز أكبر الشعراء، وشكسبير وغوته وملتون وكورنيل وراسين ودانتى، وكلُّ هؤلاء لم يعرفوا شيئاً من أوضاع العصر الحاضر ببداهة كونهم قد سبقوه بأعصرٍ، وهم على كل حال متقدمون لا محدثون.

وكَمْ من مرةٍ نقول لهم: ليس الشعر بكيماء ولا طب ولا جغرافية ولا طبيعيات، وإنما هو تأثرات نفسية وانطباعات فكرية لا غير، هذا من جهة الشعر على العموم، وأما من جهة الشعر العربي الذي تريدون أن تفرنجوه، فالشعر العربي لا يكون شعراً إلا إذا وافق ذوقَ العرب، ولاءَ مشارب أنفسهم، وجانسَ مذاهب لغتهم، واتَّصلَ بمناحي حياتهم نظمه قديم أو متوسط أو محدث كلهم على حدِّ سواء، فإذا بايَنَ الشعرُ العربي أساليبَ العرب في بيانها وطرقها في التعبير عن خوالج نفوسها، لم يتأثرَ به قارئ، ولا يسوغه سامع من العرب، وربما لم يفهموه أصلاً على حدِّ ما قال الأستاذ محبُّ الدين الخطيب: إن الواحد من هؤلاء «يظلُّ يومه يسطو على منظومات الإفرنج يستلُّ منها معانيها الغربية عن الأذواق العربية، فيصوغها بألفاظ وتراكيب يلعن بعضها بعضاً، فلا يفهم منها القارئُ العربي إلا بقدر ما أفهم أنا من الصيني». وأنا أيضاً معترفٌ بأنِّي لا أفهم هذه اللغة التي يكتبون بها.

ثم يختم شوقي خطابه للريحاني:

أَوْ دَعُ لسانَكَ واللغاتِ فربِّمًا      غنَّى الأصيلُ بمنطقِ الأجدادِ  
إنَّ الذي ملأَ اللغاتِ محاسنًا      جعلَ الجمالَ وسرَّهُ في الضادِ

### (١٩) إحدى قصائد شوقي في السلطان عبد الحميد

ولما أَلْقَيْتُ قذيفةً على السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٥ ونجا السلطان منها، هنأه شوقي بقصيدة مطلعها:

هَنيئًا أميرَ المؤمنينَ فإنَّما      نجاتُكَ للدِّينِ الحنيفِ نجاتُ

ومنها:

بَلَوْنَاكَ يقظانَ الصوارمِ والقنَا      إذا ضيَّعَ الصيدَ الملوكِ سباتُ  
سهرتَ ولدًا النومَ وهو منيَّةُ      رعايا تولَّاهَا الهوى ورُعاةُ  
فلولاكَ مُلكَ المسلمين مضيعُ      ولولاكَ شَمْلُ المسلمين شتاتُ

أمثال من شعر شوقي

لقد زهبت رياتهم غير راية لها النصر وسم والفتوح شيات  
حنيفية قد عزها وأعزها ثلاثون ملكا فاتحون عزاة  
حماها وأسامها على الدهر منهم ملوك على أملاكه سروات

أي إن سلاطين آل عثمان هم ذرى ملوك الإسلام.

غمائم في محل السنين هواطل لها رغبات الخلق والرهبات  
تموت سباع الجو عزتى حيا لها وتحيها نفوس الخلق والمهجات  
سننت اعتدال الدهر في أمر أهله فبات رضىا في ذراك وياتوا  
أكان لهذا الأمر غيرك صالح وقد هونتته عندك السنوات

أي صارت إدارة الملك مملكة عندك بطول اضطلاعك بها.

ومن يسس الدنيا ثلاثين حجة تُعنه عليها حكمة وأناة  
وما زلت حسان المقام ولم تزل تليني وتسري منك لي النفحات  
زهدت الذي في راحتك وشاقتني جوائز عند الله مبتغيات

يجعل نفسه من السلطان الخليفة بمقام حسان من رسول الله عليه السلام، ويقول إنه لم يزل مغمورا بعبايا الخليفة، ولكنه هو إنما يرغب في جوائز الله بتأييد خليفته في الأرض، لا في جوائز هذه الدنيا. ولم يشأ شوقي أن يمدح الخليفة من دون أن يمدح نفسه مقتديا في ذلك بإمامه أبي الطيب المتنبي الذي كان يقول:

فدع كل صوت غير صوتي فإنني أنا الطائر المحكي والآخر الصدى

ويقول:

خليلي إنني لا أرى غير شاعر فلم منهم الدعوى ومني القصائد

شوقي

ويقول وقد تجاوزَ الحدَّ وانتهى بذلك إلى الحمق:

سِعِلْمُ الْجَمْعِ مَمَّنْ ضَمَّ مَجْلِسَنَا      بَأَنْنِي خَيْرٌ مَنْ تَسَعَى بِهِ قَدَمُ

وهذه قصيدته «وا حَرَ قلباه مَمَّنْ قلبه شبم» ملأى بأواً وعجباً وعجرفةً، لا يشكُّ سامعها في أن المتنبي قصدَ يومئذٍ فراقَ سيف الدولة وقطعَ صلته به، ومن إعجاب الشعراء بأنفسهم ما يغتفره لهم الناس، مثل قول المتنبي:

أنا الذي نظَرَ الأعمى إلى أدبي      وأسَمَعَتْ كلماتي مَنْ بِهِ صَمَمُ

ولكن منه ما يسمح على كل حال، مثل قول المتنبي «بأنني خيرٌ مَنْ تَسَعَى بِهِ قَدَمُ»؛ شهد لنفسه بما لا يوافقُه عليه أحد، فأما شوقي فلم يصل إلى ذلك الأمد في البأ، وإن كان لم يقصر في ذلك عند قوله:

وَمَنْ كَانَ مِثْلِي أَحَمَدَ الْوَقْتِ لَمْ تَجْزُ      عَلَيْهِ وَلَوْ مِنْ مِثْلِكَ الصَّدَقَاتُ  
وَلِي دُرُّ الْأَخْلَاقِ فِي الْمَدْحِ وَالْهَوَى      وَلِلْمَتْنَبِيِّ دُرَّةٌ وَحَصَاةٌ

أي إنه كما كان أحمد بن الحسين المتنبي رجل وقته في الشعر، فإن أحمد شوقي هو رجل هذا الوقت، وإنه يفضل المتنبي بكون شعره سويًّا لا تجد فيه عوجًا ولا أمتًا، وإن المتنبي كان في شعره يعلو ويسفل، ويقرن بين الدرِّ والحصى والسيف والعصا.

## (٢٠) شوقي نصير الصون والعفاف

ولشوقي قصيدة ألقيت على جمعٍ حافلٍ من سيدات مصر في حديقة الأزبكية تدل على شدة اهتمامه بصيانة الأخلاق والفضائل، وتحصين التربية العائلية من نزعات العصر الحاضر ونزغات الخلاعة والفجور، بينما كثير من الأدباء يزینون للناشئة الخروجَ على تقاليد الصون، ويريدونها فوضى اجتماعية لا لجام لها؛ وقال شوقي ولم يزل على صراطٍ مستقيم:

قُمْ حَيِّ هَذِي النَّيِّرَاتِ      حَيِّ الْحِسَانَ الْخَيْرَاتِ  
وَخَفِضْ جَبِينَكَ هَيْبَةً      لِلخَرْدِ الْمُتَخَفِّرَاتِ

لِ وَزَيْنِ مِحْرَابِ الصَّلَاةِ	زَيْنِ الْمَقَاصِرِ وَالْحِجَابِ
تِ فَهَلْ قَدَّرَتِ الْأَمَّهَاتِ؟	هَذَا مَقَامُ الْأُمَّهَاتِ
غَيْرِ الْفَوَاصِلِ مُحْكَمَاتِ	لَا تَلْعُ فِيهِ وَلَا تَقْلُ
خَطْبًا عَلَى مِصْرَ الْفِتَاةِ	وَإِذَا خَطَبْتَ فَلَا تَكُنْ
أُمَمَ الْهُوَى الْمُتَهْتِكَاتِ	أَنْكُرُ لَهَا الْيَابَانَ لَا
رَةَ يَا أَحْيِ التُّرَهَاتِ	مَاذَا لَقَيْتِ مِنَ الْحَضَا
عُسْرٍ عَلَى الشَّرْقِيِّ عَاتِ	لَمْ تَلْقُ غَيْرَ الرَّقِّ مِنَ

ينهى أهل مصر عن أن يقوم فيهم من يخطب فيفجر، فيكون خطبًا على مصر الناشئة، ويرخي فيها من قيود الآداب الاجتماعية، ويسهل العبث بالتقاليد القديمة الكريمة، ويقول لهم: تأملوا في اليابان وشدة اعتصامها بتقاليدها مع علو كعبها في المدينة. ثم يقول لهم: ماذا افتتانكم إلى ذلك الحد في حضارة أوروبية لم تجدوا من ورائها غير العسر والرق. ثم يقول:

ثِ وَسِيرَةِ السَّلَفِ الثَّقَاتِ	خُذْ بِالْكِتَابِ وَبِالْحَدِيدِ
قَةَ وَاتَّبِعْ نُظْمَ الْحَيَاةِ	وَارْجِعْ إِلَى سُنَنِ الْخَلِيْلِ
يُنْقِضُ حَقُوقَ الْمُؤْمِنَاتِ	هَذَا رَسُولُ اللَّهِ لَمْ
لِنِسَائِهِ الْمُتَفَقِّهَاتِ	الْعِلْمُ كَانَ شَرِيْعَةً
سَةَ وَالشُّؤْنَ الْأَخْرِيَاتِ	رُضْنَ التَّجَارَةَ وَالسِّيَا
نِيَا وَتَهْرَأُ بِالرُّوَاةِ	كَانَتْ سَكِينَةً تَمَلُّ الدُّ
آيِ الْكِتَابِ الْبَيِّنَاتِ	رَوَاتِ الْحَدِيثِ وَفَسَّرَتْ
طِقُ عَنْ مَكَانِ الْمُسْلِمَاتِ	وَحَضَارَةَ الْإِسْلَامِ تَنَدُ
تِ وَمَنْزِلِ الْمُتَأَدِّبَاتِ	بَغْدَادُ دَارُ الْعَالِمَا
أُمَّ الْجَوَارِي النَّابِغَاتِ	وِدِمَشْقُ تَحْتَ أُمِّيَّةِ
نَ الْهَاتِفَاتِ الشَّاعِرَاتِ	وَرِيَاضُ أَنْدَلُسِ نَمِي

جزاه الله عن الإسلام خيرًا، بل جزاه عن المجتمع الشرقي بأسره خيرًا؛ فإنه لم يقف موقفًا من مواقف الاجتماع غفل فيه عن الطريقة المثلى، وهو وإن كان كلامه لم ينجع كما يجب، ولم يؤثر بقدر ما نحب، بسبب استيلاء الضلالة على العقول وإفلات الشهوات

من العقال، فلا بد أن تكون للأخلاق كَرَّةً، وأن يعود السلطانُ للشريعة، ويتناشد الناس أقوالَ شوقي هذه ويرحموا عليه. ثم قال:

لِلصَّالِحَاتِ عَقَائِلُ الـ	وَادِي هَوَى فِي الصَّالِحَاتِ
اللَّهُ أَنْبَتَهُنَّ فِي	طَاعَاتِهِ خَيْرَ النَّبَاتِ
فَأَتَيْنَ أَطْيَبَ مَا أَتَى	زَهْرُ الْمَنَاقِبِ وَالصِّفَاتِ
لَمْ يَكْفِ أَنْ أَحْسَنَ حـ	تَّى زِدْنَ حَظَّ الْمُحْسِنَاتِ
يَمْشِينَ فِي سَوْقِ الثُّوَا	بِ مُسَاوِمَاتِ رَابِحَاتِ
مَصْرٍ تُجَدِّدُ مَجْدَهَا	بِنِسَائِهَا الْمُتَجَدِّدَاتِ
النَّافِرَاتُ مِنَ الْجُمُوعِ	بِ كَأَنَّهُ شَبْحُ الْمَمَاتِ
هَلْ بَيَّنَّهُنَّ جَوَامِدًا	فَرَقٌ وَبَيَّنَّ الْمَوِمِيَاتِ
لَمَّا حَضَنَ لَنَا الْقَضَـ	يَةَ كُنَّ خَيْرَ الْحَاضِنَاتِ
غَذِّيْنَهَا فِي مَهْدِهَا	بِلِبَانِهِنَّ الطَّاهِرَاتِ
يَنْفُتْنَ فِي الْفَتْيَانِ مِنْ	رُوحِ الشَّجَاعَةِ وَالثَّبَاتِ
يَهْوِينَ تَقْبِيلَ الْمُهْنِـ	بِ أَوْ مَعَانِقَةِ الْقَنَاةِ
وَيَرِيْنَ حَتَّى فِي الْكِرَى	قُبَيْلِ الرَّجَالِ مُحْرَمَاتِ

فَرَّقَ شوقي بين الجمود وبين الاعتصام بالتقاليد الكريمة والمبادئ الفاضلة التي لا سعادةً للمجتمع إلا بها، فليس هذا من هذا، بل الجمود ليس من تقاليد هذه الأمة، وإن أحسن ما يعمل في مدارس الإناث هو تحفيظ هذه الأبيات للآنسات، وتجديد تلاوتها في المحافل.

### (٢١) شوقي يدمدم على رذيلة الانتحار

ورأى شوقي ما فَشَأَ في مصر من انتحارِ صغارِ الطلبةِ لدن سقوطهم في الامتحانات، فنظَّم هذه القصيدة في ذمِّ اليأس، ودعوة هؤلاء الشَّبَّانِ إلى الثبات في المعركة، وإلى بسْطِ الأمل في الحياة، فقال:

كُلُّ يَوْمٍ خَبِرٌ عَنِ حَدِثِ	سَيِّمِ الْعَيْشِ وَمَنْ يَسَامُ يَذَرُ
عَافٌ بِالدُّنْيَا بِنَاءً بَعْدَمَا	خَطَبَ الدُّنْيَا وَأَهْدَى وَمَهَّرَ

حَلَّ يَوْمَ العُرْسِ مِنْهَا نَفْسَهُ  
ضَاقَ بِالعَيْشَةِ ذَرْعًا فَهَوَى  
رَاجِلًا فِي مِثْلِ أَعْمَارِ المُنَى  
لَا أَرَى الأَيَّامَ إِلَّا مَعْرَكًا  
رُبُّ وَهِيَ الجَأْشُ فِيهِ قَصْفُ  
لَامَهُ النَّاسُ وَمَا أَظْلَمَهُم  
وَلَقَدْ أَبْلَكَ عُدْرًا حَسَنًا  
قَالَ نَاسٌ صَرَعَةٌ مِنْ قَدَرٍ  
وَيَقُولُ الطَّبُّ بِلِ مِنْ جَنَّةٍ  
وَيَقُولُونَ جَفَاءً رَاعَهُ  
وَامْتِحَانٌ صَعَّبَتْهُ وَطَاءُ  
لَا أَرَى إِلَّا نِظَامًا فَاسِدًا  
مِنْ ضَحَايَاهُ وَمَا أَكْثَرَهَا  
مَا رَأَى فِي العَيْشِ شَيْئًا سَرَّهُ  
نَزَلَ العَيْشُ فَلَمْ يَنْزِلْ سِوَى  
وَنَهَارٍ لَيْسَ فِيهِ غِبْطَةٌ  
وَدُرُوسٌ لَمْ يُذِلَّ قَطْفَهَا

رَجِمَ اللُّهُ العُرُوسَ المُحْتَضِرَ  
عَنْ شَفَا اليَاسِ وَبِئْسَ المُنْحَدِرُ  
زَاهِبًا فِي مِثْلِ أَجَالِ الزَّهْرِ  
وَأَرَى الصَّنِيدَ فِيهِ مَنْ صَبَرَ  
مَاتَ بِالجُبْنِ وَأُودِيَ بِالحَدَرِ  
وَقَلِيلٌ مَنْ تَغَاضَى أَوْ عَدَرَ  
مُرْتَدِي الأَكْفَانِ مُلْقَى فِي الحُفْرِ  
وَقَدِيمًا ظَلَمَ النَّاسُ القَدَرَ  
وَرَأَيْتُ العَقْلَ فِي النَّاسِ نَدَرَ  
مِنْ أَبٍ أَغْلَظَ قَلْبًا مِنْ حَجَرٍ  
شَدَّهَا فِي العِلْمِ أَسْتَاذٌ نَكِرَ  
فَكَّكَ العِلْمَ وَأُودِيَ بِالأَسْرِ  
ذَلِكَ الكَارِهُ فِي غَضِّ العُمُرِ  
وَأَخْفُ العَيْشِ مَا سَاءَ وَسَرِ  
شُعْبَةُ الهَمِّ وَبِيدَاءُ الفِكْرِ  
وَلَيَالٍ لَيْسَ فِيهِنَّ سَمَرٌ  
عَالِمٌ إِنْ نَطَقَ الدَّرْسَ سَحَرٌ

وبعد أن ذكرَ هذه الأسباب التي تضيق سُبُل العيش على الأحداث، وأنحى باللائمة على الأهل والمعلمين، عاد فنصح للأحداث بالصبر والتأني والتقدم إلى الأمام، فقال:

نَشَأَ الخَيْرَ رُويدًا قَتَلُكُمْ  
لَوْ عَصَيْتُمْ كاذِبَ اليَاسِ فَمَا  
تَضَمِرُ اليَاسَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا  
فِيمَ تَجُنُّونَ عَلَى آبَائِكُمْ  
وَتَعَقُّونَ بِلَادًا لَمْ تَزَلْ  
فَمُصَابُ المُلْكَ فِي شَبَابِنِهِ  
لَيْسَ يَدْرِي أَحَدٌ مِنْكُمْ بِمَا

فِي الصَّبَا النَفْسَ ضَلَالٌ وَخُسْرٌ  
فِي صِبَاهَا يَنْحَرُ النَفْسَ الضَّجْرُ  
عِنْدَهَا مِنْ حَادِثِ الدُّنْيَا خَبَرٌ  
أَلَمَ التَّكْلِ شَدِيدًا فِي الكِبَرِ  
بَيْنَ إِشْفَاقِ عَلِيكُمْ وَحَذَرِ  
كَمْصَابِ الأَرْضِ فِي الزَّرْعِ النَّصْرِ  
كَانَ يُعْطَى لَوْ تَأَنَّى وَانْتَظَرَ

أي ربما كان بين هؤلاء المنتحرين لأجل سقوطهم في الامتحان مَنْ لو صَبَرَ على نفسه،  
لجاء عالمًا كبيرًا أو كان في عصره نادرًا.

رَوَّحُوا الْقَلْبَ بِلَذَاتِ الصَّبَا فَكَفَى الشَّيْبُ مَجَالًا لِلْكَرَا

أي بكرتم في الغم من هذه الدنيا، فسوف تأتيكم الشيخوخة بما هو حسبكم من  
هذه الجهة.

عَالِجُوا الْحِكْمَةَ وَاسْتَشْفُوا بِهَا	وَأَنْشُدُوا مَا ضَلَّ مِنْهَا فِي السَّيْرِ
وَأَقْرَأُوا آدَابَ مَنْ قَبْلَكُمْ	رَبِّمَا عَلَّمَ حَيًّا مَنْ غَبَرَ
وَإِغْنَمُوا مَا سَخَّرَ اللَّهُ لَكُمْ	مِنْ جَمَالٍ فِي الْمَعَانِي وَالصُّوَرِ
وَاطْلُبُوا الْعِلْمَ لِذَاتِ الْعِلْمِ لَا	لشَهَادَاتٍ وَأَرَابٍ أُخْرَ
كَمْ غُلَامٍ خَامِلٍ فِي دَرْسِهِ	صَارَ بَحْرَ الْعِلْمِ أَسَاتِذَ الْعُصْرِ

النشأ محرَّكة جمع نشء، وهو النسل وكثيرًا ما يستعمل شوقي هذه اللفظة في خطاب  
الشَّبَّانِ هذا، وكَم أَصَابَ فِي قَوْلِهِ اطْلُبُوا الْعِلْمَ لِذَاتِ الْعِلْمِ؛ فَقَدْ رَأَيْتُ كَثِيرًا مِنَ الشَّبَّانِ  
يَجْعَلُونَ جَمِيعَ وَكَدِهِمْ فِي تَحْصِيلِ الشَّهَادَةِ وَيُرُونَ بِهَا مَنْتَهَى السَّعَادَةِ، وَإِذَا حَصَلَ  
الوَاحِدَ عَلَيْهَا ظَنَّ نَفْسَهُ عَالِمًا لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَخْطَأْتُ، أَوْ لَيْسَ أَنَّهُ أَحْرَزَ الشَّهَادَةَ؟  
وَرَأَيْتُ شَبَّانًا آخَرِينَ يَكَادُ أَحَدُهُمْ يَذُوبُ حَسْرَةً وَتَأَلُّمًا عَلَى كَوْنِهِ لَمْ يُصِبِ الشَّهَادَةَ وَلَمْ يَفْزُ  
بِمَا فَازَ بِهِ غَيْرِهِ، وَهُوَ يَتَخَيَّلُ أَنْ الْأَرْضَ قَدْ ابْتَلَعَتْهُ، فَكُنْتُ أَقُولُ لِلْفَتَى الْأُولَى: لَا يَغُرَّنْكُمْ  
نَيْلُ الشَّهَادَةِ فَتَنَامُوا بَعْدَهَا قَائِلِينَ لِأَنْفُسِكُمْ أَنْكُمْ صَرْتُمْ عُلَمَاءَ، بِحُجَّةِ أَنْ الشَّهَادَةَ هِيَ  
فِي أَيْدِيكُمْ، بَلْ يَجِبُ أَنْ تَتَابَرُوا عَلَى الدَّرْسِ وَالتَّحْقِيقِ كَأَنَّ شَهَادَتَكُمْ لَمْ تَكُنْ، فَالشَّهَادَةُ  
لَيْسَتْ الْعِلْمَ. وَكُنْتُ أَقُولُ لِلْفَتَى الثَّانِيَةِ: مَا أَرَى تَأَخَّرَكُمْ فِي الْإِمْتِحَانِ إِلَّا خَيْرًا لَكُمْ؛ إِنْ بَهَذَا  
التَّأَخَّرَ تَضْطَرُّونَ إِلَى مَرَاجَعَةِ دُرُوسِكُمُ الْمَرَّةَ وَالْمَرَّةِ وَالثَّلَاثَ، فَيَكُونُ ذَلِكَ وَسِيلَةً لِتَتَمَكَّنُوا  
مِنَ الْعِلْمِ وَتَعْرِفُوا أَكْثَرَ مِمَّا عَرَفَهُ أَصْحَابُ الشَّهَادَاتِ، وَعَلِمُوا أَنَّ الشَّهَادَةَ لَيْسَتْ هِيَ الْعِلْمَ  
الْحَقِيقِي، بَلْ هِيَ عَلَامَةٌ مِنْ عِلَامَاتِهِ، فَمَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ قَدْ أَحْكَمَ الْفَنَ الَّذِي عَكَّفَ عَلَيْهِ،  
فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَحْزَنَ عَلَى تَأَخَّرِ الشَّهَادَةِ، وَمَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ لَا يَزَالُ غَيْرَ ضَلِيعٍ فِي الْعِلْمِ



الذي درسه، فلا ينبغي أن يفرح بهذه الورقة التي أعطاه إيّاها الأساتيدُ، وكثيرًا ما قدّموا متأخرًا وأخرًا متقدّمًا، فكَم من طالبٍ تأخَّرَ أيامَ التحصيل، ثم بعد خروجه من الجامعة نبَحَ وتقدّمَ وصار من كبار العلماء.

وهذا كما يقول شوقي الذي قسم الله له من المنطق ما لم يقسم إلا لأعظم الفلاسفة. وختم شوقي هذه القصيدة بدم الانتحار واستنكارِ قتلِ النفس التي لا يجوز أن تموت إلا باسم الله تعالى، ولم يحمد موطنًا يجوز فيه الاستخفاف بالنفس إلا موطن الجهاد، فقال رحمه الله:

قاتِلُ النَّفْسِ ولو كَانَتْ له      أَسْخَطَ اللّٰهَ ولم يُرِضِ البَشَرَ  
سَاحَةَ العَيْشِ إلى اللّٰهِ الذي      جَعَلَ الوِرْدَ بِإِذْنِ والصَّدْرِ  
لا تَمُوتُ النَّفْسُ إلا بِاسْمِهِ      قَامَ بِالمَوْتِ عَلَيْهَا وَقَهَرَ  
إنما يَسْمَحُ بالروحِ الفَتَى      سَاعَةَ الرَّوْعِ إذا الجَمْعُ اشْتَجَرَ  
فهنالك الأَجْرُ والفَخْرُ معًا      مَنْ يَعْشِ يُحْمَدُ وَمَنْ مات أُجِرَ

## (٢٢) شوقي يتوجّع على بيروت يوم ضربها الطليان أيام حرب طرابلس

وله عندما ضرب الأسطول الإيطالي مدينة بيروت في أثناء حرب طرابلس الغرب:

يا رَبِّ أَمْرِكَ في الممالكِ نافِذٌ      والحُكْمُ حُكْمُكَ في الدِّمِ المسفوكِ  
إنْ شئتَ أَهْرَقْهُ وإنْ شئتَ أَحْمِهِ      هو لم يَكُنْ لِسِوَاكَ بالمملوكِ

ثم يقول:

بيروتُ ماتَ الأسدُ حَتَفَ أنوفِهِم      لم يُشْهروا سَيْفًا ولم يَحْموكِ  
سبعونَ لَيْثًا أَحْرَقُوا أو أَعْرَقُوا      يَا لَيْتَهُم قَتَلُوا على «طَبْرُوكِ»

يريد بها «طبرق» الواقعة غربي السلوم ضمنَ حدود قضاء درنة، وقد كان الناس دعوا جنود السفينة الصغيرة العثمانية الراسية في المرفأ للخروج منها قبل أن يضربها

الأسطول، فأبى الضباطُ ذلك وأصروا على البقاء في السفينة قياماً بالواجب، ولو كانوا سيموتون لا محالة، فتلقوا الموت اليقين حتى لا يقال إنهم فرؤا منه.

بيروتُ يا راحَ النَّزِيلِ وأنَّسه  
الحُسْنُ لفظُ في المدائنِ كُلِّها  
نادمتُ يوماً في ظلالِكِ فتيةً  
يَنسونَ حساناً عصابةً جَلَّقِ  
يمضي الزمانُ عليّ لا أسلوكِ  
ووجدته لفظاً ومعنى فيكِ  
وسَموا الملائكُ في جلالِ ملوكِ  
حتى يكادُ بجَلِّقِ يَفديكِ

يشير إلى قول حسان:

«للهِ دُرٌّ عصابةٌ آنستهم  
تاللهِ ما أحدثتُ شرّاً أو أدّى  
إنَّ يَجْهلوكِ فإنَّ أمكِ سوريا  
لكِ في رَبِّي النيلِ المباركِ جيرةٌ  
يوماً بجَلِّقِ في الزمانِ الأوَّلِ»  
حتَّى تراعي أو يُراعَ بَنوكِ  
والأبَلقُ الفَرْدُ الأشمُّ أبوكِ  
لو يَقْدرونَ بدمعهم غَسَلوكِ

يشير بالأبلق الفرد الأشم إلى جبل لبنان وبنوه بسورية العزيزة وطن الكرم والشجاعة، قائلاً لبيروت إنها أمك البرّة.

### (٢٣) وصف شوقي لاستانبول

ولشوقي وصفٌ للاستانة:

مَنِّي لعَهْدِكَ يا فُروقُ تحيةً  
أو كالنسيمِ عداً عليكِ وراحِ منِ  
أو كالأصيلِ جَرى عليكِ عَقيقُهُ  
تلكِ الخمائِلُ والعيونُ اختارها  
قد أفرغتُ فيكِ الطبيعةَ سحرها  
خلعتُ عليكِ جمالها وتأمّلتُ  
عن جيديكِ الحالي تَلَفَتِ الرُّبى  
كعُيونِ مائِكِ أو رَبى وإديكِ  
فوفِ الرِّياضِ ووَشِيها المَحْبوكِ  
أو سالَ منِ عِقْيانه شاطيِكِ  
لكِ منِ رَبى جَنّاته بارِيكِ  
مَن ذا الذي منِ سحرها يَرقيكِ  
فإذا جمالِكِ فوقَ ما تَكسوكِ  
واستضحكتُ حورُ الجَنانِ بِفيكِ

إِنَّ أُنْسَ لَا أُنْسَ الشَّبِيبَةَ وَالهُوَى      وَسَوَالِفَ اللَّذَاتِ فِي نَادِيكَ  
وَلِيَالِيَا لَمْ نَدْرِ أَيْنَ عِشَاؤُهَا      مِنْ فَجْرِهَا لَوْلَا صِيَاخُ الدِّيَكِ  
وَصَبُوحَنَا مِنْ «بَدَلَانَ» وَ«شَرَشِرٍ»      وَغَبُوقَنَا «بَتْرَابِيَا» وَ«بِيوكِ»

هذه منازل ومنتزهات في البوسفور، أما «البدلار» فهي أودية ذات سدود تشكَّلت منها بحيراتٌ يذهب ماؤها إلى الآستانة، وشرشر هي عين ماء، وترابيا هي قرية على ضفة البوسفور وكذلك «بيوك دره». ثم يقول:

لَا يَحْزُنُنْكَ مِنْ حُمَاتِكَ خِطَّةٌ      كَانَتْ هِيَ الْمُثْلَى وَإِنْ سَاءُوكِ  
وَهُمُ الْخِفَافُ إِلَيْكَ كَالْأَنْصَارِ إِذْ      قَلَّ النَّصِيرُ وَعَزَّ مَنْ يَفْدِيكَ  
وَالْمُشْتَرُوكِ بِمَالِهِمْ وَدِمَائِهِمْ      حِينَ الشِّيُوخُ بِجَبَّةٍ بِأَعُوكِ

هنا تحاملَ أخونا شوقي على الشيوخ الذين لولاهم في الحقيقة لم يقم أهل الأناضول ولا لبوا دعوةَ كاظم قره بكير، ولا مصطفى كمال، ولا أحد سواهما؛ فالجهاد التركي في وجه الحلفاء واليونان، وبعبارة أخرى الحرب التي يسمونها بحرب الاستقلال، لم تكن إلا بتحريض الأئمة والمشايخ وجميع أصحاب العمام، وذلك بصارخة الإسلام التي لبأها الشعبُ التركي.

هذه هي حقيقة لا يكابر فيها إلا من أعمت الضلالة قلوبهم، ومن غلبوا على الأمور اليوم، فظنوا أنهم يسخرون الحقائق كما يسخرون الأهالي، ويغلبون على التاريخ كما غلبوا على المناصب، ولا نعلم أحداً من علماء الترك باع بلاده من الأجانب بجبة، وإنما كان بعضهم سيئ الظن ببعض القواد الذين أقحموا أنفسهم بحرب الاستقلال، وكانوا مطلعين من قبل على ضمائرهم بحق الإسلام والأخلاق، متوقعين من غلبهم أن يتول الأمر إلى ما آل إليه من الإلحاد في الدين، ومن هدم الخلافة، ومن القضاء على الأوضاع الإسلامية بأسرها؛ مما عاد شوقي نفسه بعد قليلٍ فاعترفَ به وناحَ وبكى من أجله، وقصيدته الحائية التي مرَّت أعظم شاهد على ذلك؛ فالذين أفتوا بما أفتوا به لم يكونوا خائنين لوطنهم، وإنما كانوا أمناءً لدينهم خائفين على الإسلام من أمرٍ يأتي.

وقد يجد المعترض على كلامي هذا وجهًا للجواب، ولكنه يكون جوابَ سفسطة، ليس هنا محل الشرح والتفصيل لبيانه، وقد زلق شوقي في هذه الفكرة كما زلق ملايين من الخلق، ولكن الحقيقة لا يضرها كثرة عدد مخالفيها.

## (٢٤) قصيدة شوقي في اللورد كرومر (يوم عُزل عن مصر)

ومن قصائد شوقي المشهورة القصيدة المسماة (وداع اللورد كرومر):

أَيَّامُكُمْ أَمْ عَهْدُ إِسْمَاعِيلَا	أَمْ أَنْتَ فَرَعُونَ يُسُوسِ النَّيْلَا
أَمْ حَاكِمٌ فِي أَرْضِ مِصْرَ بِأَمْرِهِ	لَا سَائِلًا أَبَدًا وَلَا مَسْتُوْلًا
يَا مَالِكًا رِقَّ الرِّقَابِ بِبَأْسِهِ	هَلَّا اتَّخَذْتَ إِلَى الْقُلُوبِ سَبِيلًا

يقول لكرومر: إنك غلبت على مصر بقوة الأسطول الإنجليزي أمنًا بذلك، فهل تقدر أن تقول إنك ملكت قلبًا واحدًا من قلوب أهل مصر؟ ومن لم يملك القلوب فلا يقال إنه ملك شيئًا؛ لأن الممالك لا يمكن أن ترتكز على رعوس الحراب دائمًا:

أَوْسَعْتَنَا يَوْمَ الْوَدَاعِ إِهَانَةً	أَدَبٌ لَعَمْرُكَ لَا يُصِيبُ مَثِيلًا
هَلَّا بَدَا لَكَ أَنْ تَجَامِلَ بَعْدَمَا	صَاعَ الرَّئِيسِ لَكَ الثَّنَا إِكْلِيلًا
انظُرْ إِلَى أَدَبِ الرَّئِيسِ وَلَطْفِهِ	تَجِدِ الرَّئِيسَ مَهْدَبًا وَنَبِيلًا
فِي مَلْعَبٍ لِلْمُضْجِكَاتِ مُشِيدٍ	مَثَلَتْ فِيهِ الْمُبْكِيَّاتِ فُصُولًا
شِهَدَ «الْحُسَيْنُ» عَلَيْهِ لَعْنُ أَصُولِهِ	وَيُصَدِّرُ الْأَعْمَى بِهِ تَطْفِيلًا

لما جرت حفلة الوداع للورد كرومر في دار الأوبرا يوم خروجه من مصر، خطب رئيس النظار مصطفى باشا فهمي، وبحسب العادة في مثل تلك الحفلات أثنى على المودع وأظهر الأسف لفراقه، فأجابه اللورد كرومر بكلام نال فيه من كرامة الأمة المصرية ومن الخديوي إسماعيل، ولم يُراع شيئاً من شروط الكياسة، وأغرب ما في الأمر أنه قال ما قال في حضور الأمير حسين كامل ابن الخديوي إسماعيل وسلطان مصر فيما بعد، وهذا ما يشير إليه شوقي بقوله: «شهد الحسين عليه لعن أصوله»، وأما الأعمى فهو صديقنا الأستاذ الشيخ عبد الكريم سليمان، وكان بصره ضعيفاً حتى كاد يكف في الآخر، وما نظن شوقي نكزه هنا إلا على سبيل النكتة، أو كما يقال جرته القافية؛ فإن الشيخ عبد الكريم لم يكن له شأن في السياسة، ولم يكن حضوره تلك الحفلة إلا كما حضر سائر الاجتماعات، فقد كان مولعاً بذلك، وكان الناس يتنادرون عليه في كثرة وجوده في المآدب والمحافل، وكان

حلو الفكاهة يطارد في ميدان المداعبة أحسن طراد، وكانت الناس تستخِفُّ روحه؛ فأما  
أن يقوم الشيخ عبد الكريم ويردُّ على اللورد كرومر في وجهه، على حين الأمراء والوزراء  
تحملوا كلامه وألبسوا أمامه، فلم يكن من فرسان ذلك الميدان. ثم يقول:

أَنْذَرْتَنَا رِقًّا يَدُومٌ وَزَلَّةٌ	تَبَقَى رِحَالًا لَا تَرَى تَحْوِيلًا
أَحْسِبْتَ أَنَّ اللَّهَ دُونَكَ قَدْرَةٌ	لَا يَمْلِكُ التَّغْيِيرَ وَالتَّبْدِيلًا
اللَّهُ يَحْكُمُ فِي الْمُلُوكِ وَلَمْ تَكُنْ	دَوْلٌ تَنَازَعُهُ الْقُوَى لِتَدْوِلًا
فِرْعَوْنَ قَبْلَكَ كَانَ أَعْظَمَ سَطْوَةً	وَأَعَزَّ بَيْنَ الْعَالَمِينَ قَبِيلًا
الْيَوْمَ أَخْلَفَتِ الْوَعْدَ حُكُومَةٌ	كِنَّا نَظُنُّ عُهُودَهَا الْإِنْجِيلًا
دَخَلَتْ عَلَى حُكْمِ الْوِدَادِ وَشَرَعِهِ	مِصْرًا فَكَانَتْ كَالسَّلَالِ دُخُولًا
هَدَمَتْ مَعَالِمَهَا وَهَدَّتْ رُكْنَهَا	وَأَضَاعَتْ اسْتِقْلَالَهَا الْمَأْمُولًا
قَالُوا جَلَبَتْ لَنَا الرِّفَاهَةَ وَالْغِنَى	جَحَدُوا الْإِلَهَ وَصُنْعَهُ وَالنِّيْلًا

نعم، إن الكثيرين من سعاة الأجانب ودعاتهم كانوا دائماً يبينون للناس ما جرى من  
الإصلاحات في مصر لعهد الإنجليز، وينسون أن الله تعالى أنعم على مصر بالنيل، وأنه لولا  
النيل لم تتسهَّلْ هذه الإصلاحات، وأن الإنجليز دخلوا بلاداً غير مصر فلم يُوفِّقوا إلى شيءٍ  
مما وُفِّقوا به في مصر؛ لأنه لم يكن لتلك البلاد نيلٌ يسقيها ويسيل الذهب في واديهما؛ ثم  
إن هؤلاء ينسون شيئاً آخر، وهو أن مصر على فرض أن الإنجليز لم يدخلوها، ما كانت  
لتقف في مكانها السياسي والاجتماعي والإداري وتبقى متأخرة عن درجة غيرها، أفلاً  
يرون أن محمد علي كان قد أنشأها نشأةً جديدةً، وبنى فيها المدارس والمعاقل والمعامل،  
ونظم الجيوش وأجرى في البحر الأساطيل، ومهدَّ الطرق وبنى السدود وشقَّ الجداول إلى  
غير ذلك مما يعدده شوقي، فيقول:

وحياةِ مِصْرَ عَلَى زَمَانِ مُحَمَّدٍ	وَنُهْوِضُهَا مِنْ عَهْدِ إِسْمَاعِيلَا
ومدارسًا لِبنِي الْبِلَادِ حَوَافِلَا	حِطُّ الْفَقِيرِ بِهِنَّ كَانَ جَزِيلَا
ومعاقِلًا لَا تَمْحَى آثَارَهَا	وجيُوشِ إِبْرَاهِيمَ وَالْأَسْطُولَا
وجداولًا بَيْنَ الضِّيَاعِ جَوَارِيَا	تَذَرُ الْيَبَابَ مَزَارِعَا وَحُقُولَا
ومدائنًا قَدْ خَطَطْتَ وَطَرَائِقًا	كَانَتْ حَزُونًا فَاسْتَحْلَنَ سُهُولَا

شوقي

وَالْقُطْنُ مَزْرُوعًا بِفَضْلِ مُحَمَّدٍ      فِي مِصْرَ مَحْلُوجًا بِهَا مَغْرُولًا  
قَدْ مَدَّ إِسْمَاعِيلُ قَبْلَكَ لِلوَرَى      ظِلَّ الحِضَارَةِ فِي البِلَادِ ظَلِيلًا  
إِنْ قَيْسٌ فِي جُودٍ وَفِي سَرْفٍ إِلَى      مَا تُنْفِقُونَ اليَوْمَ عُدَّ بِخَيْلًا

يريد أن يقول إن الإنجليز كانوا يجورون على خزانة مصر ويجحفون بها أكثر مما كان إسماعيل يجور عليها، فلماذا لا يزالون ينتقدون إسرافه؟

أَوْ كَانَ قَدْ صَرَخَ المَفْتَشُ مَرَّةً      فَلَكُمْ صَرَعَتْ بِدَنشَوَايَ قَتِيلًا

أي إنه إن كان إسماعيل باشا ظلم وقتل إسماعيل باشا المفتش ظلمًا، فكم ظلمتم أنتم وقتلتم ظلمًا من أناس في حادثة دنشواي، وهي أن جنودًا من جيش الاحتلال الإنجليزي اصطادوا حمامًا لأهل دنشواي (قرية من أعمال المنوفية)، برغم رجاء أهل القرية لهم ألا يفعلوا، فوقع بين الفريقين نزاعٌ من أجل صيد الحمام، فاعتدى الجنود الإنجليز على بعض الأهالي، فدافعوا عن أنفسهم وفرَّ أحد الإنجليز في الحرِّ، فأُصيب بضربة الشمس فمات، وعند ذلك قامت قيامة اللورد كرومر، فأمر بأهل القرية فحُوكموا محاكمةً صارت مثلًا مضروريًا في الظلم، وشنق عدة أشخاص من أهل القرية، وجلد آخرين وسجن كثيرين، وشاعت فظاعة هذه الحادثة حتى في إنجلترا نفسها، فاضطرت الحكومة الإنجليزية أن تصرف اللورد كرومر عن مصر بسببها؛ ولذلك غلب عليه الحقد فتكلم بما تكلم به في حفلة توديعه، وخالف الأدب بما فعله، وتركها على نفسه سبةً باقيةً زادها شعرُ شوقي تخليدًا.

لَا تَذْكُرِ الكِرْبَاجَ فِي أَيَّامِهِ      مِنْ بَعْدِ مَا أُنْبِتَ فِيهِ ذُيُولًا

أي إنه إن كان إسماعيل قد استعمل المقرعة في أيامه، فأنت أيها اللورد جعلت لهذه المقرعة ذيلولًا، وجلدت أكثر مما جلد إسماعيل، ومن الجملة ما جلدت في دنشواي.

كَمْ مِنْنَةِ مَوْهُومَةٍ أَتْبَعَتْهَا      مِنَّا عَلَى الفَطْنِ الحَايِرِ تَقِيلًا  
فِي كُلِّ تَقْرِيرٍ تَقُولُ خَلَقْتُمْ      أَفْهَلُ تَرَى تَقْرِيرَكَ التَّنْزِيلًا

أي كلما قَدَّمَ اللورد كرومر تقريرًا سنويًا عن مصر والسودان، ادَّعى لنفسه من الإصلاحات ما ادَّعى، ونزلَ ذلك منزلةَ الحقائق التي لا شكَّ فيها، ومَنَّ بها على مصر منَّا ثقيلًا، كما قال بعضهم:

رَأَيْتَكَ تَكْوِينِي بِمِيسَمٍ مِنَّةً      كَأَنَّكَ كُنْتَ الْأَصْلَ فِي يَوْمِ تَكْوِينِي

ثم ذكر كيف أضع اللورد كرومر الجيشَ المصري وضَعَعَ قوتهَ عمدًا، وقلمَ أظفارهَ خبثًا ولؤمًا، وحرَمَ ضبَّاطه الترقِّي عن درجات معلومة، فصاروا يعيشون بلا أملٍ، ويخدمون بلا مكافأةٍ، مع أن إنجلترا إنما فتحتِ السودانَ بدمِ هذا الجيشِ المصري لا غيره، وقد صاغ شوقي هذا الموضوع بالأبيات الآتية:

أَمْ هَلْ يُعَدُّ لَكَ الْإِضَاعَةُ مِنَّةً      جَيْشُ كَجَيْشِ الْهِنْدِ بَاتَ ذَلِيلًا  
انظُرْ إِلَى فِتْيَانِهِ مَا شَأْنُهُمْ      أَوْلَيْسَ شَأْنًا فِي الْجَيْوشِ ضَيْلًا  
حَرَمْتَهُمْ أَنْ يَبْلُغُوا رُتَبَ الْعُلَا      وَرَفَعْتَ قَوْمَكَ فَوْقَهُمْ تَفْضِيلًا  
فَإِذَا تَطَلَّعَتِ الْجَيْوشُ وَأَمَلَتْ      مُسْتَقْبَلًا لِمَ يَمْلِكُوا التَّامِيلًا  
مِنْ بَعْدِ مَا زَفُّوا لِإِدْوَارِدِ الْعُلَا      فَتَحًا عَرِيضًا فِي الْبِلَادِ طَوِيلًا

ثم يذكر شوقي أصنافَ الناس الذين يحقُّ لهم أن يأسفوا على انفصالِ كرومر عن ولاية أمر مصر، مثل الإنجليز الذين ملَّكهم كرومر زمامَ هذا القطر، ومثل أعضاء الكلوب أو النادي في القاهرة، ومثل القسيسين المبشَّرين، ومثل الصرَّافين بلندن، ومثل جريدة التايمس والجراند الاستعمارية، ومثل شركة قناة السويس؛ فقال:

لو كنت من حُمرِ الثيابِ عبدتكم      من دونِ عيسى مُحسنًا ومُنيلًا

حمر الثياب كناية عن العسكر الإنجليزي المحتل لمصر.

أَوْ كُنْتُ بَعْضَ الْإِنْجِلِيزِ قَبْلَتُكُمْ      مَلِكًا أَقْطَعُ كَفَّهُ تَقْبِيلًا  
أَوْ كُنْتُ عُضْوًا فِي الْكَلُوبِ مَلَاتِهِ      أَسْفًا لِفُرْقَتِكُمْ بُغَا وَعَوِيلًا  
أَوْ كُنْتُ قَسِيْسًا يَهِيْمُ مُبَشِّرًا      رَتَّلْتُ آيَةَ مَدِجِكُمْ تَرْتِيلًا  
أَوْ كُنْتُ صَرَّافًا بَلْنَدُنْ دَائِنًا      أَعْطَيْتُكُمْ عَن طِيْبَةِ تَحْوِيلًا

شوقي

أَوْ كُنْتُ «تَيْمَسُكُمْ» مَلَأْتُ صَحَائِفِي      مَدَحًا يُرَدَّدُ فِي الْوَرَى مَوْصُولًا  
أَوْ كُنْتُ فِي مِصْرَ نَزِيلًا جَاهِدًا      سَبَّحْتُ بِأَسْمِكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا

يشير بالبيت الأخير إلى النزلاء الأجانب الذين يتمتعون بالامتيازات الأجنبية، ولا تقدر الحكومة المصرية أن تواجه منهم أحدًا إلا عن طريق قنصله، وهذه الامتيازات كان اللورد كرومر من أشد المحافظين عليها؛ رغبةً في تقييد مصر وكسر شوكتها.

أَوْ كُنْتُ سَرِيونًا حَلَفْتُ بِأَنْكُمْ      أَنْتُمْ حَبُونُمْ بِالْقَنَاةِ الْجِيَلَا

سريون هذا مدير شركة قناة السويس.

عَهْدُ الْفَرَنْجِ وَأَنْتَ تَعَلَّمُ عَهْدَهُمْ      لَا يَبْخَسُونَ الْمُحْسِنِينَ فَتِيَلَا

أي إن الفرنج لا يبخسون المحسنين حقهم، وهل من رجل أحسن إليهم بقدر إحسانك في مصر؟ وذلك على ظهر أهلها.

فَارْحَلْ بِحَفْظِ اللَّهِ جَلَّ صَنِيعُهُ      مُسْتَعْفِيًا إِنْ شِئْتَ أَوْ مَعزُولًا  
وَاحْمِلْ بِسَاقِكَ رِبْطَةً فِي لُنْدُنْ      وَاخْلِفْ هُنَاكَ غِرَائِي أَوْ كَمْبِيَلَا  
أَوْ شَاطِرِ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ بِلَادَهُ      وَسُوسِ الْمَمَالِكِ عَرَضَهَا وَالطُّولَا

كان اللورد كرومر قد حُملَ على الاستعفاء من بعد حادثة دنشواي، ولكنه هو وأصحابه حاولوا إقناع الناس بأنه استعفى بمجرد إرادته واختياره؛ فشوقي يقول له: على كلِّ حال قد ذهبَ عنَّا مُسْتَعْفِيًا أَوْ مَعزُولًا، فارحل بحفظ الله. وقوله «بحفظ الله» أسلوبٌ من أساليب الكلام التي يُقصدُ بها غيرُ ظاهرها، كما يقول الإنسان: «اذهب مع السلامة» لمن يريد أن يتخلَّصَ منه. ثم يقول له: كُنْ ما شِئْتَ بعد أن تخلَّصتَ مصر منك، فليعطوك وسامَ رِبْطَةِ السَّاقِ، ولتخلف هناك الوزير غراي أو الوزير كمبيل، ولتشاطرُ إدوارد في ملكه، هذا كله لا يهمنا على شرط أن ترحلَ عنَّا. ثم يقول:

إِنَّا تَمَنِّيْنَا عَلَى اللَّهِ الْمُنَى      وَاللَّهُ كَانَ بِنَيْلِهِنَّ كَفِيَلَا  
مَنْ سَبَّ دِينَ مُحَمَّدٍ فَمَحَمَّدٌ      مَتَمَكَّنٌ عِنْدَ الْإِلَهِ رَسُولَا



يقول لكرומר: قد تمنّينا على الله أن يقلّك فانقلعت، وهذا كل ما نريد، وإنّ من حبّ دين محمد عليه السلام له جاه عظيم عند الله فانه ينتقم له، وهذا إيماء إلى ما جاء في تقرير اللورد كرومر عن سنة ١٩٠٦، من أن دين الإسلام دين لا يصلح لهذا العصر؛ فقد بلغ من جبروت هذا السيد الإنجليزي وغطرسته وعداوته للإسلام أن قدّف بدين أهالي مصر التي كان يلي أمرها، وبدين أتباعه وهم خمس العائلة البشرية، وذلك في تقرير رسميّ يقدّمه لحكومته وينتشر في الأرض، فلا جرم أن مصر قد صبرت على الأذى في دنياها ودينها إلى أقصى مراحل الصبر، ولقد تأذن الله بك قيودها الثقيلة في هذه السنة بفضل نزاع إنكلترتة مع إيطاليا، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

ولا نظن أديباً أو شادياً شيئاً من الأدب في مصر وجوارها، غير حافظ لقصيدة شوقي هذه، وحافظ له جميلها، فهي لسان المصري الموتر المتأجج صدره وغراً، المنتقم لوطنه ودينه وشرفه وملكه وماله، الذي ينطق عن قلب ملآن وكبد قد قرّحتّها الأحزان، ويتكلم بلسان من دونه السنان.

### (٢٥) قصيدة شوقي في الثورة السورية

ولما دمّر الفرنسييس دمشق في إبان الثورة السورية — وفي أيام العداوة بين السوريين والفرنسييس — أقيمت في القاهرة حفلة استنكار لذلك العمل، وتليت فيه الخطب والقصائد، فقال شوقي القصيدة الآتية، وتسابقت الصحف إلى نشرها، فاشترت جريدة السياسة امتياز سبق إلى نشر هذه القصيدة بأربعين جنيهاً، وضمّ هذا المال إلى إعانة منكوبي الثورة السورية:

سلام من صبا بردى أرق	ودمع لا يكفكف يا دمشق
ومعذرة اليراعة والقوافي	جلال الرزء عن وصف ييق
وذكرى عن خواطرها لقلبي	إليك تلفت أبداً وحفق
وبي ممّا رمّتك به الليالي	جراحات لها في القلب عمق
دخلت والأصيل له اتلاق	ووجهك ضاحك القسمات طلق
وتحت جناحك الأنهار تجري	وملء ربك أوراق وورق
وحولي فتية غر صباح	لهم في الفضل غايات وسبق

## شوقي

على لَهَوَاتِهِمْ شُعْرَاءُ لُسُنٌ      وَفِي أَعْطَافِهِمْ خُطَبَاءُ شُدُقٌ  
رُؤَاةٌ قَصَائِدِي فَاعْجَبَ لِشِعْرِ      بَكُلِّ مَحَلَّةٍ يَرُوِيهِ خَلْقٌ

يقول إنه كان حوله يوم دخل دمشق فتية غرُّ الأفعال صباح الوجوه هم بلهواتهم كناية عن أفواههم، شعراء لسن جمع ألسن وهو الفصيح، وفي أعطافهم كناية عن مواقفهم، خطباء شدى جمع أشدى وهو المفوّه البليغ، ومع هذا فإنهم رواة شعري الذي بكلِّ محلة من الدنيا له رواة. قلت: لم يبالغ شوقي في هذا، ولكن لم يرو عنه الرواة من الشعر كما رواوا من هذه القصيدة. ثم قال:

عَمَزْتُ إِبَاءَهُمْ حَتَّى تَلْظَنَتْ      أَنْوْفُ الْأُسْدِ وَاضْطَرَمَ الْمَدَقُّ  
وَضَجَّ مِنَ الشَّكِيمَةِ كُلُّ حُرٍّ      أَبِي مِنْ أُمِيَّةٍ فِيهِ عِنُقُ  
لَحَاها اللَّهُ أَنْبَاءً تَوَالَتْ      عَلَى سَمْعِ الْوَلِيِّ بِمَا يَشُقُّ  
يَفْصَلُها إِلَى الدُّنْيَا بَرِيدٌ      وَيُجْمِلُها إِلَى الْأَفَاقِ بَرَقُ  
تَكَادُ لِرَوْعَةِ الْأَحْدَاثِ فِيها      تُخَالُ مِنَ الْخُرَافَةِ وَهِيَ صَدَقُ  
وَقِيلَ مَعَالِمِ التَّارِيخِ دُكَّتْ      وَقِيلَ أَصَابَها تَلْفٌ وَحَرَقُ

يقول إنه كانت تأتي أخبار هذه القارعة النازلة بدمشق الصاكة للأسماع، مجملة بالبرقيات مفصلة بالكتابات، يكاد الناس يحسبونها من الخرافات المخيلة، والحقيقة أنها وقائع وقعت فعلاً، وقيل إنه دُمّر ذلك اليوم أبنية تاريخية وبيوتُ مزدانة بأفخر الصنعة العربية. ثم قال:

أَلَسْتُ دِمَشْقُ لِلْإِسْلَامِ ظَنُرًا      وَمُرْضِعَةُ الْأُبُوَّةِ لَا تُعَقُّ  
صَلَاحُ الدِّينِ تَأْجِكُ لَمْ يُجْمَلْ      وَلَمْ يُوسَمْ بِأَزِينٍ مِنْهُ فَرَقُ  
وَكُلُّ حَضَارَةٍ فِي الْأَرْضِ طَالَتْ      لَهَا مِنْ سَرَجِكِ الْعُلُوِّيِّ عِرْقُ  
بَنَيْتِ الدَّوْلَةَ الْكُبْرَى وَمُلْكًَا      عُبارُ حَضَارَتِيهِ لَا يُشَقُّ  
لَهُ بِالشَّامِ أَعْلَامٌ وَعُرْسٌ      بِشَائِرُهُ بِأَنْدَلِيسٍ تَدُقُّ

بعد أن ذكر صلاح الدين دفين دمشق، ذكر الدولة الكبرى، ويريد بالدولة الكبرى دولة بني أمية؛ لأنه لم تتسع فتوحات الإسلام في دور كما اتسعت في زمانهم، لا سيما

خلافة عبد الملك بن مروان. ويشير بقوله: «غبار حضارتيه ... إلخ» إلى الحضارة الأموية في دمشق، والحضارة الأموية في قرطبة؛ فإن الثانية هذه لها عروق من الأولى. ثم قال:

رُبَاعِ الخلدِ وَيَحِكِ ما نَهَاها	أَحَقُّ إِنَّها دَرَسَتْ أَحَقُّ؟
وَهَلْ عُرِفَ الجِنانِ مُنْضَدَاتُ	وَهَلْ لِنَعِيمِهِنَّ كَأَمْسِ نَسَقُ؟
وَأَيْنَ دُمَى المَقاصِرِ من جِجالِ	مُهَتَّكَةٍ وَأَسْتارِ تُشَقُّ
بَرَزْنَ وفي نَواحي الأيِّكِ نارُ	وخلَفَ الأيِّكِ أَفراخُ تُزَقُّ
إِذا رُمِنَ السَّلَامةُ مِن طَريقِ	أَتَتْ مِن دُونِهِ لِلْمَوْتِ طُرُقُ
بَليلِ لِلقِذائِفِ وَالْمَنايا	وراءَ سَمائِهِ خَطْفُ وَصَعُقُ
إِذا عَصَفَ الحَديدُ أَحْمَرَ أَفُقُ	على جَنابَتِهِ واسودَّ أَفُقُ

إذا قرأ القارئ هذه الأبيات تصوّر الحالة كأنه يراها بعينه، عقائل مقصورات في الحجال، برزْنَ إلى الطرق للنجاة، والنار تعمل في البيوت وتأخذ على الهاربين والهاربات أفواه الطرق، وعلى أيدي أولئك العقائل أطفالُ كالأفراخ التي تزقُّ أمهاتها بمناقيرها، وقد ضاقتْ على الناس الأرض بما رحبتْ، فكيف سلكوا فهي النار النازلة عليهم في جوف الظلام، تخطف الأرواح وتصعق الأجسام طول الليل — لأنَّ ضربَ دمشق بالمدافع استمرَّ ٥٦ ساعة — كلما نزلتْ كرةٌ من كرات الديناميت، احمرَّ جانبٌ من الأفق بلون اللهب، واسودَّ الجانب الآخر بلون الدخان، ويستحيل على أيِّ شاعر أن يبلغ هذه الدرجة من البلاغة في وصف القذائف الحربية، ولا سيما تحت الظلام. ثم قال:

سَلِي مَن راعِ غَيْدِكَ بَعْدَ وَهْنِ	أَبينَ فَوادِهِ والصخرِ فَرَقُّ؟
وَلِلْمُسْتَعْمِرِينَ وَإِنَّ الأَنوَّ	قُلوبُ كالحِجارَةِ لا تَرِقُّ
رَمَاكَ بِطَيْشِهِ وَرَمَى فَرَنسا	أخو حَرِبَ بِهِ صَلْفُ وَحُمُقُ
إِذا ما جاءَهُ طَلابُ حِقِّ	يقول: عِصابَةٌ خَرَجُوا وَشَقُّوا

يقول: هل من أدخل على نساء دمشق هذا الهول كله يقال إن بين قلبه والصخر فرقاً؟ لا لعمرى إن قلبه كالصخرة قسوةً، وهذه حال الدول الاستعمارية بأسرها، فإن رجالها وإن ألنوا القول فلينهم رياء، وفعلهم بعكس قولهم، وقلوبهم كالحجارة أو أشد قسوةً؛ وقد رماك يا دمشق ورمى فرنسا نفس وطنه بسبب رميك قائد متكبّر أحمق،

يعني به الجنرال سراي، وقد كان الناس إذا جاءوه يرجونه الكفّ عن ضرب دمشق، أجابهم أنه إنما يضرب عصاةً شقوا عصا الطاعة. ويشير بقوله «رمى فرنسا» إلى أن هذا الفعل قد بقي سبباً وعاراً في التاريخ على فرنسا، بسبب هذا القائد ولم يقدر أن يدافع عنه أحد. قلت: وقد نشرتُ أنا في ذلك رسالةً بالفرنسية وطبعتها في جنيف، ووزعتها في الآفاق، واستحسنها الناس وجاءني من المستر ماكدونالد نفسه استنكارٌ لتدمير دمشق، وقد كان ذلك بعد رئاسته الأولى لنظار إنجلترا، ولكنّ ماكدونالد هذا لم يكن بأقلّ ظلماً في عمله لتهويد فلسطين التي فجيعتها لا تُقاس بها فجيعته. ثم قال:

دَمُ الثَّوَارِ تَعْرِفُهُ فَرَنْسَا	وَتَعَلَّمَ أَنَّهُ نُورٌ وَحَقُّ
جَرَى فِي أَرْضِهَا فِيهِ حَيَاةٌ	كَمُنْهَلِ السَّمَاءِ فِيهِ رِزْقٌ
بِلَادٌ مَاتَ فَتَيْتُهَا لِتَحْيَا	وَزَالُوا دُونَ قَوْمِهِمْ لِيَبْقُوا
وَحَرَّرَتِ الشُّعُوبُ عَلَى قَنَاها	فَكَيْفَ عَلَى قَنَاها تُسْتَرْقُ؟

يريد أن فرنسا لها ضراوة بدم الثوّار، وهي تعلم ما أوجدته الثورة فيها من حقوقٍ كانت ضائعةً، وأنوار علم كانت خافيةً، وأن الثورة كانت حياةً لفرنسا، وقد مات فيها البعض ليحيا الكل، ومن عادة الشعوب أن تنال حريتها برعوس الحراب، فكيف يعقل أن سورية تزداد رقاً على رقّ برعوس الحراب، بعد أن سفك السوريون دماءهم لأجل الحرية؟ ثم قال:

بَنِي سوريَّةٍ اطَّرَحُوا الأمانِي	وَأَلْقُوا عَنْكُمْ الأَحْلَامَ أَلْقُوا
فَمِنْ خِدَعِ السِّيَاسَةِ أَنْ تُغْرُوا	بِأَلْقَابِ الإِمَارَةِ وَهِيَ رِقٌّ
وَكَمْ صَيِّدٍ بَدَأَ لَكَ مِنْ ذَلِيلٍ	كَمَا مَالَتْ مِنَ المِصْلُوبِ عُقُ
فَتَوَقَّ الْمَلِكُ تَحَدُّثَ نَمِّ تَمِضِي	وَلَا يَمِضِي لِمُخْتَلِفِينَ فَنَقُّ

يخاطب أبناء سورية قائلاً: ذروا الأمانِي وانبذوا الأحلام الكواذب ولا تغتروا بلقب «الدولة السورية»، ولا «لبنان الكبير»، ولا «دولة جبل الدروز»، ولا «حكومة العلويين»، وما أشبه ذلك من ألقاب مملكة في غير موضعها، فإن كل هذه الحكومات أسماء ما أنزل

الله بها من سلطان، وكلها مستعبدة لفرنسا. وقد تجدون من عليه لقب أمير أو وزير وهو جالس على كرسية، وإنما هو مائل العنق ينظر إلى نقطة واحدة، يخاله الناس أميراً أصيد من شدة كبره، وليس ذلك بعبرة، بل المصلوب أو المشنوق يميل بعنقه وهو ميت. وقد أنثَّ شوقي العنقَ هنا وليس ذلك بخطأ وإن كان التذكير أقوى. ثم قال إن فتوق الملك تحدث في كلِّ مكان، ولكنها قابلةٌ للرتق إلا إذا انصدعتِ الوحدة وتفرقت كلمة الشعب؛ فذلك فتق لا رتق له، وشقُّ لا يحاص، فإياكم وأن تصدعوا وحدتكم بالخلاف فيما بينكم، ولو عاش شوقي إلى اليوم لفرَّت عيونه بما رآه من وحدة كلمة السوريين التي حملت فرنسا على الاعتراف باستقلالهم، في الوقت الذي كانت فيه إنكلترا تعترف باستقلال مصر، فحرَّر القطران الشقيقان في وقتٍ واحدٍ.

نصحتُ ونحنُ مُخْتَلِفونَ دَارًا      وَلَكِنْ كُنَّا فِي الْهَمِّ شَرِقُ  
وَيَجْمَعُنَا إِذَا اخْتَلَفَتْ بِلَادُ      بَيَانٌ غَيْرُ مُخْتَلِفٍ وَنُطُقُ

يقول: ليست مصر والشام بدار واحدة، ولكن مصر والشام كلتاها من الشرق؛ فبينهما جامعة شرقية، ولسان كلٍّ من القطرين هو اللسان العربي، وأية رحم شبكة أكثر من هذا؟

وَقَفْنُمُ بَيْنَ مَوْتٍ أَوْ حَيَاةٍ      فَإِنْ رُمْتُمْ نَعِيمَ الدَّهْرِ فَاشْقُوا  
وَلِلْأَوْطَانِ فِي دَمٍ كُلِّ حُرٍّ      يَدٌ سَلَفَتْ وَدَيْنٌ مُسْتَجِقُّ  
وَمَنْ يَسْقِي وَيَشْرَبُ بِالمَنَايَا      إِذَا الْأَحْرَارُ لَمْ يُسْقُوا وَيَسْقُوا  
وَلَا يَبْنِي المَمَالِكَ كَالضَّحَايَا      وَلَا يُدْنِي الْحَقُوقَ وَلَا يُجِجُّ  
فَفِي القَتْلِ لِأَجْيَالِ حَيَاةٍ      وَفِي الْأَسْرَى فِدَى لَهُمْ وَعَتَقُ  
وَلِلْحَرِيَةِ الحَمَرَاءِ بَابُ      بِكُلِّ يَدٍ مُضْرَّجَةٍ يُدُقُّ

ينثر شوقي بهذا النظم نصائحه الغالية لأهل سورية، مبنية على التجربة والتاريخ والمبادئ السرمدية، فيقول للسوريين: وقفتم الآن بين الموت والحياة، فإن رتمت الراحة الكبرى فاتعبوا، وإن نشدتم النعيم المقيم فاخثاروا لأنفسكم الشقاء مدةً من الزمن؛ لأنه لا يدرج النعيم إلا من أوكار العذاب، وإن دماء الأحرار المسفوكة في سبيل الأوطان ديون مستحقة، لا بد للدهر من أن يتوفَّر على إيفائها، ومن لعمرى يسقي ويشرب بكنوس المنايا

نهلاً وعللاً إذا كان أحرار البلاد لا يشربون بتلك الكؤوس ولا يسقون بها، وهو معنى فيه شيء من قول الشاعر:

سَقَيْنَاهُمْ كَأْسًا سَقَوْنَا بِمِثْلِهَا      وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْمَوْتِ أَصْبِرَا

وقال إنه لا شيء يقوم عليه أساس الممالك مثل الضحايا، ولا ما يحق الحقوق غيرها، فكلُّ أمة بذلت في سبيل حريتها دماءً، فإن تلك الدماء تنال لها حقوقها في الحرية ولا يقدر أن يكابر فيها مكابر، وبالجمله فلا تحيا الأمم إلا بقتل بعض رجالها، ولا يعيشون طلقاء إلا بأسر البعض الآخر، وما قرع باب الحرية الحمراء إلا الأيدي المملخة بالدم. وقد وصف الحرية «بالحمراء» كنايةً عن كونها لا تُنال إلا بالدم المسفوك، ويجوز أن يقال في معنى «الحمراء» أنها «الشديدة»؛ وذلك أن العرب وصفوا الشدة دائماً بالحمرة. ثم قال:

جَزَاكُمْ ذُو الْجَلَالِ بَنِي دِمَشْقٍ      وَعِزُّ الشَّرْقِ أَوْلُهُ دِمَشْقُ  
نَصْرْتُمْ يَوْمَ مِحْنَتِهِ أَحَاكُمْ      وَكُلُّ أَخٍ بِنَصْرِ أَخِيهِ حَقٌّ

يدعو لأهل دمشق أن يؤيِّدهم الله، ويذكر أن دمشق في الحقيقة كانت أول مركز عزٍّ وسيادة للشرق، فإن الدولة الإسلامية الأولى وهي دولة بني أمية إنما اتخذت دمشق لها عاصمة. ثم يقول لأهل دمشق: مرحى لكم أنتم الذين نصرتم إخوانكم الدروز يوم زحف إليهم الفرنسييس، فلم تذروهم منفردين، وشغلتم الفرنسييس من الورا بثور الغوطة، ولا عجب في ذلك؛ فإنكم إنما نصرتم إخوانكم، وكل أخ حق بنصر أخيه، وقوله حق: هو بمعنى حقيق أو جدير. ثم يقول:

وَمَا كَانَ الدُّرُوزُ قَبِيلَ شَرٍّ      وَإِنْ أُجِدُوا بِمَا لَمْ يَسْتَحِقُّوا  
وَلَكِنْ ذَاذَةٌ وَقِرَاةٌ ضَيْفٍ      كَيْنَبُوعِ الصَّفَا حَشَنُوا وَرَقُّوا  
لَهُمْ جَبَلٌ أَشْمٌ لَهُ شَعَافٌ      مَوَارِدُ فِي السَّحَابِ الجُونِ بُلُوقُ  
لِكُلِّ لَبِوَةٍ وَلِكُلِّ شَيْبِلٍ      نِضَالٌ دُونَ غَابَتِهِ وَرَشَقُ  
كَأَنَّ مِنَ السَّمَوِّ فِيهِ شَيْئًا      فَكُلُّ جِهَاتِهِ شَرَفٌ وَخُلُقُ

قال: وإن إخوانكم الدروز هؤلاء لم يكونوا قبيلة شرٍّ، وإنهم لم يستحقوا النكال الذي أراد الفرنسييس أن يُنزله بهم، فالدروز في الحقيقة قوم كرام يعزون الضيف ويمنعون حماهم بالسيف، وهم يجمعون بين الرقة والخشونة، ففي حال السلم وعدم الاعتداء

عليهم تراهم أرقُّ الناس خُلُقًا وأكثرهم أدبًا وأخفّضهم جناحًا، فإذا اعتدى عليهم مُعْتَدٍ انقلَبَ كُلُّ منهم لِيثًا عاديًا، بعد أن كان حملًا وديعًا، وما أشبههم بالينبوع المنفجر من الصخر في الجمع بين الرقة والجمود. ولهم جبل أشمُّ له رعوسٌ كأنها موارد للسحاب، وهذه الرعوس تجمع بين البياض من صخورها، والسواد من السحب التي تترامك عليها؛ فلذلك هي بلق، وإذا اعتدى مُعْتَدٍ على الدروز وجدَّتْ كُلُّ امرأةٍ منهم أسدَةً تناضَلُ عن قومها، وكلُّ شابٍّ أسدًا يراشق عن قومه، وكأنما هو السموأل في وفائه، وشرف نفسه وحمية أنفه، مع سعة حلمه ورقة طبعه، فهو من كل الجهات شرف وحسن خلق.

قال شوقي في الدروز هذه الأبيات، وأحسن ما فيها أنه قال قولًا لم يُكره أحدٌ عليه؛ لأن الإجماع واقع على اتصاف بني معروف بهذه الخلال التي عرفها شوقي فيهم، إما من التاريخ، وإما في أثناء قدماته إلى الشام، وإما من الاثنين معًا.

ومما أذكره عن هذه الأبيات أنني لما قفلتُ من الحج الشريف، ووقفت أيامًا في السويس، وجاء أحمد شوقي رحمه الله يسلم عليّ في تلك البلدة، فيمنّ جاءوا من مصر للسلام عليّ، كان لا بد من أن نتذاكر الشُّعْرَ، فجزّتنا القافية إلى قصيدته الدمشقية هذه؛ لأن العالم العربي كله قام لها وقعد، وهلّل بها وكبّر، فلما وصلنا إلى الأبيات المختصّة بالدروز، قلتُ له: عندما بدأت بقولك: «لكل لبوءة ولكل شبل» خفت أن يكون جواب هذه الجملة «نضال عن مغارته ورشق». فقال لي: «وهي إيه». قلتُ له: «هي نضال دون غابته ورشق»، والغابة هي والمغارة كلتاها مأوى للأسد، ولكن الغابة أخفُّ وقعا على السمع، وأقرب إلى الأُنس.

هذا وقيل إن هذه القصيدة التي لم يقل فيها شوقي شيئًا سوى الحق كانت سببًا في غضب الفرنسيين على شوقي، وفي حرمانه زيارة المغرب؛ سمعتُ أنه استأذن الحكومة الإفريقية في هذه الزيارة، فأبّت عليه الإذن بها معتلةً عليه بقصيدته هذه، وقد حرمت عالم الأدب بمنعها شوقيًا من زيارة المغرب، بدائع آثار وبتائم أشعار كانت تسير في الأقطار، فلو رأى شوقي ذلك القطر العظيم بما فيه من آثار المدنيّة العربية البالغة حدّ التناهي في الفخامة ودقة الصنعة وسلامة الذوق، والتي هي نسج واحد مع حمراء غرناطة ومسجد قرطبة وقصر إشبيلية، وشاهد من بقايا حضارة الإسلام، ما حدّا الكاتبتين الإفريقيين الكبيرين جيروم وجان تارو أن يقولوا: إن الذي لم يشاهد مقبرة الملوك السعوديين في حاضرة مراكش لم يعلم إلى أية درجة تناهت المدنيّة الإسلامية في العالم، وكانت ولا شك قد استفزته تلك المناظر وهاتيك المساكن المتناسبة مع أهلها المأهولة بذلك الشعب المغربي

الكريم، وتلك الأمة الموصوفة بالعزة والمنعة من القديم، ما أنطقه بقوافٍ سائراتٍ في الأقطار وفاخرات باللائئ الكبار، لا سيما وهو شاعر الإسلام غير مدافع، وصناجة العرب غير منازع في هذا العصر.

## (٢٦) قصيدة شوقي في السلطان حسين

ولشوقي قصيدة في السلطان حسين كامل، يذكر فيها مفاخرَ عائلة محمد علي فيقول:

المُلْكُ فيكم آلَ إسماعيلًا      لا زالَ بيتُكم يُظِلُّ النِّيلًا  
لطفَ القضاءِ فلمْ يملِ لولِيكم      رُكناً ولم يشفِ الحسودَ غليلًا  
هذي أصولُكم وتلكَ فروعُكم      جاءَ الصميمُ من الصميمِ بديلاً

إلى أن يقول:

أأخونُ إسماعيلَ في أبنائه      ولقد وُلدتُ ببابِ إسماعيلًا  
ولبستُ نعمتهُ ونعمتهُ بيتهُ      فلبستُ جزلاً وارتديتُ جَميلًا  
ووجدتُ آبائي على صدقِ الهوى      وكفَى بأبَاءِ الرجالِ دَليلًا  
رؤيًّا علي يا حسينَ تأولتُ      ما أصدقَ الأحلامَ والتأويلًا  
القومُ حينَ دَهَى القضاءِ عقولهم      كَسَرُوا لأيديهم بمصرَ غُلولًا  
هدموا بوادي النيلِ رُكنَ سيادةٍ      لهم كُرُكنِ العنكبوتِ ضئيلًا

يقول: إن حلم محمد علي بجعل مصر مملكةً مستقلةً تمامَ الاستقلال عن السلطنة العثمانية قد تحقَّق هذه المرة، فلأترك حينما دخلوا في الحرب العامة ساقوا إنجلترا إلى إعلان فصل سيادتهم عن مصر، فكأنهم هم بأيديهم قطعوا روابطهم مع وادي النيل. ثم يقول:

يا أكرمَ الأعمامِ حسبك أن ترى      للعبرتين بوجنتيك مسيلًا  
من عثرةِ ابنِ أخيك تبيكي رحمةً      ومن الخشوعِ لمن حباك جزيلًا  
ولو استطعتُ إقالةً لعثارةٍ      من صدمةِ الأقدارِ كُنت مُقيلاً  
يا أهلَ مصرَ كلُّوا الأمورَ لرَبِّكم      فالحلُّ خيرٌ موئلاً ووَكيلًا  
جزتِ الأمورُ معَ القضاءِ لغايةٍ      وأقرَّها من يملك التحويلًا



أخذت عناناً منه غيرَ عنانِها      سبحانه متصرفاً ومُديلاً  
هل كان ذاك العهدُ إلا موقفاً      للسلطتين وللبلادِ وبَيْلاً

يقول للسلطان حسين إنك أكرم الأعمام، وحسبنا أننا نراك تبكي رحمةً على عثرة ابن أخيك الخديوي عباس، كما أنك تبكي من خوف الخضوع لمن أجلسوك على العرش، ولعمري لو استطعت أن تُعيدَ ابن أخيك إلى سريره لَفعلتَ ولأثرتَه على نفسك. ثم يقول لأهل مصر: دعوا التدبيرَ لله، فلقد كان العهد الماضي موقفاً لسلطتين متناقضتين، ولم يكن في ذلك خيرٌ للبلاد؛ يريد بالسلطتين السلطةَ الشرعية التي كانت للسلطان ووكيله الخديوي، والسلطةَ الفعلية التي كانت للإنجليز المحتلين.

### (٢٧) قصيدة شوقي في أبي الهول

وله في أبي الهول:

أبا الهول ماذا وراءَ البقاءِ      إذا ما تطاولَ غيرُ الضَّجَرِ  
عَجِبْتُ لِلْقَمَانِ فِي حِرْصِهِ      على لُبْدٍ والنُّسُورِ الأُخْرِ  
وشكوى لُبِيدٍ لِطُولِ الحِياةِ      ولو لم تَطُلْ لَتَشَكَّى القِصرِ  
ولو وُجِدْتَ فِيكَ يَا بَنَ الصَّفَاةِ      لَحَقَّتْ بِصانِعِكَ المُقتدِرِ  
فإنَّ الحِياةَ تَفُلُّ الحَديدَ      إذا لَبِسْتَهُ وَتُبَلِي الحَجَرِ

يقول إن بقاءك يا أبا الهول إلى اليوم إنما هو لأَنَّك لستَ حياً، فلو كنتَ حياً لَلحقتَ بالذين نحتوك؛ لأنَّ الحِياةَ ما لبستَ كائناً إلا أبلتَه ولو كان حديداً.

وقال:

أبا الهول وَيَحَكَ لا يُستَقَلُّ      مع الدهرِ شيءٌ ولا يُحتَقَرُ  
تهزَّتْ دَهراً بِديكَ الصَّباحِ      فنَقَرَ عَيْنِيكَ فيما نَقَرَ  
أَسالَ البِياضِ وَسلَّ السَّوادِ      وَأَوغَلَ مِنْقارَهُ في الحُفَرِ  
فعدتَ كأنَّكَ ذُو المَحْبِسِينَ      قَطِيعَ القِيامِ سَلِيبَ البَصَرِ  
كأنَّ الرمالَ على جانِبَيْكَ      وبينَ يَدَيْكَ ذُنُوبُ البَشَرِ  
كأنَّكَ فيها لِواءُ القَضاءِ      على الأرضِ أو دِيدانِ القَدَرِ

أبا الهول أنت نديمُ الزمانِ  
 بسطت ذراعَيْك من آدمِ  
 تطلُّ على عالمِ يستهلهُ  
 فعينُ إلى من بدأ للوجودِ  
 فحدثُ فقد يهتدي بالحديثِ  
 ألم تبلُ فرعونَ في عزه  
 وأبصرت إسكندرا في الملا  
 وشاهدت قيصرَ كيف استبدَّ  
 وكيف تجبَّر أعوانه  
 وكيف ابتلوا بقليلِ العديدي  
 رمى تاجَ قيصرِ رمي الزجاجِ  
 فدع كلَّ طاغية للزمانِ  
 نجى الأوان سميْرُ العُصُرِ  
 ووليت وجهك شطرَ الزمُرِ  
 وتوفي على عالمِ يحترُصُ  
 وأخرى مشيعةً من غبرِ  
 وخبرُ فقد يؤتسى بالخبرِ  
 إلى الشمسِ مُعتزياً والقمرِ  
 قشيبَ الغلا في الشبابِ النَّصِرِ  
 وكيف أذلَّ بمصرَ القصرِ  
 وساقوا الخلائقَ سوقَ الحُمُرِ  
 من الفاتحينِ كريمِ النَّفَرِ  
 وفلَّ الجموعَ وتلَّ السُّرَرِ  
 فإنَّ الزَّمانَ يُقيم الصَّعَرِ

يقول لأبي الهول: لا يحتقر شيء مع الدهر، ألا ترى أنك أنت عندما هزأت بديك الصباح؛ أي الزمن الذي لا يخلو من ديك يصيح باكراً، جاء هذا الزمن فنقر عينك فعدت كأنك أبو العلاء المعري. ثم يقول له: إنك من على عنق الدهر باسط ذراعيك تنظر إلى الناس، تودع الغابر من الأمم وتستقبل القادم، فحدثنا عما رأيت فإنك تاريخ عام. ثم أخذ شوقي يسرد الوقائع التاريخية التي مرّت على مصر، وما قيل في أبي الهول شيء من الشعر يداني هذه القصيدة.

## (٢٨) شعر شوقي في الأزهر

ولشوقي قصيدة في الأزهر مطلعها:

فم في فم الدنيا وحى الأزهرًا  
 واخشع ملياً واقض حق أئمة  
 لا تحذ حذو عصابة مفتونة  
 ولو استطاعوا في المجامع أنكروا  
 من كل ماض في القديم وهدمه  
 وأتى الحضارة بالصناعة رثة  
 وانثر على سمع الزمان الجوهراً  
 طلعوا به زهراً وماجوا أبحراً  
 يجدون كل قديم شيء منكرًا  
 من مات من آباؤهم أو عمراً  
 وإذا تقدم للبناية قصراً  
 والعلم نزا والبيان مثريراً

يخاطبُ نفسه قائلاً: قُمْ وَحَيِّ هَذَا الْمَعَهَدَ الْعِلْمِي الْأَكْبَرَ وَاخْشَعْ لَهُ، وَاقْضِ حَقُوقَ الْأُتَمَّةِ الْأَبْحَرِ الَّذِينَ مَاجُوا فِيهِ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ، وَلَا تَكُنْ كَأَوْلَتِكَ الْمَفْتُونِينَ الَّذِينَ يَنْكُرُونَ كُلَّ قَدِيمٍ، وَلَوْ اسْتَطَاعُوا لِأَنْكُرُوا آبَاءَهُمْ، وَهَمُّ مِنْ شِدَّةِ رَغْبَتِهِمْ فِي الْهَدْمِ وَكُونِهِمْ فِرْسَانًا فِي التَّخْرِيبِ، نَجِدُهُمْ رَاجِلِينَ فِي الْبِنَاءِ؛ فَإِذَا دَعَوْتَ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ إِلَى صِنَاعَةٍ لَمْ يُحْسِنِهَا، أَوْ إِلَى عِلْمٍ لَمْ يَأْتِ بِشَيْءٍ مِنْهُ، أَوْ إِلَى بَيَانٍ مَا جَاءَ إِلَّا بِالثَّرْتَرَةِ. ثُمَّ يَقُولُ: إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ مَمَّنْ تَخْرُجُوا فِي الْأَزْهَرِ، فَإِنِّي لَا أَقْصِرُ دُونَ غَايَاتِ الْبَيَانِ، وَإِنْ إِصْلَاحَ الْأَزْهَرِ لِيَهْمُنِي كَمَسْلَمٍ؛ وَلِذَا قَمْتُ مَهْنَتًا بِهَذَا الْإِصْلَاحِ بِاسْمِ الْحَنِيفَةِ.

وَعَلَى كَوَاكِبِهِ تَعَلَّمْتُ السَّرَى	مَا ضَرَّنِي أَنْ لَيْسَ أَفُكَّكَ مَطَّلَعِي
أَكْ دُونَ غَايَاتِ الْبَيَانِ مُقْصِرًا	لَا وَالَّذِي وَكَّلَ الْبَيَانَ إِلَيْكَ لَمْ
بِاسْمِ الْحَنِيفَةِ بِالْمَزِيدِ مُبَشِّرًا	لَمَا جَرَى الْإِصْلَاحُ قُمْتُ مُهْنَتًا
وَزَهَا الْمُصَلَّى وَاسْتَحَفَّ الْمِنْبَرَا	نَبَأُ سَرَى فَكَسَا الْمَنَارَةَ حَبْرَةً

يَأْتِي زَهَا لَزَمًا وَمَتَعِدِيًا.

فَرَعَ الثُّرَيَّا وَهِيَ فِي أَصْلِ الثُّرَى	وَسَمَا بِأَرْوَقَةِ الْهُدَى فَأَحَلَّهَا
حَلَقًا كَهَالَاتِ السَّمَاءِ مُنَوَّرًا	وَمَشَى إِلَى الْحَلَقَاتِ فَاَنْفَرَجَتْ لَهُ
وَأَبَا حَنِيفَةَ وَابْنَ حَنْبَلٍ حَضْرًا	حَتَّى ظَنَّنَا الشَّافِعِيَّ وَمَالِكًا

كَيْفَ يَتَغْنَى بِوَصْفِ الْأَزْهَرِ وَلَا يَذْكَرُ الْمَصْلَى وَالْمَنَارَةَ وَالْمِنْبَرَ، وَلَا يُشِيرُ إِلَى الْأَرْوَقَةِ وَإِلَى حَلَقَاتِ الدَّرُوسِ، وَلَا يَذْكَرُ أُتَمَّةَ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ؛ إِنَّهُ لَشَاعِرٌ لَا يُؤْتِي مِنْ جِهَةٍ فِي فَنِّهِ.

### (٢٩) قَصِيدَةُ شَوْقِي فِي الرَّحَالَةِ حَسَنِينَ

وَلَهُ مِنْ قَصِيدَةٍ عَنِ الرَّحَالَةِ الْمَصْرِيِّ مُحَمَّدِ حَسَنِينَ بَكَ، وَصَفَ فِيهَا رِحْلَتَهُ الشَّاقَةَ فِي صَحْرَاءِ لِيْبِيَا، جَاءَ فِيهَا:

كَلَّتَاهُمَا فِي مَفَاجِئِ الْفَتَى شَرَعُ	كَمْ فِي الْحَيَاةِ مِنَ الصَّحْرَاءِ مِنْ شَيْءٍ
لَا تَعْلَمُ النَّفْسُ مَا يَأْتِي وَمَا يَدْعُ	وَرَاءَ كُلِّ سَبِيلٍ فِيهِمَا قَدْرٌ

أَيُّ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ هِيَ كَالصَّحْرَاءِ، فِي كُلِّ دَقِيقَةٍ يَجُوزُ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ قَدْرٌ لَا يَتَوَقَّعُهُ.

فَلَسْتَ تَدْرِي وَإِنْ كُنْتَ الْحَرِيصَ مَتَى      تَهْبُ رِيحَاهُمَا أَوْ يَطْلُعُ السَّبْعُ  
وَلَسْتَ تَأْمَنُ عِنْدَ الصَّحْوِ فَاجِئَةً      مَنِ الْعَوَاصِفِ فِيهَا الْخَوْفُ وَالْهَلْعُ  
وَلَسْتَ تَدْرِي وَإِنْ قَدَّرْتَ مُجْتَهِدًا      مَتَى تَشْدُ رِحَالًا أَوْ مَتَى تَضَعُ  
وَلَسْتَ تَمْلِكُ مِنْ أَمْرِ الدَّلِيلِ سِوَى      أَنْ الدَّلِيلَ وَإِنْ أَرَدَاكَ مُتَّبِعُ  
وَمَا الْحَيَاةُ إِذَا أَظْمَتَتْ وَإِنْ خَدَعَتْ      إِلَّا سِرَابٌ عَلَى صَحْرَاءٍ يَلْتَمِعُ

ما نَحَتَ شاعرٌ من مقاطع التشبيه أَدَعَّ من هذه التشابيه التي وجدها شوقي بين الصحراء والحياة، كلُّ منهما لا يدري السائر فيها متى تهب عواصفها ومتى تسكن، ومتى يطلع فيها السبع ومتى يختفي، ومتى يشد السائر الرحل أو متى يضعه، وإنه إذا اتبع دليلًا فهو رهن معرفة الدليل لا مناص له من اتباعه وإن أداه إلى الهلاك، وإنه يلوح في كلِّ منهما بريقُ الأمل، فإذا به خلب وإذا الشراب سراب. ثم يمتدح همّة الرّحالة حسنين فيقول:

أَكْبَرْتُ مِنْ حَسَنِينَ هَمَّةً طَمَحَتْ      تَرُومَ مَا لَا يَرُومُ الْفِتْيَةَ الْقُنْعُ  
وَمَا الْبَطُولَةُ إِلَّا النَّفْسُ تَدْفَعُهَا      فِيمَا يُبَلِّغُهَا حَمْدًا فَتَنْدَفِعُ  
وَلَا يُبَالِي لَهَا أَهْلٌ إِذَا وَصَلُوا      طَاحُوا عَلَى جَنَابَاتِ الْحَمْدِ أَمْ رَجَعُوا

قال إن الدافع الذي يجعل من الإنسان بطلاً هو أنه يطمح إلى ما لا يطمح القانعون، وأن نفسه تسمو به إلى ما يبلغها المجد، زهبت في سبيل المجد أم رجعت سالمة. ثم هو يسأل حسنين عمّا رأى في تلك الصحاري، وعن أهلها الذين لم يزالوا على الفطرة من عهد آدم، والذين اهتدى إليهم الإسلام في فيا فيهم المنقطعة، واهتدوا به وأصبحوا مصليين صائمين، فقال:

رَحَالَةَ الشَّرْقِ إِنَّ الْبَيْدَ قَدْ عَلِمَتْ      بِأَنَّ اللَّيْثَ لَمْ يُخْلَقْ لَهُ الْفَرْعُ  
مَاذَا لَقِيَتْ مِنَ الدَّوِّ السَّحِيقِ وَمِنْ      قَفْرِ يَضِيقُ عَلَى السَّارِي وَيَتَّسِعُ  
وَهَلْ مَرَّرْتَ بِأَقْوَامٍ كَفَطَرْتَهُمْ      مِنْ عَهْدِ آدَمَ لَا خَبْثٌ وَلَا طَبْعُ  
وَمِنْ عَجِيبٍ لِغَيْرِ اللَّهِ مَا سَجَدُوا      عَلَى الْفَلَا وَلِغَيْرِ اللَّهِ مَا رَكَعُوا

ما النافية لا يتقدّمها شيء ممّا في حيزها، خلافاً للكوفيين ونحو قول الشاعر:

إِذَا هِيَ قَامَتْ حَاسِرًا مَشْمَعْلَةً      نَخِيبُ الْفُؤَادِ رَأْسَهَا مَا تَقْنَعُ

مع شذوذه محتَمِلٌ للتأويل:

كَيْفَ اهْتَدَى لَهُمُ الْإِسْلَامُ وَانْتَقَلَتْ  
جِزَّتُكَ مِصْرَ ثَنَاءً أَنْتَ مَوْضِعُهُ  
إِلَيْهِمُ الصَّلَوَاتُ الْحَمْسُ وَالْجُمُعُ  
وَلَوْ جِزَّتْكَ الصَّحَارِيُّ جِئْتَنَا مَلِكًا  
فَلَا تَدُبُّ مِنْ حَيَاءٍ حِينَ تَسْتَمِعُ  
مِنَ الْمُلُوكِ عَلَيْكَ الرَّيْشُ وَالْوَدْعُ

أي ملكًا من ملوك أواسط إفريقية، الذين عنوان الملك عندهم الريش والودع.

### (٣٠) قصيدة له في حفلة تكريم

ومما أجبُ أن أنوهُ به من شعر شوقي قصيدته في تكريم الإخوان: عبد الملك بك حمزة، وإسماعيل بك كامل، وعض بك البراوي، بعد رجوعهم إلى مصر من الغربية التي اغتربوها أثناء الحرب العامة، فإن شعر شوقي فيهم يعبر عن شعور كثيرين، وراقم هذه الأسطر منهم أو في طليعتهم؛ قال:

وطني يَرْفُ هَوَى إِلَى شَبَّانِهِ  
هُم نَظْمٌ حَلِيَّتِهِ وَجَوْهَرُ عَقْدِهِ  
يَرْجُو الرِّبِيعَ بِهِمْ وَيَأْمَلُ دَوْلَةَ  
مَنْ غَابَ مِنْهُمْ لَمْ يَغِبْ عَنْ سَمْعِهِ  
وَإِذَا أَتَاهُ مُبَشِّرٌ بِقُدُومِهِمْ  
وَلَقَدْ يَخْصُ النَّافِعِينَ بِعَطْفِهِ  
هِيَ هَاتَ يَنْسَى بَدْلَهُمْ أَرْوَاحَهُمْ  
وَقَفُوا لَهُ دُونَ الزَّمَانِ وَرَيْبِهِ  
فِي شِدَّةٍ نَقَلْتُ أَنَاةً كُهُولِهِ  
كَالرَّوِضِ رَقَّتْهُ عَلَى رِيحَانِهِ  
وَالْعِقْدُ قِيمَتُهُ يَتِيمٌ جُمَانِهِ  
مِنْ حُسْنِهِ وَمِنْ اعْتِدَالِ زَمَانِهِ  
وَضَمِيرِهِ وَفَوَادِهِ وَلِسَانِهِ  
فَمَنْ الْقَمِيصِ وَمَنْ شَذَا أُرْدَانِهِ  
كَالشَّيْخِ خَصَّ نَجِيْبِهِ بِحَنَانِهِ  
فِي حَفْظِ رَاحَتِهِ وَجَلْبِ أَمَانِهِ  
وَمَشَتْ حَدَاتُهُمْ عَلَى حَدَثَانِهِ  
فِيهَا وَحَكَمْتُهُمْ إِلَى فِتْيَانِهِ

هذا البيت الأخير معنًى مطروق كثيرًا، ومما أتذكره منه قول الشيخ ناصيف اليازجي شاعر سورية في وقته في الأرسلايين:

فِتْيَانُهُمْ فِي الْعَقْلِ مِثْلُ شَيْوَجِهِمْ  
وَشَيْوَجُهُمْ فِي الْبَأْسِ كَالْفِتْيَانِ

ثم قال:

فُم يَا خَطِيبَ الْجَمْعِ هَاتِ مِنَ الْهَلِيِّ  
 نَادِ الشَّبَابِ فَلَمْ يَزَلْ لَكَ نَادِيًا  
 أَلَّقِ النَّصِيحَةَ غَيْرَ هَائِبٍ وَقَعِهَا  
 قُلْ لِلشَّبَابِ زَمَانُكُمْ مُتَحَرِّكٌ  
 مَا كُنْتَ تَنْتَرُهُ عَلَى آذَانِهِ  
 وَالْمَرْءُ ذُو أَنْرٍ عَلَى أَخْدَانِهِ  
 لَيْسَ الشَّجَاعُ الرَّأْيِي مِثْلَ جَبَانِهِ  
 هَلْ تَأْخُذُونَ الْقِسْطَ مِنْ دَوْرَانِهِ؟

وقد صادف الاحتفال بتكريم هؤلاء المجاهدين الثلاثة أيام الأزمة المالية في مصر وسقوط أسعار القطن، فقال شوقي:

يَا مَنْ لَشَعْبٍ رُزُوهُ فِي مَالِهِ  
 الْمَلِكُ كَانَ وَلَمْ يَكُنْ قُطْنٌ فَلَمْ  
 الْفَاطِمِيَّةُ شُيِّدَتْ مِنْ عِزِّهِ  
 بِالْقُطْنِ لَمْ يَرْفَعِ قَوَاعِدَ مُلْكِهِ  
 لَكِنْ بِأَوَّلِ زَارِعِ نَفْصِ الثَّرَى  
 وَبِكُلِّ مُحْسِنِ صَنْعَةٍ فِي دَهْرِهِ  
 وَبِهَمَّةٍ فِي كُلِّ نَفْسٍ حَلَّقَتْ  
 مَلِكٌ مِنَ الْأَخْلَاقِ كَانَ بِنَاؤُهُ  
 أَنْسَاهُ نَكَرَ مُصَابِهِ بِكِيَانِهِ  
 يُغْلِبُ أَبَوْتَنَا عَلَى عُمْرَانِهِ  
 وَبَنَى بَنُو أَيُوبَ مِنْ سُلْطَانِهِ  
 فَرَعُونَ وَالْهَرَمَانَ مِنْ بُنْيَانِهِ  
 بِذَكَائِهِ وَأَثَارِهِ بِبِنَانِهِ  
 تَتَعَجَّبُ الْأَجْيَالُ مِنْ إِتْقَانِهِ  
 فِي الْجَوِّ وَارْتَفَعَتْ عَلَى كِيَوَانِهِ  
 مِنْ نَحْتِ أَوْلِكُمْ وَمِنْ صَوَانِهِ

(٣١) ما قاله يوم أطلق أحدُ الشَّبَابِ المِفْتُونِينَ الرِّصَاصَ

على سعد زغلول

وقال في الزعيم الأكبر سعد باشا زغلول عندما أطلق عليه الرصاص أحدُ الشَّبَابِ، فأنجى الله سعدًا ووقى مصر شرًّا مستطيرًا:

نَجَا وَتَمَاتَلْ رَبَّانُهَا  
 وَهَلَّلَ فِي الْجَوِّ قَيْدُومُهَا  
 تَحَوَّلَ عَنْهَا الْأَدَى وَانْتَنَى  
 نَجَا نُوْحُهَا مِنْ يَدِ الْمُعْتَدِي  
 فِيَا سَعْدٌ جُرْحُكَ سَاءَ الرِّجَالِ  
 وَدَقَّ الْبَشَائِرَ رُكْبَانُهَا  
 وَكَبَّرَ فِي الْمَاءِ سَكَّانُهَا  
 عُيَابُ الْخَطُوبِ وَطُوفَانُهَا  
 وَضَلَّ الْمَقَاتِلَ عُدْوَانُهَا  
 فَلَا جُرْحَتْ فِيكَ أَوْطَانُهَا

وَقَتَّكَ الْعِنَايَةَ بِالرَّاحَتَيْنِ	وَطَوَّقَ جِيدَكَ إِحْسَانُهَا
رَمَاكَ عَلَى غِرَّةٍ يَافِعُ	مُثَارُ السَّرِيرَةِ غَضْبَانُهَا
وَقَدِمَا أَحَاطَتْ بِأَهْلِ الْأُمُورِ	مُيُولُ النُّفُوسِ وَأَضْغَانُهَا
تَلَمَّسَ نَفْسَكَ بَيْنَ الصُّفُوفِ	وَمَنْ دُونَ نَفْسِكَ إِيْمَانُهَا
يَرِيدُ الْأُمُورَ كَمَا شَاءَهَا	وَتَأْبَى الْأُمُورَ وَسُلْطَانُهَا
وَعِنْدَ الَّذِي قَهَرَ الْقَيْصَرَيْنِ	مَصِيرُ الْأُمُورِ وَأَحْيَانُهَا
أَرَى مِصْرَ يَلْهُو بِحَدِّ السَّلَاحِ	وَيَلْعَبُ بِالنَّارِ وُلْدَانُهَا
وَرَاخَ بغيرِ مَجَالِ الْعُقُولِ	يُجِيلُ السِّيَاسَةَ غُلْمَانُهَا
وَمَا الْقَتْلُ تَحْيَا عَلَيْهِ الْبِلَادُ	وَلَا هِمَّةُ الْقَوْلِ عُمَرَانُهَا
وَلَا الْحُكْمُ أَنْ تَنْقُضِي دَوْلَةَ	وَتُقْبِلِ أُخْرَى وَأَعْوَانُهَا
وَلَكِنْ عَلَى الْجَيْشِ تَقْوَى الْبِلَادُ	وَبِالْعِلْمِ تَشْتَدُّ أَرْكَانُهَا

وهذا ما قلناه دائماً، وما قد انتهت إليه مصر بهذه المعاهدة الأخيرة مع الإنكليز، فليكن لمصر الجيش المهيب، فكلُّ شيء يتسق بعد ذلك.

فَأَيْنَ النَّبُوغُ وَأَيْنَ الْعُلُومُ	وَأَيْنَ الْفُنُونُ وَإِتْقَانُهَا؟
وَأَيْنَ مِنَ الْخَلْقِ حَظُّ الْبِلَادِ	إِذَا قَتَلَ الشَّيْبُ شَبَابُهَا؟

وفي هذه القصيدة كلام عن ضرورة السودان لمصر يجدر أن نأثره، ويجب على كل مصري أن يحفظه عن ظهر قلبه، ولقد أراد الله بفضل خصام إنكلترة مع إيطاليا في هذه السنة أن يعود المصريون إلى السودان، فليبشر شوقي في قبره.

وَيَا سَعْدُ أَنْتَ أَمِينُ الْبِلَادِ	قَدْ امْتَلَأَتْ مِنْكَ أَيْمَانُهَا
وَلَنْ نَرْتَضِيَ أَنْ تَقْدَّ الْقَنَاةُ	وَيُبْتَرَّ مِنْ مِصْرَ سُودَانُهَا

أي لن نرضى أن تُفصل قناة السويس عن مصر، ولا أن يُبتَرَّ عنها السودان.

وَحُجَّتْنَا فِيهِمَا كَالصَّبَاحِ	وَلَيْسَ بِمُعْيِكَ تَبْيَانُهَا
فَمِصْرُ الرِّيَاضِ وَسُودَانُهَا	عُيُونُ الرِّيَاضِ وَخُلْجَانُهَا
وَمَا هُوَ مَاءٌ وَلَكِنَّهُ	وَرِيدُ الْحَيَاةِ وَشِرْيَانُهَا

تَتَمُّمُ مِصْرَ يَنَابِيعُهُ      كَمَا تَمَّمَ الْعَيْنَ إِنْسَانُهَا  
وَأَهْلُوهُ مِنْذُ جَرَى عَذْبُهُ      عَشِيرَةٌ مِصْرَ وَجِيرَانُهَا  
وَأَمَّا الشَّرِيكَ فَعِلَاتُهُ      هِيَ الشَّرِكَاتُ وَأَقْطَانُهَا

يريد بالشريك إنجلترا، وأنها تريد فصل السودان عن مصر لمشروعاتها الزراعية، وأنا أقول ليس للقطن فقط يقصد الإنجليز الاستيلاء على السودان، ولكن ليجعلوا لجام مصر دائماً في قبضة أيديهم؛ فإن مصر هي النيل، وإذا كان النيل بيد الإنجليز فكيف تخرج عن إرادتهم مصر. ثم قال:

وَحَرْبُ مَضَتْ نَحْنُ أَوْزَارُهَا      وَخَيْلٌ خَلَّتْ نَحْنُ فُرْسَانُهَا

أي باشروا حرباً كنا نحن أسلحتنا، على خيلٍ كنا نحن فرسانها، ولكن ليكون الملك لهم.

وَكَمْ مَن أَتَاكَ بِمَجْمُوعَةٍ      مِّنَ الْبَاطِلِ الْحَقُّ عُنْوَانُهَا  
فَأَيُّ مِّنَ «الْمَنْشِ» بَحْرُ الْعَزَالِ      وَقَيْضُ «نِيَانِزَا» وَتَهْتَانُهَا  
وَأَيْنَ التَّمَاسِيحُ مِنْ لُجَّةِ      يَمُوتُ مِنَ الْبَرِّ حَيْتَانُهَا  
وَلَكِنْ رُءُوسٌ لِأَمْوَالِهِمْ      يَحْرُكُ قَرْنَيْهِ شَيْطَانُهَا  
وَدَعَا الْقَوِيَّ كَدَعَا السَّبَّاحِ      مِنَ النَّابِ وَالظُّفْرِ بُرْهَانُهَا

أي أين بلاد الإنجليز من السودان، وما الصلة بين المانش وبحر الغزال، والحال هي كقول القائل:

سَهْمٌ أَصَابَ وَرَامِيهِ بِذِي سَلْمٍ      مَن فِي الْعِرَاقِ لَقَدْ أْبَعَدَتْ مَرَمَاكَ

ولكن دعوى القوي على الضعيف كدعوى الضواري المفترسة، براهينها من النيوب وأدلتها من الأظفار، لا ترجع إلى قوة المنطق، بل إلى شهوة الافتراس والجشع في الأكل.

### (٣٢) قصيدة شوقي عن الكائنة البلقانية وحواس تاريخية للمؤلف

ومن كلمات شوقي التي تقصر عن وصفها الكلم، وشوارده التي يسهر الخلق جراها ويختصم، قصيدته في الحرب البلقانية، وهي التي يسميها بالأندلس الجديدة؛ فقد نظمها



وفي قلوب المسلمين نارُ الله الموقدة، مما جرى على الإسلام في حرب البلقان؛ فطاشت لذلك العقول وطارَت الأفئدة، وكان نصيب شاعر الإسلام من تلك الفادحة بقدر رقة شعوره ورهافة حسه وسهمه من الالتياح على ما حلَّ بمسلمي البلقان، على نسبة شفوف طبعه ونفاسة نفسه، فقال وأرسلها للقرون والأجيال، وناطها بالأيام والليال:

يا أخت أندلسٍ عليك سلامٌ      هَوَتِ الخِلافةُ عنكِ والإسلامُ  
نَزَلَ الهلالُ عَنِ السَّماءِ فَلَيْتَها      طُوِيَتْ وَعَمَّ العالمينَ ظَلامُ  
أَزْرَى به وَأزَالَه عَن أوجِه      قَدَرُ يَحُطُّ البدرَ وَهُوَ تَمَامُ

يودّع بلاد الروملي ويقول: أصابك ما أصاب أختك الأندلس من قبل، ونزل الهلال فيك عن سمائه، يريد بالهلال الراية العثمانية التي نزلت في تلك البلاد عن عليائها بحكم قدر ينقص البدر بعد تمامه، كأنه يقول: إذا تمَّ شيءٌ بدأ نقصه، وكأنه يشير إلى قول القائل:

وإنَّ البدرَ أوَّلُه هِلالٌ      وآخِرُه يَعُودُ إلى الهِلالِ

ثم يقول:

جُرْحانَ تَمْضي الأُمَّتانِ عليهما      هذا يَسيلُ وَذاك لا يَلْتامُ  
بِكمَا أُصِيبَ المسلمونَ وَفيكمَا      دُفِنَ اليَراعُ وَغُيِبَ الصَّمْصامُ  
لَمْ يُطَوِّ مَأْتَمُها وَهذا مَأْتَمٌ      لَبِسوا السِوادَ عَلَيبِ فيه وَقامُوا  
ما بَينَ مَصْرَعِها وَمَصْرَعِكَ انْقَضَتْ      فيما نَحِبٌ وَنَكَرَهُ الأيامُ  
خَلَّتِ القُرُونُ كَلِيلَةَ وَتَصَرَّمَتْ      دُولُ الفِتاحِ كَأَنَّها أَحلامُ  
والدَّهْرُ لا يَألُو المَمالِكِ مُنْذِرًا      فَإِذا غَفَلَنَ فِما عَلَيبِ مَلامُ

يقول: إن جرح الأندلس لما يلتئم، ولا يزال في قلوب العرب منه نزيز، وإذا بجرح البلقان بدأ يسيل وقد أدمى قلوب الترك، وإن كلاً من الأمتين لمنكوبة بكل من هاتين الكائنتين اللتين دفن القلم والسيف فيهما، وهذه المئات الأربع من السنين التي مضت بين مآتم الأندلس ومآتم البلقان، كانت فيها الأيام تجري تارةً فيما نحب، وطوراً فيما نكره، يشير بقوله فيما نحب إلى فتوحات آل عثمان في بلاد البلقان حتى انتهوا إلى المجر

وبولونيا، وحصروا فينا ولولا قليل لفتحوها، وفي قوله فيما نكره إلى الجزر الذي عقب ذلك المد والمصائب التي نزلت بالإسلام في السنين الأخيرة، حتى انقضت أيام تلك الفتوحات كأنها لم تكن. وقد كانت هذه المثلاث تفرع المسلمين حتى ينتهوا لشئونهم وينهضوا كما نهض غيرهم، فلبثوا يغطون في نومهم، وتركوا الحبل على الغارب؛ فليس على الدهر ملام إذا كانوا هم لبتوا غافلين عن شأنهم. ثم يقول:

مَقْدُونِيَا وَالْمُسْلِمُونَ عَشِيرَةٌ أَتْرَيْنَهُمْ هَانُوا وَكَانَ بَعْرَهُمْ إِذْ أَنْتِ نَابُ اللَّيْثِ كُلِّ كَتَيْبَةٍ مَا زَالَتِ الْأَيَّامُ حَتَّى بُدِّلْتُ أَرَأَيْتِ كَيْفَ أُدِيلُ مِنَ أَسَدِ الشَّرَى رَعْمُوكِ هَمًّا لِلْخِلَافَةِ نَاصِبًا وَيَقُولُ قَوْمٌ كُنْتُ أَشْأَمَ مَوْرِدٍ وَيَرَاكَ دَاءَ الْمَلِكِ نَاسٌ جَهَالَةً لَوْ آثَرُوا الْإِصْلَاحَ كُنْتُ لِعَرْشِهِمْ وَهُمْ يُقَيِّدُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِهِ صُورَ الْعَمَى شَتَّى وَأَقْبَحَهَا إِذَا وَلَقَدْ يُقَامُ مِنَ السِّيُوفِ وَلَيْسَ مِنْ	كَيْفَ الْخُثُولَةُ فِيكَ وَالْأَعْمَامُ وَعُلُوُّهُمْ يَتَخَايَلُ الْإِسْلَامُ طَلَعَتْ عَلَيْكَ فَرِيْسَةٌ وَطَعَامُ وَتَغَيَّرَ السَّاقِي وَحَالَ الْجَامُ وَشَهِدَتْ كَيْفَ أَبِيحَتِ الْأَجَامُ وَهَلِ الْمَمَالِكُ رَاحَةٌ وَمَنَامُ؟ وَأَرَاكَ سَائِغَةً عَلَيْكَ زِحَامُ بِالْمُلْكِ مِنْهُمْ عِلَّةٌ وَسَقَامُ رُكْنَا عَلَى هَامِ النُّجُومِ يُقَامُ وَقِيُودُ هَذَا الْعَالَمِ الْأَوْهَامُ نَظَرْتُ بِغَيْرِ عُيُونِهِنَّ الْهَامُ عَثْرَاتِ أَخْلَاقِ الشُّعُوبِ قِيَامُ
---	--

يقول: أي مقدونية — مقدونية هي قسم مما يسميه الأتراك بالروملي، والروملي عبارة عن القسم الأمامي من شبه جزيرة البلقان، كان يحتوي على ست ولايات عثمانية، هي: أدرنة، وسلانيك، ومانستر، وقوصوه، وأشقودره، ويانيا، والولايات الثلاث الأخيرة هي بلاد الأرناؤوط — يسأل عنك المسلمون لأنهم مهما تنوعت أجناسهم فهم عشيرة واحدة، فإذا سألو عنك فإنما يسألون عن أحوالهم وأعمامهم، أترينهم نلوا بعد ذلك العز؟ وبعد أن كانت كل كتيبة تطلع عليهم تعود فريسة لهم؟ نعم، قد تحوّلت الأيام وسقيت بغير الكأس التي كنت تشربين بها، وأدبل من الآساد واستباح الأعداء أجامها القديمة، وزعم بعض الناس أن وجودك يا مقدونية كان على الخلافة مشئومًا، وأنه كان همًا ناصبًا، وهل الممالك تكون للراحة وتدار بدون تعب؟ وإذا كنت موردًا وبيتًا فلماذا تتزاحم عليك الدول؟ إن الذين يرون هذا الرأي إنما هم قوم جهالة، كانوا علة في جسم هذه السلطنة العثمانية،

وبدلاً من أن يدلوا بهذه الأقوال الدنيئة كان عليهم أن يصلحوا الإدارة في الروملي، فكانت تكون لهم ركنًا عاليًا وحصنًا حصينًا، ولكن هؤلاء الضالين يبتون هذه الأوهام في الناس، فيأخذها بعض الناس عن بعض، ويلوكونها بألسنتهم بدون تدبُّر، وللعمرى صور شتَّى، وإنها قد تعمى الأبصارُ ولكن تعمى أكثر منها القلوب التي في الصدور. وإنه قد ينهض الشعب من بعد الهزيمة، وقد تعود بقية السيف إلى النمو، ولكن المصيبة التي لا نهوض منها ولا إقالة لها هي عثرة الأخلاق وانحطاط الهمم.

قلتُ: حالف المنطق أقوالَ شوقي في جميع مصادره وموارده، ولولا ذلك لم يكن شاعرَ هذا العصرِ بالاتفاق؛ فبلاد البلقان كانت الحصن الحصين للدولة العثمانية، وكانت تستورد منها خزانة السلطنة أعظم دخلها، لا سيما القسم الذي ذهب على إثر الحرب الروسية العثمانية، وهو ولايات الطونة، وهي اليوم بلاد البلغار وقسم من رومانيا. وكان وجود الروملي في يد الدولة واقياً للأناضول نفسه؛ أي كانت أوروبا العثمانية مجنناً لأسية العثمانية، وما كان على أولئك المعارضين بدلاً من اعتراضاتهم وتهوينهم أمر زهاب الروملي إلا أن يهبوا لإصلاح إدارتها، وينشدوا وسائل استبقائها؛ لأنه شرط ضروري لحماية السلطنة. وجعل عاصمتها إسطنبول التي هي مركز لا نظيرَ له في العالم وسطاً في المملكة لا طرفاً لها، أفلا ترى أنها بعد أن زهبت الروملي صارت من ثغور المملكة، ولم يَبْقَ بينها وبين العدو إلا مسافة ساعات معدودات، فتذكّر الإنسان في أمرها قولَ الشاعر، وهو بيت قديم:

كانتُ هي الوسطَ المحميَّ فانتَقَصَتْ      منها الحوادثُ حتى أصبَحَتْ طرفاً

فالأستانة التي كانت وسطاً محمياً قبل زهاب الولايات البلقانية من يد الدولة، أصبحت طرفاً يكاد يكون عورةً لقرْب العدو منها وسهولة غارته عليها، وقد شاهدنا ذلك بأعيننا أيام الحرب البلقانية، وكنتُ أنا نفسي في الأستانة فكنتُ نسمع فيها أصوات المدافع من شطلجة؛ حيث كان الجيش البلغاري يحاول دخول الأستانة، ولأياً في ذلك اليوم قدر الأتراك أن يدحروا البلغار إلى الوراء، وهي الواقعة الوحيدة التي وُفِّقوا فيها من حرب البلقان، ولولاها لاستولى البلقانيون على عاصمة آل عثمان. فقول مَنْ قال إن الروملي كانت للدولة همماً ناصباً هو ضلال مبين، ورأي مَنْ لا يريد التعب ولا يُحسن إدارة الممالك. وفي هذه المسألة أراني وشوقي متواردين على رأي واحد، وليست هذه بالمرّة الوحيدة التي أجدني فيها وإياه على وفاقٍ، كأنَّ قَلْبَيْنَا قَلْبٌ واحد، وكأنَّنا نَفَكَّرُ عن خلية دماغ

واحدة، فإنه لما استردت الدولة أدرنة مستفيدة من اختلاف البلغار مع حلفائهم الصرب واليونان، دعت الدولة وفدًا عربيًّا إلى الأستانة لبعض مذاكرات تتعلق بالعرب، وكنت أنا من أعضاء ذلك الوفد الثمانية، فدعنا الدولة لزيارة أدرنة وتهنئة أهلها على رجوعهم إلى حضن الدولة، فلما وصلنا إلى تلك البلدة أقاموا لنا حفلة عظيمة كان فيها أعيان البلدة وضباط الجيش العثماني، فأنشدت في ذلك الحفل قصيدة ميمية أتذكرُ منها الأبيات التالية:

### (٣٣) قصيدة المؤلف في استردادِ أدرنة

وَمَنْ لَيْسَ يَرْضَى حَوْضَهُ مَتَهَدِّمًا	فَدَى لِحِمَانَا كُلَّ مَنْ يَمْنَعُ الْجَمَى
وَمَا الْمَوْتُ إِلَّا أَنْ نَعِيشَ وَنَسْلَمًا	فَمَا الْعَيْشُ إِلَّا أَنْ نَمُوتَ أَعَزَّةً
سِوَى الصَّارِمِ الْبِتَّارِ لِلْسَّلْمِ سَلْمًا	تَأْمَلْتُ فِي صَرْفِ الزَّمَانِ فَلَمْ أَجِدْ
تَأَخَّرَ يَعْتَدُّ السَّلَامَةَ مَغْنَمًا	وَلَمْ أَرَ أَنَّى عَنْ سَلَامٍ مِنَ الَّذِي
وَمَا ابْيَضَ إِلَّا وَهُوَ أَحْمَرُ بِالْدَمَا	يَقُولُونَ وَجْهُ السَّيْفِ أَبْيَضٌ دَائِمًا
إِذَا لَمْ يَجِئْ فِيهَا الْحَسَامُ مُتْرَجِمًا	تَجَاهَلُ أَهْلُ الْغَرْبِ كُلَّ قَضِيَّةٍ
أَلَّا عَمَهُ الْأَلْبَابِ أَعْمَى مِنَ الْعَمَى	وَكَابَرَ قَوْمٌ يَنْظُرُونَ بِأَعْيُنٍ

انظر إلى قول شوقي:

صُورُ الْعَمَى شَتَّى وَأَقْبَحُهَا إِذَا      نَظَرْتَ بَغِيرِ عُيُونِهِنَّ الْهَامُ

وإلى قولي: «ألا عمه الألبابِ أعمى من العمى».

وذلك في عرض الكلام على وجوب الدفاع عن الروملي وعدمه، فتعلم اتحادنا في الفكر. ثم إنني أقول في آخر هذه القصيدة ما يأتي:

وإخواننا الأتراك نزحفُ توءمًا	فَمَنْ مَبْلُغِ الْبُلْغَارِ أَنَا إِلَى الْوَعَى
عليهم إليهم يبتغون تقدُّمًا	وَأَنَّ جَمِيعَ الْعُرْبِ وَالْتُرُكِ إِخْوَةٌ
حنيفيَّةٌ بيضاءٌ لن تتقسَّما	وَلَيْسَ يَزَالُ الْعُرْبُ وَالْتُرُكُ أُمَّةً
فؤادكم صبا عليها متيما	وَقُولُوا لَهُمْ بَأْنْتُ سَعَادُ فَلَ يَزَلْ

فلا يطمعنكم في أدرنة مَطَمَعٍ      ولا تفتَحوا في شأنها أبداً فَمَا  
أدرنة صارت عندنا تَلُو مَكَّةَ      وماء المريج اليوم أشبه زمَماً  
ستلبث عثمانية رَغَمَ أنفكم      وأنف الألى منا يصيحون لوماً

فأنت ترى أيضاً أن الذين كان يعرض بهم شوقي ويجعلهم علة للملك وسقماً في جسم الدولة، هم الذين كنت أعرض بهم أنا أيضاً وأقول إننا استرددنا أدرنة برغم الأعداء من الخارج، وبرغم هؤلاء المضلين المثبطين من الداخل.  
ثم يقول شوقي:

ومبشِّرٍ بالصُلحِ قلتُ لعلَّه      خيرٌ عسى أن تصدقَ الأحلامُ  
تركَ الفريقان القتالَ وهذِهِ      سلماً أمرٌ من القتالِ عظامُ

يقول: إن الفريقين قد تتركا القتال، ويقال إنه سينعقد الصلح، ولكن هذا الصلح الذي تذهب فيه ولايات الروملي من يد الدولة كره أكثر من القتال. ثم يقول:

يَنعِي إلينا المَلِكَ ناعٍ لَمْ يَطأً      أرضاً ولا انتقلت به أقدامُ  
بَرَقَ جوائِبُهُ صواعقُ كُلِّها      ومِن البروقِ صواعقُ وغمامُ  
إِنْ كانَ شَرٌّ زارَ غيرَ مُفارقٍ      أو كانَ خيرٌ فالمزارُ لِمَامُ  
بالأمسِ أفريقاً تولتْ وانقضى      مُلكٌ على جيدِ الخضمِّ جِسامُ  
نَظَمَ الهلالُ بهِ ممالكَ أربَعاً      أصبَحَنُ لَيْسَ لِعَقْدِهِنَّ نِظامُ  
مِن فَتَحِ هاشِمٍ أو أميةٍ لم يُضِعْ      أساسها تَتَرُّ ولا أعجامُ  
واليومَ حُكْمُ اللهِ في مَقْدُونِيا      لا نَقْضَ فيه لنا ولا إبرامُ  
كانت مِنَ الغربِ البيقِيةُ فانقضتْ      فعلى بني عثمانٍ فيه سلامُ

يقول: جاءنا البرق بخبر هذا الصلح، ومن البروق صواعق نقمة ومنها غمام رحمة، فأما نحن معاشر المسلمين فبروقنا كلها صواعق، وإذا كان الشر زارنا فهو غير مفارق، وإذا كان الخير زارنا فلماماً، واللامم أو الغب هو الزيارة في الأحيان. وبالأمس ذهب لنا في إفريقية ممالك أربع: مصر وطرابلس وتونس والجزائر، كانت راية الهلال تخفق فوقها فانطوت عنها، وهي أقطار لم يفتحها مسلمو التتر ولا العجم، ولكنها من فتح الخلفاء الراشدين وبني أمية من بعدهم، واليوم نفذ حكم الله في مقدونية على أيدي

البلقانيين ومن ورائهم الدول الأوروبية متحدة علينا، وقد كانت هذه الولايات الستُ المسماة بالروملي بقية الملك العثماني في أوروبا، وقبلها كانت له مملكة البلغار ومملكة رومانيا ومملكة الصرب ومملكة ألبانيا ومملكة اليونان ومملكة المجر وبلاد بوسنة والهرسك؛ كلها تابعة للسلطنة العثمانية، فذهبت تلك الممالك في القرن الماضي، ولحقت به هذه البقية الباقية في هذه النوبة، فعلى ملك بني عثمان في أوروبا السلام. ثم قال:

أَخَذَ المَدَائِنَ وَالقُرَى بِخِنَاقِهَا	جَيْشٌ مِّنَ المَتَحَالِفِينَ لَهَا مُ
غَطَّتْ بِهِ الأَرْضَ الفِضَاءَ وَجَوَّهَهَا	وَكَسَتْ مَنَاكِبَهَا بِهِ الأَكَامُ
تَمْشِي المَنَاكِرُ بَيْنَ أَيْدِي خَيْلِهِ	أَنْتَى مَشَى والبَغْيِ والإِجْرَامُ
وِيَحْتُهُ بِاسْمِ الكِتَابِ أَقْسَهُ	نَشَطُوا لِمَا هُوَ فِي الكِتَابِ حَرَامُ
وَمُسَيِّطِرُونَ عَلَى المَمَالِكِ سُخَّرَتْ	لَهُمُ الشُّعُوبُ كَأَنَّهَا أَنْعَامُ
مِنْ كُلِّ جَزَارٍ يَرُومُ الصَّدْرَ فِي	نَادِي المَلُوكِ وَجَدَّهُ غَنَامُ
سَكِينُهُ وَيَمِينُهُ وَجَزَامُهُ	وَالصَّوْلَجَانُ جَمِيعُهَا آثَامُ

قال إن الدول البلقانية تحالفت على الدولة العثمانية — وكان تحالفها على هذه بواسطة قيصر الروسية وتحت كفالته، فهو الذي نظم شتات دول البلقان وشجعهن على محاربة تركيا، وقد لقاها الله جزاءه بعد الحرب العامة، فقتله البلاشفة شرًّا قتله يمكن أن يتصورها العقل؛ لأنهم بعد أن نفوه وحبسوه زحفت الجيوش الروسية التي يقودها أعداء البولشفيك لتستخلص القيصر من محبسه، فعجل هؤلاء بقتله أمام عائلته، وقتل عائلته أمامه، فأطلقوا عليهم الرصاص في لحظة واحدة، وكان هو وامرأته وابنه ولي العهد وبناته الأربع — وسقن جيوشًا جرارة تغطت بها الأرض زاحفة صوب تركيا والمناكير والقبائح والفظائع تمشي بين يديها، فقد كانت جيوش البلقانيين ترتكب من قتل الأهالي الوداعين، واستباحة أعراض النساء ذوات الصون والستر، ونهب الأموال وإهانة شعائر دين الإسلام، ما لم يقع نظيره إلا في الأندلس؛ ولذلك سمى شوقي البلقان بالأندلس الجديدة.

وكما كانت حروب الأندلس وفظائعها تغشى بتحريض القسوس الذين يخالفون في أعمالهم جميع ما قرءوا في كتابهم الإنجيل، كذلك كانت الصليبية البلقانية يؤجج نارها الأحرار والقسيسون من بلغار ويونان وصربيين، وكان الملوك الأربعة ملك البلغار وملك اليونان وملك الصرب وملك الجبل الأسود، ينشرون المناشير الحربية التي لا تزال نصوصها

محفوظة كأنها محرّرة في القرون الوسطى، من الحثّ على استئصال المسلمين والتحريض على قتالهم بغير هوادةٍ باسم النصرانية.

نعم، تقضي أمانة التاريخ أن نذكر كَوْنَ الجيشِ الصربي تجنّب الآثام في معاملة المسلمين أكثر من الجيشين البلغاري واليوناني، وقد رفعنا يومئذٍ الاحتجاجات إلى الدول العظام بناءً على كون هذه الفظائع مخالفةً لحقوق الأمم وللإنسانية، وقلنا إن من واجبات الدول بحسب التكافل الإنساني والتعاون المدني أن تقيم النكيرَ على البلقانيين من أجلها، وكان لهذا الفقير إليه تعالى برقيةً من الأستانة في غاية التأثير والشدة، إلى السير ادوارد غراي ناظر الخارجية الإنجليزي، اطّلع على صورتها بعد إرسالها كامل باشا الصدر الأعظم، وذلك بواسطة صديقي المرحوم محمد باشا الشرعي، فأعجب بها الصدر جدًّا وأرسلَ يشكرني عليها، ولكن من جهة النتيجة لم تعمل الدول أدنى عمل يدل على أنها تَزِنُ المسلمين بميزان واحد مع البلقانيين ولا مع سائر البشر، ولا سمعنا أنها خاطبتُ دول البلقان ولو من قبيل النصح بالاعتدال في سيرهن، أو بمراعاة حقوق الإنسانية في أثناء الحركات الحربية، ولا نبض عرق لجمعية أوروبية من تلك الجمعيات التي لا يُحصَى عددها المتشدقات بحفظ حقوق الإنسان.

وقد بلغ عدد الذين هاجروا من مسلمي البلقان فرارًا من وجه الأعداء بعد أن سمعوا بما حلَّ بإخوانهم على الحدود؛ مائة وخمسين ألف نسمة، دخلوا إلى الأستانة حتى غصّت بهم الجوامع والمدارس على كثرتها، وكان ذلك في قلب الشتاء، وفشّت فيهم الكوليرة وكانت خطوب الدولة تشغلها عن إيوائهم وإطعامهم، فقامت مصر حمّاهما الله في تلك الأزمة مقامًا لا ينسأه لها تاريخ الإسلام، بل التاريخ العام؛ فأرسلت إليهم الإعانات التي كفلت نجاة هؤلاء الإخوان المهاجرين من الموت بردًا وجوعًا، إلى أن تمكّنت الدولة من إجازتهم إلى الأناضول، وقد كان ما أعانتُ به مصر الجيشَ العثماني في تلك الحرب أربعمئة ألف جنيه، وما ورّعته من الإعانات على هؤلاء المهاجرين مائة وخمسين ألف جنيه، وكنتُ أنا من جملة أعضاء اللجنة التي ورّعت الإعانات من قبَل لجنة الإعانة الكبرى بمصر، التي كان يرأسها أمين هذه الأمة الأمير عمر طوسون أمتع الله الإسلام بطول حياته، وإليه وإلى الأمير محمد علي توفيق رئيس الهلال الأحمر كُنّا نرسل البرقيات استمدادًا واستعجالًا بالإعانات كلّما قدمت طائفة من المهاجرين، وكانت جميع تلك البرقيات تقريبًا بقلم كاتب هذه السطور، وأنا الذي أبرق للأمير عمر طوسون بسقوط سلانك ووجود ١٥٠ ألف نسمة من المسلمين فيها تحت خطر الموت جوعًا، فما مضى على هذه البرقية إلا بضعة أيام

حتى وصلت البواخر من مصر إلى ميناء سلانيك، ثم إلى ميناء «قواله»، مشحونة بالأرزاق والألبسة وجميع الحوائج التي كفلت إنقاذ أولئك المساكين من الموت، وتخفيف ويلات إخواننا مسلمي مقدونية أجمع، فجزى الله كنانته مصر خيراً عن هذه المبرّات، التي وإن كانت بحسب الشرع فرضاً عليهم لا منة لهم، فإنه لا يجوز للتاريخ أن يغفلها ولا يجوز للأمة التركية خاصة أن تتناساها.

ثم يقول شوقي عن ملوك الدول البلقانية الذين تولّوا تلك الآثام، ما هو واضح لا يحتاج إلى تفسير ولا إلى تعليق، ومن الغريب أنهم ارتكبوا تلك الموبقات باسم السيد المسيح بزعمهم، والحال أن سبيل المسيح كان كله محبة ورحمة كما لا يخفى، وكان ينهى عن سفك الدماء بكل حال، وإلى هذا أشار شوقي بقوله:

عَيْسَى سَبِيلُكَ رَحْمَةٌ وَمَحَبَّةٌ	فِي الْعَالَمِينَ وَعِصْمَةٌ وَسَلَامٌ
مَا كُنْتَ سَفَاكَ الدِّمَاءِ وَلَا امْرَأً	هَانَ الضَّعْفُ عَلَيْهِ وَالْأَيْتَامُ
يَا حَامِلَ الْأَلَامِ عَنْ هَذَا الْوَرَى	كَثُرَتْ عَلَيْنَا بِاسْمِكَ الْأَلَامُ
أَنْتَ الَّذِي جَعَلَ الْعِبَادَ جَمِيعَهُمْ	رَحِمًا وَبِاسْمِكَ تُقَطِّعُ الْأَرْحَامُ
أَتَتِ الْقِيَامَةُ فِي وِلَايَةِ يُوسُفَ	وَالْيَوْمَ بِاسْمِكَ مَرَّتَيْنِ تُقَامُ

يريد بيوسف صلاح الدين بن أيوب، وأن الحرب الصليبية وقعت في أيامه، واليوم قد تجددت أولاً وثانياً. ثم يقول:

وَالْيَوْمَ يَهْتَفُ بِالصَّلِيبِ عَصَائِبُ	هُمُ لِلْإِلَهِ وَرُوحِهِ ظُلَامٌ
خَلَطُوا صَلِيبَكَ وَالخَانَجَرَ وَالْمَدَى	كُلُّ أَدَاةٍ لِلْأَذَى وَجِمَامٌ
أَوْ مَا تَرَاهُمْ ذَبَّحُوا جِيرَانَهُمْ	بَيْنَ الْبُيُوتِ كَأَنَّهُمْ أَغْنَامُ
كَمْ مُرْضِعٍ فِي حِجْرِ نِعْمَتِهِ عَدَا	وَلَهُ عَلَى حَدِّ السِّيُوفِ فِطَامُ
وَصَبِيَّةٌ هَتَكَتْ خَمِيلَةَ طُهرِهَا	وَتَنَاثَرَتْ عَنْ نُورِهِ الْأَكْمَامُ

هل قيل في هتك أعراض الأبيكار أبلغ من هذا القول، وأشد تأثيراً في النفس؟

وَأَخِي ثَمَانِينَ اسْتَبِيحَ وَقَارُهُ	لَمْ يُغْنِ عَنْهُ الضَّعْفُ وَالْأَعْوَامُ
وَجَرِيحِ حَرْبٍ ظَامِيٍّ وَأَدُوهُ لَمْ	يَعْطِفْهُمْ جُرْحٌ لَهُ وَأُوَامُ



وَمُهَاجِرِينَ تَنَكَّرَتْ أوطانُهُمْ      ضَلُّوا السَّبِيلَ مِنَ الذُّهُولِ وَهَامُوا  
السَّيْفُ إِنْ رَكِبُوا الْفِرَارَ سَبِيلُهُمْ      وَالنُّطْعُ إِنْ طَلَبُوا الْقَرَارَ مَقَامُ

لعمري ليس فيما وصفه شوقي هنا شيء من المبالغة، فقد جرى من البلقانيين كلُّ هذه الأفعال وأوروبا تنظر كأنها جاهلة، بل كانت في الحقيقة مرتاحةً إلى قهر المسلمين وإعناتهم حتى لا يرفعوا رءوسهم، ودليل ارتياحها أنها لو أرادت وجزمت لما تجرأً البلقانيون طرفة عين على مخالفتها. ثم بعد أن سردَ شوقي ما سردَ من هذه الفجائع، التفتَ نحو الأتراك فنصحهم بالوثام، وعذلهم على الانقسام، وقال لهم:

يا أُمَّةً بَفَرُوقَ فَرَّقَ بَيْنَهُمْ      قَدَرَ تَطْيِيشُ إِذَا أَتَى الْأَحْلَامُ  
فِيمَ التَّخَاذُلُ بَيْنَكُمْ وَوَرَاءَكُمْ      أُمَّمُ تُضَاعُ حُقُوقُهَا وَتُضَامُ  
لَا يَأْخُذَنَّ عَلَى الْعَوَاقِبِ بَعْضُكُمْ      بَعْضًا فِقْدَمًا جَارَتْ الْأَحْكَامُ  
تَقْضِي عَلَى الْمَرْءِ اللَّيَالِي أَوْ لَهُ      فَالْحَمْدُ مِنْ سُلْطَانِهَا وَالذَّامُ  
مِنْ عَادَةِ التَّارِيخِ مَلَأَ قَضَائِهِ      عَدْلٌ وَمِلءٌ كَنَانَتِيهِ سِهَامُ  
مَا لَيْسَ يَدْفَعُهُ الْمُهَنْدُ مُصَلَّتًا      لَا الْكُتُبُ تَدْفَعُهُ وَلَا الْأَقْلَامُ  
إِنَّ الْأَلَى فَتَحُوا الْفَتْوحَ جَلَائِلًا      دَخَلُوا عَلَى الْأَسَدِ الْغِيَاضِ وَنَامُوا  
هَذَا جَنَاهُ عَلَيْكُمْ أَبَاؤَكُمْ      صَبْرًا وَصَفْحًا فَالْجَنَاءُ كِرَامُ  
رَفَعُوا عَلَى السَّيْفِ الْبِنَاءَ فَلَمْ يَدُمْ      مَا لِلْبِنَاءِ عَلَى السُّيُوفِ دَوَامُ  
أَبْقَى الْمَمَالِكُ مَا الْمَعَارِفُ أَسُّهُ      وَالْعَدْلُ فِيهِ حَائِطٌ وَدِعَامُ

قال لهم: إن القدر إذا نزل تطيش له الأحلام، ولكن يجدر بكم أن تذروا التخاذلَ فيما بينكم، والجبدل فيمن كان مخطئاً ومن كان مصيباً، فإن وراءكم وأنتم مشغولون بالفتن الداخلية أمماً تضام وتهان وتوكل حقوقها، فدعوا الخطأ والصواب إلى التاريخ، واعلموا أنه إن لم يكن سيف يدفع الظلم لم يكن للأقلام قبل بدفعه، لقد فتح آباؤكم هذه البلدان وناموا على فتوحاتهم، ولم يفكروا في أن هذه الأمم المغلوبة لا تزال تترصد الفرصة حتى تثور وتأخذ بالتأثر، فالخطأ إنما هو خطأ آبائكم الذين أحسنوا الظن، وصفحوا عن الذنب، ووثقوا دائماً بالنصر، ثم هناك عيب آخر وقع في البناء الذي بنوه، وهو أنهم رفعوه

على رءوس الحراب، ووقفوا عن تحصينه بالعلم ودعمه بالعدل، ولما كان ملك السيف لا يدوم، كانت هذه العاقبة منتظرة لكم، ثم يقول:

وَقَفَ الزَّمَانُ بِكُمْ كَمَوْقِفِ طَارِقٍ      الْيَأْسُ خَلْفُ وَالرَّجَاءُ أَمَامُ  
الصَّبْرُ وَالْإِقْدَامُ فِيهِ إِذَا هُمَا      قُتِلَا فَاقْتُلْ مِنْهُمَا الْإِحْجَامُ

أي إن موقفكم اليوم أصبح كموقف طارق بن زياد يوم أجاز إلى الأندلس، وتواقف مع لذريق ملك الإشبانيول، فقال لجيشه: البحر وراءكم والعدو أمامكم، فلا نجاة لكم إلا بالإقدام؛ لأنكم إذا انهزمتم فليس وراءكم إلا البحر، وهذا يا رجال السلطة العثمانية هو موقفكم اليوم، ولنقل إن في إقدامكم هلكاً، فالجواب عليه أن الهلك الذي في الإحجام هو أوكد من الهلك الذي في الإقدام. ثم يقول لهم: لو أنكم أحسنتم إدارة البقية الباقية من ملك آل عثمان، لكانت لكم بها دولة وصولاً لا يفتُّ في عضدهما.

هَذِي الْبَقِيَّةُ لَوْ حَرَصْتُمْ دَوْلَةً      صَالَ الرَّشِيدُ بِهَا وَطَالَ هِشَامُ  
قَسَمَ الْأَثْمَةَ وَالْخَلَائِفِ قَبْلَكُمْ      فِي الْأَرْضِ لَمْ تُعَدَلْ بِهِ الْأَقْسَامُ  
سَرَّتِ النَّبُوَّةُ فِي طَهْوَرِ فَضَائِهِ      وَمَشَى عَلَيْهِ الْوَحْيُ وَالْإِلَهَامُ  
وَتَدَفَّقَ النَّهْرَانِ فِيهِ وَأَزْهَرَتْ      بَغْدَادُ تَحْتَ ظِلَالِهِ وَالشَّامُ  
أَثَرَتْ سَوَاحِلُهُ وَطَابَتْ أَرْضُهُ      فَالْدُرُّ لُجٌّ وَالنُّضَارُ رَعَامُ

أي إن صولة الرشيد كلها، وطائلة هشام بن عبد الملك، وعزة أولئك الخلائف، إنما كانت بهذه البلاد التي بقيت لكم، وهي نعم الأقسام إذا تقاسم البشر الأرض، وفيها ظهر الأنبياء موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، وفيها جرى الفرات ودجلة وازدهرت الشام وبغداد، ثم ذكر أدرنة وحسن دفاع شكري باشا عنها، فقال:

شَرَفًا أَدْرِنَةَ هَكَذَا يَقِفُ الْجَمَى      لِلْغَاصِبِينَ وَتَثَبَّتْ الْأَقْدَامُ  
وَتُرِدُّ بِالْدَمِّ بِقَعَّةً أُخِذَتْ بِهِ      وَيَمُوتُ دُونَ عَرِينِهِ الضَّرْعَامُ  
وَالْمَلِكُ يُؤَخِّذُ أَوْ يُرِدُّ وَلَمْ يَزَلْ      يِرِثُ الحُسَامَ عَلَى الْبِلَادِ حُسَامُ  
عَلِمَ الزَّمَانُ مَكَانَ «شُكْرِي» وَانْتَهَى      شُكْرُ الزَّمَانِ إِلَيْهِ وَالْإِعْظَامُ

يذكر أن شكري باشا وقف من أدرنة موقف مدافع ثابت الأقدام، ولم يسلم شبراً من أرضها إلا بالدم، وهذا هو حق الدفاع، فاستحقَّ بذلك شكر الناس وإجلالهم، ولما دخل ملك البلغار إلى أدرنة ترك لشكري باشا سيفه عند الاستسلام إعجاباً بيسالته وثباته. والحق أن شكري باشا لولا أن مَسَّ جيشه الجوعُ، ما كان يمكن أن يدخل البلغار والصرب عليه في أدرنة، مهما طال الحصار، ولكنه لم يبقَ للجيش زادٌ يقتات به. ومن حيث إننا ذكرنا في التعليق على الأبيات السابقة شيئاً من قصة الحرب البلقانية حباً في إظهار فضل شوقي فيما سجَّله شعره في هذا الموضوع، فلا بأس بأن نورد تحت هذه الأبيات ما نعلمه بنفسنا لا نقلاً عن رواية ولا حكاية عن سُمّار، وهو: أنه لما كان شكري باشا تحت الحصار، وجد رسولاً أنفذه إلى الأستانة يلتمس من الباب العالي أن ينجده ولو بعشرة آلاف جنيه ليشتري بها رزقاً للجيش، وجاء الرسول فحدَّثنا بالخبر وكنتُ أنا ومحمد باشا الشريعي وكامل باشا جلال؛ لأننا كنَّا ندير لجنة الإعانات والهلال الأحمر المصري، وعلمنا أنهم كانوا في الباب العالي لم يجدوا المال في الحال، وأشاروا إلى الرسول بالتلُّوم إلى أن يجده، والحال أن شكري باشا كان من الانتظار على أحرَّ من النار، فقررتُ لجنة الإعانة المصرية على مسئوليتي أنا ورفاقي، لا سيما الشريعي، إرسالَ العشرة آلاف جنيه إلى شكري باشا باسم الجرحى والمرضى، وذهب بها الرسول وعاد بورقة الوصل.

ومن هذه الحادثة وحدها يعلم القارئ اللاؤء التي وصل إليها الجيش العثماني أثناء حصار أدرنة.

وبناءً على ما علمناه من أزمة الجيش وأزمة مسلمي أدرنة الذين كانوا يموتون جوعاً بعد سقوط أدرنة في أيدي البلغار، التمسنا من الهلال الأحمر المصري ببرقيات مكررة كتبها كلها بقلممي، أن الهلال الأحمر في مصر يطلب من إنجلترا التوسُّط لدى حكومة البلغار بأن تسمح بدخول بعثة الهلال الأحمر المصري إلى أدرنة، فتوسَّطت الحكومة الإنجليزية وأمكن الهلال الأحمر المصري جزى الله أهله خيراً من إغاثة مسلمي أدرنة، الذين كان عددهم يُربي على أربعين ألف نسمة، وكان الجوع يفتك بهم. ولما ذهبنا نحن الوفد السوري الذي تقدَّم الكلامُ عليه إلى أدرنة بعد استرداد الدولة لها، شاهدتُ بعثةَ الهلال الأحمر المصري لا تزال هناك، وقد كان والي أدرنة الحاج عادل بك أعدَّ للوفد ولي أنا من الجملة مكاناً للمبيت، فاستأذنته في الذهاب إلى محل الهلال الأحمر المصري، وبِتُّ هناك بناءً على أنني كنتُ من مفتشيه في أثناء الحرب البلقانية، ولما نهضتُ صباحاً شاهدتُ

بعيني ألوفاً من مسلمي أدرنة بأيديهم السطول، يأخذون بها الحساء من مطبخ الهلال الأحمر، فتعجبتُ من كثرة عددهم، فقال لي رجال الهلال الأحمر: لو رأيتَ الحالة قبل أن تسترجع الدولة أدرنة لرأيتَ عجباً، فالآن إنما نطعم ثلاثة أو أربعة آلاف، وأما من قبلُ فقد كنا نعول ثلاثين أو أربعين ألفاً. فهذا ما شاهدته بعيني فضلاً عن كونه عملاً كنتُ أنا والله الحمد من الساعين فيه، وكان المصريون الكرام هم السبب في إتمامه بحيث أنقذوا من الهلاك عشرات الألوف من إخوانهم مسلمي تلك البلاد، ولا بأس أن يكون للتاريخ مكانٌ من كتاب أدب، لا سيما إذا تعلق بالحمية والإنسانية.

ثم قال أحمد شوقي:

صَبْرًا أَدْرِنَةُ كُلُّ مُلْكٍ زَائِلٌ	يَوْمًا وَيَبْقَى الْمَالِكُ الْعَلَامُ
خَفَتِ الْأَذَانُ فَمَا عَلَيْكَ مُوَحَّدٌ	يَسْعَى وَلَا الْجَمْعُ الْحِسَانُ تُقَامُ
وخبَتِ مَسَاجِدُ كُنَّ نوراَ جَامِعًا	تَمْشِي إِلَيْهِ الْأَسَدُ وَالْأَرَامُ
يَدْرُجْنَ فِي حَرَمِ الصَّلَاةِ قَوَانِنًا	بِيضَ الْإِزَارِ كَأَنَّهُنَّ حَمَامُ
وَعَفَتِ قُبُورُ الْفَاتِحِينَ وَفُضَّ عَنْ	حُفْرِ الْخَلَائِفِ جَنْدُلٌ وَرِجَامُ
نُبِشَتْ عَلَى قَعَسَاءِ عِزَّتِهَا كَمَا	نُبِشَتْ عَلَى اسْتِعْلَائِهَا الْأَهْرَامُ
فِي نَمَةِ التَّارِيخِ خَمْسَةَ أَشْهُرٍ	طَالَتْ عَلَيْكَ فِكْلُ يَوْمٍ عَامُ
السَّيْفِ عَارٍ وَالْوَبَاءِ مُسَلِّطٌ	وَالسَّيْلُ خَوْفٌ وَالثُّلُوجُ رُكَامُ
وَالجُوعُ فَتَاكٌ وَفِيهِ صَحَابَةٌ	لَوْ لَمْ يَجُوعُوا فِي الْجِهَادِ لَصَامُوا

وهذا ما أشرنا إليه في حديثنا عن هذه الحرب المشؤومة، واستمداد قائد أدرنة القوات الضروري.

ضَنُّوا بِعَرَضِكَ أَنْ يُبَاعَ وَيُشْتَرَى	عَرَضُ الْحَرَائِرِ لَيْسَ فِيهِ سُوَامُ
وَرَمَى الْعَدَى وَرَمَيْتِهِمْ بِجَهَنَّمَ	مِمَّا يَصُبُّ اللَّهُ لَا الْأَقْوَامُ
بِعَتِ الْعَدُوَّ بِكُلِّ شِبْرٍ مُهَجَّةً	وَكَذَا يُبَاعُ الْمُلْكُ حِينَ يُرَامُ
مَا زَالَ بَيْنَكَ فِي الْحِصَارِ وَبَيْنَهُ	شُمُّ الْحِصُونِ وَمِثْلُهُنَّ عِظَامُ
حَتَّى حَوَاكِ مَقَابِرًا وَحَوَيْتِهِ	جُنَّتْنَا فَلَا عَبْنٌ وَلَا اسْتِدْمَامُ

يصف هنا كيفية الدفاع عن أدرنة كما تقدّم الكلام عليه بأن شكري باشا لم يبع منها شبراً، إلا بعد أن غطاه دماً، وأنه لم يسلم البلدة إلا بعد أن فتك بجيشه الجوع

والمرض، فكان تسليمًا شريفًا أعذر فيه ذلك القائد الباسل إلى قومه، وحفظ فيه شرف أمته. ثم ذكر كيف آلت أدرنة بعد غلبة البلغار عليها، ولا شك في أن نظم شوقي هذه القصيدة وقع في المدة التي هي بين تسليم أدرنة للبلغار واسترداد تركيا لها؛ فلذلك قال شوقي: خفت الأذان من أدرنة فما فيها موحد يسعى ولا جمعة تقام ... إلخ. وبعد ثلاثة أو أربعة أشهر من قول شوقي هذا، كنتُ أنا أقول في قصيدتي الميمية التي تقدّم بعضها:

أدرنة يا أمّ الحصون ومنّ عدتْ	لدار بني عثمان سورا ومعصما
فديتك ربعا ما أبرّ أهله	وأما علينا ما أعزّ وأكرما
عمرناك أحقابا طوالا فلم نزل	بأهلك من أهل البسيطة أرحما
فلما أتاك المصلحون بزعمهم	أصاروا إلى تلك الجنان جهنما
ألا قل لفردينان أسرفت عاديّا	وأبعدت في وادي الضلالة مزعما
وهاجمت والأحلاف عدرا وغيلة	رجالا عدوا عما تكيدون نوما

وذلك أن الدول البلقانية الأربع اتّحدت على قتال الدولة العثمانية تحت كفالة قيصر الروس، وتأمّرت بجميع ما بقي من الملك العثماني في أوروبا، والأترک غافلون عمّا يكيد لهم البلقانيون، مشغولون بالشقاق بعضهم مع بعض، ولما فاجأ البلقانيون تركيا بالحرب، كانت قد صرفت جيشا عظيما لها في الروملي إلى أوطانه، ممّا يدل أعظم دلالة على الغفلة التي كانت فيها. ثم أقول:

رجالا مضي بعض ببعض تشاجرا	فكان قضاء الله فيهم مُحتمّا
تعرض هذا الملك منكم ومنهم	لسهمين كل منهما انقضّ أسهمّا

ثم أقول عن استرداد أدرنة عندما زحف إليها القائد عزت باشا، وطرده البلغار منها:

أدرنتنا لو كان للصحبر ألسن	بها يوم عاد الراجعوها تكلمّا
فما من فتى إلا وأجهش بالبيكا	ولا من جواد عاد إلا وحممّا
ولا غادة إلا وكفكف دمعا	مكر حمة العرض كالسيل مفعمّا
ولا منبر إلا وأورق بهجة	وقام عليه ساجع مترنمّا
وقرت عيون المصطفى في ضريحه	وهناه في الفردوس عيسى بن مريمّا

ولما ذهبنا إلى أدرنة كما سبق الكلام عليه، شهدنا صلاة الجمعة في جامع السلطان سليم، وهو من الجوامع الكبرى في العالم الإسلامي لا ينقص جلالة عن السليمانية والفتاح والسلطان أحمد وغيرها في الأستانة، وازدحمت الجمع في تلك الجمعة لما بلغ أهل أدرنة مجيء وفد عربي يهنتهم بالرجوع إلى الدولة، وكنا قد استصحبنا من استانبول صديقنا الأستاذ الشيخ أحمد الفقيه من علماء مكة المكرمة، ومن أفصح الناس لساناً وأشجاهم صوتاً، وكان في القديم إماماً للشريف عون الرفيق أمير مكة، فالشيخ أحمد الفقيه رحمه الله خطب في تلك الجمعة على منبر جامع السلطان سليم، واستنزل العبارات في خطبته المؤثرة، وكان للناس في أربع زوايا الجامع نشيجٌ وشهيقٌ من ذكرى الفجائع التي حلت بالإسلام وخروج ذلك البلد من يد الدولة، ثم من ذكرى استرداد الدولة له وتبديل ذلك المآتم عرساً، وذلك الخوف أمناً، وتلك الوحشة أنساً، وإلى هذا وإلى جيش عزت باشا أشيرُ بقولي:

تَعَجَّلْتُمُو مَنَا تُغُورًا شَوَاغِرًا      فَهَلَّا وَقَدِ جَاءَ الْخَمِيسُ عَرْمَرًا

أي إنكم هاجتم ثغورنا على غرة، والجيش الذي كان مرابطاً فيها قد صرفته الدولة إلى أوطانه، وصارت ثغورها عورة عند ذلك، فما أمكن استدعاؤه تحت السلاح من جديد، حتى كنتم قد أوغلتُم في البلاد وأصبح التلافي صعباً، فأما الآن وقد زحف إليكم الجيش على أهبة وعلى تعبئة، فلماذا لا تنهدون إليه؟

يَخِيمُ مَعَهُ نَصْرُهُ حَيْثُ خَيْمًا	خَمِيسٌ إِذَا النِّيَّاتُ صَحَّتْ رَأَيْتُهُ
وَحَدَّثَ عَنِ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ وَقَدْ طَمَى	تَأَمَّلْ أَهَاضِيبَ الْجِبَالِ وَقَدْ رَسَتْ
مُشَيِّعٌ مَا تَحْتَ الضُّلُوعِ غَشْمَشَمَا	نُضِيءٌ نَوَاجِيهِ بَغُورَةَ عِرَّةِ
إِذَا عَبَسَ الْمَوْتُ الرُّؤْمُ تَبَسَّمَا	يَلِيهِ مِنَ الْأَبْطَالِ كُلِّ غَضَنْفَرِ
وَفِي أَفْقِ النَّادِي بُدُورًا وَأَنْجَمًا	تَرَاهُمْ لِيُوْتًا فِي الْوَعَى وَضِيَاعِمًا

ثم أقول في حالة أهل درنة بعد استردادها:

كشَادِخِيَةَ غِرَاءَ فِي وَجْهِ أَذْهَمَا	فِيَا لَكَ مِنْ يَوْمِ غَدَا فِي خُطُوبِنَا
تُضَاحِكُهُمْ طُرًّا مَلَائِكَةَ السَّمََا	وَكَانَتْ بَقَايَا السِّيفِ تَبْكِي فَأَصْبَحَتْ

أمائيل من شعر شوقي

عسى كل يوم بعد يوم أدرنة يعود على الإسلام عيدًا وموسمًا  
وليس على المولى عزيزٌ بأن نرى هنا مَحَا ذاك العزاء المُقَدِّمًا

وهذا الشطر الأخير تضمينٌ لببيتٍ قديمٍ من قصيدةٍ أظنُّها لابن نباتة، يهنئُ فيها مَلِكًا تولى العرشَ بعد أبيه، ولقد كان في الواقع استردادُ أدرنة بعد تلك الكائنة البلقانية الفجيعة أشبهَ بغرة بيضاء في وجه جواد أدهم. وأذكرُ أنني كنتُ دخلتُ أنا والمرحوم محمد باشا الشريعي على السلطان محمد رشاد رحمه الله، وكان وقتئذٍ في قصر يلدز، فبعد أن جلسنا في حضرته أظهرَ التألُّمَ من الحوادث التي قضتْ بهزيمة الدولة في حرب البلقان، ثم تبسَّم وقال: «لكن أدرنة استرداديله متسلي اولدق.» أي إننا مع هذا قد تسلينا باسترداد أدرنة.

### (٣٤) قصيدة شوقي في الانقلاب العثماني

ومن قصائد شوقي التي سارت بها الرُّكبان منظومته في الانقلاب العثماني وسقوط السلطان عبد الحميد الثاني، قال فيها:

سل يلدزًا ذات القصور هل جاءها نَبأُ البدور

يلدز معناه بالتركية النَّجْم، وكان اسم القصر الذي يقيم به السلطان عبد الحميد، وهو على رابيةٍ مُشرِّفة على البوسفور، وشوقي يريد أن يقول إن هذا النجم جاءته نوبة الأفول كالبدور الذي يطلع ثم يغيب.

لو تستطيع إجابة لَبِكْتُكَ بالدمع الغزير  
أخنى عليها ما أنا خ على الخورنق والسدير

الخورنق والسدير من قصور المناذرة بالحيرة.

ودَّها الجزيرة بعد إسماعيل والملك الكبير

يريد بالجزيرة القصر الذي كان يقيم به الخديوي إسماعيل بمصر.

رُ تُرَى ولا أهلُ القصور	ذهب الجميع فلا القصور
ونُحوسه بيد المدير	فَلَكُ يدور سُعوده
ها من ملائكة وُحور	أين الأوانس في ذُرَا
م الراويات من السُرور	المُتَرعات من النُعي
ل الناهضات من الغرور	العائِرات من الدُّلا
ة الناهيات على الصدور	الأمرات على الولا

الصدور جمع صدر، وكان يُقال لكبير وزراء السلطنة العثمانية «الصدر الأعظم»، وفي هذا البيت مبالغة بلا شك؛ لأن جوارى القصر السلطاني لا سيّما حظايا السلطان كان لهنّ نفوذ الكلمة في العصر القديمة لا في الزمن الأخير، ولكن شوقي قال هذا لطلاوة الشعر، ثم يقول:

الناعِمات الطيِّبا ت العرِف أمثال الزهور

يُلاحظ هنا أن الزهر لا يُجمَع على الزهور، بل على الأزهار وجمع الجمع الأزاهر، ولكن قد تُوجد هذه اللفظة في كتابات المحدثين.

ن بنشوة العيش النضير	الذاهلات عن الزما
كرسيّ عزَّتْها الوثير	من كلِّ بلقيسٍ على
عدة في الإمارة والأمير	أمضى نفوذًا من زُبَي
رف والزخارف والحرير	بين الرفارف والمشأ
والبحر في حجم الغدير	والروض في حجم الدُّنا

وذلك أن البوسفور يضيق حتى كأنه بعض الأنهر.

والمسك فيّاح العبير	والدر مؤتلق السِّنا
ك وفوق غارات المُغير	في مسكنٍ فوق السِّما
والخيل والجَمِّ الغفير	بين المعاقل والقنا
ل نهاية النجم المُغير	سَمَّوه يلدز والأفُو



ويلاحظ هنا على قوله المُعِيرِ إن كانت بمعنى الأقل فصوابه الغائر؛ يقال غارت الشمس غيارًا وغنورًا أي غربت، ولعل شوقي أراد بقوله «المُعِير» أي المسرع فلا غبار على البيت حينئذٍ.

دارت عليهن الدوا      بُرِّي في المخادع والحدور  
أمسين في رُقِّ العبيد      دِ وَبِتْنِ فِي أَسْرِ الْعَشِيرِ  
ما ينتهين من الصلا      ةِ ضِرَاعَةِ وَمِنَ النَّذُورِ  
يطلبن نصرة ربهنَّ      وَرَبُّهِنَّ بِلَا نَصِيرِ  
رَبُّهِنَّ الْأَوَّلُ هُوَ اللَّهُ، وَالثَّانِي هُوَ السُّلْطَانُ.

صَبَّحَ السَّوَادَ حَبِيرَهُنَّ      وَكَانَ مِنْ يَقْقِ الْحُبُورِ  
أَنَا إِنْ عَجَزْتُ فَإِنْ فِي      بُرْدِيَّ أَشْعَرَ مِنْ جَرِيرِ

مضى هنا الشاعر على طريقته في الفخر، وهو مثل قوله:

إِن الَّذِي قَدْ رَدَّهَا وَأَعَادَهَا      فِي بُرْدَتَيْكَ أَعَادَ فِيَّ الْبَحْتَرِي

ثم قال:

خَطَبَ الْإِمَامَ عَلَى النَّظِيْدِ      مِمَّ يَعْزُّ شَرْحًا وَالنَّثِيرِ  
عِظَةُ الْمُلُوكِ وَعِبْرَةُ الْأَ      يَّامِ فِي الزَّمَنِ الْأَخِيرِ  
شَيْخِ الْمُلُوكِ وَإِنْ تَضَعُ      ضَعُ فِي الْفَوَادِ وَفِي الضَّمِيرِ  
نَسْتَغْفِرُ الْمَوْلَى لَهُ      وَاللَّهُ يَعْفُو عَنْ كَثِيرِ

في كتاب الله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ في سورة المائدة، وفي سورة الشورى: ﴿أَوْ يُوبِقَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾.

ونراه عند مصابه      أَوْلَى بَبَاكِ أَوْ عَذِيرِ  
ونصونه ونجلُّه      بَيْنَ الشَّمَاتَةِ وَالنَّكِيرِ

## شوقي

عبد الحميد حساب مثلك      في يدِ الملكِ الغفور  
سدّت الثلاثين الطّوا      ل ولسنّ بالحكمِ القصير  
تنهي وتأمّر ما بدّا      لك في الكبير وفي الصغير

يريد أن يقول إنه كان أمرًا ناهيًا على الكبير والصغير من رعيته وفي الكبير والصغير من شئون المملكة.

لا تستشير وفي الحمى      عددُ الكواكب من مُشير

يقول: كنت مُستبدًا برأيك لا تقبل عليك مُشيرًا مع أنه كان عندك وُزراء ممّن لهم رتبة مُشير لا يأخذهم العدّ. وفي هذا شيء من المبالغة؛ لأن عبد الحميد طالما استشار وأخذ برأي أعوانه، وإنما كان يفترق عن غيره من الملوك الدستوريين بكونه لا يتقيّد بإشارة أحدٍ منهم.

كم سبّحوا لك في الروا      ح وألّهوك لدى البكور  
ورأيتهم لك سُجّدًا      كسجود موسى في الحضور  
خفضوا الرءوس ووتروا      بالذلّ أقواس الظهور

أي كانوا ينحنون أمامك حتى تصير ظهورهم كالأقواس من الانحناء، وإنما كان وترها الخضوع لك.

ماذا دهاك من الأمو      ر وكنت داهية الأمور

دهاك بمعنى أصابك، وأما داهية فمعناه باقعة، وفي البيت جناس بين دهاك وداهية، كما أن في البيت الذي مرّ قبل هذا بثلاثة أبيات جناسًا معنويًا بين تستشير ومشير، ثم قال:

ما كنت إن حدثت وجل      ت بالجزوع ولا العثور  
أين الرويّة والأنا      ة وحكمة الشيخ الخبير  
إن القضاء إذا رمى      دكّ القواعد من ثبير

الثبيران بالتَّئنية جبلان مفترقان يصبُّ بينهما أفاعية، وهو واد يصبُّ من منى يُقال لأحدهما ثبير «غينا» وللآخر ثبير الأعرج. وقالوا ثبير جبل بمكة بينها وبين عرفة، سُمِّي ثبيراً برجل من هذيل مات في ذلك الجبل فسُمِّي به، وكانوا في الجاهلية إذا أرادوا الإفاضة يقولون: أشرق ثبير كي ما غير. فإنهم كانوا إذا أشرقت الشمس من ناحية ثبير أغاروا إلى النحر؛ أي أسرعوا وبمكَّة أثيرة غير هذا منها ثبير الزنج وثبير الخضراء وثبير النصح، وهو جبل المزدلفة وثبير الأحذب. واشتقاق اللفظة هو من ثبره عن الأمر يثبره بالضم ثبراً إذا احتبسه. قيل إن ثبيراً سُمِّي ثبيراً لأنه يوارى حراء، ثم قال:

دخلوا السرير عليك يحد	تكمون في ربِّ السرير
أعظمُّ بهم من أسريـ	ن وبالخليفة من أسير
قالوا اعتزلتُ قلتُ اعتزلـ	ت الحُكم للملك القدير
صبروا لدولتك السنيـ	ن وما صبرت سوى شهور

أي إنهم صبروا على حُكمك المُطلق ثلاثين سنة، وبعد أن أجبروك على إعلان الشورى لم تصبر أنت عليها سوى بضعة أشهر حتى حاولت أن تقوِّضها.

أوذيت من دستورهم	وحننت للحكم العسير
وغضبت كالمنصور أو	هارون في خالي العصور

أي أردت أن تستبدَّ استبدادَ أبي جعفر المنصور أو حفيده هارون الرشيد، ولكن هذا الوقت غير ذلك الوقت.

ضنُّوا بضائع حقِّهم	وضنَّتْ بالدنيا الغرور
هلاً احتفظتُ به احتفا	ظاً مُرحَّبَ فَرِحَ قدير
هو حلية الملك الرشيد	د وعصمة الملك الغرير
وبه يبارك في المما	لك والملوك على الدهور

قال إنهم حرصوا على حقِّ الرعية الضائع، وحرصت أنت على تحكيم إرادتك وليس هذا بحقٍّ، ولقد كنت تحسن لو تلقيت الدستور بصدر رحب وعين قرة، فإن الدستور

للملك العاقل الرشيد حلية، وللملك الذي لا يملك التدبير عصمة ووقاية، والدستور بركة على الممالك والملوك ما دام قائمًا، ثم خاطب الجيش العثماني الذي خلع عبد الحميد، فقال:

يا أيها الجيش الذي لا بالدَّعي ولا الفَخور  
 يخفى فإن رِيحَ الحِمى لفت البريَّة بالظهور  
 كالليث يُسْرِف في الفعا لِ وليس يُسْرِف في الزئير

يقول إن الجيش العثماني يخفى بعدم تدخُّله في السياسة وإدارة الملك حتى إذا رِيحَ حِمى الملك بشيء من النوازل وَتَبَّ وظهرَ بكلِّ قوَّته، فهو كثير الفعل قليل الضوضاء، وهذان البيتان هما من أبداع ما قال شوقي، ولكنَّه مع الأسف قد بدأ منذ خَلع هذا الجيش للسلطان عبد الحميد يتعرَّض للسياسة وللإدارة ودخول الجيوش في سياسة الممالك طالما كان قاصمًا لظهورها، ولم يكن انهزام هذا الجيش العثماني في الحرب البلقانية خاليًا من هذا السبب، قال:

يتلو الزمانُ صحيفةً غرَّاء مذهَّبة السطور  
 في مدح أنورك الجري ء وفي نيازيك الجسور

أنور كان ضابطًا صغيرًا عندما ثار بشرذمة من العسكر في بلاد الرومي يطلب إعادة الدستور، وكذلك نيازي الذي ثار مثله في بلاد الأرناؤوط، فطار صيتهما في ذلك الوقت وما زال أحدهما — أنور — يرقى حتى صار ناظرًا للحربيَّة العثمانية.

يا شوكت الإسلام بل يا فاتح البلد العسير  
 وابن الأكارم من بني عُمر الكريم على البشيري  
 القابضين على الصليب ل كجدُّهم وعلى الصَّريـ  
 هل كان جدُّك في ردا ثك يوم زَحْفك والكرور  
 فقنصتَ صيَّاد الأسو د وصدتَ قنَّاص النَّسور  
 وأخذتَ يلدز عَنوَة وملكَّتَ عنقاء الثغور

كان شائعاً يوم جرت هذه الحادثة أن محمود شوكت باشا الذي قاد الجيش المسمّى بجيش الحركة الذي زحف من سلانك إلى استانبول وخلع السلطان عبد الحميد، هو من ذرية الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وليس ذلك بصحيح فمحمود شوكت باشا هو من عائلة كرجية الأصل استوطنت بغداد وصارت من بيوتات الوجاهة فيها، ويُقال إن بينها وبين آل العمري في الموصل مصاهرة، فإن كان محمود شوكت باشا يمتُّ إلى عمر — رضي الله عنه — بنسب فيكون من جهة الأمّهات لا الآباء، وأما قوله: «عمر الكريم على البشير». فمعناه أنه العزيز على رسول الله ﷺ؛ لأن البشير من أسمائه.

ولأخي نسيب — رحمه الله — في دخول جيش الحركة إلى استانبول زحفاً من سلانك تحت قيادة محمود شوكت باشا قصيدةً رنانة، أملاها عليه التأثر بما كنا فُجعنا به من استشهاد ابن عمّنا الأمير محمد المصطفى أرسلان الذي كان أحد نواب الأمة ورئيساً للجنة الأمور الخارجية في مجلس النواب، وكان الحزب الحميدي قد ثار على الحكومة غيظاً بجمعية الاتحاد والترقي التي كانت قوام الحكومة حينئذٍ، وخدموا العساكر وساقوها إلى ساحة أياصوفية حيث أرادوا الفتك بالنواب، ولكنهم بعد أن فتكوا بالأمير محمد أرسلان وناظم باشا ناظر العدليّة، وقع فيهم الرعب وبلغهم أن عساكر أخرى من أنصار الدستور أتية للاقتصاص منهم؛ فتفرّقوا ولكن فتكوا بكثيرين من أنصار الدستور وانتدب السلطان عبد الحميد توفيق باشا صدرًا أعظم مكان حسين حلمي باشا الصدر الذي وقعت عليه الثورة وتوارى عن الأنظار.

ولما بلغ الاتحاديين الذين كان مركزُ جمعيتهم سلانك ما وقع في الأستانة قرّروا الزحف إلى الأستانة بجيش سلانك، وانضم إليه جيش أدرنة، ونشر محمود شوكت باشا بياناً للأمة العثمانية عن الأسباب التي حملت على هذه الحركة؛ وهي أن الرجعيين ثاروا في العاصمة ونادوا بسقوط الحكومة الدستورية، وتجمعت العساكر التي أثاروها في ساحة مجلس النواب أو المبعوثين وقرّروا الفتك بهم، واستشهد بأيديهم الأئمة مبعوث الأمة محمد أرسلان بك وناظر العدليّة ناظم باشا؛ ولذلك يزحف جيش الحرية لإعادة الدستور وتوطيده والاقتصاص من الجناة.

ثم دخل الجيش ولم تحصل له مقاومة إلا أمام بعض الثكن والعسكرية؛ لأن السلطان خشي عاقبة الحرب الداخلية، وكان توفيق باشا الصدر الجديد أشار عليه بعدم

المقاومة تخفيفاً للشرِّ، فلما استولى جيش الحرّية على العاصمة أنقذ الاتحاديون أنور بك ومعه جماعة فأبغوا السلطان وجوب التخلّي عن الملك فلم يسعُه إلاّ الطاعة وأرسلوه إلى سلانيك؛ حيث تخصّص له قصر أقام به إلى ما قبل الحرب البلقانية بقليل، فردّوه إلى الأستانة وأنزلوه بقصر «بكلر بك» حيث مات سنة ١٩١٧. أما قصيدة أخي في محمود شوكت باشا فهي هذه:

محمود شوكت ما خشيتَ فُروقا	حتى مهدتَ من الصواب طَريقا
سقياً لهمَّتكَ التي قد شاكَلتْ	يوم المغار من الرياح خريقا
يا مَنْ تداركتَ الخلافة بعدما	أمسى بها الخطر الأجلُّ حقيقا
أسمع لقمري المديح وقد غدا	غصن النجاح بجانبك وريقا
بك قد أراد الله أن يمحو البلا	ويلمَّ شمل الدولة المفروقا
ما إن أتاح من الظلام دجنة	حتى أتاح من الهلال شروقا

ومنها:

لك عند أمتك التي أنقذتَها	فضلٌ يطوِّقُ جيدها تطويقا
أنحى عليها الخائنون بكئيدهم	فرددتَ سَهْمَ أذاهم المرشوقا
أنفوا من الشورى وطاب لديهم	قتلُ الكرام دعارة وفسوقا
خفقتْ قلوب الظالمين بقدر ما	شهدوا لمنصور اللواء خفوقا
سدرُوا فما أبقى التحيرُ ألسناً	منهم ولا أبقى التخوفُ سوقا
تلفاهمُ صفرُ الوجوه كأنهم	دهنوا المحاجر والجباه خلوقا

ومنها:

أمطرت من ديم المنايا بعدما	قدمت من لمع السيوف بروقا
لما أهنتَ القصرَ في شرفاته	أكرمتَ بيتاً في الحجاز عتيقا
بات المتوج في أسارك عنوة	سبحان من ترك العزيز رقيقا
وذعرت سرب الغيد في أكنانها	فغدا تناغيها لديك شهيقا
مَنْ للحسان وقد تميمس بنعمة	ما شارفت نكدًا ولا ترنيقا

جزعت على الدنيا عشيةً أنست      مما دهاها البين والتفريقا  
ورأت أزهرها بيلدز خُصِّبت      بدم يردُّ الياسمين شقيقا

إن شوقي وإن كان أودع خطابه للسلطان عبد الحميد ما أودعه من اللوم في القالب الجميل، لم ينس ولاءه للخليفة السابق الذي طالما تغنى بمدائحه؛ فلهذا أشار بوجوب توقيره وحفظ كرامته وتذكُّر إمامته والإغضاء عن سيئاته، متروكًا حسابه إلى الله الذي سيفصل فيه. وما زال شوقي يُوصي بالسلطان عبد الحميد في شخصه إلى الآخر، ولكن شوقي لم يكن يهمله السلطان عبد الحميد لأجل شخصه، بل لأجل منصب الخلافة الذي كان يتقلده وهو منصب تهوي إليه أفئدة جميع المسلمين، وهذا المنصب لا يزول بزوال عبد الحميد، بل قد شغله الآن أخوه السلطان محمد رشاد الذي بُويع سلطانًا وخليفة باسم محمد الخامس، فالشاعر الإسلامي الأمين عملاً بمبدئه الذي لا يجيد عنه يودع السلف ويحيي الخلف؛ لأن الخلافة يجب أن تبقى. وهو يهدي إلى الخليفة الجديد سلام أهل مصر الذين بايعوه في من بايعه من الأمة الإسلامية، فيقول:

المؤمنون بمصر يهـ      دونَ السلامِ إلى الأمير  
ويُبايعونك يا محمَّ      دُ في الضمائر والصدور  
قد أمَلوا لهلالهم      حظَّ الأهلة في المسير  
فابلُغْ به أوجَ الكما      ل بقوَّة الله النصير  
أنتَ الكبير يقلدو      نك سيف عثمان الكبير  
شيخ الغزاة الفاتحـ      ن حسامه شيخ الذكور

يهنئ السلطان محمدًا الخامس بتقليده سيف آل عثمان، ومن عادة هذا البيت الكريم أنهم عند مبايعة السلطان يقلدونه سيف جدّه عثمان وذلك في حفلة عظيمة تُقام في مقام الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري — رضي الله عنه — المدفون كما لا يخفى في آخر خليج استانبول. ويكون الذي يقلد السلطان هذا السيف شيخ الطريقة المولوية المنسوبة إلى مولانا جلال الدين الرومي، يستدعونه من قونية إلى الأستانة ليقوم بهذا التقليد، وهي عادة قديمة لم يريدوا أن يغيروها طول الدهر حتى تولّى السلطان محمد وحيد الدين المُلقَّب بمحمد السادس وهو السلطان الأخير من بني عثمان، فلما جرت حفلة

تقليد السيف في مقام أبي أيوب الأنصاري وذلك في السنة الأخيرة من الحرب العامة، كان المجاهد الكبير السيد أحمد الشريف السنوسي قد قدم بغواصة من طرابلس الغرب إلى الآستانة، فأثر السلطان أن يجعل تقليده سيف آل عثمان من يد السيد السنوسي رضي الله عنه، ثم يقول:

م العادل النَّزَه الجدير	بشرى الخلافة بالإِما
إسلام من حُفِر القبور	الباعث الدستور في الـ
وبعَثْتَه قبل النشور	أودى معاويةً به
نورٌ تَلَأَّ فوق نور	فعلى الخلافة منكما

يقول شوقي لمحمد الخامس: إن الحكم المقيّد قد بُعث في أيامك بعد أن كان الخليفة معاوية بن أبي سفيان قد طوى بساطه، فأنت نشرته من جديد وأنشأته استتناًفاً. يشير إلى أن الحكم الشوروي لم يَسْتَبَّ إلا مدة الرسول عليه السلام وخلفائه الراشدين الأربعة رضي الله عنهم، وبعد ذلك جاء معاوية فحوّل الخلافة إلى مُلك عضوض، وجعلها بالإرث لا بالانتخاب، والله وارث الأرض ومن عليها.

### (٣٥) قصيدة لشوقي في النسب ومعارضتها لأخي نسيب

هذا ومن قصائد شوقي في النسب قوله:

مضناك جفاه مرقده	وبكاه ورحم عوده
حَيْرَان القلبِ مُعَدِّبُهُ	مقروح الجفن مُسَهِّدُهُ
أودى حرقاً إلا رمقا	يبقيه عليك وتنفده
يستهوِي الورق تَأوُّهه	ويذيب الصخر تنهُّده
ويناجي النجم ويَتعبه	ويُقيم الليل ويُقَعِّده
ويعلم كلَّ مُطوْفة	شجنًا في الدوح تردُّده
كم مدَّ لطيفك من شَرِك	وتأدب لا يتصيده
فعساک بغمض مسعفه	ولعل خيالك مُسَعِّدُهُ
الحسن حلفت بيؤسُفه	والسورة أنك مفرده



أمثال من شعر شوقي

قد ودَّ جمالك أو قبسًا      حوراء الخلد وأمرده  
وتمنّت كلُّ مقطعةٍ      يدها لو تُبعث تشهده

أي صواحيب امرأة العزيز اللواتي قطعن أيديهنّ لما رأين يوسف.

جحدت عيناك زكيّ دمي	أكذلك خدك يجحده
قد عزّ شهودي إذ رمنا	فأشرتُ لخدك أشهده
وهممتُ بجيدك أشركه	فأبى واستكبر أصيدُه
وهزرتُ قوامك أعطفه	فنبأ وتمنّع أملده
سبّب لرضاك أمهده	ما بال الخصر يعقده
بيني في الحبّ وبينك ما	لا يقدرُ وإش يفسده
ما بال العازل يفتح لي	باب السلوان وأوصده
ويقول تكاد تُجنّ به	فأقول وأوشك أعبدُه
مولاي وروحي في يده	قد ضيّعها سلّمت يده
ناقوس القلب يدق له	وحنايا الأضلع معبده
قسماً بثنايا لؤلؤها	قسم الياقوت منضده
ورضاب يوعده كوثره	مقتول العشق ومشهده
وبخالٍ كاد يحجّ له	لو كان يقبل أسوده
وقوام يروي الغصن له	نسباً والرمح يفتده
وبخصر أوهن من جلدي	وعوادي الهجر تبدده
ما خنتُ هواك ولا خطرتُ	سلوى بالقلب تبرده

وقد عارضها أخي نسيب بهذه القصيدة التي أحببت أن أعرضها للقراء في جانب  
قصيدة شوقي، وهي هذه:

مضناك عصاه تجلده	هل أنت بعطفك منجده
منهوك الجسم به كمد	إحناء الأضلع موقده
ترجيع الورق يهيجه	ووميض البرق يسهده
وله نفس لو ما خفقت	أحشاه لعزّ تردده

دَنَفٍ يَتَهَامِسُ عُوْدَهُ      إِنَّ تَهَجُّرَهُ فَعَزَاؤُكَ فِي  
 قَدْ زَوَّدَ نوركَ فَرَقْدَهُ      لَا يَسْرِي طَيْفُكَ فِي غَلَسِ  
 يَسْتَبْكِي الصَّخْرَ تَوَجُّدَهُ      مَا حَالُ فَوَادِي فِي شَغَفِ  
 وَيُرْوَحُ الخَدَّ يَخْدُدَهُ      إِذْ يَغْدُو الصَّدْغُ يَصَدُّعَهُ  
 فَيَقُومُ الفِرْعَ يَصْفِدَهُ      وَيَكْرِ الطرفَ فَيَأْسِرُهُ  
 لَوْلَا الأَمَالَ تَكْمُدَهُ      وَالصَّدُّ لَهُ جَرَحُ جَلَلِ  
 يَشْقِيهِ الحَبُّ وَيُسْعِدُهُ      أَفْئِدِي مَوْلَايَ فِكَلُّ فِتْيِ  
 فَوْزًا يَتَقَطَّعُ حُسْدَهُ      كَمْ فَزَتْ بِمَرَأَى طَلْعَتِهِ  
 سَكْرًا مَا فَاهُ مُعْرِبُهُ      وَسَكْرَتُ بَرَاخِ شِمَائِلِهِ  
 أَتْرَى شَكْوَايَ تَوُوْدَهُ      غُصْنُ أَغْرَتْنِي رِقَّتِهِ  
 يَهْوَى الأَغْصَانَ مَغْرُدَهُ      وَالشَّعْرَ صَدَاحِ فِي وَلِهِ

أقول: ما يخالج نفسي عند قراءة هذا الشعر سواء المعارض أو المعارض، وهو أنه ليس فيه كبير أمر، وأن هناك صنعة تعمدها الشاعران اللذان قيدهما هذا الوزن، فأصبحا له أسيرين يسخران له المعاني ويجزان القوافي. ولا جرم أن الوزن والقافية طالما حكما على الشاعر وسلباه حرية التصرف في إبراز معانيه كيف شاء؛ ولهذا كان أطول الشعراء باعًا وأعلامهم درجةً من تراه حراً وهو مُقَيَّدٌ، ولكن بحرًا كهذا الذي نظما عليه، وإن كان مرقصًا يعجب القارئ بمقاطعه ويلدُّ بحبِّيه، ترى الشاعر فيه راسفًا في قيد ثقيل يمنعه أن يجري جريه المعتاد.

### (٣٦) قصيدة شوقي في شكسبير

ولشوقي قصيدة في شكسبير بالغ بها في مدح عظمة الإنكليز، فقال:

أعلى الممالك ما كُرْسِيُهُ الماء      وما دَعَامَتُهُ بالحقِّ شَمَاءُ  
 يا جيرة المنش حلاكم أبوتكم      ما لم يطوق به الأبناء آباءُ  
 مُلْكٌ يُطَاوِلُ مُلْكَ الشَّمْسِ عِزَّتُهُ      فِي الغَرْبِ بَادِخَةٌ فِي الشَّرْقِ قَعْسَاءُ  
 تأوي الحقيقةً منه والحقوق إلى      رُكْنٍ بِنَاهُ مِنَ الأَخْلَاقِ بِنَاءُ

أعلاه بالنظر العالي ونطقه  
وحاطه بالقنا فتیان مملكة  
يستصرخون ويرجى فضل نجدتهم  
ودولة لا يراها الظن من سعة  
عصماء لا سبب الرحمن مطرح  
تلك الجزائر كانت تحتهم ركنًا  
وكان ودّهم الصافي ونصرتهم  
بحائط الرأي أشياخ أجلاء  
في السلم زهر ربي في الروع أرياء  
كأنهم عرب في الدهر غرباء  
ولا وراء مداها فيه علياء  
فيها ولا رجم الإنسان قطعاء  
وراءهن لباعي الصيد عنقاء  
للمسلمين وراعيهم كما شاءوا

لا نزاع في عظمة الإنكليز الماديّة، وفي كثير من عظمتهم المعنويّة، وإن كانت هذه قد  
غدت تتضاءل في نظر الناس شيئاً فشيئاً، وصار ثوبها يشفُ عمّا تحته. وعلى كلّ حال  
فقد أصاب شوقي بتقيد ودّ الإنكليز الصافي للمسلمين بفعل «كان»؛ إذ إننا إذا نظرنا إلى  
العصر الأخير لا نجد لهذا الودّ أثرًا يستحقُّ أن ينوّه به، ثم قال في شكسبير:

ما أنجبت مثل شيكسبير حاضرة  
نالت به وحده إنكلترا شرفاً  
ولا نمت من كريم الطير غناءً  
ما لم تنل بالنجوم الكثر جوزاءً

كان كارليل يقول: إن شكسبير أفضل عندنا من الهند.

لم تكشف النفس لولاه ولا بليت  
شعر من النسق الأعلى يؤيده  
لها سرائر لا تحصى وأهواء  
من جانب الله إلهام وإيحاء

سبق لي كلامٌ نقله المنفلوطي، وهو أن الشعر هو من الوحي بمكان الدرجة الثانية  
من العلياء.

ثم إنه يخاطب شكسبير، فيقول له: قد أفضيت إلينا عن الحياة بأسرارٍ لم يكشفها  
حتى الآن شاعر قبلك، فهل تقدر أن تفضي إلينا بشيء عما بعد الحياة؟ فإن السرّ هو هنا.

يا صاحب العصر الخالي ألا خبر  
أما الحياة فأمرٌ قد وصفت لنا  
عن عالم الموت يرويه الألباء  
فهل لِمَا بعدُ تمثيلٌ وإدناء

ثم يسأله عن جمجمته ماذا جرى عليها بعد موته، فيقول:

بَمَنْ أَمَاتَكَ قُلْ لِي كَيْفَ جُمِّمَتْهُ  
كَانَتْ سَمَاءً بَيَانٍ غَيْرِ مُقْلَعَةٍ  
عَبْرَاءَ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ جَوْفَاءَ  
شُؤْبُوبَهَا عَسَلٌ صَافٍ وَصَهْبَاءَ  
جَفْتَهُ رِيحَانَةٌ لِلشَّعْرِ فَيَحَاءَ  
فَأَصْبَحْتَ كَأَصْيِصٍ غَيْرِ مَفْتَقَدِ

الأصيص نصف الجرّة يُزْرَعُ فِيهَا الرِّيحَاتِينَ.

وَكَيْفَ بَاتَ لِسَانٌ لَمْ يَدْعُ غَرْضًا  
عَفَا فَأَمْسَى ذَنَابِي عَقْرِبٍ بَلِيَّتِ  
وَمَا الَّذِي صَنَعْتَ أَيْدِي الْبَلْبَى بِيَدِ  
فِي كُلِّ أُنْمَلَةٍ مِنْهَا إِذَا انْبَجَسَتْ  
وَأَيْنَ تَحْتَ الثَّرَى قَلْبٌ جَوَانِبُهُ  
تَصْغِي إِلَى دَقِّهِ أذنَ الْبَيَانِ كَمَا  
لَنْ تَمْشِيَ الْبَلْبَى تَحْتَ التَّرَابِ بِهِ  
وَلَمْ تَفْتَهُ مِنَ الْبَاغِينَ عَوْرَاءَ  
وَسُمُّهَا فِي عُرُوقِ الظُّلْمِ مِشَاءَ  
لَهَا إِلَى الْعَيْبِ بِالْأَقْلَامِ إِيمَاءَ  
بَرْقٌ وَرَعْدٌ وَأَرْوَاحٌ وَأَنْوَاءَ  
كَأَنَّهُنَّ لَوَادِي الْحَقِّ أَرْجَاءَ  
إِلَى النُّوَاقِيسِ لِلرَّهْبَانِ إِصْغَاءَ  
لَا يُؤَكِّلُ اللَّيْثُ إِلَّا وَهُوَ أَشْلَاءَ

وصف جمجمة شكسبير بما لم يصف به شاعرٌ رأسَ شاعرٍ، وقال إن رأسًا جبّارًا كهذا الرأس لا يسطو عليه إلا الثرى الذي يجعله أجزاءً كالليث لا يُؤكّل إلا إذا صار أشلاء. ومن أحسن ما ورد في هذه القصيدة ذكره للمدنيّة العصريّة التي كان ترقّي الإنسان فيها بالعلم سببًا لزيادة تفنّنه في ضروب القتل والإفناء، فهو يقول:

يَا وَاصِفَ الدَّمِ يَجْرِي هَا هُنَا وَهُنَا قُمْ انظُرِ الدَّمَ فَهُوَ الْيَوْمَ دَأْمَاءَ

قال: يا شكسبير قد كنتَ تصفِ الدَّمِ يَجْرِي مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَاكَ أَشْبَهَ بِجَدَاوِلٍ وَتَجِدُ ذَلِكَ فَظِيْعًا، فقم اليوم وانظر الدَّمِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِجَدَاوِلٍ وَلَا بِأَنْهَارٍ وَلَكِنَّهُ دَأْمَاءٌ؛ أَي بَحْرٍ عَجَاجٍ مُتَلَاظِمٍ بِالْأَمْوَاجِ، ثُمَّ قَالَ:

لَأَمْوَكٌ فِي جَعْلِكَ الْإِنْسَانَ ذَنْبٌ دَمٍ  
وَقِيلَ أَكْثَرَ ذِكْرِ الْقَتْلِ ثُمَّ أَتَوْا  
وَالْيَوْمَ تَبْدُو لَهُمْ مِنْ ذَاكَ أَشْيَاءَ  
وَالْيَوْمَ عِلْمُهُمُ الرَّاqِي هُوَ الدَّاءُ  
مَا لَمْ تَسْعُهُ حَيَالَاتٌ وَأَنْبَاءُ  
كَانُوا الذَّنَابَ وَكَانَ الْجَهْلُ دَاءَهُمْ

(٣٧) قصيدة شوقي في كتاب حافظ عوض عن تاريخ مصر الحديث

ولشوقي أبياتٌ في كتاب فَتَحَ مصر الحديث للأستاذ الفاضل السياسي المُحَنِّكَ حافظ بك عوض، يبدأ فيها بذكر صاحب الأمين الذي هو الكتاب، فيقول:

أنا مَنْ بَدَّلَ بِالكَتَبِ الصَّحَابَا      لم أَجِدْ لي وَافِيًا إِلَّا الْكِتَابَا  
صَاحِبٌ إِنْ عَيْتَهُ أَوْ لَمْ تَعِبْ      ليس بِالوَاجِدِ لِلصَّاحِبِ عَابَا  
صَالِحِ الْإِخْوَانِ يَبْغِيكَ التَّقَى      ورشيدُ الكُتُبِ يَبْغِيكَ الصَّوَابَا

ثم اختص التاريخ من بين الكتب بزيادة الإجلال، فقال:

غَالٍ بِالتَّارِيخِ وَاجْعَلْ صُحْفَه      من كِتَابِ اللّهِ فِي الْإِجْلَالِ قَابَا  
وَاطْلُبِ الخُلْدَ وَرُومَه مَنْزِلًا      تَجِدِ الخُلْدَ مِنَ التَّارِيخِ بَابَا  
عَاشَ خَلَقَ وَمَضُوا مَا نَقَصُوا      رَقْعَةَ الأَرْضِ وَلَا زَادُوا التُّرَابَا  
أَخَذَ التَّارِيخَ مِمَّا تَرَكَوَا      عَمَلًا أَحْسَنَ أَوْ قَوْلًا أَصَابَا

يقول: كم عاش أُمم وأقوام ومضوا فما قدروا أن ينقصوا الأرض ولا أن يزيدوها حبةً تراب، وإنما تركوا ما حفظه لهم التاريخ لا غير، وهو كما قال الآخر وهو ابن دريد:

وإنما المرء حديثٌ بعده      فكنُ حديثًا حسنًا لمن وعى

ثم يصف القوم بدون تاريخ لهم، فيقول:

مثل القومِ نُسُوا تَارِيخَهُمْ      كَلَقِيطٍ عِيٍّ فِي النَّاسِ انْتِسَابَا  
أَوْ كَمَغْلُوبٍ عَلَى ذَاكِرَةٍ      يَشْتَكِي مِنْ صِلَةِ المَاضِي انْقِضَابَا

ثم يصف العربية الفصحى — أيَّ الله سُلْطَانَهَا — فيقول:

إِنَّ لِلْفَصْحَى زَمَامًا وَيَدًا      تَجَنَّبَ السَّهْلَ وَتَقَتَّادَ الصَّعَابَا  
لِغَةِ الذُّكْرِ لِسَانَ الْمُجْتَبَى      كَيْفَ تَعْيَا بِالمَنَادِينَ جَوَابَا  
كُلُّ عَصْرٍ دَارَهَا إِنْ صَادَفَتْ      مَنْزِلًا رَحْبًا وَأَهْلًا وَجَنَابَا

يقول: إن لغة القرآن ولسان المصطفى — عليه السلام — ليست باللغة التي يعيها  
إجابة من يناديها إلى البيان عن صَرْبٍ من ضروب القول والإعراب عن خالَجٍ مهما دَقَّ من  
خوالج النفس، وهي لعمري مليئة بحوائج كلِّ عصر بشرط أن تجدَ مَنْ يُحسِّن الاطلاع  
على دقائقها والاضطلاع بحقائقها، ثم يذكر كيف كان الأزهر هو الكوكب الوحيد في دجنة  
أيام الممالِك فيقول:

ظُلُمَاتٌ لَا تَرَى فِي جَنَحِهَا	غَيْرَ هَذَا الْأَزْهَرِ السَّمْحِ شَهَابَا
زَيْدَتِ الْأَخْلَاقَ فِيهِ حَائِطًا	فَاحْتَمَى فِيهَا رَوَاقًا وَقِيَابَا
قَسَمًا لَوْلَاهُ لَمْ يَبْقَ بِهَا	رَجُلٌ يَقْرَأُ أَوْ يَدْرِي كِتَابَا

ولشوقي وصف للجبرتي المؤرَّخ ينطبق عليه أحسن انطباق، فهو يقول عنه:

صُحِفَ الشَّيْخَ وَيَوْمِيَّاتِهِ	كزمانِ الشَّيْخِ سُقَمًا وَاضْطِرَابَا
مِنْ حَوَائِشِ كَجَلِيدٍ لَمْ يَدُبْ	وَفُصُولِ تُشْبِهِ التُّبْرِ الْمُدَابَا
وَالجَبْرَتِيُّ عَلَى فِطْنَتِهِ	مَرَّةً يَغْبَى وَحِينًا يَتَغَابَى

أي إنه يجمع الفِطْنَةَ والغباوة في نسق واحد، وهو من الأصل فطن شديد الذكاء، إلا  
أنه قد يتغابي أحياناً بحسب غرضه.

ثم يذكر أيام مصر في حروبها، فقال إن المصريين فيها لهم وعليهم؛ ففي وقعة  
نصيبين التي يقول لها الأتراك وقعة نَزب لبسوا رداء الفخر، وفي وقعة التل الكبير التي  
على أثرها احتل الإنكليز مصر التحفوا رداء الذل، ثم ذكر وقعة الأهرام ووصف جيش  
نابليون فقال:

شهد الجيزي <sup>٢</sup> منهم عصبه	لبسوا الغار على الغار اعتصابا
كذئاب القفر من طول الوغى	واختلاف النَّقْعِ لَوْنًا وَإِهَابَا
قادمهم للفتح في الأرض فتى	لو تأنى حظه قاد السحابا

<sup>٢</sup> هَرَمَ الجيزة.

ثم ذكر عَجَزَ المصريين يوم أَقْتَحَمَ بلادهم بونابرت، فقال:

وبنو الوادي رجالاتِ الجِمي      وقفوا من ساقَةِ الجيشِ ذُنابي  
موقفِ العاجزِ من خلفِ الوغى      يحرس الأحمالِ أو يسقي مُصابا

### (٣٨) زهرية مرنان لشوقي

هذا ولما كان شوقي يأبى إلا أن يُجيد في كلِّ لونٍ من ألوانِ التأثُرِ بمظاهرِ الحياةِ عالِجٌ  
أيضاً الزهريات بما يناسبها من شعره نَضارةً ورَوْنَقاً، فقال في الربيع:

أَذَارُ أَقْبَلَ قَمُ بِنَا يَا صَاحِ      حيِّ الرَبِيعِ حَديقَةَ الأرواحِ  
وَاجِمْ نَدَامَى الظُّرْفِ تَحْتَ لَوَائِهِ      وانشِرْ بِسَاحَتِهِ بِساطِ الرَاحِ  
صَفُوْ أُنَيِّحْ فَحْذُ لِنَفْسِكَ قَسْطِهَا      فَالصَّفُوْ لَيْسَ عَلى المَدَى بِمُتَاحِ  
وَاجِلسْ بِضَاحِكَةِ الرِّياضِ مُصَفِّقًا      لِتَجَاوِبِ الأوتارِ والأقْداحِ  
وَاسْتَأْنَسَنَّ مِنَ السَّقَاةِ بِرَفِيقَةِ      غَرٍّ كَأَمثالِ النُجومِ صَباحِ  
وَاجْعَلْ صَبوحَكَ فِي البُكُورِ سَليلاً      لِلْمُنْجِبِينَ: الكَرَمِ والتَفَاحِ

ثم يذكر الحمام فيقول:

بِيبِضِ القِلاَنَسِ فِي سِوَادِ جِلاِبِ      حُلِيِّنَ بِالأَطْواقِ والأَوْضاحِ  
رَتَّلَنَّ فِي أوراَقِهِنَّ مَلاحِنًا      كالأَراهِباتِ صَبيحةِ الإِفْصاحِ

ثم يقول عن الربيع:

مَلِكُ النَباتِ فَكَلُّ أَرْضِ دارِهِ      تَلقاهُ بِالأَعراسِ والأَفْراحِ  
مَنْشُورَةٌ أعلامُهُ مِنَ أَحْمَرِ      قانِ وَأَبِيبِضِ فِي الرُّبى لِمَاحِ  
لَيْسَتْ لِمَقْدَمِهِ الخِمالُ وَشَيبِها      وَمَرْحَنٌ فِي كَنَفِ لِهِ وَجِناحِ  
يَغشى المَنازِلَ مِنَ لَواجِظِ نُرْجِسِ      أَنّا وَأنا مِنَ ثَغورِ أَقْباحِ  
ورِءوسِ مَنْثورِ خَفْضَنَ لِعِزِّهِ      تَيجانَهُنَّ عَواطِرِ الأَرواحِ  
الوردِ فِي سِرِّ الغِصونِ مُفْتَحِ      مَتقابِلِ يَثْني عَلى الفِتاحِ

مرَّ النسيم بَصَفَحْتِيهِ مَقْبَلًا  
هَتَكَ الرَّدَى مِنْ حُسْنِهِ وَبِهَائِهِ  
يَنْبِيكَ مَضْرَعُهُ وَكُلُّ زَائِلٍ  
وَيَقَائِقُ النَّسْرِينَ فِي أَغْصَانِهَا  
وَالْيَاسْمِينَ نَقِيَّهُ وَلَطِيفِهِ  
مَتَأَلَّقَ خَلَلَ الْغُصُونِ كَأَنَّهُ  
وَالجُلْنَارِ دَمٌّ عَلَى أَوْرَاقِهِ  
وَكَأَنَّ مَحْزُونَ الْبَنْفَسِجِ تَأْكِلُ  
وَالسَّرْوِ فِي الْحَبْرِ السَّوَابِغِ كَاشِفِ  
وَالنَّخْلِ مَمَشُوقِ الْقُدُودِ مَعْصَبِ  
كِبْنَاتِ فِرْعَوْنَ شَهْدَنْ مَوَاكِبًا  
وَتَرَى الْفِضَاءَ كَحَائِطٍ مِنْ مَرْمَرِ  
الْغَيْمِ فِيهِ كَالنَّعَامِ بِدِينَةِ

مَرَّ الشِّفَاهِ عَلَى خُدُودِ مَلَا حِ  
بِاللَّيْلِ مَا نَسَجَتْ يَدُ الْإِصْبَاحِ  
أَنَّ الْحَيَاةَ كَغَدُودَةٍ وَرَوَاحِ  
كَالِدَرِّ رُكِّبَ فِي صَدُورِ رَمَاحِ  
كَسَرِيرَةٍ الْمَتَنَزَّهِ الْمَسْمَاحِ  
فِي بُلْجَةِ الْأَفْنَانِ ضُوءِ صَبَاحِ  
قَانِي الْحُرُوفِ كَخَاتِمِ السَّفَاحِ  
يَلْقَى الْقَضَاءَ بِخَشْيَةٍ وَصَلَاحِ  
عَنْ سَاقِهِ كَمَلِيحَةٍ مِفْرَاحِ  
مَتَزَيِّنٍ بِمَنَاطِقِ وَوَشَاحِ  
تَحْتَ الْمَرَاوِحِ فِي نَهَارِ ضَاحِ  
نُضِدَتْ عَلَيْهِ بَدَائِعُ الْأَلْوَاحِ  
بَرَكَتٍ وَأُخْرَى حَلَّقَتْ بِجَنَاحِ

إلى أن يقول في وصف السواقي التي ترفع الماء:

وجرت سواقي كالنوادب بالقري  
الشاكيات وما عرَفْنَ صِبَابَةَ  
من كلِّ بادية الضلوع غَلِيْلَةَ  
رُعْنَ الشَّجَى بِأَنَّةٍ وَنَوَاحِ  
الْبَاكِيَاتِ بِمَدْمَعِ سَحَاحِ  
وَالْمَاءِ فِي أَحْشَائِهَا مِلْوَاحِ

وما زال الشعراء يصفون أنين السواقي والنواعير، وأشهر هذه في الأنين والبكاء نواعير مدينة حماة على وادي العاصي التي صارت مَضْرَبَ الْمَثَلِ؛ لارتفاع دواليبها التي قد يبلغ الواحد منها ثمانية أمتار، فيكون لها أنينٌ يُسْمَعُ إِلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، هَذَا وَلَيْسَ فِي زَهْرِيَّاتِ الشَّعْرَاءِ أَجْمَعُ مَا يَبْدُو زَهْرِيَّةً شَوْقِي هَذِهِ الَّتِي قَدَّمَهَا إِلَى الْكَاتِبِ الرَّوَائِي الشَّهِيرِ «هول كين»، وختمها بخطاب له يقول فيه:

«هول كين» مصر رواية لا تنتهي  
فيها من البرديِّ والمزمور والتَّ  
«ومنا» و«قمببب» إلى إسكندر  
منها يَدُ الْكُتَّابِ وَالشُّرَّاحِ  
سُورَةٍ وَالْفِرْقَانِ وَالْإِصْحَاحِ  
فَالْقَيْصَرِينَ فَنَدَى الْجَلَالِ صِلَاحِ



يريد بصلاح صلاح الدين الأيوبي بعد ذكره أعظم من ملكوا مصر، ثم يقول لهذا الكاتب العظيم:

تلك الخلائق والدهور خزانة فابعث خيالك يأت بالمفتاح

### (٣٩) قصيدة شوقي في مسجد أيا صوفيا

وله في مسجد أيا صوفيا:

كنيسة صارت إلى مسجد  
كانت لعيسى حرماً فانتهدت  
شيدها الروم وأقيالهم  
تنبئ عن عز وعن صولة  
مجامر الياقوت في صحنها  
ومثل ما قد أودعت من حلى  
كانت بها العذراء من فضة  
عيسى من الأم لدى هالة  
جلأهما فيها وحلاهما

هدية السيد للسيد  
بنصرة الروح إلى أحمد  
على مثال الهرم المخلد  
وعن هوى للدين لم يخمد  
تملؤه من ندها الموقد  
لم تتخذ داراً ولم تحشد  
وكان روح الله من عسجد  
والأم من عيسى لدى فرقد  
مصور الروم القدير اليد

ومنها:

قد جاءها «الفتاح» في عضية  
رمى بهم بئنانها مثل ما  
وما تواني الروم يفدونها

من الأسود الرُكع السُجّد  
يضطدم الجلمد بالجلمد  
والسيف في المفدي والمفندي

ثم يقول عن السلطان محمد الفاتح:

بفاتح غاز عفيف القنا  
أجار من ألقى مقاليد  
وناب عما كان من زُخرف

لا يحمل الحقد ولا يعتدي  
منهم وأضفى الأمن للمرتدي  
جلالة المعبود في المعبد

فيا لثأرٍ بيننا بعده أقام لم يقرب ولم يبعد  
 باقٍ كثأر القدس من قبله لا ننتهي منه ولا يبتدي  
 فلا يغرنك سكون الملا فالشرُّ حول الصارم المُعمَدِ

إنني أرى المختار من شعر شوقي إنما يكثر في الأوابد ووصف المباني والمشاهد، وكلُّ ما له صلة بالتاريخ؛ فلذلك يعلو في هذه السَّمَوَاتِ ما لا يعلو في غيرها، فشعره في المواضيع التاريخية والملاحم ينحطُّ عنه كلُّ سيلِ بلاغة، ولا يرتقي إليه طَيْرُ فصاحة؛ ولذلك أُفضِّلُ قصائده في هذه المقامات الهائلة على قصائده في الغزل والنسيب والرتاء والمديح مع رِقَّةِ الأولى وجزالة الثانية.

وانظر الآن إلى قصيدته السينية الأندلسية، فإن شوقي في أيام الحرب الكبرى قد ارتحل إلى الأندلس وزار أفرح مآثر العرب فيها، قال: وكان البحري — رحمه الله — رفيقي في هذا الترحال وسميري في الرحال، فإنه أبلغ من حلي الأثر وحيي الحجر ونشر الخبر وحشر العبر، ومن قام في مآتم على الدول الكبر ... إلخ، ثم استشهد بالعماد الأصفهاني صاحب «الفتح القسي في الفتح القدسي»، وهو قوله: فانظروا إلى إيوان كسرى وسينية البحري في وصفه تجدوا الإيوان قد خزت شعفاته وعفرت شرفاته، وتجدوا سينية البحري قد بقي بها كسرى في ديوانه أضعاف ما بقي شخصه في إيوانه هـ.

قلت: من حيث أراد شوقي معارضة البحري في سينيته الكسروية فيحسن أن نورد قصيدة البحري هذه وبعدها قصيدة شوقي ثم نقابل بينهما. ولا يعيب شوقي إن قصر عن البحري في مداه البعيد؛ والبحري ثالث ثلاثة مع أبي تمام والمتنبي.

#### (٤٠) سينية البحري في إيوان كسرى

صُنْتُ نفسي عما يدنسُ نفسي وترفَعْتُ عن جدا كلِّ جبس  
 وتماسكْتُ حين زعزعتني الدهـ بلعُ من صبابة العيش عندي  
 ورُ التماساً منه لتعسي ونكسي طَفَّقْنَهَا أَيَّامَ تَطْفِيفِ بَخْسِ  
 وبعيد ما بين وِردِ رفهِ وكأنَّ الزمانَ أصبحَ محمو  
 عَلِّلِ شُربَهُ ووارِدِ خمسِ واشترائي العِراقَ حُطَّةً غِبِنِ  
 لَأَ هَوَاهُ مَعَ الأَخْسِ الأَخْسِ بعد بيعي الشَّامَ بيعةً وكَسِ

لا تزرني مزاولا لاختباري  
وقديماً عهدتني ذا هنات  
ولقد رابني نبوؤ ابن عمي  
وإذا ما جفيت كنت حرياً  
حَصْرَتْ رِحْلِي الهمومُ فوجَّهَتْ  
أَتَسَلَّى عن الحظوظِ وَأَسَى  
ذَكَرْتَنِيهِم الخُطوبِ التَّوَالِي  
وَهُمْ خَافِضُونَ فِي ظِلِّ عَالٍ  
مَغْلُوقِ بَابِهِ عَلَى جَبَلِ الْقَبْرِ  
حَلَلٌ لَمْ تَكُنْ كَأَطْلَالِ سَعْدِي  
وَمَسَاعٍ لَوْلَا المَحَابَاةُ مَنِّي  
نَقَلَ الدهرُ عَهْدَهُنَّ عَنِ الجِدِّ  
فَكَأَنَّ الجِرْمَاذَ مِنْ عَدَمِ الأَنْدِ

عند هذي البلوى فتُنكر مسي  
آبيات على الدنيئات شمس  
بعد لين من جانبيه وأنس  
أن أرى غير مُصبحٍ حيث أمسي  
تُ إلى أبيض المدائن عنسي  
لمحل من آل ساسان دُرس  
ولقد تُذكر الخطوب وتُنسي  
مشرف يحسر العيون ويُخسي  
ق إلى دارتي خلاط ومكس  
في قفار من البسابس مُلس  
لم تُطقها مسعاة عنسٍ وعبس  
ة حتّى غدوّ أنضاء لبس  
س وإخلاله بنية رمس

الجرماز بالكسر بناء عظيم كان عند أبيض المدائن وقد عفا أثره، جاء ذلك في تاج العروس. وقد أشرنا إلى هذا عمداً؛ لأنه لا يوجد في العربي لفظ الجرماز، وإنما يوجد الجرmoz، قالوا عنه إنه الحوض المُتخذ في قاعٍ أو روضة ويكون مرتفع الأعضاء فيسيل منه الماء ثم يفرغ بعد ذلك. وقيل الجرmoz البيت الصغير وقيل الجرmoz الركيّة، فوجب التنبيه إلى أن الجرماز مكان معين.

لو تراه علمت أن الليالي  
وهو ينبيك عن عجائب قوم  
فإذا ما رأيت صورة أنطاً  
والمنايا موائل وأنوشر

جَعَلَتْ فِيهِ مَأْتَمًا بَعْدَ عُرْسٍ  
لَا يُشَابُ البِيَانُ فِيهِمْ بِلبْسٍ  
كِيَةً ارْتَعَتَ بَيْنَ رُومٍ وَفِرْسٍ  
وَأَنْ يَزْجِي الصَّفُوفَ تَحْتَ الدَّرْفُسِ

الدرفس كدمقس، وهو العلم الكبير وقد قالوا إن هذا البيت هو بيت هذه القصيدة.

في اخضرارٍ من اللباس على أض  
وعراك الرجال بين يديه

فَرَّ يَخْتَالُ فِي صَبِيغَةِ وَرْسٍ  
فِي خَفْوَتِ مَنْهَمٍ وَإِغْمَاضِ جَرِسٍ

من مُشِيحٍ يهوي بعاملٍ رُمِحِ  
تصفُ العينُ أنهم جدُّ أحياءِ  
يفتلي فيهمُ ارتيابي حتى  
قد سقاني ولم يصردُّ أبو الغو  
من مُدامٍ تقولها هي نجمٌ  
وتراها إذا أجدتُ سرورًا  
أفرغتُ في الزجاج من كلِّ قلبٍ  
وتوهمتُ أن كسرى أبرويـ

ومُليحٍ من السنانِ بئرسِ  
ء لهم بينهم إشارة خرسِ  
تتقراهمُ يداي بلمسِ  
ث على العسكرين شربة خلسِ  
أضوا الليل، أو مجاجة شمسِ  
وارتياحًا للشارب المتحسِّي  
فهي محبوبَةٌ إلى كلِّ نفسِ  
ز معاطيِّ والبلهبد أنسي

ما اهتديت إلى الآن إلى معنى البلهبد الذي هو لفظ فارسي فيما يظهر.

حلمٌ مطبوقٌ على الشكِّ عيني  
وكأن الإيوان من عجب الصند  
يتضنى من الكآبة أن يبـ  
مزعجًا بالفراق عن أنسِ ألفِ  
عكستُ حظَّه الليالي وبات الـ  
فهو يبدي تجلُّدًا وعليه  
لم يعبه أن بزَّ من بسط الديـ  
مشمخرٌ تعلو له شرفات  
لابسات من البياض فما تبـ

أم أمانٍ غيرنَ ظنِّي وحدسي  
عة جوبٌ في جنب أرعن جلسِ  
دو لعيني مُصبحٍ أو ممسي  
عزٌّ أو مرهقًا بتطليق عرسِ  
مُشتري فيه وهو كوكب نحسِ  
كلكلٌ من كلاكل الدهر مُرسي  
باجٍ وأسئلٌ من سُتور الدمقسِ  
رُفعت في رعوس رضوى وقُدسِ  
صِر منها إلا غلائل بُرسِ

البرس هو القطن، والغلائل جمع غلالة بالكسر وهو شعار يلبس تحت الثوب وتحت الدرع، ويجوز أن يكون «فلائل» جمع فليلة وهو الشعر المجتمع، ولكن الأول هو الأقرب.

ليس يُدرى أ صنُعُ إنسٍ لجن  
غير أنني أراه يشهد أن لم  
فكأنني أرى المراتب والقو  
وكأن الوفود ضاحين حسرى  
وكأن الإقيان وسط المقاصبـ

سكنوه أم صنُع جنٍّ لإنسِ  
يكُ بانیه في الملوك بنكسِ  
م إذا ما بلغت آخر حسسي  
من وقوف خلف الزحام وخنسِ  
ر يرجحن بين حو ولعسِ

وكأن اللقاء أول من أم  
س ووشك الفراق أول أمس  
وكأن الذي يريد اتباعاً  
طامع في لحوقهم صبح خمس  
عمرت للسرور دهرًا فصارت  
للتعزّي رباعهم والتأسي  
فلها أن أعينها بدموع  
موقوفات على الصبابة حُبس

موقوفات حقها أن تكون موقوفات، ولكن البحري تكلم هنا بلغة تميم، فكانوا يقولون أوقف بمعنى وقف، وأنكرها الأصمعي وقال الكلام وقف بغير ألف، وجاء عن بعضهم ما يمسك باليد يُقال فيه أوقفته وما لا يمسك باليد يُقال فيه وقفته.

ذاك عندي وليست الدار داري  
غير نعمى لأهلها عند أهلي  
باقترابٍ منها ولا الجنس جنسي  
غرسوا من ذكائها خير غرس  
أيدو ملكننا وشدوا قواه  
بكماء تحت السنور حمس  
وأعانوا على كتائب أريا  
ط بطعن على النحور ودعس  
وأراني من بعد أكلف بالأش  
راف طرًا من كل سنخ وأس

من تأمل في هذه القصيدة وما ختمها به البحري لم يجد نظمها مجردًا لإجلال الفن والتنويه بعظمة البنيان الذي لا تزال فخامته دليلًا على عظمة الملوك الذين بنوه وبعدهم في العمران، وإنما اتخذها أبو عبادَةَ فرصةً للتغني بمجد فارس التي كان ينتسب إليها كثيرون من أمراء الدولة العباسية، ومن هؤلاء من كان يُسني العطاء للبحري ويواصل إجازته، بحيث لم يكن يدع فرصة يتغنى بها بمجد فارس إلا ويتوردها، فكم جاء ذلك في شعره، فمنه قصيدة يمدح بها إبراهيم بن الحسن بن سهل، قال فيها:

#### (٤١) إشادة أبي عبادَةَ بمجد العجم

كسروي عليه منه جلال  
وترى في روائه بهجة المل  
يملاً البهو من بهاء ونور  
ك إذا ما استوفاه صدرُ السَّيرير  
وإذا ما أشار هبَّت صبا المسد  
كِ وخلصت الإيوان من كافور  
من بناء العلياء أخرى الدهور  
يا ابن سهلٍ وأنت غير مُفريقٍ

إن للمهرجان حقًا على كلِّ  
عيد آباتك الملوك ذوي التَّيِّبِ  
من قبازٍ ويزدجرد وفيرو  
شاهدوه في حلبة الملك يغدو  
كبير من فارس وصغير  
جان أهل النهى وأهل الخير  
ز وكسرى وقيلهم أزدشير  
نَّ عليه في سُندس وحرير

وله فيه أيضًا من قصيدة أخرى:

مجدُّ سهلٍ والفضل والحسن والإحـ  
كسرويون أوليون في السؤ  
سانٍ في مجدك الرفيع الشريف  
دُ بيض الوجوه شمُّ الأنوف

وقال فيه أيضًا ولم يغفل نسبه الساساني ولا تاجه الخسرواني:

آل سهل أنتم عيون بني سا  
كسرويُّ تلقاه في الحرب ليثًا  
سانَ جودًا ونجدةً وحلوما  
قسورياً وفي الندى حكيما

وقال أيضًا من قصيدة أخرى:

قد ورثت العلياء عن أزدشير  
وأرى الليل والنهار سواء  
وقباز وعن أنو شروان  
حين تبدو بوجهك الإضحيان

وقال أيضًا:

أفتى بني الحسن بن سهلٍ أنهم  
لا تُوجِبن لكريم أصلِك مِنَّة  
فتيانُ فارس نجدةً وحلوما  
لو كُنْتَ من عكِلٍ لكَنتَ كريما

وللبحتري في أحمد بن علي الإسكاف، ويظهر أنه كان من غطاريف فارس:

همَّةٌ ترذل الدنيا ونفسٌ  
وعلاً في الصهبذين وِدِّدنا  
شرفت أن تهَمَّ بالإشراف  
أنها في الزيود والأعواف  
حين خاست بأخريين الخوافي  
بُ مساعي سابورَ ذي الأكتاف  
رهطُ سابورَ ذي الجنودِ وطلاً

## (٤٢) وصف البحري لواقعة بحريّة

وله في مدح أحمد بن دينار بن عبد الله، وكان أمير البحر وقد غزا بلاد الروم ويظهر أنه من أصل فارسيّ:

تظنُّ النجوم الزهر بتنّ خلائفاً  
هو الغيثُ يجري من عطاء ونائل  
ولما تولّى البحر والجود صنوه  
أضافَ إلى التدبيرِ فضلَ شجاعة  
لأبلج من سر الأعاجم أزهر  
عليك فخذُ من صيب الغيث أو ذر  
غدا البحر من أخلاقه بين أبحر  
ولا عزم إلا للشجاع المُدبّر

وله في وصف مركبه الخاص:

غدونا على الميمون صُبْحًا وإنما  
أطلَّ بعطفِيه ومرّ كأنما  
إذا زمجر النوتيّ فوق علاته  
إذا عصفت فيه الجنوب اعتمى له  
إذا ما انكفى في هبوة الماء خلته  
وحولك رگابون للهلول عاقروا  
إذا رشقوا بالنار لم يك رشقهم  
صدمت بهم صُهب العثانين دونهم  
غدا المركب الميمون تحت المظفر  
تشرف من هادي حسان مُشهر  
رأيت خطيبًا في ذؤابة منبر  
جناحا عقاب في السماء مُهجر  
تلفح في أثناء بُرد مُحبر  
كئوس الردى من دارعين وحسر  
ليقلع إلا عن شواء مُقتّر  
ضراب كإيقاد اللظى المُتسر

يريد بصهب العثانين الروم الذين غزاهم ذلك الأمير بحرًا، ثم يقول:

يسوقون أسطولاً كأن سفينهم  
كأن ضجيج البحر بين رماحهم  
سحائب صيف من جهام وممطر  
إذا اختلف الترجيع عود مجرر

لك أن تقول عود مجرر؛ أي مصوت من جرجر أي صوت، ولك أن تقول إنه كبير من الإبل يردّ رغاء في حنجرته من جرجر البعير؛ أي ردّ رغاءه.

فما رمتَ حتى أجلت الحربَ عن طُلًّا  
على حين لا ننعُ تطوُّحه الصِّبا  
وكنْتَ ابن كسرى قبل ذاك وبعده  
جَدَحْتَ له الموتَ الذعاف فعافه  
مضى وهو مولى الريح يشكرُ فضلها  
إذا الموجُ لم يبلغه إدراكُ عينه  
تعلَّقَ بالأرض الكبيرة بعدما

وله فيه أيضًا من قصيدة:

له سلفٌ في آل فيروز برزوا  
مرازبة الملك التي نصبت لهم  
لهم بُنيَ الإيوان في عهد هرمز  
ودارت بنو ساسان طرًّا عليهم  
على العُجم وانقادت لهم حفلة العُرب  
منابره العظمى جبابرة الحُرب  
وأحكِمَ طبعُ الخُسروانيَّة القُضب  
مدارَ النجوم السائرات على القُطب

وله أيضًا في مدح يعقوب بن أحمد بن صالح:

كريمٌ من أرومة شيرزاد  
وما تُخفى المكارم حيث كانت  
تفخِّمه الجهارة والبيان  
ولا أهل المكارم حيث كانوا

وله في مدح الحسن بن مخلد، ويظهر أنه كان فارسي النسب:

قوم أشاد بعلياهم وورثهم  
الأمن يُسكِّن ويُحرِّك.  
كسرى بن هرمز نجدًا واضح الأمن

تسمو بواذخ ما يبنون من شرف  
الفاعلون إذا لُذنا بظلمهم  
كما سَمَا الهضب من ثهلان أو حزن  
ما يفعل الغيث من شؤبوبة الهتن



لله أنتم فأنتم أهل مأثرة  
إن جئتموها فليست بكر أنعمكم  
في المجد معروفة الأعلام والسُنن  
ولا ببء أياديكم إلى اليمن  
على عميدهم سيف بن ذي يزن

وله في إبراهيم بن المدبر:

نشدوا في بني المُدبّر عهدًا  
في المحلّ الجليل من رُتبة الملـ  
للندى الأوّل الأخير الذي برّ  
هي أكرومة نمت من بني سا  
غير مُستقصر ولا مَذموم  
ك استقلّت والمذهب المُستقيم  
ز والسؤدّد الحديث القديم  
سانّ في خير منصبٍ وأروم  
ررف إن عُدّ والصميم الصميم  
للصريح الصريح والأشرف الأشـ

وله في إسماعيل بن نبيخت:

ما للمكارم لا تُريد سوى أبي  
وإلى أبي سهل بن نبيخت انتهى  
نسبًا كما اطردت كعوبٌ مثقف  
يفضي إلى بيب بن جوزرز الذي  
أعقاب أملاكٍ لهم عاداتها  
الوارثون من السّرير سراته  
والضاربون بسهمة معروفة  
يعقوب إسحاق بن إسماعيل  
ما كان من غرر لها وحجول  
لذن يزيدك بسطة في الطول  
شَهْرَ الشجاعة بعد فَرْطِ خمول  
من كلّ نيلٍ مثل مدّ النيل  
عن كلّ ربّ تحية مأمول  
في التاج ذي الشرفات والإكليل

قد استوفينا هنا أكثر ما تهافت عليه البحترى من الإشادة بمجد العجم وذكّر ملكهم القديم وحسبهم الصميم، ولا نزاع في أن ممدوحيه من أمراء الدولة العباسية الذين ينتمون إلى الفرس كانوا أولي حَسَبٍ صَحْمٍ وسؤدد فخم، ولكن لم نجد مثل البحترى في شعراء العرب من ينوء بمجد العجم بإسراف، فلا عجب أن نظم تلك القصيدة الخالدة في وصف إيوان كسرى وانتهى منها إلى مدح فارس وذكر مواقف رجال الفرس من خدمة الخلافة الإسلامية.

## (٤٣) سينية شوقي

ولنُعد الآن إلى شعر شوقي ونثبت سينيته الأندلسية التي يليق أن تُقرن بسينية البحري. يقول شوقي إنه اتخذ قصيدة البحري مثلاً، ونسج على منوالها وقد صرّح عن ذلك بقوله: ثم جعلت أروض القول على هذا الروي وأعالجه على هذا الوزن حتى نظمت هذه القافية المهلهلة، وأتممت هذه الكلمة الرِيضة ا.هـ.

وقد تأملت في معارضة شوقي للبحري فوجدت القسم الأول من قصيدته نازلاً نزولاً بارزاً عن طبقة البحري إلا أنه عندما وصل إلى الأوابد وشرع في وصف الملاحم والوقائع، رجع فأخذ يعلو حتى قارن البحري سائراً وإياه الكتف مع الكتف، قال:

اختلاف النهار والليل يُنسي      اذكرا لي الصبا وأيام أنسي  
وصفا لي ملاءة من شباب      صوّرت من تصوّرات ومسّ

الملاءة مُثلّثة: البرهة من الدهر.

عَصَفْتِ كَالصَّبَا اللُّعُوبَ وَمَرَّتْ      سِنَةٌ حَلِوَةٌ وَلَذَّةٌ خَلَسَتْ  
وَسَلَا مِصْرٌ هَلْ سَلَا القَلْبُ عَنْهَا      أَوْ أَسَا جُرْحَهُ الزَّمَانُ المَوْسِيَّ

جانس شوقي هنا بين «سلا» و«سلا» الأولى من السؤال والثانية من السلو، وقد سبق لي هذا الجناس نفسه، ولم أكن اطلعت على شعر شوقي هذا، وهو في قولي في رثاء الشيخ عبد القادر الشيبني سادن البيت الحرام رحمه الله.

سلاني هل على بعدِ سلاني      وهل كان الغياب سوى العيان

ثم قال:

كَلِّمًا مَرَّتِ اللِّيَالِي عَلَيْهِ      رَقٌّ وَالْعَهْدُ فِي اللِّيَالِي يُقْسِي  
مُسْتَطَارٌ إِذَا البَوَاحِرُ رَنَّتْ      أَوَّلَ اللِّيلِ أَوْ عَوَتْ بَعْدَ جَرَسِ  
رَاهِبٌ فِي الضُّلُوعِ لِلسُّفْنِ فَطَنَ      كَلِّمًا تُرِّنَ شَاعِهِنَّ بِنَقَسِ  
يَا ابْنَةَ اليَمِّ مَا أَبُوكَ بِخَيْلٍ      مَا لَهُ مَوْلَعًا بِمَنْعٍ وَحَبْسِ

أماتيل من شعر شوقي

أحرامٌ على بلابله الدو حُ حلالٌ للطَّيْر من كلِّ جنس  
كلُّ دارٍ أحقُّ بالأهلِ إلَّا في خبيث من المذاهب رِجس

ما رأيت في هذا الشعر إلى هنا سوى التكلُّف والتعمُّل كأنما شوقي يقطع في صَوَّان،  
فلشد ما لقي من عناء المعارضة، وقد حاول مباراة مثل البحري إلَّا أنه ما لبث أن أسلس  
له القول، فقال:

نَفْسِي مَرْجَلٍ وَقَلْبِي شِرَاعٍ      بهما في الدموع أُسْرِي وَأُرْسِي  
فاجعلي وجْهَكَ «الفنار» ومجراً      كِ يَدِ الثُّغْرِ بَيْنَ رَمْلٍ وَمَكْسٍ

الثغر هو الإسكندريَّة، وهذا هو اسمها من قديم الزمان، والرمل والمكس هما من  
ضواحيها، ثم قال:

وطني لو شُغِلْتُ بِالخُلْدِ عَنْهُ      نازَعْتَنِي إِلَيْهِ فِي الخُلْدِ نَفْسِي

هذا بيت خالد ومعنى طريف؛ أي إنه لو سكن الجنة لبقى ينزح إلى وطنه مصر،  
وكأنه يشير إلى بيت المتنبي:

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا      لفارقت شيببي موجه القلب باكياً

ثم يقول:

وهفا بالفؤاد في سلسبيل      شهد الله لم يغب عن جفوني  
يصبح الفكرُ و«المسلَّة» ناديم      ه و«بالسرحة الزكيَّة» يُمسي  
وكأنني أرى الجزيرة أيكاً      نغمت طيره بأرخم جرس  
هي بلقيس في الخمائل صرُحُ      من عباب وصاحب غير نكس  
حسبها أن تكون للنيل عرساً      قبلها لم يجن يوماً بعرس  
لبست بالأصيل حلَّة وشي      بين صنعاء في الثياب وقس

يُنسَب الوشي عادةً إلى صنعاء، وهنا مكان آخر تُنسَب إليه الثياب وهي القسيّة، وهي ثياب من كتّان مخلوط من حرير كانت تجلب من بلدة يُقال لها القسُّ بين العريش والفرما من أرض مصر، وهي على ساحل البحر الملح، قال في تاج العروس إنها حُرِبَت من زمانٍ ولم يبقَ إلا آثارها، وهناك تلٌّ عظيم من رمل خارج في البحر الشامي. قال وقد يكسر القاف في قس وأهل مصر يقولونه بالفتح.

قدها النيل فاستَحَت فتواتر      منه بالجسر بين عري ولبس  
وأرى النيل كالعقيق بوادي-      ه وإن كان كوثر المتحسّي

وادي العقيق هو في المدينة المنورة وكانت فيه أيام عمران المدينة القصور الباذخة والجنان الغناء.

ابن ماء السماء ذو الموكب الفخ      م الذي يحسر العيون ويُخسي

أخذ جملة «يحسر العيون ويخسي» من كلام البحترى، ثم قال:

لا ترى في ركابه غير مُثْنٍ      بجميلٍ وشاكرٍ فضلاً غرس  
ورأى الجيزة الحزينة تُكَلّي      لم تفق بعد من مناعة رمس

يريد برمس الملك رمسيس، ولكن رَحَم الاسم نظير قولهم: «يا حار» أي يا حارث و«يا أحم» أي يا أحمد، والترخيم نوع من أنواع البديع وفي بديعية ابن حجة الحموي «كالأغصان حين تمي» أي تميم وتميد.

أكثرت ضجّة السواقي عليه      وسؤال اليراع عنه بهمس

اليراع هنا هو القصب.

وقيام النخيل ضفرن شعراً      وتجرّدن غير طوقٍ وسلس

سلسلت النخلة ذهب كزبها مُحَرَّكة، وهو أصول السَّعَف الغلاظ.

وكأَنَّ الأهرامَ ميزانَ فرعو  
أو قناطرِه تأنقُ فيها  
روعة في الضحى ملاعب جنِّ  
«ورهيّن الرمال» أفطس إلاَّ  
نَ بيومِ على الجبابر نَحس  
ألف جابٍ وألف صاحبِ مكس  
حين يغشى الدجى حماها ويغسي  
أنه صنع جنة غير فطس

يشير إلى أبي الهول.

تتجلّى حقيقةُ الناس فيه  
لعب الدهر في ثراه صبيًّا  
ركبت صيد المقادير عينبـ  
فأصابت به الممالك كَسرى  
سبع الخلق في أسارير إنسي  
والليالي كواعبًا غير عنس  
ه لنقيدٍ ومخلبيه لفُرس  
وهرقلاً والعبقريّ الفرنسي

العبقري الفرنسي هو نابليون بونابرت.

يا فؤادي لكلِّ أمرٍ قرارٌ  
عَقَلْتُ لُجَّةَ الأمورِ عقولًا  
غَرَقْتُ حيث لا يُصاح بطافٍ  
فلكُ يكشفُ الشمسَ نهارًا  
فيه يبدو وينجلي بعد لَبس  
كانت الحوت طول سبح وغس  
أو غريق ولا يُصاخ لحس  
ويسوم البدور ليلةً وكُس

ليلة الوكس هي ليلة دخول البدر في نجم مَنحوس.

ومواقيتُ للأُمورِ إذا ما  
دولٌ كالرُجالِ مُرتَهَنات  
وليالٍ من كلِّ ذاتِ سوار  
بَلَّغَتْها الأُمورُ صارتُ لِعَكس  
بقيام من الجدود وتَعَس  
لَطَمْتُ كلَّ ربِّ رومٍ وفُرس

من هنا بدأ شوقي يُسامت البحري لأنه إنما يستولي على أمد الإجابة في الملاحم ثم قال:

سدّدت بالهلال قوسًا وسلّت  
حكمت في القرون «خوفو» و«دارا»  
أين مروانُ في المشارِقِ عرش  
خنجرًا ينفذان من كلِّ ترس  
وعَفَّتْ وائلا وألوت بَعَبَس  
أموي وفي المغارب كُرسي

أي كان لبني أمية في الشام عرش عم الإسلام وفي قرطبة كرسيّ خصّ الأندلس.

سقمت شمسُهم فرداً عليها      نورها كل ثاقبِ الرأى نطس  
ثم غابت وكلُّ شمس سوى ها      تيك تبلى وتنطوي تحت رَمَس  
وعظَّ البحترىَّ إيوان كِسرى      وشففتني القصور من عبْد شَمَس

أي إن إيوان كسرى كان موعظةً للبحترى وأما أنا فبلغت مني غاية الوعظ قصور  
بني أمية آل عبد شمس.

ربَّ ليلٍ سريتُ والبرق طرفي      وبساط طويت والريح عنسي  
أنظُمُ الشرق في الجزيرة بالغر      ب وأطوي البلاد حُرْنا لدهس

أي أطوي شرق الجزيرة الأندلسية وغربها وأجوبُ وغرُها وسَهْلها.

في ديارٍ من الخلائف درس      ومناز من الطوائف طمس

كان أمراء بني أمية في قرطبة لا يقدرّون أن يدعوا الخلافة فلم يكن يُقال لهم  
الخلفاء، بل كان هذا اللقب لبني العباس، بل كان يُقال لأمرء قرطبة الخلائف كناية عن  
أنهم ذرية الخلفاء آبائهم الذين كانوا بالشام، وبقي ذلك إلى زمان الناصر عبد الرحمن  
الثالث فهو أول من تلقب بالخليفة من أمراء قرطبة.

وأما الطوائف فهم ملوك الأندلس المتفرّقون بعد أن انتثر سلك الخلافة فيها مثل  
بني جهور في قرطبة وبني ذي النون في طليطلة وبني هود في سرقسطة وبني رزين في  
السهلة، والموالي العامريين في بلنسية ودانية وبني صمادح في المرية وبني عبّاد في إشبيلية  
وبني الأفضس في بطليوس وهلم جرّاً.

وربّي كالجنان في كنف الرّيـ      تون حُضر وفي ذرا الكرم طُلس  
لم يرعني سوى ثرى قرطبيّ      لَمَسْت فيه عبرة الدَّهر خمسي  
يا وقى الله ما أُصْبِح منه      وسَقَى صفوة الحيا ما أمسي  
قريةً لا تعدُّ في الأرض كانت      تُمَسِك الأرض أن تميد وتُرسي  
غَشِيَتْ ساحلَ المحيط وغطَّت      لُجَّة الروم من شرّاع وقلس  
رَكِب الدهرُ خاطري في تراها      فأتى ذلك الجِمي بعد حدِس

الحدس هنا ليس الظن والتخمين بل هو بمعنى السير على غير هداية.

فتجلت لي القصورُ ومَن فيهِ — لها من العزِّ في منازل قُعس  
 ما صَفَتْ قطُّ في الملوك على نَدِّ — لِ المعالي ولا تردَّت بنَجس  
 وكأني بلغتُ للعلم بيتًا — فيه مال العقول من كلِّ دَرَس  
 قُدسًا في البلاد شرقًا وغربًا — حجَّه القوم من فقيهه وقَس

كانت قرطبة في وقتها مدينة العلماء لم يخرج من العلماء من خرج من قرطبة لا في الكمية ولا في الكيفية، وكان إذا أجمع أهالي قرطبة على شيء فعليه تكون الفتوى، وكان فيها العلم بأنواعه وفنونه، وكما كانت قرطبة عاصمة الإسلام في العلم فقد كان إلى جانب علماء المسلمين فيها أحبار وأقسة يفتون في دين النصرانية ولهم بيع وأديار مشهورة.

وَعَلَى الْجُمُعَةِ الْجَلَالَةُ وَ«النَّا — صِرُّ» نورُ الخميس تحت الدَّرَفَس  
 يُنْزِلُ التَّاجَ عَنِ مَفَارِقِ «دُون» — وَيُحَلِّي بِهِ جَبِينَ «الْبِرْنَس»

يتكلم عن الخليفة عبد الرحمن الناصر وعن جلاله الجُمع التي كان يشهدها في المسجد الأعظم بقرطبة أو في مسجد الزهراء المدينة التي كان شيدها لسكنها في سفح جبل العروس من قرطبة، ويقول إنه كان نورًا للجيش تحت العلم الكبير وكانت تلجأ إليه ملوك الإفرنج والإسبان وغيرهم وربما خلع بعضها وأدال لبعضها من بعض. ولنضرب مثالاً على ذلك ما جاء في نفع الطيب:

وفي سنة ٤٤ بعد الثلاثمائة جاء رسول أردون يطلب السلم فعقد له — أي الناصر — ثم بعث في سنة خمس وأربعين يطلب إدخال فردلند قومس قشتيلة في عهده فأذن له في ذلك وأدخل في عهده، وكان غرسية بن شانجة قد استولى على جليقية بعد أبيه شانجة بن فرويلة ثم انتقض عليه أهل جليقية وتولى كبرهم قومس قشتيلة فردلند المذكور، ومال إلى أردون بن ردمير، وكان غرسية بن شانجة حافداً لطوطة ملكة البشكونس فامتعضت لحافدها غرسية ووفدت على الناصر سنة سبع وأربعين مُلقية بنفسها في عقد السلم لها ولولدها شانجة بن ردمير الملك وإعانة حافدها غرسية بن شانجة على مُلكه ونصره من عدوه. وجاء الملكان معها فاحتفل الناصر لقدمهم وعقد الصلح لشانجة وأمه، وبعث العساكر مع غرسية ملك جليقية فرداً عليه ملكه، وخلع الجلالقة طاعة أردون

إليه وبعث إلى الناصر يشكره على فعلته، وكتب إلى الأمم في النواحي بذلك وبما ارتكبه فردلند قومس قشتيلة في نكته ووثوبه ويُعيره بذلك عند الأمم. ولم يزل الناصر على موالاته وإعانتته إلى أن هلك. ولما وصل رسول كلدة ملك الإفرنجة بالشرق وصل معه رسول ملك برشلونة وطركونة راغباً في الصلح، فأجابه الناصر ووصل بعده رسول صاحب رومة يخطب المودة فأجيب.

انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار.

قلنا: لم يبقَ ملك من ملوك ذلك العصر الذي عاش فيه الناصر إلا أرسل إليه وفده يخطب وده وأعظمهم أوتون إمبراطور ألمانية الذي طالما تبادل السفارات مع الخليفة الناصر وكذلك إمبراطور القسطنطينية الذي كان يرسل إلى الناصر الهدايا والألطاف ويوفد الوفود الحافلة.

وإلى ذلك أشرت في قصيدتي الأندلسية التي قلتُ فيها:

وصقرُ قريش حين جاء مُشردًا      فأنشب فيهم أي ظفر مُظفر  
وشاد بهاتيك القواصي إمارةً      لها أجفل المنصور والد جعفر

يُقال إن أبا جعفر المنصور هو الذي لقب عبد الرحمن الداخل بصقر قريش، وقال: «الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبينه.»

وخلّف أملاكًا سموا وخلصًا      كسى أمة الإسلام حلّة مَفخِر  
تُقَبَّلُ أملاكُ الفرنجة كفه      ويقصد عالي بابِه وفدُ قيصر  
غداة تجلّى للخلافة رونق      به ظهر الإسلام أروع مَظهر  
وأضحّت بها الزهرا تَميدُ جُموعها      فيا لك من يوم أعرُّ مشهَر  
تلعّثم فيه كلُّ ربِّ فصاحة      فعيوا سوى قاضي الجماعة مُنذر

إشارة إلى المحفل النادر الذي احتفل به الخليفة الناصر لوفود صاحب القسطنطينية وذلك في قصره الزهراء، وانتدب كثير من العلماء للكلام في ذلك المحفل فأرتج عليهم من شدة المهابة، وتكلم ارتجالاً القاضي منذر بن سعيد البلوطي، وكانت خطبةً رنانة، وهي مذكورة في الكتب.



تلاه وَمَنْ يَسْتَنْصِرُ اللَّهَ يَنْصُرْ  
 وَسَارَقَتِ الزُّوراءَ لَحْظَةً أَزُورُ  
 وَجَرُّوا عَلَى بَغدادِ ذَيْلَ النَّبْخَتِ  
 تَلاطِمِ أمواجِ الخِضَمِّ المَهْدِرِ  
 بِقَرطِبةَ مِنْ فَوْقِ فَوْقِ التَّصَوُّرِ  
 وَقَلْتُ لِعَيْنِي اليَوْمَ دَوْرُكَ فَاهْمِرِي  
 يُحاكِ بِه عَمَّارَهُ لِحْجِ أبحرِ  
 بِفِكْرِي حَتَّى غابَ عَنِّي مُحْضِرِي  
 نَظِيرِ دُويِ النَحْلِ مِنْ كُلِّ مَصدِرِ  
 إِلى رَبِّهِ صَلَّى وَكَمْ مِنْ مُكَبِّرِ  
 وَكَمْ أوقَدتِ أُرطالِ عودِ وَعَنْبِرِ  
 وَكَمْ خاطِبِ بِالسَّجْعِ مِنْ فَوْقِ مَنبِرِ  
 وَكَمْ واعِظِ يَمْرِي مَدامِ مَحْجِرِ  
 هَنا كانَ يَجْثُو عَن جَبِينِ مَعْفِرِ  
 وَيَبْدو هَنا فِي ثوبِ أَشْعَثِ أَغْبِرِ

ولا تُهْمِلِ المُسْتَنْصِرَ الحُكْمَ الَّذِي  
 غَدَتْ قُبَّةُ الإِسلامِ قُرطِبةَ العُلا  
 وباري بني العباس فيها أمية  
 وكان بها العمران يزخر مثلما  
 ولمَّا رأيتُ المسجدَ الجامعَ الَّذِي  
 عَضَضْتُ عَلَى كَفِّي بِكُلِّ نَواجِذِي  
 هو الجامع الطامي العُبابِ بِوَقْتِهِ  
 ظَلَلْتُ بِهِ بَينَ الأَساطِينِ سائِحًا  
 تَخَيَّلْتَهُ وَالذِّكْرُ يُتَلَى خِلالِهِ  
 تَأَمَّلْ خَليلِي كَمْ هَنا مِنْ مُهَلَّلِ  
 وَكَمْ أَزْهَرَتْ فِيهِ أَلُوفُ مَصابِحِ  
 وَكَمْ قارِئٍ بِالسَّبْعِ فِي وَسْطِ حَلِقَةٍ  
 وَكَمْ عالِمٍ يُلْقِي عَلَى الجَمْعِ دَرسَهُ  
 وَكَمْ مَلِكٍ ضَخَمَ وَكَمْ مِنْ خَلِيفَةٍ  
 تَسدُّ فِجاجِ المَغْرِبَيْنِ جِيوشُهُ

كان الخليفة الناصر يأتي أحياناً إلى المسجد في الجُمع المشهودة مُرتدياً ثوباً خَلِقاً  
 تواضعاً منه لله تعالى.

أَساطِينُ قَدْ تُحْصَى بِأَلْفٍ وَأَكْثَرِ  
 يَذُوبُ لَها قَلبُ الحَنِيفِ المُفَكِّرِ  
 حَدائِقُ نُصَّتْ مِنْ جِمامِ مُشْجَرِ  
 لَها نَسَبٌ مِنْ مَقْطَعِ مَتَخِيرِ  
 مَعادِنِ شَتَّى مِنْ فِلزٍّ وَمَرْمَرِ  
 لَدى الفَرِّى تَهْزأُ بِالحَديدِ المُعْصِفِرِ  
 فَصالَتْ بِها الصُّنْاعُ صَوْلَةٌ عَنْتَرِ  
 مَقاطِعِ جَبِينِ أَوْ قِوالبِ سَكْرِ  
 أَكاليلِ دَرٍّ فِي قِلائِدِ جِوهرِ

خَليلِي تَأَمَّلْ كَالعِرائِسِ تَنجَلِي  
 أَساطِينُ مِنْ صَمِّ الجِمامِ مَواثِلِ  
 تَراها صُفوفًا قائِماتٍ كَأَنَّها  
 مِنْ العَمَدِ الأَسْنى فَكُلُّ يَتِيمَةٍ  
 أَجادتِ تَحْرِيرِها قُرومِ أُميَّةِ  
 نَبَتْ دَونِها زَرَقُ الفَنُوسِ وَأَصْبَحَتْ  
 وَلَكنْ لِفَضْلِ الفَنِّ أَلَقَّتْ قِياَدَها  
 فَبَينا هِيَ الصَّمُّ الصِّلادِ إِذْ انْتَهَتْ  
 عِرائِسُ لِلتَّخْريمِ فَوْقَ رِءوسِها

## شوقي

ووجهٌ إلى المحراب طرفك ينسرح  
وحقد بهاتيك النقوش وزهوها  
وبالقبة العلياء يبدو شعاعها  
لو أنّ الثريا في سماها تعرّضت  
من الصخر في مثل الطراز المُحبر  
كأن فاتها صناعها منذ أشهر  
بألمع من زهر النجوم وأزهر  
لظلت تحدى للثريا وتزدرى

ثم نعود إلى سينية شوقي:

سنة من كرى وطيف أمان  
وإذا الدار ما بها من أنيس  
وصحّ القلب من ضلال وهجس  
وإذا القوم ما لهم من محس

إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾.

ورقيق من البيوت عتيق  
جاوز الألف غير مذموم حرس

الحرس بفتح أوله فسكون: هو الدهر أو قطعة منه، يقال: مضى عليه حرس من الدهر، وهو يريد بهذا البيت العتيق مسجد قرطبة. ثم يقول:

أثر من محمّد وتراث  
بلغ النجم ذروة وتناهى  
صار للروح ذي الولاء الأمس  
بين تهلان في الأساس وقُدس

قدس: جبل عظيم بأرض نجد، قال الأزهري: قدس وآرة جبلان لمزينة، وهما معروفان بحذاء سقيا مزينة، وقيل في الحجاز جبلان كلُّ منهما اسمه قدس: قدس الأبيض وقدس الأسود، وهما عند ورقان وكلاهما لمزينة، والقدس أيضاً البيت المقدس.

مرمر تسبح النواظر فيه  
وسوار كأنها في استواء  
ويطول المدى عليها فترسي  
ألفات الوزير في عرض طرس

يعني بالوزير ابن مقلة الخطاط الشهير.

فترة الدهرِ قد كَسَتْ سَطْرِيهَا ما اكَتَسَى الهُدْبُ من فتورِ ونعسِ

السطر بالسكون وبالتحريك: الصف من الشيء.

وَيَحَهَا كَمْ تَزَيَّنَتْ لِعَلِيمٍ وَاجِدِ الدهرِ واستعدتِ لِحَمْسِ

يريد أن يقول كم تزيّنت لعالم من أفراد الدهر واستعدت لإقامة الصلوات الخمس، ولو قال: كم تزيّنت لإمام، كان أحسن.

وَكأَنَّ الرَّفِيفَ فِي مَسْرَحِ العَيْدِ مِنْ مُلَاءِ مُدْنَرَاتِ الدِّمْقِسِ  
وَكأَنَّ الآيَاتِ فِي جَانِبِيهِ يَتَنَزَّلْنَ مِنْ مَعَارِجِ قُدْسِ  
مَنْبَرٌ تَحْتَ «مُنْذِرٍ» مِنْ جَلَالِ لَمْ يَزَلْ يَكْتَسِيهِ أَوْ تَحْتَ «قُسٌّ»

يريد بمنذر القاضي منذر بن سعيد البلوطي، وبُقْسُ قُسٌّ بن ساعده، أي بخطيب نظيره في الفصاحة.

فأما منذر فقد كان مشهوراً بالعدل والصلابة في الحق، وقد تولى قضاء الجماعة في الأندلس، وكان الناصر وولده المستنصر يبالغان في تعظيمه، ولكنه لشدة ورعه لم يكن يتوقف عن تقييد الخليفة إذا رأى منه ما يوجب ذلك، ولما كان الناصر كلفاً بالبناء وأمره في هذا الباب مشهور، وقد بنى الزهراء التي قدروا النفقة على بنائها بثلاثمائة ألف دينار كل عام، واستمر ذلك خمسة وعشرين عاماً، حتى قيل إن ما أنفقه على الزهراء بلغ ١٥ من مائة من دخل الدولة كلها، وبلغ من انهماكه بالبناء فيها أنه تأخر ثلاث جمع متواليات عن شهود صلاة الجمعة بمسجد الزهراء، وكان القاضي منذر بن سعيد خطيب ذلك المسجد، فلم يصبر على هذا الإهمال، ولما صلى الخليفة بعد ذلك صلاة الجمعة عرض منذر به في الخطبة تالياً في أول خطبته قوله تعالى: ﴿أَتَيْتُونَكُمْ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ \* وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ \* وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ \* فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا \* وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ \* أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ \* وَجَنَاتٍ وَعُيُونٍ \* إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ \* قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾، ثم أخذ يتكلم بما يناسب تلك الآية مقرّماً وموبّخاً وموردّاً ما جاء في هذا المعنى في كتاب الله إلى

أَنْ تَلَا: ﴿أَقَمَنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانِ خَيْرٍ أَمَّنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ \* لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وكان الناصر يسمع ويعلم أن القاضي منذراً إنما يشير إليه. ثم قرن منذر بن سعيد هذه الآي العظام بالأحاديث النبوية والآثار المروية، وأضاف إليها من بلاغته النادرة وفصاحته الساحرة، حتى خَسَعَ كُلُّ المصلين ذلك اليوم ورقُّوا وبكُّوا وضجُّوا وتضرَّعوا إلى الله تعالى أن يغفر لهم، وبكى الخليفة نفسه معهم واستعان بالله من سخطه، إلا أنه وجد في نفسه على منذر لغلظ ما قرعه به، فشكا ذلك لولده الحَكَم (المستنصر) وقال: والله لقد تعمَّدني منذر بخطبته، وما عنى بها غيري، وكاد بعصاه يقرعني. وأقسَمَ لا يصلي الجمعة وراء منذر، وجعل يلتزم صلاتها وراء أحمد بن مطرَّف إمام المسجد الأعظم في قرطبة، ويجانب الصلاة بجامع الزهراء حيث يؤمُّ منذر بن سعيد، فقال له الحَكَم: ما الذي يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك والاستبدال بغيره منه إذ كرهته؟ فقال له الناصر: أمثلُ منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه يُعزَل لإرضاء نفسٍ ناكبةٍ عن الرشد، سالكة غير القصد، هذا ما لا يكون، وإنني لأستحي من الله ألا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعاً مثل منذر في ورعه وصدِّقه، ولكنه أحرَجني فأقسمتُ، ولوددتُ أني أجد سبيلاً إلى كفارة يميني بملكي، بل يصلي بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله تعالى، فما أظننا نعتاض منه أبداً. اهـ. فتأمَّل في عظمة أخلاق هذا الخليفة العظيم وفي إنصافه من نفسه.

وَمَكَانَ الْكِتَابِ يُغْرِيكَ رِيًّا      ورده غائِبًا فتدنو بلمس  
صنعة «الداخل» المبارك في العرِّ      بِ وَآلٍ لَهُ مَيَامِينَ شُمْسِ

ثم انتهى شوقي من قرطبة، وبدأ بذكر حمراء غرناطة فقال:

مَنْ لِحِمْرَاءِ جُلَّتْ بَغْبَارِ الدِّ      هُرٍ كَالجُرْحِ بَيْنَ بُرِّ وَنُكْسِ  
كَسْنَا البرقِ لو مَا الضوءُ لَحْظًا      لَمَحَّتْهَا العيونُ من طولِ قَبْسِ  
جِصْنُ غرناطةٍ ودارُ بِنِي الأَحَدِ      مَرٍ من غافلٍ ويقظانَ نَدْسِ  
جَلَّتْ الثلجُ دونها «رأس شيرى»      فَبَدَا منه في عَصَائِبِ بَرِسِ  
سَرْمَدُ شَيْبِهِ وَلَمْ أَرِ شَيْبًا      قَبْلَهُ يُرْجَى البقاءَ وَيُمْسِي

مَسَّتِ الحَادِثَاتُ فِي عُرْفِ الحَمِّ	رَاءِ مَشْيِ النَّعِيِّ فِي دَارِ عُرْسِ
هَتَكْتُ عِزَّةَ الحِجَابِ وَفَضْتُ	سُدَّةَ البَابِ مِنْ سَمِيرٍ وَأُنْسِ
عَرَصَاتُ تَخَلَّتِ الخَيْلُ عَنْهَا	وَاسْتَرَاخَتْ مِنْ احْتِرَاسِ وَعَسِ
وَمَغَانٍ عَلَى اللِّيَالِي وَضَاءٍ	لَمْ تَجِدْ لِلْعَاشِي تَكَرَّارَ مَسِّ
لَا تَرَى غَيْرَ وَافِدِينَ عَلَى التَّاءِ	رِيخٍ سَاعِينَ فِي خُشُوعٍ وَنُكْسِ

يصف زائري تلك المعاهد الذين إنما يأتون ليشاهدوا آثارَ تاريخٍ ماضٍ.

نَقَلُوا الطَّرْفَ فِي نَضَارَةِ آسِ	مِنْ نُقُوشٍ وَفِي عَصَارَةِ وَرْسِ
وَقِبَابٍ مِنْ لَازُورِدٍ وَتَبْرِ	كَالرُّبِيِّ الشَّمِّ بَيْنَ ظِلِّ وَشَمْسِ
وَخَطُوطٍ تَكْفَلَتْ لِلْمَعَانِي	وَأَلْفَاظِهَا بِأَزِينِ لَبْسِ

أَتَذَكَّرُ بَيْنَ الكِتَابَاتِ الَّتِي قَرَأْتُهَا عَلَى جِدْرَانِ الحِمْرَاءِ بِالخَطِّ المَذْهَبِ قَصِيدَةً لِابْنِ زَمْرَكٍ مِنْ كِتَابِ بَنِي الأَحْمَرِ.

وَتَرَى مَجْلِسَ السَّبَاعِ خَلَاءً	مُقْفَرِ القَاعِ مِنْ ظُبَاءٍ وَخَنَسِ
لَا «الثَّرِيًّا» وَلَا جَوَارِي الثَّرِيًّا	يَتَنَزَّلْنَ فِيهِ أَقْمَارَ إِنْسِ

الثريا إحدى ملكات بني الأحمر.

مَرَمَرٌ قَامَتِ الأَسْوَدُ عَلَيْهِ	كَلَّةَ الطُّفْرِ لَيِّنَاتِ المَجَسِّ
تَنْثُرُ المَاءَ فِي الحِيَاضِ جُمَانًا	يَتَنَزَّرِي عَلَى تَرَائِبِ مُلْسِ
آخَرَ العَهْدِ بِالجَزِيرَةِ كَانَتْ	بَعْدَ عَرَكٍ مِنَ الزَّمَانِ وَخَرْسِ
فَتَرَاهَا تَقُولُ رَايَةَ جَيْشِ	بَادَ بِالأَمْسِ بَيْنَ أَسْرٍ وَحَسِّ
وَمَفَاتِيحُهَا مَقَالِيدُ مُلْكِ	بَاعَهَا الوَارِثُ المُضِيعُ بِبَخْسِ
خَرَجَ القَوْمُ فِي كِتَابِ صَمِّ	عَنْ حِفَاظِ كَمُوكِبِ الدَّفْنِ خَرْسِ
رَكَبُوا بِالبَحَارِ نَعَشًا وَكَانَتْ	تَحْتَ آبَائِهِمْ هِيَ العَرْشُ أَمْسِ

يقول إن السفن كانت لهم في الآخر نعشًا، كما كانت في الأول عرشًا، فقد جاءوا الأندلس راكبين البحر ففتحوها، ثم أعادهم أعداؤهم ركوبًا في البحر لما برحوها.

رُبَّ بَانٍ لِهَادِمٍ وَجَمُوعٍ  
 إِمْرَةٌ النَّاسِ هِمَّةٌ لَا تَأْتِي  
 لَمْشَتٌ وَمُحْسِنٌ لِمُخَسِّسٍ  
 لَجْبَانٌ وَلَا تَسْنَى لِحَبْسِ  
 وَهِيَ خُلِقَ فَإِنَّهُ وَهِيَ أُسٌّ  
 وَإِذَا مَا أَصَابَ بُنْيَانَ قَوْمٍ

بعد أن أشارَ إلى انقراضِ مُلْكِ العربِ بالأندلسِ بوهي أخلاقهم، أَحَبَّ أن يعِظَ أبنَاءَ وطنه مصرَ حتى يتنبَّهوا ويتجنَّبوا النبواتِ والغفلاتِ التي بمثلها تضيعُ الممالكُ، فقال:

يا ديارًا نزلتُ كالخُلْدِ ظِلًّا  
 مُحْسِنَاتِ الفُصولِ لا ناجرٌ فيهِ  
 لا تحسِ العُيونُ فوقَ رُباهِما  
 كُسيَتِ أفرُخي بظُلِّكَ ريشًا  
 هم بنو مِصرَ لا الجميلُ لديهم  
 من لِسَانِ على ثنائِكَ وَقِفْ  
 حسبُهم هذه الطُّلُولُ عِظَاتِ  
 وَإِذَا فَاتَكَ التِّفَاتُ إلى الما  
 وَجَنَى دَانِيًا وَسَلَسَالَ أُنْسِ  
 هِا بَقِيظٌ وَلَا جُمَادَى بِقَرَسِ  
 غَيْرَ حورٍ حُوِّ المَراشِفِ لُعَسِ  
 وَرَبَا في رُبَاكِ واشتَدَّ غَرَسِي  
 بِمُضَاعِ وَلَا الصَّنِيعِ بِمَنْسِي  
 وَجَنَانِ على ولائِكَ حَبْسِ  
 من جديدي على الدهورِ وَدَرَسِ  
 ضِي فَقَدِ غَابَ عَنكَ وَجْهُ النَّاسِي

#### (٤٤) قصيدة شوقي في آثار الأقصر

وخاطَبَ روزفلتَ الرئيسَ الأسبقَ للولاياتِ المتحدةِ عندما زار الصعيديَ بالقصيدةَ التالية:

أَيُّهَا المُنْتَجِي بِأَسْوَانَ دَارًا  
 اخْلَعْ النُّعْلَ واخْفِضِ الطَّرْفَ واخشَعْ  
 قِفْ بتلكِ القصورِ في اليَمِّ غَرَقِي  
 كَعَدَارِي أَخْفَيْنَ في المَاءِ بَصًّا  
 مُشْرِفاتِ على الرُّوَالِ وكانتِ  
 شَابَ من حَوْلِها الزَّمَانُ وشَابَتْ  
 رُبَّ نَقِيشِ كَأَنَّما نَفَضَ الصَّا  
 وَدُهَانَ كَلَامِ عِ الزَيْتِ مَرَّتُ  
 كَالثُّرَيَّا تَريدُ أن تَنقِضًا  
 لا تحاولِ من آيةِ الدهرِ غَضًّا  
 مُمَسِّغًا بعضُها من الدُّعْرِ بعضًا  
 سابِحَاتِ بهِ وَأَبْدَيْنَ بَصًّا  
 مُشْرِفاتِ على الكواكبِ نَهَضًا  
 وشبابُ الفنونِ ما زالَ غَضًّا  
 نِعُ منه اليديينِ بالأَمْسِ نَفَضًا  
 أَعْصُرُ بِالسَّرَاجِ والزَيْتِ وَضًا

وُخْطُوطٍ كَأَنَّهَا هُدْبُ رِيمٍ      حَسَنْتِ صَنْعَةً وَطُولًا وَعَرَضًا  
وَضَحَايَا تَكَادُ تَمْشِي وَتَرَعَى      لَوْ أَصَابَتْ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ نَبْضًا  
وَمَحَارِيبَ كَالْبُرُوجِ بَنَتْهَا      عَزَمَاتٌ مِنْ عَزْمَةِ الْجِنِّ أَمْضَى

ثم يقول:

يَا قُصُورًا نَظَرْتُهَا وَهِيَ تَقْضِي      فَسَكَبْتُ الدَّمُوعَ وَالْحَقُّ يُقْضَى  
أَنْتِ سَطْرٌ وَمَجْدٌ مِصْرَ كِتَابُ      كَيْفَ سَامَ الْبِلَى كِتَابِكَ فَضًّا  
وَأَنَا الْمُحْتَفِي بِتَارِيخِ مِصْرٍ      مَنْ يَصْنُ مَجْدَ قَوْمِهِ صَانَ عَرَضًا  
رُبَّ سِرٍّ بِجَانِبِكَ مُزَالٍ      كَانَ حَتَّى عَلَى الْفِرَاعِينَ غُمْضًا  
قُلْ لَهَا فِي الدَّعَاءِ لَوْ كَانَ يُجِدِي      يَا سَمَاءَ الْجَلَالِ لَا صِرْتِ أَرْضًا  
حَارَ فِيكَ الْمُهَنْدِسُونَ عُقُولًا      وَتَوَلَّتْ عَزَائِمُ الْعِلْمِ مَرَضَى

#### (٤٥) شوقي يعارض ابن سينا

ولشوقي معارضة لقصيدة الشيخ الرئيس أبي علي ابن سينا التي مطلعها:

هَبِطْتَ إِلَيْكَ مِنَ الْمَحَلِّ الْأَرْفَعِ      وَرَقَاءَ ذَاتِ تَعَزُّزٍ وَتَمْنَعِ

فقال شوقي:

ضُمِّي قِنَاعَكَ يَا سَعَادُ أَوْ ارْفَعِي      هَذِي الْمَحَاسِنُ مَا خُلِقْنَ لِبُرْقِعِ  
الضَّاحِيَاتِ الضَّاحِكَاتِ وَدُونَهَا      سِتْرُ الْجَلَالِ وَبَعْدَ شَأْوِ الْمَطْلَعِ  
يَا دُمِيَّةَ لَا يُسْتَزَادُ جَمَالُهَا      زَيْدِيهِ حُسْنُ الْمُحْسِنِ الْمُتَبَرِّعِ

يخاطب النفس فيقول لها تبرجي أو تستري، فإن محاسنك ما خُلقت حتى يُسدل فوقها نقاب، فهي محاسن ضاحية ظاهرة، وإن كان متناولها بعيداً، وستر جلالها حاجباً بينها وبين المتأمل فيها، إن حُسنتك ليس عليه من مزيد، أفلا تريد أن تزيديه بالإحسان؟

ماذا على سُلْطَانِهِ من وَقْفَةٍ      للضَّارِعِينَ وَعَظْفَةٍ للْخُشْعِ  
بل ما يَصْرُكُ لو سَمَحَتْ بَجَلْوَةٍ      إِنَّ العُرُوسَ كَثِيرَةَ الْمُتَطَّلِعِ  
ليسَ الحِجَابُ لَمَنْ يَعِزُّ مَنَالُهُ      إِنَّ الحِجَابَ لَهَيْئٌ لَمْ يُمْنَعِ

يقول: أنتِ تحرصين على حجابك، والحال أن الحجاب أنتِ في غنى عنه؛ لأنه لا وصالَ إليك، وما كان الحجاب إلا لغير المنيع.

أنتِ التي اتَّخَذَ الجمالَ لِعِزِّهِ      من مَظْهَرٍ وَلِسِرِّهِ من مَوْضِعِ  
وهو الصَّنَاعُ يَصُوغُ كُلَّ دَقِيقَةٍ      وَأَدَقُّ مِنْكَ بَنَانُهُ لَمْ تَصْنَعِ

يحكم بأن الجمال صناع اليد، وأنه صنع بدائع كثيرة، ولكنه لم يصنع أدق وألطف من النفس.

لَمَسْنُكَ رَاحَتَهُ وَمَسَّكَ رُوحَهُ      فَآتَى البَدِيعُ على مِثَالِ المُبْدِعِ

البديع يأتي بمعنى المبدع، ومنه قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وهو يأتي أيضاً بمعنى المبدع بالفتح كما هو هنا.

اللّه في الأَحْبَارِ مِنْ مُتْهَالِكِ      نَضُو وَمَهْتُوكِ المُسَوِّحِ مُصَرَّعِ  
مِنْ كُلِّ غَاوٍ فِي طَوِيَّةٍ رَاشِدِ      عَاصِيِ الظَّوَاهِرِ فِي سَرِيرَةِ طَيِّعِ  
يَتَوَهَّجُونَ وَيَطْفِئُونَ كَأَنَّهُمْ      سُرُجٌ بِمُعْتَرِكِ الرِّيحِ الأَرْبَعِ  
عَلِمُوا فِضَاقَ بِهِمْ وَشَقَّ طَرِيقَهُمْ      وَالجَاهِلُونَ على الطَّرِيقِ المَهْيَعِ

يقول: إن الأَحْبَارَ والحكماء هلكوا من العناء في البحث عن حقيقة النفس، ومنهم مَنْ غَوَى في سبيل الرِشَادِ، وَعَصَى وهو يريد الطاعة، وكانوا كلما آنسوا نارا خبت فهم أبداً بين مميضٍ وخبودٍ أشبه بمصابيح لعبت بها الرياحُ، وما كان العلم في هذا المقام إلا ليزيدهم خبالاً، أما العامة الجهلاء فهم سائرون على سواء السبيل؛ لأنهم مؤمنون متوكلون لا يتفلسفون، وهنا يتذكَّرُ الإنسانُ قولَ الفخر الرازي: اللهم إيماناً كإيمان العجائز.



ثم يقول:

نَهَبَ ابْنُ سِينَا لَمْ يُفْزَ بِكَ سَاعَةً  
هَذَا مَقَامٌ كُلُّ عِزٍّ دُونَهُ  
وَتَوَلَّتِ الْحِكْمَاءُ لَمْ تَتَمَتَّعْ  
شَمْسُ النَّهَارِ بِمِثْلِهِ لَمْ تَطْمَعِ  
وَتَرَجَّلَتْ شَمْسُ النَّهَارِ لِيَوْشَعَ  
بَلْ مَا لِعِيسَى لَمْ يَقُلْ أَوْ يَدَّعِ  
مَا بَالُ أَحْمَدَ عَيَّ عَنكَ بَيَانُهُ

يُقال إن شوقي كان قد جعل هذا الشطر «بل ما لعيسى لم يقل ويدعي»، فلاحظ عليه بعضهم بأنه لو قال ذلك لكان المعنى: ما بال عيسى لا يشرح لنا حقيقة النفس وهو يدعي معرفة ذلك، فعاد شوقي وغير ما قاله أولاً وقال: «بل ما لعيسى لم يقل أو يدع» أي لم يقل عن النفس شيئاً ولا ادعى أنه قال عن النفس شيئاً.

وَلِسَانُ مُوسَى انْحَلَّ إِلَّا عُقْدَةً  
لَمَّا حَلَلْتِ بِأَدَمٍ حَلَّ الْحَبَا  
مِنْ جَانِبَيْكَ عِلَاجُهَا لَمْ يَنْجِعِ  
وَمَشَى عَلَى الْمَلَأِ السُّجُودِ الرُّكْعِ

أي لما نفخك الله في آدم استوى قائماً ومشى يباري الملائكة.

وَأَرَى النُّبُوَّةَ فِي ذُرَاكَ تَكَرَّمَتْ  
وَسَقَتْ قُرَيْشَ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ  
وَمَشَتْ بِمُوسَى فِي الظَّلَامِ مُشَرِّدًا  
حَتَّى إِذَا طَوَيْتَ وَرِثْتَ خَلَالَهَا  
فِي يَوْسُفٍ وَتَكَلَّمْتَ فِي الْمُرْضِعِ  
بِالْبَابِلِيِّ مِنَ الْبَيَانِ الْمُمْتِعِ  
وَحَدَّثَهُ فِي قَلْلِ الْجِبَالِ اللَّمَعِ  
رُفِعَ الرَّحِيقُ وَسِرُّهُ لَمْ يُرْفَعِ

أي حتى إذا طويت وبقيت أنت خلالها، رفعت وبقي أثرها كما يبقى أثر الرحيق بعد رفعه.

## (٤٦) النيل في شعر شوقي

ولشوقي يخاطب النيل، وجدير بالشاعر الذي أنجبه هذا الوادي أن يكون له منه خطاب شهير:

مَنْ أَيِّ عَهْدٍ فِي الْقَرْيِ تَتَدَفَّقُ  
وَمِنَ السَّمَاءِ نَزَلَتْ أَمْ فُجِّرَتْ مِنْ  
وَبِأَيِّ كَفٍّ فِي الْمَدَائِنِ تُغْدِقُ  
عَلَيَا الْجِنَانِ جَدَاوِلًا تَتَرَقُّرُقُ

وبأَيِّ عَيْنٍ أَمْ بَأَيِّةٍ مُزْنَةٍ  
 وبأَيِّ نَوَلٍ أَنْتِ نَاسِجٌ بُرْدَةٍ  
 تَسْوَدُ دِيبَاجًا إِذَا فَارَقْتَهَا  
 فِي كُلِّ أَوْنَةٍ تَبَدَّلُ صَبْغَةً  
 تَسْقِي وَتُطْعِمُ لَا إِنَاؤُكَ ضَائِقُ  
 وَالْمَاءُ تَسْكُبُهُ فَيُسْبِكُ عَسَجِدًا  
 أَخْلَقْتَ رَاوِقَ الدُّهُورِ وَلَمْ تَزَلْ  
 حَمْرَاءَ فِي الْأَحْوَاضِ إِلَّا أَنَّهَا  
 دَيْنُ الْأَوَائِلِ فِيكَ دَيْنٌ مُرْوَعَةٌ  
 لَوْ أَنَّ مَخْلُوقًا يُؤَلِّهُ لَمْ تَكُنْ  
 جَعَلُوا الْهَوَى لَكَ وَالْوَقَارَ عِبَادَةً  
 دَانُوا بِبَحْرِ الْمَكَارِمِ زَاخِرٍ  
 مَتَقِيْدٌ بَعْهُودِهِ وَوَعُودِهِ  
 يَتَقَبَّلُ الْوَادِي الْحَيَاةَ كَرِيْمَةً  
 أَمْ أَيِّ طُوفَانٍ تَفِيضُ وَتَفْهُقُ  
 لِلضَّقَّتَيْنِ جَدِيدَهَا لَا يَخْلُقُ  
 إِذَا حَضَرَتْ اخْضُوضَرَ الْإِسْتِرْقُ  
 عَجَبًا وَأَنْتِ الصَّابِغُ الْمَتَائِقُ  
 بِالْوَارِدِينَ وَلَا خُوَانِكَ يَنْفُقُ  
 وَالْأَرْضُ تُغْرِقُهَا فَبِحَيَا الْمَغْرُقُ  
 بِكَ حَمَاءٌ كَالْمَسْكِ لَا تَتَرَوَّقُ  
 بِيضَاءُ فِي عُنُقِ الثَّرَى تَتَالِقُ  
 لِمَ لَا يُؤَلِّهُ مَنْ يَقُوْتُ وَيَزْرُقُ  
 لِسَوَاكِ مَرْتَبَةَ الْأُلُوْهِةِ تَخْلُقُ  
 إِنَّ الْعِبَادَةَ خَشِيَّةٌ وَتَعْلُقُ  
 عَذْبِ الْمَشَارِعِ مَدُّهُ لَا يُلْحَقُ  
 يَجْرِي عَلَى سَنَنِ الْوَفَاءِ وَيَصْدُقُ  
 مِنْ رَاحَتِيكَ عَمِيْمَةً تَتَدَفَّقُ

ومهما قيل في النيل فهو قليل، إلا أن شوقي جاء من وصف النيل بما يناسب جلاله  
 وجماله، ولا أظنُّ شاعراً قديماً ولا حديثاً وصَفَ النيلَ بمثل هذه الإِجَادَةِ، ثم إنه انتقل من  
 وصف النيل إلى وصف الفراعنة وأهرامهم، فلا نعلم أحداً جاء بمثل فريه في هذا الباب،  
 فقد قال:

أَيْنَ الْفِرَاعِنَةُ الْأُلَى اسْتَدْرَى بِهِمْ  
 عَيْسَى وَيُوسُفُ وَالْكَلِيمُ الْمُصْعَقُ

يقال صعقته السماء وأصعقته.

المُورِدُونَ النَّاسَ مَنَهَلَ حِكْمَةٍ  
 الفَالشَّمْسُ أَصْلُهُمُ الْوَضِيءُ الْمُعْرِقُ  
 أفضى إليه الأنبياءَ لِيَسْتَقُوا  
 الرّافِعُونَ إِلَى الضُّحَى آبَاءَهُمْ

منذ وُجِدَ الْإِنْسَانُ عَلَى الْأَرْضِ لَمْ يَجِدْ فِي نَظَرِهِ أَجَلًا وَأَنْفَعَ مِنَ الشَّمْسِ؛ فَلِذَلِكَ عِبْدَهَا  
 كَثِيرٌ مِنْ بَنِي الْإِنْسَانِ قَبْلَ أَنْ جَاءَ الْأَنْبِيَاءُ فَأَخْبَرُوهُمْ بِأَنَّ هَذِهِ الشَّمْسُ هِيَ أَيْضًا مَخْلُوقَةٌ،

وهي مادة لا تقدر على شيء بنفسها، وإنما الذي تجب له العبادة هو الذي أوجد الشمس وسائر الشمس السابحة في الأفلاك ودبرها، وهو وراء المادة وفوق الطبيعة، وهو العلة الأولى وهو الأزل وهو الأبد، فمنذ جاء الأنبياء ارتقت عبادة البشر وسمت إلى الأفق اللائق بهذه النفس الناطقة، ولكن الأقدمين من شدة إجلالهم للشمس جعلوها هي مصدر كل شيء ورفعوا إليها أنساب ملوكهم.

وَكأَنَّما بَيْنَ البَلَى وَقُبُورِهِمْ      عَهْدٌ عَلَى أَنْ لا مِساسَ وَمَوْتٌ  
فَجِبابُهُمْ تَحْتَ التَّرَى مِنْ هَيْبَةٍ      كَجِبابِهِمْ فَوْقَ التَّرَى لا يُحْرَقُ

لم يصف أحد الموميا ولم يمثل معناها بمثل ما وصفها شوقي. ثم يقول:

بَلَّغُوا الحَقِيقَةَ مِنْ حِياةِ عِلْمِها      حُجُبٌ مُكثَّفَةٌ وَسِرٌّ مُغْلَقٌ  
وَتَبَيَّنُوا مَعْنَى الوُجُودِ فَلَمْ يَرَوْا      دُونَ الخُلُودِ سَعادَةً تَحَقَّقُ

والحقيقة هي أنهم حاولوا الخلود فلم يقدروا عليه، فاعتاضوا منه بتخليد الأجسام بعد أن ينسوا من خلود الحياة في هذه الدنيا.

يَبْنُونَ لِلدُنْيا كَما تَبْنِي لَهُمْ      خَرِبًا غَرابُ البَيْنِ فيها يَنعَقُ  
فَقصُورُهُمْ كُوحٌ وَبِيتٌ بَدَاوَةٍ      وَقُبُورُهُمْ صَرَحٌ أَشَمٌ وَجَوسِقُ  
رَفَعُوا لَها مِنْ جَنَدِلٍ وَصَفائِحِ      عَمَدًا فَكانَتِ حائِطًا لا يُنْتَقُ

ثم قال في الأهرام:

وَلِمَنْ هياكلُ قَدَ عَلا البانِي بِها      بَيْنَ التَّرِيّا وَالتَّرَى تَتَنَسَّقُ  
مِنها المُشَيِّدُ كالبَروِجِ وَبعضُها      كالبَطُودِ مُضطَجِعُ أَشَمٌ مُنطَقُ  
جُدُدٌ كأوَّلِ عَهِدِها وَجِياَلِها      تَتقادِمُ الأَرْضُ الفِضاءَ وَتَعْتَقُ  
مِنْ كُلِّ ثِقَلٍ كاهِلُ الدُّنْيا بِه      تَعَبٌ وَوَجْهُ الأَرْضِ عَنْه ضَيِّقُ  
عالِ عَلَى باعِ البَلَى لا يَهْتَدِي      ما يَعتَلِي مِنْه وما يَتَسَلَّقُ  
مُتَمَكِّنٌ كالبَطُودِ أَصلاً فِي التَّرَى      وَالفرْعُ فِي حَرَمِ السَماةِ مُحَلَّقُ

هي من بناء الظلم إلا أنه  
لم يرهق الأمم الملوك بمثلها  
يبيض وجه الظلم منه ويشرق  
فخرًا لهم يبقى وذكرًا يعبق

ثم يذكر عادة المصريين القدماء في إلقاء عذراء في النيل كل سنة في يوم مخصوص  
وموسم كانت تحتفل به الفراعنة، فيقول:

ونجبية بين الطفولة والصبا  
كان الزفاف إليك غاية حظها  
عذراء تشربها القلوب وتعلق  
والحظ إن بلغ النهاية موبق  
ثمّن إليك وحرّة لا تصدق  
في كل عام دُرّة تلقى بلا

أي لا تُعطى صداقتها.

حولُ تُسائلُ فيه كلُّ نجبية  
والمجدُ عند الغانيات رغبة  
حتى إذا بلغت مواكبها المدى  
وكسا سماء المهرجان جلاله  
وتلفتت في اليم كل سفينة  
ألت إليك بنفسها ونفيسها  
خلعت عليك حياءها وحياتها  
وإذا تناهى الحب واتفق الفدى  
سيقت إليك متى يحول فتلحق  
يُغى كما يبغي الجمال ويُعشق  
وجرى لغايته القضاء الأسبق  
سيف المنية وهو صلت يبرق  
وانثال بالوادي الجموع وحدقوا  
وأنتك شيقه حواها شيق  
أعز من هذين شيء ينفق  
فالروح في باب الضحية أليق

ما وصف هذا المشهد الغريب من عبادة النيل قبل شوقي شاعرٌ يمثل هذا الوصف  
الذي بلغ فيه الإحسان مداه الأقصى، وظني أنه لن يباريه فيه شاعرٌ آخر، ولقد أبطل  
الإسلام عادة تقديم بكر كل سنة للنيل؛ لأن الإسلام لا يعرف عبادة ماء ولا سماء ولا بشر  
ولا حجر ولا خشب ولا شجر ولا شيء من الأشياء كلها، وإنما هو عبادة الواحد الأحد  
خالق كل شيء بقدرته، ومدبر كل شيء بحكمته سبحانه وتعالى عما يصفون.

ما العالم السفلي إلا طينة  
ما كان فيها للزيادة موضع  
أزلية فيه تضيء وتغسق  
وإلى حماها النقص لا يتطرق

مُنْبَتَّةٌ فِي الْأَرْضِ تَنْتَضِمُ التَّرَى      وتنالُ مِمَّا فِي السَّمَاءِ وَتَعْلُقُ  
 مِنْهَا الْحَيَاةُ لَنَا وَمِنْهَا ضِدُّهَا      أَبَدًا نَعُودُ لَهَا وَمِنْهَا نُخْلَقُ  
 وَالزَّرْعُ سُنْبُلُهُ يَطِيبُ وَحَبُّهُ      مِنْهَا فَيَخْرُجُ ذَا وَهَذَا يُفْلَقُ  
 وَتَشْدُ بَيْتَ النَّحْلِ فَهُوَ مُطَنَّبٌ      وَتَمُدُّ بَيْتَ النَّمْلِ فَهُوَ مُرَوِّقُ  
 وَتَظَلُّ بَيْنَ قُوَى الْحَيَاةِ جَوَائِلًا      لَا تَسْتَقِرُّ دَوَائِلًا لَا تُمَحِّقُ  
 هِيَ كَلِمَةُ اللَّهِ الْقَدِيرِ وَرُوحُهُ      فِي الْكَائِنَاتِ وَسِرُّهُ الْمُسْتَعْلِقُ

الكلمة بفتح فسكون، وكذلك بكسر فسكون، وكذلك بفتح فكسر، والجمع كلمات وكلم، وهو ما ينطق به الإنسان مفردًا كان أو مركبًا، وأما كلمة الله فهي خلقه، يقال كلمات الله أي مخلوقاته، وقيل في عيسى عليه السلام إنه كلمة الله، وفسرُوا ذلك أنه انتفع به وبكلامه على حد قولهم سيف الله وأسد الله؛ وقيل بل لأن الله تعالى خلقه بمجرد كلمة «كن» من غير أب؛ أي ألقى الكلمة ثم كونها بشرًا. ومعنى الكلمة معنى الولد قاله الأزهري في تفسير قوله تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي يبشرك بولد اسمه المسيح، وقيل كلمة الله بمعنى مشيئته وقدرته، وقيل غير ذلك كما في تاج العروس، والظاهر أن شوقي يريد بكلمة الله هنا المادة التي خلقها الله، وبروحه هذه الحياة التي بثها فيها، إلى أن قال:

فَتَنَّتْ عُقُولَ الْأَوَّلِينَ فَأَلَّهُوا      مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَا يَرُوعُ وَيَحْرَقُ  
 سَجَدُوا لِمَخْلُوقٍ وَظَنُّوا خَالِقًا      مَنْ ذَا يُمَيِّزُ فِي الظَّلَامِ وَيَفْرُقُ

قال إن الناس في القدم فتنوا بهذه المادة فألهوها، وبدلاً من أن يعبدوا الخالق عبدوا المخلوق؛ لأن الإنسان كما أنه لا يميز في الظلام لا يميز في الضلال. ثم قال عن ضلال البشر:

يَدْعُونَ خَلْفَ السُّتْرِ آلِهَةً لَهُمْ      مَلَأُوا النَّدَى جِلَالَةً وَتَأَبَّقُوا

تَأَبَّقُوا: استتر.

وَاسْتَحَبَّوْا الْكُفَّانَ هَذَا مُبْلِغٌ      مَا يَهْتَفُونَ بِهِ وَذَاكَ مُصَدِّقُ  
 لَا يُسَأَلُونَ إِذَا جَرَّتْ أَلْفَاظُهُمْ      مِنْ أَيْنَ لِلْحَجَرِ اللِّسَانُ الْأَدْلُقُ

ثم نكّر مآثر مصر التاريخية مخاطبًا وادي النيل:

أصل الحضارة في صعيدك ثابتٌ  
وُلِدَتْ فَكُنْتَ المهدُ ثُمَّ ترعرعتُ  
مَلَأْتَ ديارَكَ حِكْمَةً مَأثورها  
وَبَنَتْ بيوتَ العِلمِ باذخَةَ الذُّرى  
واستحدثت دينا فكانَ فضائلاً  
مهدَ السبيلَ لكلِّ دينٍ بعدهُ  
يَدعو إلى برٍّ وَيَرْفَعُ صالحًا  
لِلنَّاسِ مِنْ أسرارِهِ ما عُلِّمُوا

ونباتها حسنٌ عليك مُخلَقٌ  
فأظَلَّها منك الحَفِيُّ المُشْفِقُ  
في الصخرِ والبَرديِّ الكَريمِ مُنبِقُ  
يَسعى لَهْنٌ مُعْرَبٌ ومُشرِقُ  
وبناءِ أخلاقٍ يَطولُ وَيَشهُقُ  
كالْمِسكِ رِيأَهُ بأخرى تُفْتَقُ  
ويَعافُ ما هُوَ لِلْمروءَةِ مُخلِقُ  
ولشُعْبَةِ الكهنوتِ ما هُوَ أعمَقُ

إلى أن يقول:

وَصلاةُ مريمَ فوقَ رَزَعِكَ لم يَزَلْ  
وخطى المسيحَ عليكَ روحًا طاهرًا  
وودائعَ الفاروقِ عندَكَ دينه  
بعثَ الصحابةَ يَحْمِلونَ مِنَ الهُدَى  
فَتَحَّ الفُتوحَ مِنَ المَلائِكِ رَزَدُقُ  
يَبْنونَ لِلهِ الكِنانَةَ بالقنَا

يَزكُو لِذِكرِها النَباتِ وَيَسْمُقُ  
بَرَكاتُ رَبِّكَ وَالنَّعِيمِ الغَيْدِقُ  
وِلِواؤُهُ وَبَيانُهُ وَالْمَنطِقُ  
والحق ما يُحيي العُقولَ وَيَفْتِقُ  
فِيهِ وَمِنَ أَصحابِ بَدْرِ رَزَدُقُ  
واللَّهُ مِنْ حَولِ البِنايَةِ مُوفِّقُ

يذكر فتح الإسلام لوادي النيل، ثم ينهي هذه الكلمة التي تاهت على الكلمات، وجرت من مطارف الحكمة ما يندر في ما مضى وأت بخطاب للوادي هو هذا:

كَنَفَ كَمَعِنِ أو كَساحَةِ حاتمِ  
وعليكَ تَجَلَّى مِنَ مَصوناتِ النُّهى  
لي فِيكَ مَدْحٌ لَيْسَ فِيهِ تَكْلُفُ  
مِمَّا يُحْمَلُنا الهوى لَكَ أَفرُخُ  
تَهْفُو إِلَيْهِم في الترابِ قُلوبُنا  
تُرَجى لَهُم وَاللَّهُ جَلَّ جلالُهُ

خَلَقَ يودِعُهُ وَخَلَقَ يَطْرُقُ  
خودُ عَرائِسُ خِدرُهُنَّ المَهْرِقُ  
أَمْلأَهُ حُبِّ لَيْسَ فِيهِ تَمَلُّقُ  
سَنَطيرُ عَناها وَهِيَ عَندَكَ تُرَزِقُ  
وَتَكَادُ فِيهِ بَغيرِ عِرْقِ تَخْفِقُ  
مَنا وَمِنكَ بِهِم أَبْرُّ وَأَرْفِقُ

يقول لوادي النيل: إن ثنائي عليك ليس فيه تكلف، وحيي لك ليس من باب التزلّف، ويكفي أننا نترك عندك أولادنا تُرزق في جوانبك بعد أن نكون افترقنا عنهم، فإننا نفكر فيهم ولو كنا ترابًا. وما زال شوقي من أبرّ الناس بأهله ووطنه، ولكنه في الآخر مع شدة حبه لوادي النيل لم يشأ أن يعبد عبادَة المصري القديم؛ فإنه مسلم لا يعبد غير الله، فهو يقول للنيل: أنت المرجوُّ لأولادي، وإنما الله تعالى من فوقك هو أبر بهم مني ومنك.

### (٤٧) كلمة شوقي في الطيران

ولشوقي قصيدة في الطيران والطيارات نظمها عندما كان أمر الطائرة عجبًا — ولم يزل عجبًا — وكان الناس لما يألّفوا مثل اليوم هذه الأعجوبة المعدودة من المعجزات العصرية، فقال شوقي:

قُمْ سَلِيمَانُ بِسَاطِ الرِّيحِ قَامَا  
حِينَ ضَاقَ البِرُّ وَالبَحْرُ بِبِهِمْ  
صَارَ مَا كَانَ لَكُمْ مُعْجِزَةً  
مَلَكَ القَوْمُ مِنَ الجَوِّ الرِّمَامَا  
أَسْرَجُوا الرِّيحَ وَسَامُوها اللِّجَامَا  
أَيَّةً لِلْعِلْمِ آتَاهَا الأَنَامَا

ثم يقول:

رَفَعُوا لَوَلَبَهَا فاندَفَعَتْ  
شَالَ بِالأَذْنَابِ كُلُّ وَرَمَى  
تَنْبَرِي فِي زَرْقِ الأَفْقِ كَمَا  
بَعْضُهَا فِي طَلَبِ البَعْضِ كَمَا  
هَل رَأَيْتَ الطَّيْرَ قَدْ زَفَّ وَحَامَا  
بِجَنَاحِيهِ كَمَا رُغَتِ النِّعَامَا  
سَبَّحَ الحَوْتُ بِدَأْمَاءٍ وَعَامَا  
طَارَدَ النِّسْرُ عَلَى الجَوِّ القُطَامَا

إلى أن يقول:

طَلَبَةٌ قَدْ رَامَهَا آبَاؤُنَا  
أَسْقَطَتْ «إِيكَارَ» فِي تَجْرِبَةٍ  
وَابْتَغَاهَا مِنْ رَأَى الدَّهْرِ غُلَامَا  
«وَابْنَ فِرْناسٍ» فَمَا اسْتَطَاعَا قِيَامَا

يشير إلى العباس بن فرناس القرطبي الأندلسي، الذي كان من العلماء أولًا من حاول الطيران، وكانت كنيته أبا القاسم، وكان مع علمه بالعلوم الطبيعية أديبًا مشهورًا، عاش

في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الثاني صاحب الأندلس، وقيل إنه أول من ابتنى  
طيارةً وطار بها، ولكنه لم يحسن التحيل في أمر نزولها فسقطت به ومات.

فِي سَبِيلِ الْمَجْدِ أَوْدَى نَفَرٌ  
خُلَفَاءُ الرُّسُلِ فِي الْأَرْضِ هُمْ  
شُهَدَاءُ الْعِلْمِ أَعْلَاهُمْ مَقَامًا  
يَبْعَثُ اللَّهُ بِهِمْ عَامًا فَعَامًا  
قَطْرَةٌ مِنْ دَمِهِمْ فِي مُلْكِهِ  
تَمَلُّ الْمُلُكُ جَمَالًا وَنِظَامًا

ثم يقول في مغزى الطيران:

رَبِّ إِنْ كَانَتْ لَخَيْرٍ جُعِلَتْ  
وَإِنْ اعْتَزَّ بِهَا الشَّرُّ غَدًّا  
فَاجْعَلِ الْخَيْرَ بِنَادِيهَا لِرَامًا  
فَتَعَالَتْ تُمْطِرُ الْمَوْتَ الزُّوَامًا  
فَامْلَأِ الْجَوَّ عَلَيْهَا رُجْمًا  
رَحْمَةً مِنْكَ وَعَدْلًا وَانْتِقَامًا

نقول: مع الأسف إن الشر قد اعتزَّ بهذه الطيارات اعتزازًا جاء فوق ما كان يخشاه  
شوقي، وصارت تُمْطِرُ الموت الزوَام في كلِّ مكانٍ تقع فيه حرب، وصارت عمدةً في القتال  
الحديث، وأخذت الدول التي تزعم أنها تريد نشرَ المدنيَّة ونصرَ الإنسانية في العالم تطير من  
هذه الطيارات أسرابًا، ترمي منها بالموت الزوَام على الضعفاء الذين لا قِبَل لهم بمقاومتها،  
وكثيرًا ما تقتل النساء والأطفال والعاجزين، وتدمر البيوت على رؤس أصحابها.  
وقد تحرَّك عرق الإنسانية بكثيرٍ من رجال السياسة والعلم، وحاولوا حملَ جمعية  
الأمم على اتخاذ قرارٍ يمنع القتالَ بالطيارات، ففشلوا وإلى الآن ولا يزال اعتماد الدول  
الكُبر على القتال في الجو، ونرى الدول يكثر بعضها بعضًا في عدد الطيارات التي لا  
تشتغل معاملة الأسلحة بشيء شغلها بها. ثم قال شوقي:

مُلْكُ هَذَا الْجَوِّ فِي مَنَعَتِهِ  
حَسَدَ الْإِنْسَانِ سِرْبِيهِ بِمَا  
طَالَ مَا لِلنَّجْمِ وَالطَّيْرِ اسْتِقَامًا  
أُوتِيَا فِي ذُرُورَةِ الْعِزِّ اعْتِصَامًا  
دَخَلَ الْعُشُّ عَلَى أَنْسَرِهِ  
أَتَرَى يَغْشَى مِنَ النَّجْمِ السَّنَامًا  
أَيُّهَا الشَّرْقُ أَنْتَبِهْ مِنْ غَفْلَةٍ  
مَاتَ مَنْ فِي طُرُقَاتِ السَّيْلِ نَامًا  
لَا تَقُولَنَّ عِظَامِي أَنَا  
فِي زَمَانٍ كَانَ لِلنَّاسِ عِصَامًا



ثم قال في إظهار الفرق بين قدرة الخالق والمخلوق:

خَالِقِ الْعُصْفُورِ حَيَّرَتْ بِهِ      أُمَّمًا بَادُوا وَمَا نَالُوا الْمَرَامَا  
أَفَّنُوا النَّقْدَيْنِ فِي تَقْلِيدِهِ      وَهَوَ كَالدَّرْهِمِ رِيْشًا وَعِظَامَا

### (٤٨) ما قاله في توت عنخ آمون

وقال في توت عنخ آمون وحضارة مصر القديمة:

دَرَجَتْ عَلَى الْكَنْزِ الْقُرُونُ      وَأَتَتْ عَلَى الدَّنِّ السُّنُونُ  
خَيْرَ السِّيُوفِ مَضَى الزَّمَا      نٌ عَلَيْهِ فِي خَيْرِ الْجُفُونُ  
فِي مَنْزِلٍ كَمُحَجَّبِ الْـ      غَيْبِ اسْتَسَرَّ عَنِ الظُّنُونُ  
حَتَّى أَتَى الْعِلْمُ الْجَسُو      رُ فَفَضَّ خَاتَمَهُ الْمَصُونُ  
وَالْعِلْمُ «بَدْرِيٌّ» أَحِلُّ      لِأَهْلِهِ مَا يَصْنَعُونَ

يشير إلى ما ورد في الأثر من أن أهل بدر مغفورة لهم ذنوبهم «إلا الكبائر».

هَتَكَ الْجِجَالَ عَلَى الْحَضَا      وَانْدَسَّ كَالْمِصْبَاحِ فِي  
حُجْرٍ مَمَرْدَةٌ الْمَعَا      قَلِي فِي الثَّرَى شُمُّ الْحُصُونِ  
لَا تَهْتَدِي الرِّيحُ الْهَبُوبُ      بُلْ لَهَا وَلَا الْغَيْثُ الْهَتُونِ  
خَانَتْ أَمَانَةَ جَارِهَا      وَالْقَبْرِ كَالدُّنْيَا يَخُونُ  
يَا ابْنَ التَّوَائِبِ مِنْ «رَعِ»      وَابْنَ الزَّوَاهِرِ مِنْ «أَمُونِ»  
نَسَبٌ عَرِيقٌ فِي الضُّحَى      بَدُّ الْقِبَائِلِ وَالْبَطُونِ  
أَرَأَيْتَ كَيْفَ يَنْثُوبٌ مِنْ      عَمَرَ الْقَضَاءِ الْمُغْرَقُونَ  
حُبُّ الْخُلُودِ بَنَى لَكُمْ      خُلُقًا بِهِ تَتَفَرَّدُونَ  
لَمْ يَأْخُذِ الْمُتَقَدِّمُو      نَ بِهِ وَلَا الْمُتَأَخَّرُونَ  
حَتَّى تَسَابَقْتُمْ إِلَى الْـ      إِحْسَانِ فِيمَا تَعْمَلُونَ  
لَمْ تَتَرَكُوهُ فِي الْجَلِي      لِ وَلَا الْحَقِيرِ مِنَ الشُّنُونِ

هذا القيامُ فقلُّ لنا الـ  
البعثُ غايَةً زائلٌ  
سيومُ الأخيرِ متى يَكُونُ  
فانِ وَأَنْتُمْ خَالِدُونَ  
السَّبْقُ مِنْ عَادَاتِكُمْ  
أَتَرَى الْقِيَامَةَ تَسْبِقُونَ

ثم يصف تلك الآثار التي وُجِدَت تحت الأرض، وإليك أنموذجًا من وصفه:

وبكُلِّ رُكْنٍ صُورَةٌ  
وترى الدُّمَى فَتَخَالُهَا انْدُ  
وبكُلِّ زاويةٍ رَقِيْنِ  
تَتَثَرَّتْ عَلَى جَنَبَاتِ زُونِ  
صُورٌ تُرِيكَ تَحَرُّكًا  
والأصلُ في الصُّورِ السُّكُونِ  
ويمرُّ رَائِحٌ صَمْتِهَا  
بالجِسِّ كالنُّطْقِ المُبِينِ  
صَحْبَ الزَّمَانِ بِهَانِهَا  
جِينًا عَهِيدًا بَعْدَ جِينِ  
حَدَّعَ الْعَيُونَ وَلَمْ يَزَلْ  
حتى تحدَّى اللّامِسينِ  
بِ يُنَاوِلُونَ وَيَطْرِدُونَ  
غِلْمَانُ قَصْرِكَ فِي الرُّكَا  
مُ تَرِنٌ وَالْقَوْسُ الْحَنُونِ  
والبوقُ يَهْتَفُ وَالسَّهَا  
والخيلُ جُنٌّ لَهَا جُنُونِ  
وكِلَابٌ صَيْدِكَ لُهْثٌ  
لِ وَتَارَةً تَثْبُ السُّحُونِ  
والوَحْشُ تَنْفُرُ فِي السُّهُوِ

فعل وثب لا بد من أن يتعدى بحرف، ولكن شوقي عداه بلا حرفٍ على نزع الخافض.

والطَّيْرُ تَرْسُفُ فِي الْجِرا  
وكأَنَّ أَبَاءَ الْبَرِيْدِ  
حِ وفي مناقِرِها أَنِينِ  
سِ عن شماليك واليَمِينِ  
ةِ في المدائنِ مُحَضَّرُونَ  
وكأَنَّ دَوْلَةَ آلِ شَمِ

### (٤٩) قصيدة شوقي في دمشق

ولشوقي قصيدة دمشقية يوم زار دمشق غير القصيدة الطائرة الصيت التي قالها يوم ضرب تلك الحاضرة بالقنابر:

قُمُ نَاجِ جَلَقٌ وَانشُدُ رَسَمَ مَنْ بَانُوا  
هذا الأديمُ كتابٌ لا كِفَاءَ لَهُ  
مَشَتْ عَلَى الرَّسْمِ أَحْدَاثٌ وَأَزْمَانُ  
رَثُّ الصَّحَائِفِ باقٍ مِنْهُ عَنوَانُ

بَنُو أُمِيَّةَ لِلأَنْبَاءِ مَا فَتَحُوا      وللأَحَادِيثِ مَا سَادُوا وَمَا دَانُوا  
كَانُوا مُلُوكًا سَرِيرُ الشَّرْقِ تَحْتَهُمْ      فَهَلْ سَأَلْتَ سَرِيرَ العَرَبِ مَا كَانَ  
عَالِينَ كَالشَّمْسِ فِي أَطْرَافِ دَوْلَتِهَا      فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مُلْكٌ وَسُلْطَانُ  
يَا وَيْحَ قَلْبِي مَهْمَا انْتَابَ أَرْسَمَهُمْ      سَرَى بِهِ الهَمُّ أَوْ عَادَتْهُ أَشْجَانُ  
بِالْأَمْسِ قَمْتُ عَلَى الزَّهْرَاءِ أَنْدَبُهُمْ      وَالْيَوْمَ دَمَعِي عَلَى الفِيحَاءِ هَتَانُ

يريد أن يقول إنه بكى آثار بني أمية عندما كان بالأندلس، واليوم يبكي آثارهم وهو في دمشق.

فِي الأَرْضِ مِنْهُمْ سَمَاوَاتٌ وَأَلْوِيَّةٌ      وَنَيِّرَاتٌ وَأَنْوَاءٌ وَعُقْبَانُ  
لَوْلَا دِمَشْقُ لَمَا كَانَتْ طُلَيْطَلَةٌ      وَلَا زَهَتْ بِنْيِ العَبَّاسِ بَغْدَانُ

يشير إلى فتح الأندلس كان الأصل فيه دمشق، وأن عاصمة بني أمية هي التي استلحقت عاصمة القوط، ولولا عاصمة بني أمية لما كانت عاصمة بني العباس الذين انتزعوا منهم الخلافة موحدة. وبغداد لغة في بغداد.

مَرَرْتُ بِالمَسْجِدِ المَحْزُونِ أَسَأَلُهُ      هَلْ فِي المُصَلَّى أَوْ المَحْرَابِ مَرَوَانُ  
تَغَيَّرَ المَسْجِدُ المَحْزُونُ وَاخْتَلَفَتْ      عَلَى المَنَابِرِ أَحْرَارٌ وَعِبْدَانُ  
فَلَا الأَذَانُ أَدَانُ فِي مَنَارَتِهِ      إِذَا تَعَالَى وَلَا الأَذَانُ أَدَانُ

الحقيقة أن الأذان لا يزال كما كان، وإنما اختلف تأثيره في الأذان، وعسى كل شيء يعود إلى أصله.

أَمَنْتُ بِاللَّهِ وَاسْتَتْنَيْتُ جَنَّتَهُ      دِمَشْقُ رُوحٌ وَجَنَاتٌ وَرِيحَانُ

عاد فاستتنى دمشق وقال: آمنت بالله، يقلد الدمشقيين في كلماتهم؛ لأنهم يستعملون هذه الجملة كثيراً في موضع العجب.

قَالَ الرَّفَاقُ وَقَدْ هَبَّتْ خَمَائِلُهَا      الأَرْضُ دَارٌ لَهَا الفِيحَاءُ بُسْتَانُ  
جَرَى وَصَفَّقَ يَلْقَانَا بِهَا بَرْدَى      كَمَا تَلْقَاكَ دُونَ الخُلْدِ رَضْوَانُ

دخَلْتُهَا وَحَوَاشِيهَا زُمْرُدَةٌ  
وَرَبِوَةُ الْوَادِ فِي جَلَبَابٍ رَاقِصَةٍ  
وَالطَّيْرُ تَصَدِّحُ مِنْ خَلْفِ الْعَيْوُنِ بِهَا  
وَأَقْبَلْتُ بِالنَّبَاتِ الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا  
وَقَدْ صَفَا بَرْدِي لِلرَّيْحِ فَايْتَدَرْتُ  
نَمُّ انْتَنَتْ لَمْ يَزَلْ عَنْهَا الْبَلَالُ وَلَا  
خَلَّفْتُ لُبْنَانَ جَنَاتِ النَّعِيمِ وَمَا  
وَالشَّمْسُ فَوْقَ لُجَيْنِ الْمَاءِ عَقِيَانُ  
السَّاقُ كَاسِيَةٌ وَالنَّخْرُ عُرِيَانُ  
وَاللَّعِيونُ كَمَا لِلطَّيْرِ أَلْحَانُ  
أَفْوَاهُهُ فَهُوَ أَصْبَاغٌ وَالْوَانُ  
لَدَى سُتُورِ حَوَاشِيهِنَّ أَفْنَانُ  
جَقَّتْ مِنَ الْمَاءِ أذْيَالُ وَأَرْدَانُ  
نُبِّئْتُ أَنَّ طَرِيقَ الْخُلْدِ لُبْنَانُ

أي ظننتُ لبنان هو الجنة، ولكن بعدما أفضتُ منه إلى دمشق علمتُ أنه لم يكن إلا طريق الجنة.

حتى انحدرتُ إلى فيحاءٍ وارفَةٍ فيها الندى وبها طَيٌّ وشيبانُ

اختصَّ بالذكر من قبائل العرب طَيًّا التي منها حاتم، وشيبان التي يُنسب إليها معن بن زائدة.

نزلتُ فيها بفتيانٍ جَحَاجِحَةٍ  
بِيضِ الْأَسْرَةِ بَاقٍ فِيهِمْ صَيِّدُ  
يَا فَتِيَةَ الشَّامِ شُكْرًا لَا انْقِضَاءَ لَهُ  
خَمِيلَةَ اللَّهِ وَشَّتْهَا يَدَاهُ لَكُمْ  
أَبَاؤُهُمْ فِي شَبَابِ الدَّهْرِ غَسَّانُ  
مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ وَإِنْ لَمْ تَبْقُ تَبْجَانُ  
لَوْ أَنَّ إِحْسَانَكُمْ يَجْزِيهِ شُكْرَانُ  
فَهَلْ لَهَا قَيِّمٌ مِنْكُمْ وَجَنَانُ

الجَنَانُ بمعنى البستاني، لفظة مولدة لم نعرث عليها في كتب اللغة، وقد استعملها صاحب نفح الطيب من المتأخرين.

شِيدُوا لَهَا الْمَلْكَ وَابْنُوا رُكْنَ دَوْلَتِهَا  
الْمَلْكَ أَنْ تَعْمَلُوا مَا اسْطَعْتُمْ عَمَلًا  
الْمَلْكَ أَنْ تُخْرَجَ الْأَمْوَالُ نَاشِطَةً  
فَالْمَلْكَ عَرَسٌ وَتَجْدِيدٌ وَبُنْيَانُ  
وَأَنْ يَبِينَ عَلَى الْأَعْمَالِ إِتْقَانُ  
لِمَطْلَبٍ فِيهِ إِصْلَاحٌ وَعُمْرَانُ

أصاب شوقي هنا شاكلة الداء الذي به انحطَّ الشرق وتقهقر العالم الإسلامي، وهو عدم ائتلاف أهلها على الإنفاق على المصالح العامة، بخلاف الأوروبيين الذين كان أكبر

عوامل نجاحهم وفلاحهم بذل كل واحد منهم على قدر حالته في مصلحة الجمهور. ثم قال:

المُلْكُ أن تتلأفُوا في هَوَى وَطَنِ تفرَّقَتْ فيه أجناسُ وأديانُ

كنّا نتمنى لو عاش شوقي إلى هذا العهد وشهد انحلال المسألتين المصرية والسورية باستقلال كل من القطرين الشقيقين، فكان لذلك البلبل الصداح غناء يرقص الجماد كما كان له من أجل استيلاء الأجانب عليهما نواحٍ يذيبه.

### (٥٠) حنين شوقي من الأندلس إلى وطنه مصر

ولشوقي قصيدة نظمها وهو في منفاه بالأندلس أيام الحرب العامة، يحن فيها إلى مصر وطنه، ويعارض قصيدة ابن زيدون في ولادة بنت المستكفي وهو يخاطب حمام وادي الطلح الذي بظاهر أشبيلية:

يا نايحِ الطلحِ أشباهِ عوادينا      نشجى لواديك أم تأسى لوادينا  
ماذا تقص علينا غير أن يدًا      قصت جناحك جالت في حواشينا  
رمى بنا البين أيكًا غير سامرنا      أحا الغريب وظلًا غير نادينا  
إذا دعا الشوق لم نبرح بمنصديع      من الجناحين عي لا يلبينا  
فإن يك الجنس يا ابن الطلح فرقنا      إن المصائب يجمعن المصابينا

وأكثر أبيات هذه القصيدة شبهًا بقصيدة ابن زيدون، وهي التي تلي:

يا من نغار عليهم من ضمائرنا      ومن مَصونِ هواهم في تناجينا  
ناب الحنين إليكم في خواطرننا      عن الدلال عليكم في أمانينا  
جئنا إلى الصبر ندعوه كعادتنا      في النائبات فلم يأخذ بأيدينا  
وما غلبنا على دمع ولا جلد      حتى أتتنا نواكم من صياصينا  
ونابغي كأن الحشر آخره      تميتنا فيه ذكراكم وتحيينا  
نطوي دجاء بجرح من فراقكم      يكاد في غلس الأسحار يطوينا  
إذا رسا النجم لم ترقًا محارننا      حتى يزول ولم تهدأ تراقينا

## (٥١) المكتب في شعر شوقي

ومن أطف كلمات شوقي وَصَفُه حياة المكتب، وكيف يتدرَّج الناشئ في أطوار الحياة:

أَلَا حَبْدًا صُحْبَةَ الْمَكْتَبِ      وَأَحْبِبْ بِأَيَّامِهِ أَحْبِبِ  
وَيَا حَبْدًا صَبِيَّةً يَمْرُحُو      نَ عِنَانُ الْحَيَاةِ عَلَيْهِمْ صَبِي  
كَأَنَّهُمْ بِسَمَاةِ الْحَيَاةِ      وَ أَنْفَاسُ رِيحَانِهَا الطَّيِّبِ  
يِرَاحُ وَيُعْجِي بِهِمْ كَالْقَطِيبِ      عِ عَلَى مَشْرِقِ الشَّمْسِ أَوْ الْمَغْرِبِ  
إِلَى مَرْتَعِ أَلْفِوَا غَيْرَهُ      وَرَاعِ غَرِيبِ الْعَصَا أَجْنَبِي  
وَمُسْتَقْبَلِ مَنْ قِيودِ الْحَيَاةِ      وَ شَدِيدِ عَلَى النَّفْسِ مُسْتَصَعِبِ  
فِرَاحُ بِأَيْكِ فَمِنْ نَاهِضِ      يَرِوُضُ الْجَنَاحِ وَمِنْ أَرْغَبِ  
مِقَاعِدُهُمْ مِنْ جَنَاحِ الزَّمَا      نَ وَمَا عَلِمُوا خَطَرَ الْمَرْكَبِ  
عَصَافِيرُ عِنْدَ تَهَجِّي الدُّرُ      سَ مِهَارُ عَرَابِيدُ فِي الْمَلْعَبِ  
خَلْيُونُ مِنْ تَبِعَاتِ الْحَيَاةِ      وَ عَلَى الْأُمِّ يَلْقَوْنَهَا وَالْأَبِ  
جُنُونُ الْحَدَاثَةِ مِنْ حَوْلِهِمْ      تَضْيِقُ بِهِ سَعَةَ الْمَذْهَبِ  
عَدَا فَاسْتَبَدَّ بِعَقْلِ الصَّبِيِّ      وَأَعْدَى الْمُؤَدَّبِ حَتَّى صَبِي  
لَهُمْ جَرَسُ مُطْرِبٍ فِي السَّرَا      حَ وَ لَيْسَ إِذَا جَدَّ بِالْمُطْرِبِ

إلى أن يقول:

قَطِيعٌ يُزَجِّيه رَاعٍ مِنَ الدَّهْرِ      رَ لَيْسَ بَلَيْنٍ وَلَا صُلْبِ  
أَهَابَتْ هِرَاوُتُهُ بِالرِّفَا      قَ وَنَادَتْ عَلَى الْحَيِّدِ الْهَرَبِ  
وَصَرَفَ قُطْعَانَهُ فَاسْتَبَدَّ      وَلَمْ يَخْشَ شَيْئًا وَلَمْ يَرْهَبِ  
أَرَادَ لِمَنْ شَاءَ رَعِيَ الْجَدِيدِ      بَ وَأَنْزَلَ مَنْ شَاءَ بِالْمُخْصِبِ  
وَرَوَى عَلَى رِيَّهَا النَّاهِلَا      تَ وَرَدَّ الطَّمَاءَ فَلَمْ تَشْرَبِ  
وَأَلْقَى رِقَابًا إِلَى الضَّارِبِي      نَ وَضَنَّ بِأُخْرَى فَلَمْ تُضْرَبِ  
وَلَيْسَ يُبَالِي رِضَا الْمُسْتَرِي      حَ وَلَا ضَجَرَ النَّاقِمِ الْمُتَعَبِ  
وَلَيْسَ بِمُبِقِّ عَلَى الْحَاضِرِي      نَ وَ لَيْسَ بِبَاكِ عَلَى الْغُيْبِ

ثم ذكرَ دخولَ الإنسان في دور الكهولة بعد أن ودَّعَ الشبابَ:

حياةٌ يُغامرُ فيها امرؤٌ  
وصارَ إلى الفأقةِ ابنُ الغنيِّ  
وقد ذهبَ المُمْتلي صِحَّةً  
وكمَّ مُنجِبٍ في تلقِّي الدُّرو  
وغابَ الرِّفاقُ كأنَّ لم يكن  
إلى أن فنوا ثلَّةً ثلَّةً

تسلَّحَ بالنابِ والمِخلَبِ  
ولاقى الغنى وكُدَّ المُتربِّ  
وصحَّ السَّقِيمُ فلمْ يذهبِ  
سِ تلقَى الحياةَ فلمْ يُنجِبِ  
بهم لك عهدٌ ولم تصحبِ  
فناء السرابِ على السَّببِ

إذا وضعتَ هذا الشعرَ في شعر المتنبّي لم تفرقه عنه، وما زال شوقي أشبه الشعراء المحدثين بأبيه أبي الطيب، لا سيما إذا طرق بابَ الحكمة وتكلّم في الأوابد.

## (٥٢) كلمة شوقي عن لبنان

ولشوقي قصيدة عن لبنان من جملتها هذه الأبيات:

لبنانُ والخُلْدُ اختراعُ الله لَمْ  
هو ذرّوةٌ في الحُسنِ غيرَ مَرومَةٍ  
مَلِكُ الهِضابِ الشَّمُّ سُلطانُ الرُّبى  
سيناءُ شاطرَه الجلالَ فلا يُرى  
والأبلقُ الفَرْدُ انتهتْ أوصافُه  
جبلٌ على آزارٍ يُزرى صيفُه  
أبهى مِنَ الوُشي الكَريمِ مَروجُه  
يَغشى رَوابيَه على كافورها  
وكانَ أيامَ الشبابِ رُبوعُه  
وكانَ ريعانَ الصِّبا رِيحانُه  
وكانَ أُنْداءَ النَواهِدِ تينُه  
وكانَ هَمَسَ القاعِ في أذنِ الصِّفا  
وكانَ ماءهما وجرسُ لُجَينِه

يوسمُ بأزِينَ منهما مَلِكوتُه  
وذرى البراعةِ والحجى بيروتُه  
هامُ السحابِ عُروشُه وتُخوتُه  
إلا له سُبحاتُه وسُموتُه  
في السُودِ العالِي لَه ونُوعتُه  
وشتاؤُه يَبْدُ القَري جَبروتُه  
والدُّ من عَطَلِ النُحورِ مُروتُه  
مِسكُ الوهادِ فَتيقُه وفَتيتُه  
وكانَ أحلامَ الكِعبِ بَيوتُه  
سر السُرورِ يَجودُه وَيَقوتُه  
وكانَ أقرَاطِ الولائِدِ توتُه  
صوتُ العتابِ ظُهورُه وخُفوتُه  
وضُحُ العَروسِ تَبينُه وتُصيتُه

يظهر من البيتين الأخيرين أن شوقي استلطفَ وادي عين زحلة، وهناك نبعان أحدهما يقال له نبع القاعة، والآخر نبع الصفا، والمسافة بينهما قصيرة يجتمعان فيسيل منهما نهر الصفا الذي ينحدر إلى البحر عند الدامور، وقد عبّر شوقي عن القاعة بالقاع، وليس كذلك بل هو بالتاء، والقاع في اللغة هو الأرض السهلة المطمئنة، ولا محلّ له هنا، وإنما سُمِّيَ أحد هذين النبعين بنبع القاعة؛ لأنه يخرج من مغارة تراها كأنها منحوتة باليد، فأطلقوا عليها اسم القاعة التي هي البهو عند أهل الشام، وهكذا يُسَمَّى أهلُ الجبل هذا الكهف.

### (٥٣) كلمة شوقي عن حرية المرأة

ولشوقي شعر في حفلة نسائية عظيمة انعقدت تحت رئاسة السيدة هدى شعراوي:

قُلْ للرجال طغى الأسير	طيرُ الجبالِ متى يطير
أوهى جناحيه الحديد	دُ وحزّ ساقيه الحرير
ذهب الجباب بصبره	وأطال حيرته السُفور
هل هيئت درج السما	ء له وهل نص الأثير
وهل استمرّ به الجنا	ح وهم بالنهض الشكير
وسما لمنزله من الدن	يا ومنزله خطير
ومتى تساس به الريا	ض كما تساس به الوكور
أوكّل ما عند الرجا	ل له الخواطب والمهور
والسجن في الأكواخ أو	سجن يُقال له القصور
تالله لو أن الأدي	م جميعه روض ونور
في كل ظل ربوة	وبكل ورفة غدير
وعليه من ذهب سيا	ج أو من الياقوت سور
ما تم من دون السما	ء له على الأرض الحبور
إن السماء جديرة	بالطير وهو بها جدير
هي سرجه المشدود وه	و على أعنتها أمير
حريّة خلق الإنسا	ث لها كما خلق الذكور



نعم، وكلُّ من هاتين الحريتين لا يجوز أن تكون مُطلّقة كما يتوهم بعضهم، بل يجب أن تكون مقيّدة بقيود الشرع، وإلا فسد المجتمع وانتشرت الإباحة، وهذا التقييد بقيود الشرع لا يعني أسر المرأة ولا قصرها في الحجال غير مشتركة في الحياة العامة. ثم يخاطب قاسم بك أمين رحمه الله فيقول له:

يا قاسمُ انظرْ كيفَ سا      رَ الفِكْرُ وانتقلَ الشُّعورُ  
جابتْ قضيتُكَ البلا      دَ كأنَّها مثلُ يسيرِ  
ما الناسُ إلاَّ أوَّلُ      يمضي فيخلفه الأخيرِ

### (٥٤) موشح أندلسي لشوقي

ولشوقي موشح أندلسي في عبد الرحمن الداخل الذي لقبه أبو جعفر المنصور وهو عدوّه بصقر قریش:

مَنْ لَنْضُو يَتَنَزَّى أَلَمَّا      بَرَّحَ الشُّوقَ به في الغَلَسِ  
حَنِّ لِّلْبَانَ وَنَجَى العَلَمَا      أَيْنَ شَرِقُ الأَرْضِ مِنْ أُنْدَلِسِ

\* \* \*

بَلْبُلُ عَلَّمَهُ البَيْنُ البَيَانَ      باتَ في حَبْلِ الشُّجونِ ارْتَبَكَا  
في سماءِ الليلِ مخلوعِ العِنانِ      ضاقتِ الأَرْضُ عليه شَبَكَا  
كلما استوحشَ في ظلِّ الجنانِ      جُنٌّ فاستضحَكَ مِنْ حيثُ بَكَى  
ارتدى بُرُنْسَهُ والتَّتَمَّا      وخطا حُطوةَ شيخِ مُرْعِسِ  
ويرى ذا حَدَبٍ إن جَتَمَّا      فإن ارتدَّ بَدَا ذَا قَعِسِ

ثم يقول:

يا شبابَ الشَّرِقِ عُنوانَ الشُّبابِ      ثمراتِ الحَسَبِ الرُّاكي النَّميرِ  
حَسْبُكُمْ في الكَرَمِ المحضِ اللُّبابِ      سيرةُ تَبَقَى بقاءِ ابْنِي سَميرِ  
في كتابِ الفخرِ «للداخل» بابِ      لم يُلجِهَ مِنْ بَنِي المُلكِ أميرِ  
في الشُّموسِ الزُّهرِ بالشامِ انْتَمَى      ونَمَى الأَقمارِ بالأنْدَلِسِ  
قعدَ الشَّرِقُ عليهم مأتَمَّا      وانثنى العَرَبُ بهم في عُرِسِ

ثم أخذ يسوق قصة بني أمية مع بني العباس، وكيف ثارت بين العائلتين الثارات إلى أن تغلبت العباسية على الأموية، وأخذ بنو العباس يقتلونهم في كل سهل وجبل، فقال:

جَزِيَتْ مَرَوَانُ عَنْ آبَائِهَا	ما أراقوا من دماءٍ ودُموع
وَمِنَ النَّفْسِ وَمِنْ أَهْوَائِهَا	ما يُؤدِّيهِ عن الأَصْلِ الفُروع
خَلَّتِ الأعْوَادُ مِنْ أَسْمَائِهَا	وتغَطَّتْ بالمَصَالِبِ الجُذوع
ظَلَمْتُ حَتَّى أَصَابَتْ أَظْلَمًا	حاصِدَ السيفِ وَبِيءِ المَحْبِسِ
فَطِنًا فِي دَعْوَةِ الآلِ لَمَّا	هَمَسَ الشَّانِي وَمَا لَمْ يَهْمِسِ

قال إن الظالمين من بني أمية وأعاونهم كيزيد بن معاوية والحجاج بن يوسف وغيرهما، قد كانوا السبب فيما لقيه أعتابهم من ظالمين مثلهم من بني العباس، وأعاونهم كأبي العباس السفاح وأبي مسلم الخراساني وغيرهما، وما ظالم إلا سيُبلى بأظلم. ثم ذكر كيف نجا عبد الرحمن بن معاوية سبًا بالفرات ومعه أخوه وهو ولد، فبعد أن خاض الولد وراء أخيه في الماء غلب عليه الخوف، وناداه الجند من عن الشاطئ ليعود وله الأمان، فانخدع بقولهم فرجع فقتلوه وأخوه عبد الرحمن يرى قتله بعينه من الشاطئ الآخر. قال شوقي:

صَحِبَ الدَاخِلَ مِنْ إِخْوَتِهِ	حَدَّثُ خَاصَّ العُغْمَارِ ابْنَ ثَمَانَ
غَلَبَ المَوْجَ عَلَى قَوَّتِهِ	فَكَأَنَّ المَوْجَ مِنْ جِنْدِ الرِّمَانِ
وَإِذَا بِالشَّطِّ مِنْ شِقْوَتِهِ	صَائِحٌ صَاحَ بِهِ: نَلَّتِ الأَمَانَ
فَانْتَنَى مُنْخَدِعًا مُسْتَسَلِمًا	شَاةً اغْتَرَّتْ بِعَهْدِ الأَلْسِ
خَضَبَ الجُنْدُ بِهِ الأَرْضَ دَمًا	وَقُلُوبُ الجُنْدِ كَالصَّخْرِ القَسِيِّ

ثم أتى على قصة عبد الرحمن ونجاته وانسلاله إلى المغرب واختفائه، ثم إجازته إلى الأندلس وغلبته على تلك الأرض بعد أن لقي من الأهوال ما تشيب له ذوائب الأطفال، وكيف صبر وآل به الصبر الجميل إلى الملك، فاستخرج شوقي العبرة اللازمة، ولم يزل في الحكم والمواعظ الشاعر الذي لا يشقُّ له غبار ولا يصطلى له بنار.

أَوْ إِذَا سِنَّتَ حَيَاةً فَالرَّجَا	أَيُّهَا اليائِسُ مُتٌ قَبْلَ المَمَاتِ
إِنْ هِيَ اشْتَدَّتْ وَأَمَلٌ فَرَجَا	لَا يَضِيقُ ذَرْعَكَ عِنْدَ الأَزْمَاتِ

ذكَ الدَاخِلُ لَاقَى مُظْلِمَاتٍ      لَمْ يَكُنْ يَأْمُلُ مِنْهَا مَخْرَجًا  
 قَدْ تَوَلَّى عِزُّهُ وَإِنصِرْمَا      فَمَضَى مِنْ غَدِهِ لَمْ يَبْأَسْ  
 رَامَ بِالمَغْرِبِ مُلْغًا فَرَمَى      أَبْعَدَ العَمْرِ وَأَقْصَى اليَبِيسِ

نعم، كان عبد الرحمن بن معاوية من أفضل رجال الإسلام في عقله وتدبيره وصبره وشدة بأسه، ولكن كان وراءه عظمة اسم بني أمية، ذكر صاحب «أخبار مجموعة» في فتح الأندلس وذكر أمرائها، وهو أقدم تاريخ عربي لها، أنه لما وصلت رُسُلُ عبد الرحمن بن معاوية إلى يوسف بن عبد الرحمن الفهري أمير الأندلس يلتمس منه تمكينه من الإجازة إلى الأندلس والسكن بها، كان أجمع في البداية أن يسمح له بدخولها وانصرف الرُّسُلُ وقد حصلوا على هذا الوعد، ثم ما ساروا أكثر من ساعة حتى سمعوا صائحًا يصيح خلفهم ليتوقفوا، فإذا الصميل بن حاتم بن شمر بن نزي الجوشن الذي كان بمقام الوزير عند الأمير يوسف الفهري، يقول لهم: كُنَّا قد أجبنا دعوة ابن معاوية، ولكننا روينا في هذا الأمر، فوجدنا أن عبد الرحمن بن معاوية هو من قوم لو بال أحدهم في هذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم في بوله، والله إن أول سيف يُسَلُّ عليه هو سيفي. وهكذا انقطع رجاء جماعة عبد الرحمن من ربيعة ومضر في نصرته، وإنما استمالوا اليمانية لما كان في صدورهم من الأحقاد على المضرية.

قال في «أخبار مجموعة» نقلًا عن رسل عبد الرحمن: فألفينا قومًا وغرت صدورهم يتمنون شيئًا يجدون به سبيلًا إلى طلب ثأرهم، ورغبوا في عقد بني أمية بالأندلس، ثم ساق القصة إلى آخرها، وخلصتها أن عبد الرحمن بن معاوية لم يتمكَّن من الأندلس إلا بواسطة عداوة اليمانية للمضرية الذين كانوا جماعة يوسف الفهري، وكان اسم بني أمية مليًا بأن ينهض به مهما كان مهيب الجناح، على أن عبد الرحمن كان جامعًا بين الاسم والفعل.

### (٥٥) أبيات شوقي عن زحلة من لبنان

ولشوقي قصيدة يصف بها زحلة من لبنان، لا نحب أن نختم هذا الكتاب بغير ذِكر بعض أبياتها الرشيقة:

شَيَّعْتُ أَحلامِي بِقَلْبِ بَاكِ      وَلَمَحَّتْ مِنْ طُرُقِ المِلاحِ شِبَاكِ

ومنها:

بنت البقاع وأُمُّ بردونيِّها طيبي كجَلَّقِ واسكبي برداكِ

البردوني هو نهر زحلة.

وِدْمَشْقُ جَنَاتُ النَّعِيمِ وَإِنَّمَا أَلْفَيْتُ سُدَّةَ عَدْنِهِنَّ رَبَّكَ  
قَسَمًا لَوْ انْتَمَتِ الْجَدَاوِلُ وَالرُّبَا لَتَهَلَّلَ الْفَرْدَوْسُ ثُمَّ نَمَاكِ  
مَرَّاكِ مَرَاهُ وَعَيْنُكَ عَيْنُهُ لِمَ يَا زُحَيْلَةُ لَا يَكُونُ أَبَاكِ

ثم يقول:

يَمْشِي إِلَيْكَ اللَّحْظُ فِي الدِّبَاكِ أَوْ فِي الْعَاجِ مِنْ أَيِّ الشُّعَابِ أَتَاكِ  
ضَمَّتْ ذِرَاعَيْهَا الطَّبِيعَةُ رِقَّةً صَنِينَ وَالْحَرَمُونَ فَاحْتَضَنَّاكِ

جبل صنين من أعلى قمم لبنان، وهو مُطلٌّ على زحلة من الغرب، والحرمون هو جبل الشيخ الذي قنته تعلو عن البحر ثلاثة آلاف وخمسمائة متر، وهو يقابل زحلة من جهة الشرق، وبينهما سهل البقاع. ثم يقول:

شَرَفًا عَرُوسَ الْأَرْضِ كُلِّ حَرِيدَةٍ تَحْتَ السَّمَاءِ مِنَ الْبِلَادِ فِدَاكِ  
أُدْبَاؤُكَ الزُّهْرُ الشُّمُوسُ وَلَا أَرَى أَرْضًا تَمَحَّضُ بِالشُّمُوسِ سِوَاكِ

## (٥٦) كلام شوقي عن استقلال سورية وذكرى شهدائها وأولهم يوسف العظمة

وله قصيدة عن استقلال سورية وذكرى شهدائها جاء فيها:

كَأَنَّ اللَّهَ إِذْ قَسَمَ الْمَعَالِي لِأَهْلِ الْوَجَابِ ادَّخَرَ الْكَمَالَ  
تَرَى جِدًّا وَلَسْتَ تَرَى عَلَيْهِمُ وَلُوعًا بِالصِّغَائِرِ وَاشْتِغَالَ  
وَلَيْسُوا أَرْغَدَ الْأَحْيَاءِ عَيْشًا وَلَكِنْ أَنْعَمَ الْأَحْيَاءُ بِآلَا  
إِذَا فَعَلُوا فَخِيرُ النَّاسِ فِعْلًا وَإِنْ قَالُوا فَأَكْرَمُهُمْ مَقَالًا

وإن سألْتَهُمُ الأوطانُ أعطوا  
بني البلدِ الشَّقِيقِ عَزاءَ جَارِ  
قضى بالأُمسِ للأبطالِ حَقًّا  
وأضحى اليومَ بالشهداءِ غالي  
يعظُمُ كلَّ جُهدٍ عبقرِيٍّ  
أكانَ السُّلْمُ أمْ كانَ القِتالاً  
ذَكَرتُ المهرجانَ وقد تَجَلَّى  
ووفدَ المشرِقِينَ وقد تَوَالَى  
تسلَّلَ في الرِّحامِ إليَّ نِضْوُ  
مِنَ الأحرارِ تَحَسَّبُهُ خيالاً  
رسولُ الصابرينَ أَلَمَّ وَهنا  
وبلَّغني التحيَةَ والسُّؤالاً  
دنا مني فناولني كتاباً  
أحسَّتْ راحتايَ له جلالاً  
وجدتُ دمَ الأسودِ عليه مسكاً  
وكانَ الأصلُ في المسكِ الغزالاً  
كأنَّ أساميَّ الأبطالِ فيه  
حوامِمُ على رِقِّ تتالَى  
رُواةُ قصائدي قد رتُّوها  
وغنَّوها الأسنَةَ والنِّصالاً

ثم يقول:

سأذكرُ ما حَيَّيتُ جِدَارَ قَبْرِ  
بظاهرِ جِلْقِ رَكِبِ الرِّمالِ  
مُقيماً ما أقامتْ ميسلونُ  
يذكرُ مَصْرَعِ الأُسْدِ الشِّبالِ  
تغيَّبَ عَظْمَةُ العَظَماتِ فيه  
وأولُ سيِّدِ لَقي النِّبالِ

يذكر يوسف بك العظمة قائد الجيش السوري الذي استشهد في وقعة ميسلون، ثم يقول عنه:

أقامَ نَهَارَه يُلقي وَيلقى  
فكُفِّنَ بالصَّوارِمِ والعوالي  
إذا مرَّتْ به الأجيالُ تترى  
وغيَّبَ حيثُ جالَ وحيثُ صالاً  
سَمِعَتْ لَهَا أزيزاً وأبْتَهالاً  
فلَمَّا زالَ قَرُصُ الشمسِ زالاً

(٥٧) كلمة شوقي عن تمثال نهضة مصر

وله في تمثال نهضة مصر:

جعلتُ حُلاها وتمثالها  
عُيونَ القوافي وأمثالها  
وأرسلتها في سماءِ الخيالِ  
تَجُرُّ على النِّجمِ أذيالها

وإني لَغَرِيدُ هَذِي البِطَاحِ      تَغْدَى جَنَاهَا وَسَلَسَالَهَا  
 ترى مِصرَ كَعْبَةِ أشْعَارِهِ      وَكُلُّ مُعَلَّقَةٍ قَالَهَا  
 وتَلْمَحُ بينَ بيوتِ القَصِيدِ      حِجَالَ العَرُوسِ وَأَحْجَالَهَا  
 أَدَارَ النَّسِيبِ إِلَى حُبِّهَا      وَوَلَى المَدَائِحِ إِجْلَالَهَا

لم يخالف شوقي طريقته في التيه بشعره على نسق المتنبي الذي كان تياً بعبقريته،  
 وليس هذا بوجه الشبه الوحيد بينهما. ثم قال:

فَوَادُ ارْفِعِ السُّتْرَ عن نَهْضَةٍ      تَقْدَمَ جَدُّكَ أَبْطَالَهَا  
 وَرُبُّ امرئٍ لم تَلِدْهُ البِلَادُ      نَمَاهَا وَنَبَّهَ أنْسَالَهَا  
 وليس اللالئُ مَلِكِ البُحُورِ      وَلَكِنَّهَا مَلِكُ مَنْ نَالَهَا  
 وما كَعْلِيٌّ ولا جِيلِهِ      إِذَا عَرَضَتْ مِصرُ أَجْيَالَهَا  
 بَنَوْا دَوْلَةً مِنْ بَنَاتِ الأَسْنَدِ      لَمْ يَشْهَدِ النَيْلُ أَمْثَالَهَا

يقول إن محمد علي وإن لم يكن مصرياً في نسبه، فقد أسس مصر دولة لم يشهد  
 وادي النيل مثلها.

### (٥٨) قصيدة شوقي في عيده الخمسيني

ولما احتفل بعيد شوقي الخمسيني سنة ١٩٢٧، وأنشد الشعراء في ذلك المحفل العظيم  
 القصائد التي شرقت وغربت، أجابهم عليها بهذه القصيدة التي نأخذ من أبياتها ما نجعله  
 مسك الختام لهذا الكتاب الذي أهديناه إلى روحه العبقريّة، وإلى عشاق شعره من أبناء  
 العربية، قال:

مَرَحَبًا بِالرَّبِيعِ فِي رَيَعَانِهِ      وَبأنوارِهِ وَطِيبِ زَمَانِهِ  
 رَفَّتِ الأَرْضُ فِي مَوَاكِبِ آدَا      وَشَبَّ الزَمَانُ فِي مَهْرَجَانِهِ

ومضى في وصف الربيع إلى أن قال:

نَعَمٌ فِي السَّمَاءِ والأَرْضِ شَتَّى      مِنْ معاني الرِّبِيعِ أو الأَحَانِهِ  
 أَيْنَ نُورُ الرِّبِيعِ مِنْ زَهْرِ الشُّعْرِ      عَرِّ إِذَا ما اسْتَوَى على أَفْنَانِهِ

أماتيل من شعر شوقي

سَرْمَدُ الحُسْنِ والبَشَاشَةِ مَهْمَا      تَلْتَمِسُهُ تَجِدُهُ فِي إِيَّانِهِ  
حَسَنٌ فِي أَوَانِهِ كُلُّ شَيْءٍ      وَجَمَالُ القَرِيضِ بَعْدَ أَوَانِهِ  
مَلِكٌ ظِلُّهُ عَلَى رِبْوَةِ الخُلدِ      بِدِ وُكُوسِيئِهِ عَلَى خُلْجَانِهِ  
أَمَرَ اللّهُ بِالْحَقِيقَةِ وَالْحِكْمِ      مِمَّةٍ فَالتَّفَقُّتَا عَلَى صَوْلَجَانِهِ  
لَمْ تَثُرْ أُمَّةٌ إِلَى الحَقِّ إِلَّا      بِهِدَى الشُّعْرِ أَوْ خُطَا شَيْطَانِهِ

وكان لا بد لشوقي من ذكر ملك البلاد في حفلة عيده هذا، فقال:

ظَلَّلْتَنِي عِنَايَةً مِنْ فَوَادِ      ظَلَّلَ اللّهُ عَرشَهُ بِأَمَانِهِ  
وَرَعَانِي رَعَى الإِلَهَ لَهُ الفَارُو      قَ طِفْلاً وَيَوْمَ مَرَجُو شَانِهِ

وقد وصل الفاروق إلى اليوم الذي أشار إليه شوقي بعد تسع سنوات من قوله هذا، وبُويَع الفاروق ملكاً على مصر والسودان موفّقاً منصوراً إن شاء الله، وزاد تيمُّن الناس به نيل وادي النيل استقلاله التامّ لدى استهلال ملكه.

ثم ذكر سعد زغلول فقال:

مَنْبَرُ الحَقِّ فِي أَمَانَةِ سَعْدِ      وَقِيَامُ الأُمُورِ فِي مِيزَانِهِ  
لَمْ يَرِ الشَّرْقُ دَاعِيًا مِثْلَ سَعْدِ      رَجَّهُ مِنْ بِطَاحِهِ وَرَعَانِهِ

